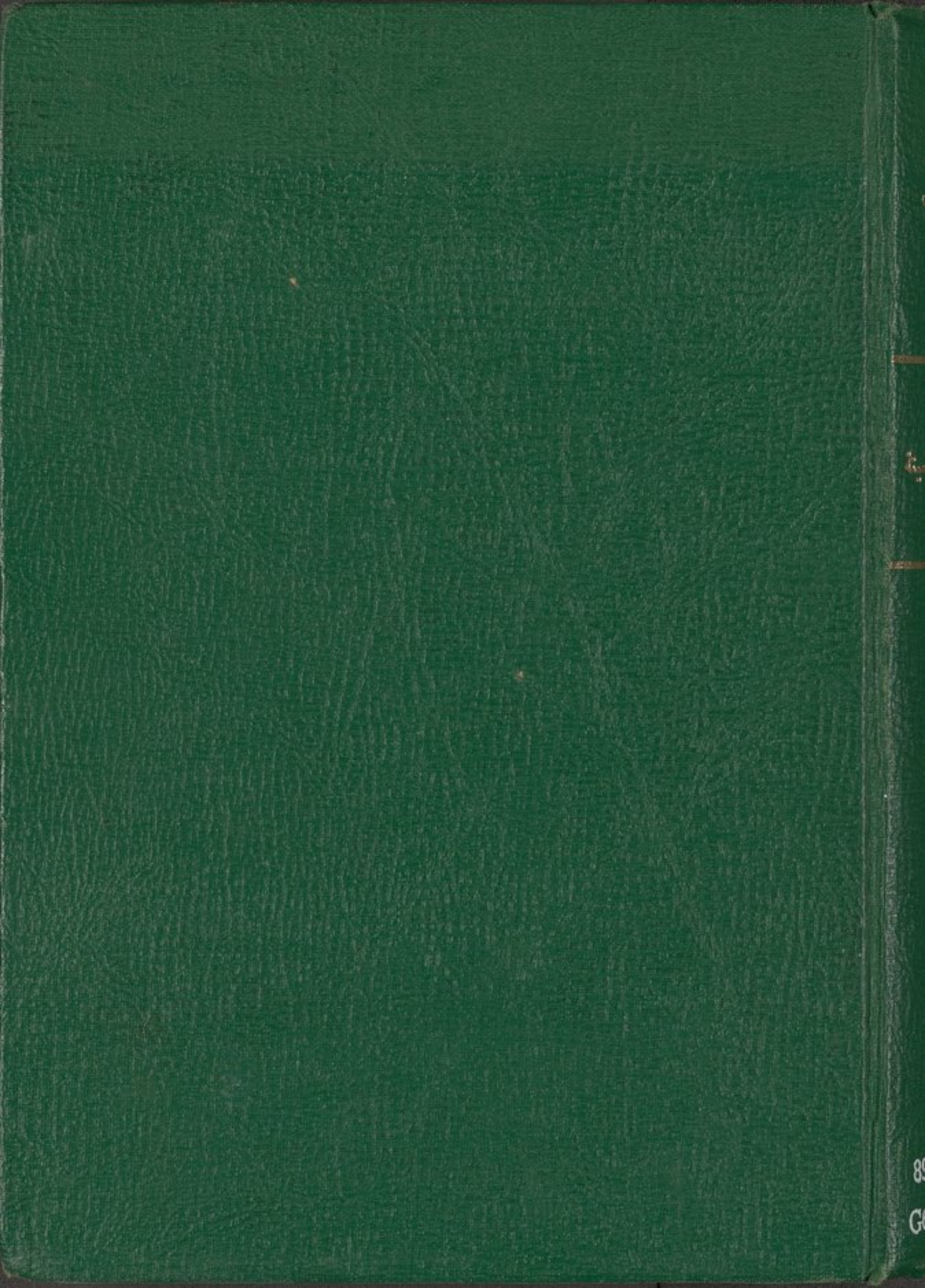




A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بدمشق

نيقولوس جوجول

النَّفْوسُ الْمَلِيَّتُ

ترجمة

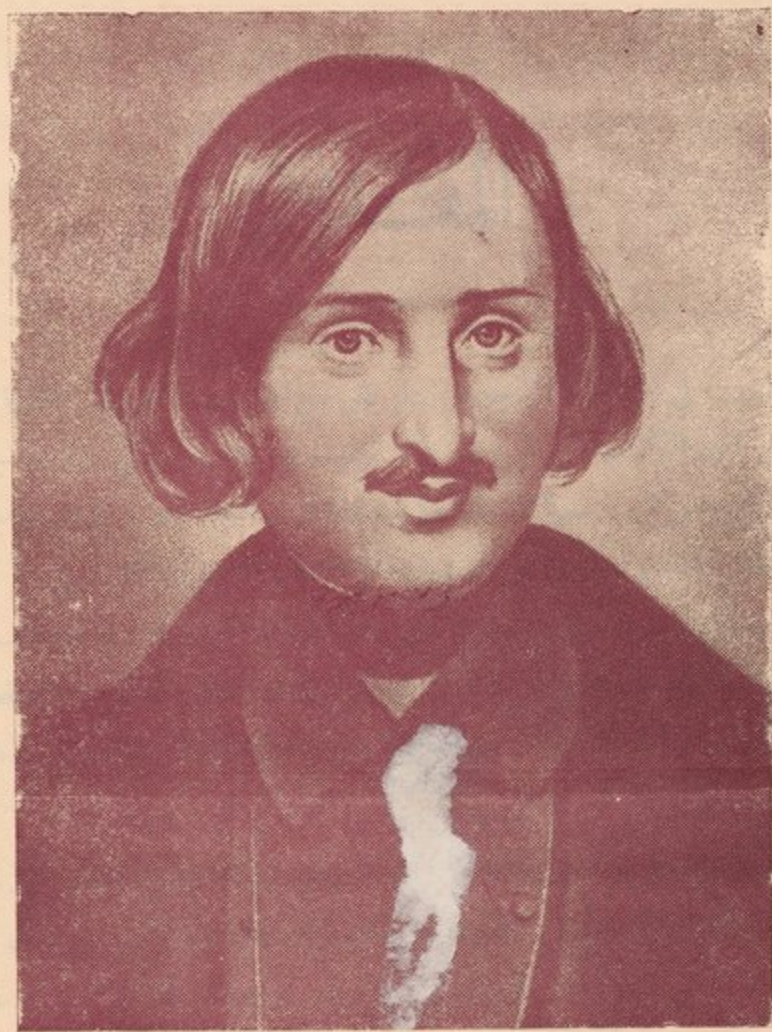
يوسف بنما

انطون صمصى

سلسلة عيون الأدب العالمى

مقوق الترجمة والطبع والنشر والاقباس
محفظة

لدار الیقظة العربیة للتألیف والترجمة والنشر
دمشق - سوریه



نغولا جوبول



نایبہ خانم

المقدمة

لا ريب في ان نيقولاس جوجول لم يلق من الدارسين والمربين الخطوة التي لاقاها كبار الكتاب الروس امثال تولستوي ودستوفسكي وتورجنيف وجوركي وسواهم . ومع ذلك فان مؤلف « النفوس الميتة » و « تاراس بولبا » و « المفتش العام » يستوي على قمة وحده في الادب الروسي الكلاسيكي . وجوجول دون منازع سيد في فن رسم الطبائع البشرية ، في فضائلها ونقائصها ، واعجابنا يجب ان يكون شديداً بالفكر المتفهم الساخر الذي قضى ثلاثة واربعين عاماً مقتنعاً ان مهمته - كما قال - هي دراسة الحياة ، في مدها وجزرها . من خلال البسمة التي يراها الناس والدموع التي لا يرونها .

لقد درس جوجول في مؤلفاته المجتمع الروسي ، وكان بين الكتاب الروس اكثرهم واقعية وابتعاداً عن الصوفية الهوائية . ولد نيقولاس جوجول في التاسع عشر من شهر آذار عام ١٨٠٩ في قرية سوروتشنسك الواقعة على حدود حكومتي بولتوفا وميرغورود . وقد خلد فيما بعد اسم ميرغورود في قصص اشهرها تاراس بولبا . واجداد جوجول ينتمون الى اسرة روسية صغيرة وقد كان احدهم تلميذاً في دير كييف ولحظة سريعة عن ماضي اوكرانيا تسمح

لنا باكتشاف أصول بعض مظاهر طبيعة جوجول من مزاياء عنصره .

ففي القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، بينما كانت روسيا الداخلية تزح تحت العبء الثقيل الذي خلفه لها غزو التتار ، كانت روسيا الغربية تتابع ، في احسن الظروف ، تقدمها العقلي . وفي الوقت الذي كانت فيه موسكو غارقة في ظلمات الجهالة ، كانت مطابع اوكرانيا تخرج اول الكتب . واخيراً قامت اكاديمية كييف التي قدمت فيما بعد الى اكاديمية موسكو اسانذة عمت شهرتهم اوربا .

كانت اوكرانيا - وهي تهمنا بشكل خاص لأن جوجول ابنها - خلال مدة طويلة ، ميدان نزاع بين موسكو في الارثوذكسية وبولونيا الكاثوليكية ، وقد انتصرت فيها الديانة الارثوذكسية نهائياً . ولكن تأثير اليسوعيين ، الذين كانوا منتشرين في بولونيا ، لم يتوار قط .

ولا شك ان اناثية اليسوعيين ورغبتهم في السيطرة التي وصلتهم الى الحرب الدينية كانت اشياء تنفكر لها الانسانية . ولكنهم في نفس الوقت كانوا يملكون ثقافة سيكولوجية لم يكن الروس يعرفون شيئاً عنها . فقد كانوا يدركون اسرار النفس البشرية ودوافعها فاستطاعوا ان يعلموا سكان غربي روسيا اشياء كثيرة عن تحليل النفس الانسانية . وقد انشئت اول مدارس اوكرانيا واكاديمية كييف على غرار المؤسسات المدرسية الكاثوليكية في بولونيا . وكانت برامج الدراسات مأخوذة من البرامج اللاتينية . ولا شك ان جد جوجول عندما دخل الدير تمثل احسن ما في الطبيعة اللاتينية يعني المرونة والحفة وحسن التلاؤم مع الاحداث وروح الواقعية والسخرية ؛ وهي صفات اصبحت فيما بعد من خصائص عبقرية نيقولا س جوجول .

وهذه الصفات الاساسية تميز جوجول عن عملاقي الادب الروسي : تولستوي ودستوفسكي . فقد كتب مؤلف الحرب والسلام ومؤلف « الاخوة كرامازوف » يدماء قلبيهما ودموع عيونهما عن فضائل العرق السلافي ونقائصه وعاشا هذه

الصفات ولم يتحرروا منها حتى الموت ارغم اهتمام تولستوي بالنسامي على نفسه
ورغم صيحات دستوفسكي المتألمة التي عاشت الآلام الروسية .

اما جوجول فقد كان اكثر وضوحاً في تفهمه للامور وأبعد عن الانفعالية .
ومن حسن حظ آثاره الادبية ان الازمة الصوفية واختلال توازنه النفسي لم
يصباه الا في أواخر حياته . فعندما كتب القسم الاول من « النفوس الميتة »
و « المفتش العام » كانت نظراته الساخرة تحوم فوق المخلوقات وأسلوبه
البارع يكشف الجرح ، ويسخر من معاصريه بخفة فائقة يجمع اليها قوة ملاحظة
غريبة . وهو في فنه اكثر واقعية من دستوفسكي اذ انه كان يعرف كيف
يفصل ذاته عن أبطاله فلم يكن يعاني ما يعانيه دستوفسكي من ألم لانه يريد
ابطاله على صورة احسن مما هم عليه

ولم تكن افكاره لتصل الى الجريمة حيث تنكشف القدرة على الندم ودفع
الشن واصلاح ما أفسد . فابطاله يعيشون كما هم في الطبقات الوسطى
من المجتمع ويظهرون في صدق واضح فتتمشى معهم الحياة الروسية
أخاذاً في واقعيتها .

وأبطال جوجول خالدون لانهم روس في جسدهم وروحهم ، في تصرفاتهم
وكلامهم ، وهم ابناء المدن وابناء الريف ، هم الملاكون والعبيد والموظفون ،
انهم الحياة الروسية التي تبدو غير منظمة ولكنها غنية بامكانياتها الكامنة
التي تستيقظ وتنهض بتمهل وتعب عن قسم من قوتها .

لقد وصف جوجول روسيا ، في ماضيها الذي بعشه حياً وحاضرها الذي
يصفه ومستقبلها الذي يستشفه من خلال ضباب الحاضر الكثيف .

ولو لم يكتب جوجول غير « النفوس الميتة » لكفاه ان يترك اثرأ صنع كي
يتحدى الزمن . وقد شبه ناقد كبير هذا الكتاب بقصة سرفانتس الشهيرة « دون
كيشوت » .

فالكاتب الاسباني لم يبعث الى الحياة مائة مليون من ابناء القرون الوسطى
 الحالمين فحسب ، بل احيا ايضا النفس الانسانية التي تندفع في شباب أبدي نحو
 الحلم فيفجؤها الواقع وتترك عنان « روسينانت » وتتجه الى حمار « سانشوبانسا »
 الاقل خطراً وهي متأهبة لأن تعاود قبل مرور جيل - بارزة الطاحونة الهوائية .
 اما النفوس الميتة فهي نفس مائتي مليون من ابناء روسيا البسطاء الاتقياء
 الكرماء المتحمسين ، بل هي نفس الانسانية العاملة بقوة على تكوين ذاتها ، المندفعة
 نحو الحياة تتلقى منها دروساً قاسية ! ومع ذلك فهي مهيئة لان تعاود كل يوم نفس
 الاخطار التي سرعان ما تنساها .

ان اسم بافل ايفانوفتش تستشيكوف سيظل طويلاً يمثل في الادب الروسي
 ما يمثله دون كيشوت في الادب الاسباني رغم اختلاف النموذجين . ولكن
 هناك الى جانب تستشيكوف في النفوس الميتة العديد من الشخصيات التي تقص
 بينها آلاف الكيلومترات والتي ترمز الى النفس الروسية بام مانيلوف
 وسوباكيفتش وكوروبتشكا ونوزدريني وبليوشكين وبتروشكا وتنتينيكوف
 وكونستانجوغلو وموزاروف وسواهم من الريفيين والريفيات .

والآن ، وبعد ان أحطنا بعض الشيء باطار جوجول الواقعي ، نرى أن
 نعطي بعض التواريخ التي تحدد المراحل الزمنية لتطور جوجول العميق قبل
 ان نعالج الازمة الصوفية التي ادت الى موت الكاتب .

بين عام ١٨٢٩ وعام ١٨٣٢ كتب جوجول مجموعتين قصصيتين تحت اسم « سهرات
 على شاطئ الديكانكا » ، ورغم معرفته العميقة بالحياة الاوكرانية فقد طلب الى أمه
 طالباً منها أن توافيه بما تعرف من الاساطير والقصص الاوكرانية . وفي عام ١٨٣٥
 نشر جوجول « ميرغورود » وهي مجموعة تحتوي على اربع قصص منها « تاراس يولبا »
 و « مذكرات بجنون » ، ذلك كله ولم يتجاوز بعد السادسة والعشرين من العمر .
 وفي عام ١٨٣٤ بدأ بمسرحية « المقتش العام » التي مثلت في بطرسبرج عام
 ١٨٣٦ . ومن الجدير بالذكر ان بوشكين هو الذي أعطاه الفكرة . وقد هتف

القيصر الذي كان يحضر العرض الأول : « الجميع ملومون وأنا أولهم » وسافر جوجول الى الخارج عام ١٨٣١ ، فذهب الى ألمانيا وزار ضفاف الرين ووصل سويسرا ، وفي فيفي بدأ بكتابة النفوس الميتة التي تابع كتابتها في باريس . وكان بوشكين ايضاً هو الذي اعطاه الفكرة . وغادر باريس الى روما وكتب فيها بعد « في أعبد ايطاليا فهي وطني الثاني » ومكث في روما أربع سنوات أنهى خلالها القسم الاول من النفوس الميتة . وعاد الى روسيا عام ١٨٤١ ، وفي هذه الفترة ، وكان قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره ، حيث بدأت مأساة حياته الداخلية والدينية .

وكانت الفترة بين عامي ١٨٣٠ - ١٨٤٠ اقسى فترات حياته ، فقد أصيب بالبرداء في روما ، وما كاد يشفى منها حتى فقد احد اقرب أصدقائه اليه الذي مات مسلولاً . وقد سهر على المريض واساءت قلة النوم الى صحته . ولأول مرة بدأ يتحدث في رسائله عن العالم الباطل وقدر الانسان القاسي . ومراسلاته في تلك الآونة مليئة بالتأملات الدينية والفلسفية والصوفية . فقد كان تحول بطيء خفي يعمل في اعماق جوجول ، وجاءت الازمة المالية التي تخبط فيها فزادت الضغث أبالة .

وعاد الى روسيا حزيناً . وكان قد أنهى القسم الاول من النفوس الميتة ، ولكنه أعلن عدم رضاه عن عمله . ونهياً لكتابة القسم الثاني ، حيث قرر أن يدل قراءه على طريق الكمال بعد ان يتسامى هو على ذاته بالقدر الذي يسمح له بتعليم سواه ، وصلى الى الله كي يمنحه القوة على اتمام هذه المهمة المقدسة .

وفي عام ١٨٤٢ عاد الى الخارج ، فأقام على التوالي في جريفنبورغ وإيمس ونيس وأوستند ، وقضى شتاء ١٨٤٥-١٨٤٦ في روما .

ولم يعد يكتب ابدأ تقريباً . ولم يتقدم شيئاً في كتابة القسم الثاني من النفوس الميتة . ذلك انه انصرف الى تحويل نفسه .

ومن مراسلاته يتضح تطوره . فقد كتب الى صديقه مدام سميرنوف :
« ليس لدينا الحق في الكلام عن الاشياء المقدسة قبل ان نطهر ذواتنا .
وستفتقر كلماتنا الى الشرف والقوة إن لم نطهر شفاهنا » .

وبالتدريب تمت في نفس جوجول الرغبة في الذهاب الى القدس « ليفتش عن
القوة والعون » امام قبر المسيح . ونشر قبل ذهابه مذكراته . وفي عام ١٨٤٨
ذهب الى فلسطين وعاد منها ، وقد تغير الى حد لم يعد يعرفه معه اقرب الناس
اليه ، واصبح متديناً . وفي عام ١٨٥٢ ، أي في السنة التي مات فيها ، كان يكتب
تأملات عن « خدمة القديس الآلهي » .

وكان القسم الثاني من النفوس الميتة قد انتهى ولكن جوجول لم يكن
راضياً عنه . فقد تغير فهمه للامور واصبحت فلسفته للحوادث مختلفة ، وتجاوز
جوجول المفكر الفيلسوف جوجول الفنان الملاحظ . ولم يعبر الكتاب عن
الفكرة التي ارادها الفيلسوف ، وللمرة الثانية القى مسودة كتابه في النار قبل
موته بأيام ولم يعثر بين اوراقه الا على مسودة غير كاملة وكان قد أحرق المسودة
للمرة الاولى عام ١٨٤٧

ومات نيقولاس جوجول في ١٢ شباط عام ١٨٥٢ في الثالثة والاربعين
من العمر .

ومأساة جوجول الداخلية ليست فريدة في نوعها فنحن نجد لها في تولستوي
الذي يغادر عائلته معتقداً انه بهذه الصورة يقوم بعمل رمزي بعيد المدى ولعل
هذه الظاهرة احدى ميزات السلافيين .

لقد كتب جوجول عام ١٨٤٧ :

« ان الله خلقتني ولم يخف عني سر الحياة . اني لم اولد من اجل عصر ادبي
معين فمهمتي ابسط واقرب ، وهي المهمة التي تقع على عاتق كل انسان وليس
على عاتقي فقط ، ان هذه المهمة في روحي وفي قيادة حياتي بحزم »

ولكن جوجول لم يتم هذه المهمة ، وبعد ان احرق عام ١٨٥٢ مسودة كتابه دخل الى غرفته واستلقى على سريره وبكى .

لقد بكى لانه لم يستطع ان يكون الداعي الى كلمة الله ولانه لم يستطع في صفحاته الاخيرة ان يعبر عن شرارة الحقيقة الخالدة ، ولم يدل الانسان على الطريق المقدسة المؤدية الى السمو الروحي .

لقد بكى لانه غاص في المادة واخذ منها مادة انتاجه ولم يؤلف « كتاب الروح » .

لقد حقق جوجول ما لم يكن يعتقد انه مهمته ... لقد خلق عصراً في تاريخ الادب ولكنه لم يتسع لديه الوقت ليكون كما اراد فيلسوفاً بل رسولاً .

لقد كان جوجول وما زال سيداً الواقعية الروسية . لقد وصف تولستوي ودستوفسكي وتورجنيف وجوركي ظلمات النفس البشرية كما رأوها من خلال النفس الروسية وبينوا قابلية نهوضها وتطورها . اما جوجول فقد سبقهم الى ذلك فرسائله هي صيحة يأس والم واساطيره الاوكرانية ترفع الستار عن حياة مجهولة . اما نفوسه الميتة فهي نداء الى النفوس الحية العاملة في سبيل مستقبل مجيد للروسيا .

واخيراً فلعل القارئ العربي لا يجد نفسه غريباً في جو النفوس الميتة . ولربما كان يعرف في محيطه ألف بافل ايفانوفتش تشتشيكوف وألف مانيلوف وبيتوخ وآلاف النماذج التي يعجب بها المجتمع الاقطاعي الروسي .

ولعلنا في تعريتنا هذه التحفة الخالدة قد قمنا ببعض ما علينا من واجب نحو ادبنا وثقافتنا بنقل آثار الشوامخ فان وفقنا كان ذلك بعض ما نريد وان جانباً التوفيق - بعضه او كله - فان شفيعنا الجهد الذي لم ندخره والسلام .

يوسف بنا انطون صمصي

دمشق في ١٨ شباط ١٩٥٤

القسم الأول

الفصل الأول

في ذلك اليوم وقفت عربة على نصيب لابس به من الاناقة امام أحد الفنادق في مدينة (ن) الواقعة في إحدى المقاطعات الروسية . وكانت هذه العربة ذات نوابض لا يملك مثلها الا العذاب من رتبة عقيد متقاعد أو رئيس أو ملاك في حوزته حوالي مائة من العبيد وعلى العموم لا يكاد يملكها الا من ينتمي الى الطبقة المعروفة باسم « نبلاء الطابق الاوسط »

لم يكن المسافر جميلاً ولا قبيحاً ، بديناً ولا نحيلاً ، ولم يكن مسناً غيرانه مع ذلك ليس شاباً . ولم يلحظ قدوم هذا المسافر الى المدينة الا فلاحان كان تعليقهما على العربة دون المسافر .

— ما اجل هذه العربة .. كم تدفع ثمناً لها ؟ يمكن الوصول بها الى موسكو ؟

— بلا ريب ! ولكنها لا تستطيع الوصول الى قازان

— آه .. بالطبع لا تستطيع .

ثم سكتا .

وعندما وصلت العربة الى جانب الفندق كان ثمة شاب يمر ، وكان يرتدي سروالاً ابيض قصيراً ضيقاً ، وقميصاً مغلقاً ، فالتفت نحو العربة وامسك بيده قبعته التي كادت الريح ان تقتلعها ثم تابع سيره .

ودخلت العربية باحة الفندق فاستقبل المسافر خادم تشيط لدرجة لا يستطيع المرء ان يتأكد من حقيقة تعبير وجهه . كان هذا الخادم طويلاً نحيلاً يرتدي معطفاً قطنياً فضفاضاً ، وكان ظهره مفوساً بشكل لا تبين فيه نقرته ، واسرع ذلك الخادم حاملاً منشفته بيده الاولى ، اما الثانية فقد كان يحاول بها ان يمس شعره ويرده الى الخلف ، ولم يلبث ان قاد الضيف الى غرفته ، وجو هذه الغرفة كان غوذجاً للجو الخاص بهذا الفندق وبجميع فنادق الريف اطلاقاً ، حيث يتمكن المسافر بروبلين فقط ان يحصل على غرفة هادئة تعج بصنوف الحشرات ذات باب مسدود بقطعة من الاثاث يؤدي الى غرفة اخرى مجاورة يقطنها جار ابرم هادى . ولكنه فضولي الى درجة قصوى ، لا يطلب اكثر من معرفة جميع تفاصيل حياة القادم الجديد .

وكان مظهر الفندق من الخارج منسجماً مع مظهره من الداخل ؛ كانت له واجهة من طابقين : الاول مبني من الآجر الاحمر القاني قذر مسود من تأثير تقلبات الجو ، اما الثاني فقد كان مطلياً باللون الاصفر ، وكان الدور الارضي مقسماً الى دكاكين ومتاجر عرض فيها لجم الحبوب والحبال والسياط ، وكان ثمة غلام يجلس بالقرب من نافذة المتجر الواقع في الزاوية وكان وجهه المحمار يحاكي حمرة السماور النحاسي الموجود الى جانبه يصفر ويخرج منه البخار ، ومن الممكن ان يتوهم المرء هذا الغلام سماور آخر لولا لحيته السوداء التي تحكي الهباب .

وبينما كان المسافر يقلب طرفه في انحاء غرفته جاءته حقايبه ، واوها حقيبة مهترئة من الجلد الابيض - ايدل على ان سفرته ليست السفرة الاولى ، وكان يحمل هذه الحقيبة الخوذي سليفان وهو رجل قصير القامة يرتدي بذلة من الصوف وكان يعينه في حملها الخادم بتروشكا وهو رجل في العقد الثالث من عمره يرتدي ملابس مهترئة يبدو عليها انها كانت تخص سيدة سابقاً ، ثم حمل صندوقاً صغيراً من الخشب الاحمر ودجاجة مشوية ملفوفة بقطعة من الورق الازرق . وعندما اصبح كل شيء في مكانه ذهب سليفان الى الاسطبل ليعتني بخيوله

أما بتروشكا فقد أقام في غرفة بهو الفندق وهو عبارة عن كوخ مظلم . وكان معطفه وكيس حوائجه يجردان على الأرض وكانت رائحة قوية مزعجة تنبعث منها معاً . يحوي هذا الحجر الكتيب على سريري ثلاث قوائم ألصقه بتروشكا بالجدار ووضع فوقه شيئاً قذراً أشبه بالفراش استطاع الحصول عليه من صاحب الفندق . وبينما كان الخدم يتراكون لترتيب الغرفة هبط السيد إلى المائدة الكبيرة المشتركة .

إن كل من تنقل في الريف مسافراً لا بد من أن يعرف هذا النوع من الأبناء . كان بهو ذلك الفندق ذا جدران مطلية بعدة طبقات من الألوان القبيحة المتسخة ، ففي قسمها الأعلى كان هباب المدفأة يعطيها وأما القسم الأسفل فقد كان يحتفظ بآثار ظهور المسافرين وتجار المنطقة الذين كانوا يتناولون الشاي داخل الفندق في أيام المواسم . وأما السقف فقد أسود بالمصباح المدخن الذي فيه وكان لهذا البهو نفس الثريا الشاحبة التي كانت تتراقص شموعها كلما ركض الخادم فوق السجادة المزقة وهو يحمل طبقاً مليئاً بالأكواب الكثيرة . وهناك إلى جانب ذلك لوحات زيتية تغطي الجدران برمتها ، والخلاصة كان يوجد كل ما يمكن مصادفته في أي مكان آخر خلا لوحة كبيرة تمثل حورية يتحدى ثدياها الحبال بضخامتها . إن هذا التشويه في الطبيعة يمكن مصادفته في لوحات تاريخية عديدة لا يعلم أحد من أمر بشرائها من الخارج وجلبها إلى روسيا ومتى كان ذلك . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً منها اشتراه بعض نبلائنا الذين يتذوقون الفن من إيطاليا .

خلع السيد قبعته وشالته الصوفي وهو من الشالات ذات الألوان المتعددة التي تزود بها النساء عادة أزواجهن مع ألف نصيحة لتجنب أذى البرد . أما العزاب فإن الله وحده يعلم من أهدهم تلك الشالات وأما بالنسبة لي فاني لم استعمل شالاً قط . وطلب المسافر عشاء فقدمت له وجبة الفنادق العادية : سماء الملفوف ولحم مبرد يحتفظ به الطهاة أسابيع طويلة للمسافرين ومقانيق بالملفوف وخيار وملح وقطعة من الحلوى .

وبدنا كان المسافر يتناول وجبته طلب من الخادم ان يقص عليه جميع ما يدور حول الفندق من قصص وأحاديث وان يروي له اخبار صاحب الفندق القديم ويبدلي برأيه في المعلم الجديد . وفتف الخادم مجيباً على السؤال الاخير : « انه وغد كبير ياسيدي » . كانت التحدث الى الخدم وممازحتهم عادة جارية في الروسية كما هو الشأن في اوربا . ولكن اسئلة المسافر في هذه المرة لم تكن دون معنى ، ذلك انه استطرد الى السؤال عن حاكم المدينة ورئيس المحكمة والمدعي العام ، ولم ينس موظفاً مهماً دون ان يسأل عنه . ثم اخذ يستعلم بدقة . تنهاية عن ملاكي الاراضي وعدد ما يملكون من العبيد واين يسكنون وهل يترددون كثيراً على المدينة وما هو مزاجهم . ثم سأل عن حالة المنطقة وهل تفشت فيها الوبئة السارية والحمايات القاتلة وغير ذلك ، فهذه الاسئلة الدقيقة المحكمة لم تكن نتاج الفضول وحده .

وكانت حركات السيد تلفت الانظار لا أدري ماذا كان يفعل ليخرج من أنفه ذلك الصوت الذي يشبه النفير كلما وضع عليه منديله .

أحدثت هذه المظاهر اثرها البليغ عند خادام الفندق فكان كلما تحرك السيد انتصب هذا قائماً ورفع شعره إلى الخلف بسرعة وسأله : « أحتاج شيئاً ياسيدي » . وتناول السيد كوباً من القهوة بعد العشاء وجلس على الاربكة واتكأ على وسادة كانت ، حسب التقاليد الروسية في الفنادق الريفية ، أقرب الى القرميد والحجارة منها الى وسادة عادية . وعندما أخذ بالتشاؤب عاد الى غرفته ونام ساعتين فيها . وبعد أن ارتاح أخذ باملاء الورقة المعتادة لاعلام البوليس عن وصوله إلى المدينة . وهذا ما استطاع الخادم أن يتجهاه بعد صعوبة كبيرة عند اجتياز كل حرف :

« بافل ايفانوفيتش تشتشيكوف - ملاك ، مستشار دائرة انتخابية . سبب السفر : قضاء أعمال . »

وخرج بافل ايفانوفيتش تشتشيكوف لزيارة المدينة التي وجدها جميلة جداً لا تقل في شيء عن بقية مدن الريف . كان لون المنازل الحجرية الاصفر فيها يكاد يطغى على لون منازلها الخشبية الرمادي . كان أغلب هذه المنازل يتألف

من طابق أو طابقين وكان بعضها مخفياً في بعض الاحياء في طريق يشبه الحقول
داخل عدد كبير من السياجات . وكان المار يلمح هنالك وهنا كعمكة أو
حذاء معلقاً فوق أحد المتاجر إلى جانب لوحة تحت كتابتها الامطار . وعلى
أحد الحوانيت علقت صورة سراويل زرقاء كتب تحتها « فاسيلي فيدوروف ...
اجنبي » وبالقرب من ذلك الحانوت متجر تعلوه لوحة تمثل طاولة بلنادر ولاعين
أنيقين كتب تحتها : « تمتعوا بمشاهدة المحل » واصطفت طاولات مثقلة بثمار الجوز
أو الصابون أو الحلوى التي تشبه الصابون في بعض الطرقات . وهنا تلمح دكانا
قدرة على بابها صورت سمكة اخترقها شوكة ، وهنالك تلمح أيضاً محلاً كتب
عليه « كساربه » فوق شارة قديمة تمثل الشعار الامبراطوري . واجتاز
تشتشيكوف حديقة المدينة حيث غرست فيها أشجار نخيلة سامقة سموق شجر
الصفصاف ، ولم يستطع ذلك أن يمنع عدداً من الصحف عن ان تكتب بمناسبة
أحد الأعياد : « بفضل رئيس بلديتنا ازدانت مدينتنا بحديقة تظلل أشجارها
الباسقة الكثيفة الميدان المحيط بها وتلطف من حرارة الجو في الأيام القاطنة . »
وأضاف الصحافي ايضاً ان سكان المدينة قد بكوا امتناناً لصنيع حاكمهم .
وانحدر تشتشيكوف مع النهر الذي يسير نحو وسط المدينة بعد أن استعلم
من شرطي عن أقرب طريق يؤدي إلى الكنيسة . وأثناء الطريق انتزع اعلاناً
كان ملصقاً على الحائط كي يتلوه بعد ذلك بهدوء في الفندق ، وأمعن النظر في
حسناء كانت تجتاز الطريق يتبعها شاب بملابس عسكرية يتأبط رزمة صغيرة .
وتفحص جميع الامكنة بدقة كما لو أنه يريد أن ينقشها في ذاكرته . ثم عاد إلى
فندقه وصعد غرفته الخاصة رأساً بصحبة الخادم . وهناك تناول الشاي ثم طلب
شمعة وأخذ يقرأ الاعلان وهو يغمر بعينه . لم يكن فيه ما يثير الاهتمام فهو
اعلان عن تمثيلية لكوتربو وكانت بوبلفكين تمثل دور رولا وزابلوفا دور
كورا ، أما بقية الشخصيات فأدوارها ثانوية . ومع ذلك لم يهمل تشتشيكوف
شيئاً حتى انه قرأ الاسعار ولاحظ ان الاعلان مطبوع في مطبعة الحكومة
الرسمية . ثم قلب الاعلان على وجهه الآخر واللم ير عليه شيئاً طواه باعتناء
ووضعه داخل صندوق كان يودع فيه كل ما يقع تحت يديه . واني لأعتقد ان

النهار قد انتهى بعشاء مؤلف من لحم بقر مبرد وشراب حامض مثلج ورقاد عميق .
وأما اليوم الثاني فقد خصه تششيكوف للزيارات ، فقام بزيارة جميع
كبار موظفي المدينة وبدأ بالحاكم الذي لم يكن هو الآخر ضحاً ولا نحيلاً
وكان يزين صدره بصليب القرية آن . وكانت له طيبة يضرب بها المثل ويعرفه
الجميع براعته الفائقة في التطريز على الاقمشة . وتنازلت زيارته فزار نائب الحاكم
والمدعي العام ورئيس المحكمة ومدير البوليس ورئيس الخزينة وأنا شخصياً
لا أذكر جميع الشخصيات الهامة غير اني أعلم ان تششيكوف لم يهمل منها
أحداً ، فزار مفش الصحة ومهندس المدينة وعندما عاد الى عربته بعد ذلك
أخذ يفكر فيما إذا نسي أحداً ولكنه وجد انه لم ينس أي موظف .

كان كثير المهارة أثناء زيارته في التعلق الى محدثيه فقال للحاكم مثلاً ان
الغريب ليدخل مدينته كما يدخل الجنان وان عجلات العربات تسير فوق
الطرقات وكأنها تسير فوق المحمل وان الوزراء الذين ينصبون أمثاله خليقون
حقاً بالثناء .

وفي أثناء حديثه مع مدير البوليس دس بعض ألفاظ المديح تتعلق بحسن
تنظيم شرطة المدينة ، وأما في حديثه مع نائب الحاكم ورئيس المحكمة فانه تعمد
ان يتظاهر بالخطأ عندما دعا كلاً منهما مرتين بلقب « صاحب السعادة » الأمر
الذي أدخل السرور على قلوبهما .

ونتيجة لهذه الدبلوماسية اللبقة انتهت عليه الدعوات . فدعاه الحاكم في
عشية ذلك اليوم نفسه الى سهرة عائلية كما رجاه باقي الموظفين بالحاح أن يتفضل
بقبول دعوتهم الى مأدبة او الى تناول الشاي أو الى الاشتراك معهم في لعب
الورق . ولم يكن تششيكوف ليتحدث عن نفسه إلا بقدر ، وإذا حدث
وتكلم عن نفسه فبصورة عرضية وتواضع واضح ، وعند ذلك فانه يستعمل
تعابير رافية فهو مثلاً ليس إلا دودة أرض مسكينة لا يستأهل الاهتمام وانه
ناضل في سبيل الحقيقة الامر الذي خلق له أعداء يرغبون في القضاء عليه ، وهو
لا يطمع الآن الى أكثر من ان يجد مدينة يستطيع أن يعيش فيها بدعة
واطمئنان ولهذا فقد رأى انه من الواجب أن يسارع فور وصوله الى تقديم

فروض الاحترام لهم جميعاً .

هذا جميع ما عرف عن القادم الجديد الذي لم يتخلف عن سهرة الحاكم ولقد قضى صاحبنا ساعتين يتهيأ لها ولم يغفل دقيقة واحدة من دقائق هندمته فنام قليلاً من الوقت بعد الطعام ثم استيقظ وطلب ماءً حاراً اخذ يدلك به خديه طويلاً وينفخ فيها ليسهل عملية الدلك ثم اخذ المنشفة من على كاهل الخادم الذي كان يتأمل به دهشة واستغراب ومسح وجهه بشدة وعطس مرتين في وجه خادمه . ووقف بعد ذلك امام المرأة وبدل قميصه ونزع شعرتين صغيرتين من عنقه وارتنى معطفاً احمر اللون وهبط الى عربته التي لم تلبث ان سارت تطوي الطرقات العريضة المضاءة بانوار - عيفة تشع من النوافذ .

كان منزل الحاكم مزداناً بالانوار وكان يقف امام بابه عدد كبير من العربات ودركيان ، وكانت تصل اصوات الحوذية من بعيد والخلاصة ليس ثمة شيء ينقص تلك السهرة .

وعندما دخل الصيادلة وقف برهه مهوراً بوبريق الشموع والمصابيح والزينة النسائية ... كانت الانوار تسيل من جميع الجهات ... والمعاطف السوداء تهتز فتشبه في حركاتها سرباً من الذباب دفعه الحر الى المطبخ فأخذ افراده بالرواح والجمي ، يغمسون قوائمهم الامامية بالسكر ويفركون اجنحتهم بقوائمهم الخلفية ثم يطبسون .

وما كاد تششيكوف يجد وقتاً يتنفس فيه حتى انقض عليه الحاكم وعرفه بزوجه ، وهنا كان بافل ايفانوفتش منسجماً مع الموقف الجديد ، فأثنى على السيدة بتعابير تليق بطبقتها الاجتماعية . وعندما جلس الحضور في اقصى الصالة ليفسحوا المجال للراقصين وقف تششيكوف واضعاً يديه خلف ظهره يتأمل فيهم . كانت هناك سيدات أنيقات جداً اخترن ملابسهن من احداث الانبياء وبجائهن اخريات اكتفين بالازياء المتواضعة الرائجة في مدينتهن الصغيرة .
واما الرجال فكانوا صنفين كالعادة بعضهم نحيل يحوم غالبه حول النساء والبعض الآخر كان لايهتوق في شيء عن رجال الطبقة الراقية في بطرسبرج ، ذلك انه كان لكل منهم نفس السالفين المنسقين ونفس الوجوه الحليقة ونفس

اللامبالاة بالنساء اللواتي كن يضحكن منهم وهم يحدثونهن بالفرنسية كما لو كانوا حقيقة في بطرسبرج .

وأما الصنف الثاني فكان ينتسب اليه الرجال الضخام من اصحاب الكروش وكان هؤلاء يحتقرون النساء وينتظرون بصبر فارغ الساعة التي يعد فيها الخادم المائدة الخضراء ليلعبوا الويست . كانت وجوههم مستديرة ممتلئة وكان على وجه هذا ندب قديم وعلى وجه ذلك اثر بسيط للجذري وأما شعورهم فمرتبة على طريقة الفرشاة او الطرة او طريقة « لتحملي الأبالسة » كما يقول الفرنسيون .

ان اصحاب الكروش لأعظم الموظفين قدراً فهم — وبالأأسف — اقدر على تصريف امورهم من النحلاء ، اذ انه لا يستخدم احد نجياً الا اذا اعياء التفتيش عن بطين . ولذلك فان النجيل يغير مركزه بسهولة اذ ان وجوده هوئي غير مركز بعكس البطناء الذين لا يحبون التبديل ، فاذا وضعوا اقدامهم في مكان ما بقوا فيه أقوىاء مفعمين بالامل وسواء أثبت مركزهم ام تداعى فانهم لا يقعون ابداً ، ثم انهم الى جانب ذلك لا يحبون الفخامة كالهنزيلين فلابسهم اقل اناقة من الآخرين ولكن محافظهم تنعم بغزارة الهية .

وفي اقل من ثلاث سنوات لا يبقى ثمة شيء للنجيل غير رهنه في حين ان البطين ، دون بذل اي جهد ، يصبح مالكا لبنت صغير في نهاية المدينة يشتريه باسم زوجته ثم .. ثم . . . والخلاصة فانه يصبح شيئاً بعد شيء مالكا لقرية ، واخيراً وبعد ان يخدم البطناء الله والقيصر محوطين بالاجلال والاحترام يغادرون وظائفهم وقد صاروا ملاكين من طبقة النبلاء الروس المضيفين ، ووفاء منهم للتقاليد الروسية القيمة يصبح ورثاؤهم هنزيلين يبددون ماورثوه من الآباء .

بذلك كان يفكر تشتشيكوف وهو يراقب الراقصين . ثم تابع البطناء بانظاره فلاحظ بينهم بعض وجوه الاصدقاء ، فلقد رأى المدعي العام بجوابه الكثيفة السوداء وهو رجل رزين صموت يغمز بعينه اليسرى على الدوام كما لو كان يقول لجاره : « تعال هنا يا صديقي لدي نكات اود ان اقصها عليك »

كما شاهد ايضاً مدير البريد وهو قصير ظريف فيلسوف ورأى رئيس المحكمة

اللطيف الحكيم ، وقام الجميع بتحية بطلنا كصديق قديم فرد عليهم بتحية لطيفة ثم قدم لملاك لطيف ودود يدعى ماينلوف وآخرون يدعى سوبا كفيفيتش الذي سرعان ما داس على قدمه ثم هتف « عذراً ؟ وناوله الاصدقاء ورقاً ليشاركهم لعبة الريس فآخذها وحياهم بادب جم .

جلس الجميع حول المائدة ولم يغادروها الا عندما حان موعد العشاء وانقطعت الاحاديث كالعادة عندما ينشط المرء للقيام بعمل هام .

ورغم ان مدير البريد كان رجلاً ثرياً فان وجهه اتخذ طابع التفكير فعرض على شفته السفلى وظل محافظاً على وضعه هذا طيلة مدة اللعب .

كان يضرب الطاولة بشدة عندما يرمي بالورقة ويصرخ قائلاً : « اذهبي ايتها البوبادبا (زوجة الكاهن) وذلك اذا كانت الورقة ملكة ، واما اذا كانت ملكاً فانه يصرخ « اذهب يا فلاح تامبوف » وكان رئيس المحكمة يجيبه لدى كل صرخة كأنه صداد الامين : « سأجده » او « سأجدها » من شارييه « وتعالى اصوات اخرى : « نعم .. لا .. تابع .. الديناري .. الكوبا .. بيكنتسيا ، بيكنتراس ، بتشوروبش ، بتشورا » وهي اسماء اطلقها اللاعبون على الورق البستوني ، وكالعادة كانت تتعالى المناقشات بعد اللعب وكان تشتشيكوف كثير الحرص في تعابيره فكان يقول لرفاقه « لي الشرف ان اقطع ورقة الاثنين التي رميتموها » او « تفضلوا بالقطع » ولم يكن يسمح لنفسه قط ان يقول بجفاء « اقطع » وقدم للجميع علبة افائفه الفضية المعطرة ، وقد اثار اهتمامه بشكل خاص الملا كان ماينلوف وسوبا كفيفيتش فاستعلم على الفور عنها من رئيس المحكمة ومدير البريد وكانت اسئلته تنم عن رجل يعرف ماذا يريد وان يذهب ، وسأل عن اسميهما ولقبيهما وكما يسكنان من العبيد وما هو وضع املاكهما .

وهكذا كان سلوك تشتشيكوف لبقاً بشكل أصبح معه في بضعة أيام صديقاً للجميع . وقد جن به حباً : الملا كان ماينلوف وعندما اترقا في ذلك المساء ضغط على يده بحرارة ورجاه بالخاف أن يشرفه بزيارته وقال ان اراضيه لا تبعد عن المدينة اكثر من خمسة عشر فرسناً (مقياس روسي يعادل ١٠٦٧ متراً) فابتسم تشتشيكوف وأجاب وهو يحني رأسه قليلاً انه يعتبر ذلك واجباً مقدساً . وقال

له سوباليفيتش وهو يفحص الارض بقدمه الهائلة « تعال عندي أيضاً » . وفي اليوم التالي صادف ، أثناء مأدبة غداء عند مدير البوليس ، ملاكاً يدعى نوزدريف ، وكان رجلاً حيويًا في الثلاثين من عمره ما لبث أن رفع الكلفة سريعاً مع تششيكوف ، وكان يتحدث دون كلفة مع المدعي العام ومدير البوليس الذي كان يراقب حركاته أثناء الطعام واللعب رغم مظاهر الصداقة التي بينهما . وزار في اليوم الثاني رئيس المحكمة فاستقبله هذا بثوب مليء ببقع الدهن وحضر بعد ذلك سلسلة من المآدب عند نائب الحاكم والمدعي العام ورئيس البلدية . ولم يكن تششيكوف ليبقى ساعة واحدة في فندقه ولم يكن ليعود إلى غرفته الا لينام وهو يعرف كيف يلبس لكل حالة لبوسها ويسلك سلوك الرجل المهذب . وكان يحسن الحديث في كل موضوع سواء أكان الحديث عن الجياد أو الملاحظات القضائية أو لعب البليارد أو الطهي أو الجمارك فانه كان يدلي برأي متزن حكيم كما كانت عيناه بعض الاحايين يتفرق منها الدموع أثناء الحديث .

اتفق الجميع على الثناء عليه فقال الحاكم : « انه انسان شريف » وقال المدعي العام « انه لرجل قدير » وتحدث عنه قائد الدرك فقال انه عالم . واما رئيس المحكمة فقال « هو رجل محترم مثقف » وأدلى مدير البوليس « انه محترم ومحجب » وقالت زوجة المدير : « هو رجل وفي ومحجب كثيراً » . بل حتى سوباليفيتش نفسه الذي قلما يذكر الناس بخير قال لزوجته فجأة وهو يرقد بجانبها بعد السهرة التي قضاها عند الحاكم « لقد تعرفت هذا المساء على رجل يدعى بافل ايفانوفيتش تششيكوف .. وهو انسان لطيف جداً ايا روعي الصغيرة » .

فهمت زوجته : « آه ! » ثم لكزته برجلها . ودام هذا الرأي الحسن في بطننا حتى ذلك اليوم الذي طلع فيه بمشروع اثار الاستغراب العام في المدينة .

الفصل الثاني

وها قد مر اسبوع على قدوم تششيكوف المدينة ، وهاهي ذي الأمسيات تنسارع والليالي تتتابع دون توقف عندما قطع المسافر زيارته خارج المقاطعة . انه يريد الان ان يذهب ليرى املاك مانيلوف وسوبا كييفتش وفاء بعهده ، ترى كم من البواعث تدفع به لهذه التقلات المتتابعة ؟ أهى مشاغل جديدة ام عاطفية ام ماذا ؟ ولعل القارىء يلارب قد ساءل ساءله اذا كان لديها الصبر الكافى لانتظار تطور هذه النفس !

وفى صباح اليوم التالي استطاع الخوذي سليقان ان ينظم بسرعة كل شيء ، بينما ظل بيتروشكا فى الفندق للحراسة ، ولن يضع القارىء شيئاً كي يعرف عبدي بطلنا جيداً ، فهذه الشخصيات ليست مهمة بالطبع ، بل هي شخصيات ثانوية وقلمنا تأتى فى قصتنا ، غير ان الكاتب ليعشق الدقة فى كل شيء مع العلم ان مثل هذه الحاصة يمتاز بها الالمان اكثر من الروس ، او ليس ذلك صحيحاً ؟ كل هذا بصرف النظر عن انها صنعت بسرعة ، وقد عرف القارىء الآن كساء بيتروشكا الفضفاض وانفه الضخم وشفاهه الغليظة ، فهو اقل من ثرثار على اية حال ويتنفس على غرار الاشراف المثقفين ، اريد ان اقول بانه يجب المطالعة كثيراً ويهم يتكامل نفسه فى حوادث الحب والابجدية ، وكتب الصلوات ، انه

يلتهم جميع هذه الاشياء بانتباه واحد ، والجهد الذي يبذله ، هو نفسه فيما لو عالج موضوعاً في الكيمياء ، لقد اخذ هذا الرجل ليس بما يقرأ بل بالقراءة نفسها : « هاهي ذي الرسائل وتلك هي الفاظها التي لا يعرف غير ابليس ماذا تريدان تقول ! » وهذه الكتب لها مكانها في السرير في ذلك الفراش الذي يبدو ان التمارين قد ردت كالباستيل ، ان كل هذا الميل الى القراءة يأتي من جهة وهناك من جهة ثانية خاصية اخرى لبيتروشكا وهي النوم دون نض الثياب الامر الذي ينيله فائدة جديدة ، الا وهي نقل راحته الخاصة مع جوه الخاص اينما اتجه وسار وهكذا فمنذ ان يجلس في عرفة عارية فانها حالاً تبدأ بتنفس هذا « المتضمن » للقطع التي عيش عليها منذ شهر .

كان تشتشيكوف سريع الغم احياناً ، وفي احيان اخرى كان يتبع اهواءه ونزواته بشدة ، ففي كل صباح يندس انفه باحثاً بين ذرات الهواء النقي ، ويعبس بحاجبيه ، وكان الى جانب ذلك يهز برأسه ويصرخ « ان الشيطان قد اتى بك يا صديقي ، ماهذا العرق المتفصد منك ، اذهب حالا الى الحمام . »

ولا يرد بيتروشكا على ذلك مطلقاً غير انه كان يبحث بحماس شديد عن عمل يشغل به نفسه فينظف رداء سيده او يرتب ماتقع يده عليه ، ترى ماذا تكون انطباعاته عندما بصمت هكذا ؟ ان الله وحده هو الذي يعرف ما يدور في خلد عبد وبخه سيده ! وهو بلامرء سيقول « انه لديك من الجرأة ما يجعلك تكرر لي اربعين مرة نفس الاشياء » ذلكم هو مانضيفه هذه المرة لبيتروشكا .

واما السائق سليفان فشخص آخر . . غير انني لأخجل من نفسي حقاً اذ اضيع على القارئ وقته لاجل اشخاص دون ومن طبقة وضيفة ، ذلك ان ما يختص بمثل هذه التفاهات لا يهمني في شيء الا نادراً ، ولكن الرجل الروسي هكذا تم تكوينه ، انه ليعشق الانفصال عن كل ما هو دونه مرتبة اجتماعية ، ولا يكون الا في محل ارفع منه ، ويفخر ايضا بانه يحافظ على علاقاته الاجتماعية

بهز قبعة بسيطة لكونت اورانس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لاجل
بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لمثل نصائح البلاط ان نتنازل للمعرفة
ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوة الدسائس ، ليس من نصيبهم
بالطبع الا نظرة احتقار من القاريء او ما هو أردأ من ذلك ، اعني السيورقياً
منه دون اي اختلاف عن مشية القتاتل ، اجل كل هذا محزن جداً ، ولكن
فلندعه ولنعد الى تششيكوف !

فانه بعد ان اعطى تعليماته الضرورية لم يلبث ان راوده النعاس فنام ثم
استيقظ في الصباح الباكر ، واخذ يغتسل من انمخيه حتى ذؤابة رأسه ، وهو
العمل الذي لا يقوم به الايام الآحاد ، وهذا يعني ان اليوم يوم احد بطبيعة الحال
ثم حلق ذقنه بعد ذلك جيداً ولمع عذاريه حتى اشبهها قماش الساتان الاطلس
وارتدى رداء من الفرو ومعطفاً اجمر اللون وهبط درجات الفندق ، واندرجت
العربة فوق بلاط باحة الفندق محدثة دويماً ضاحجاً ، وشاعد صاحباقساً في الطريق
فنزح له قبعته ، ومد بعض الاشقياء القذرين ايديهم صائحين « احسن لليتامى »
وتعلق احدهم بالعربة من الخلف ، فساط الحوذني الجياد فانطلقت عجلاتها الخفيفة
الليئة بسرعة قافزة فوق الحجارة .

لاحظ تششيكوف بسرور الحاجز الاخير الذي يشير الى ان المسافرين
قد خرجوا نهائياً من المنطقة ، لقد تحمل بشجاعة امتع المزعجات الاخيرة التي
آلمت رأسه ، وانتهى اخيراً الطريق الوعر كمصير بقية الاشياء . لقد غادر
تلك المدينة بعد لأي وعناء وبدا الحقل أمامه في ثوبه الاعتيادي ، تلاح من
الارض واشجار من الصنوبر ، حشائش مخطوطة صغيرة ونباتات وجذوع
اشجار ، وقرية بعيدة هناك تبدو بأسطحها الرمادية ككتل من الحطب
المصفوف بدقة . وشاهد بعض الفلاحين يتشاءبون بكسل وقد جلسوا قرب
ابواب دكاكينهم ، بينما بدا على النوافذ ظل الفلاحين بأحزمتهم المربوطة على

بطونهم . ولقد كان جميع هؤلاء ، قرب المنزل الحشبي ، و كان ثمة عجل يتلفت
وخنزير يهز بوزة بشراته .

كان تشتشيكوف قد قطع (الفرست) الخامس عشر عندما فكر بان
مدينة مانيلوف يجب ان تكون في ذلك المكان . غير ان العربية كانت تسير
حديثاً دون انقطاع . وما هو ذا (الفرست) السادس عشر و ... ليس ثمة
مدينة . واخيراً استطاع تشتشيكوف ان يسأل اثنين من الفلاحين كانوا يمران
بالقرب منه :

.. مدينة زامانيلوفكا اهي بعيدة عن هنا ؟

وخلع الفلاحان قبعتيهما واجاب احدهما و كانت له ذقن تفيد انه الاذكي :

- افي اعرف مانيلوفكا ولا اعرف زامانيلوفكا !

- هذا حسن وابن توجد هذه الـ (مانيلوفكا) .

- على مسيرة (فرست) واحد من هنا ويحسن ان تنعطف نحو الجهة
اليمنى . اكرر عليك باني اعرف مانيلوفكا لازامانيلوفكا . وعلى القلة هناك
تجد بيتاً مبنياً من الحجارة له واجهتان ويقطنه السيد ، هل فهمت ؟

واذابت العربية من جديد (فرستاً) آخر باحثه عن مانيلوفكا . وبعد
مضي (فرست) ثان انعطفت الطريق واخذت وجهة جديدة مستوعرة ...
وانتهى (فرست) فائنان فتلاثة وما من شيء يدل على وجود مانيلوفكا .
كل هذا جعل تشتشيكوف يحكم بانه عندما يؤكّد صديق لصديقه بانه يقطن
على مبعده خمسة عشر (فرستاً) فيمكنه ان يضاعف هذا الرقم بكل بساطة .

لم يكن في مدينة مانيلوفكا ثمة شيء بارز ، و كان منزل السيد مبنياً فوق
مرتفع من الارض تمر به الرياح من شتى الجهات . و كانت الارض قرب ذلك
المنزل معشوشبة وقد ارتفع فوقها زهر الزنخوت الابيض والطلح الاصفر
وبعض اشجار السندر ، وعرائش متشابكة ألقت سقفاً اخضر فوق الاعمدة
الرفيعة التي تساعدها على التعرّيش فبدت « كهيكل منعزل للتأملات » وامتد

غدير في المنحدر اخضوضرت ضفتاه وانتظمت حوله الحقول المزينة التي تخص
الملاك الروسين . وفي اسفل هذا المرتفع وفي نفس تلك الحقول رصعت منازل
خشبية اللون كانت دوماً مثاراً لفضول الراقي عند بطلنا ! انها لتجاوز
المائتين عدداً وليس بينها من شجرة او عشب او اي كتلة او لوح او جسر .

وكان يبعث الحياة في ذلك المنظر اثنتان من النساء شمرا تنورتيهما وهما
منحنيتان وقد وصل الماء حتى ركبتيهما وأمسكتا بمجهدين حبلاً صغيراً ممزقاً
ربطتا به سرطعائين وسمكة . وقد تشاجرتا مع بعضهما وأخذت الاولى بالصياح
خلف الثانية . وارسم في البعيد حرش غامض ذو لون اخضر . كان الوقت قد
اكمد وكاب حتى أشبه فرقة من الخفراء التابعين لجنود الامن والسلامة الذين
لا يشملون الا في كل أحد . ويجدر بنا الا ننسى الديك ايضاً لان صياحه الرفيع
يشير دوماً إلى تبدل الزمان وتراخيه ، وبالرغم من توزع الساعات على نسب
واحدة فانه يصرخ اكثر من المعتاد ويضرب بجناحيه في عنف شديد .

وشاهد تشتشيكوف اخيراً سيد المنزل فوق الافريز بردائه الاخضر ، وقد
فرش يده فوق جبهته ليرى العربية القادمة ، وبينما كانت تشتشيكوف يقترب
كانت عينها مانيلوف تلمعان وابتناسمته تزداد عرضاً . وهتف أخيراً : « بافل
ايفانوفيتش انك ما زلت تذكرنا ! » والتجم الصديقات في عناق قوي ثم قاد
مانيلوف ضيفه إلى قاعة الاستقبال مجتازاً الدهليز وغرفة الطعام .

ولنتهز الآن بعض هذه اللحظات لننتحدث قليلاً عن سيد المنزل . وان
الكاتب ليعلم بان هذا ليس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمي
بالوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه
السوداوتان تشعان باللهب وأما حاجباه فقد لزا إلى بعضهما بينما كانت الغضون
تحفر جبهته . وارتاح رداؤه الاحمر بتراخ فوق كاهليه ، وكل هذا الذي تقدم
انما هو مجرد مدخل لوصفه . غير ان الذين يشبهون مانيلوف كثيرون بل يستحيل

عدم . ولكن فلنركز انتباهنا ولنوضح الخطوط الأكثر نعية وغموضاً
 ولنحدد علومنا بالمشاهدة . ان الله هو وحده الذي يستطيع وحف أخلاق
 مانيلوف . ان من الأشخاص مالا يشبه لا هذا ولا ذلك ، انهم لبسوا مثل
 « بوغدان في المدينة أو مثل سيابفان في القرية » كما يقول الروسيون . ومانيلوف
 إنما ينتمي الى هذا الجنس من الناس . ان وجه هذا الرجل لا ينقصه الهوى ،
 هو أشقر الشعر بعينين زرقاوتين ، وسحره في حلاوة العسل ، وان كل حركة
 من حركاته تنضح بالجمال الشهي ، وأما ضحكته فكلها اغواء . كان عندما يراه
 المشاهد لأول وهلة يقول في الحال « يا للرجل الجميل اللطيف ! » وبعد دقيقة
 واحدة فقط لا يكاد يقول شيئاً على الإطلاق ، ولكنه بعد الدقيقة الثالثة
 يصرخ بلء قوته : « انما الشيطان وحده يعلم كم يساوي هذا الانسان ! » ذلك
 ان حزنا - قاتلا يعتريك إذا مكثت بجانبه . انه لا يقوى على التفوه بتعبير يدل
 على الحياة كما يستطيع الاحياء وحدهم أن يفعلوا ذلك ، ثم انه لكل هواه :
 فهذا يحب صيد الارانب وذاك يخال نفسه يتعشق الموسيقى ويفهمها بعمق
 وهناك آخرون يحبون الغذاء الشهي ويرغبون في الظهور قبل كل شيء ، أو يحلمون
 بالتزدهن والى جانبهم ضابط مساعد أمام انظار الاصدقاء المعروفين والمجهولين ،
 أو تلهمهم رغبة الربح في الميسر أو يأملون في ان يصبحوا مفتشين في سكك الحديد
 أو سائفين ... بلى لكل هواه . غير ان مانيلوف ليس له هوى بالذات . ففي
 منزله يتحدثون قليلا ويفكرون ويتأملون كثيراً ، ولكن بماذا ؟ ... هذا
 مالا يستطيع مخلوق ان يجيب عليه . فهو لا يهتم بأعماله ولا يذهب الى حقوله ،
 وكانت أملاكه مع ذلك تتقلب بين الربح والخسارة . وكان عندما يقول له
 وكيله : « أيها السيد اننا بحاجة الى كيت وكيت » يجيب بارتقاء : « حسناً ...
 لا بأس » ويتابع تدخين غليونه كضابط متواضع لطيف مثقف ويردد من جديد :
 « حسناً ... لا بأس » وعندما يأتيه أحد فلاحيه ليقول له وهو يحك برأسه :
 « أيها السيد امنحني يوم عطلة كي اسعى لربح بعض المال إذ ان الضرائب ثقيلة »

كان يجيبه وهو يدخن على عادته : « فلتذهب ... » ولم يكن ليخطر بباله قط ان عبده الفن قد ذهب ليسكر . كان يتأمل احسانا في المستقبل ويفكر في الفائدة التي يجنيها من بناء جسر حجري تقام على جانبيه الحوانيت لبيع حوائج الفلاحين الضرورية ... وعند ذلك تغوص عيناه برضى وجبور فيبدو وكأنه يعاني آخر سكرات الموت ، وبطبيعة الحال فان هذه المشاريع تظل في رأسه مجرد مشاريع .

وفي غرفة عمله يوجد كتاب مشار فيه دوماً الى أن صاحبه قد وصل حتى الصفحة الرابعة عشر التي قرأها منذ اكثر من سنتين . أما داخل البيت فثمة شيء ينقصه ، إذ ان مقاعد الصالة المتسعة قد نجتدت بحريز قديم جميل ولكن الخطأ ليس هنا بل هو في وجود مقعدين بلا تنجيد ، فكان الى جانب ذلك يخاطب ضيوفه منذ عدة سنين بهذه العبارة « لا تجلسوا هناك فالمقعدان لم ينجدا بعد » وهناك ايضاً بعض الغرف غير مؤثثة اطلاقاً ؛ هذا وفي الاسابيع التي تلت زفافه كانت هذه العبارة دوماً تتكرر بالذات : « ياروحي الصغيرة غداً يجب أن نشتري ما نؤثث به هذه الغرف » . وهناك شمعدان باذخ بثلاث شموعات كبيرة الجرم ، وترس يهر الانظار بتعاريقه الملمعة كان يزين مائدة غرفة الطعام ، ولكن بالقرب منه لم يلحظ لا مانيلوف ولا زوجه ولا خدمه وجود شمعدان آخر كسبح مقعد . وأما زوجة مانيلوف فقد كانت ... ولكن لا ، لا يجب ان نلح هنا على وصفها ، فلقد كان الزوجان سعيدين جداً . وبالرغم من مرور سنوات ثمان على زفافهما فقد كانا يقدمان لبعضهما الهدايا مثل شيء من الاطعمة « ياروحي الصغيرة ، افتحي فمك واطبقي عينيك » هكذا ، وبمثل هذه العبارة كان يقول واحدهما للآخر بصوت بمطوط . وحينئذ يفغر الفم بوساعة خفيفة ليحظى بقطعة من التفاح أو من الفواكه الاخرى . واما أيام الاحاد فهي خصبة بالمفاجئات ؛ مثال ذلك انه يقدم فيها غلاف للمسواك مزين بلؤلؤة دقيقة .

وفي الغالب ، عندما يجلسان في الصالة ، وفي نفس اللحظة يترك الاول غليونه والثاني حيا كته ، وتتحد شفتهما في قبلة طويلة ، طويلة جداً لدرجة ان السيكار الصغير يجد في بعض الاحايين متسعاً من الوقت لاثارة الحريق . ويوجد ، بطبيعة الحال ، في ذلك المنزل ، شيء آخر للعمل غير العناق وتقديم الهدايا الصغيرة ، وإلا فلم هذه الضجة وهذا المرح في المطبخ ؟ ولماذا تكون حافظة المأكولات دوماً فارغة ؟ ولماذا تسرق الخادم معلمها بكل هدوء وبساطة ؟ لماذا غير انها أسئلة كثيرة الغرابة لاجل النخبة الممتازة من الذوات . النخبة ؟ ولذلك كان يستدعى اولئك الذين تعلموا الفرنسية بالمعاش ، وهي اللغة الضرورية للحفظ السعيد والبيانو الذي يجعل الساعات تمر سعيدة مع الزوج الجديد ، وكانا يتسليان بزرد كيس النقود أو بأشياء أخرى ، كهدايا عيد رأس السنة . غير ان المنهاج قد اختلف في الآونة الاخيرة لانه يكلف كثيراً من الجهود والوقت لمعرفة ادارة الدخل .

ولنعد الآن الى تشتشيكوف ، فانه منذ لحظات قليلة اخذ بالتجادل مع مانيلوف أمام الباب في من سيمر منه قبل الآخر . قال تشتشيكوف :
- عفوك ، سأمر خلفك إذا تفضلت فسمحت . فأجابه مانيلوف وهو يشير الى الباب .
- محال يا بافل ايفانوفيتش .

- ولكن ارجوك ، ادخل ولا ترعج نفسك .
- آه ! لا ! ألف معذرة ، ان ذلك ليتعذر علي مع رجل له مثل مرتبتك وقيمتك .

- انت ، عن اي قيمة تتحدث ؟ ارجوك تفضل بالمرور .
- تفضل قبلي اذن ...

- لماذا ؟ ... فأجاب مانيلوف بضحكة حبيبة :
- هكذا ...

ومر الصديقان أخيراً معاً أولهما بجانب الثاني .

— اسمع لي انت اقدم لك زوجتي ... ياروحي الصغيرة ، هو ذا بافل ايفانوفيتش .

كانت مانيلوفاً جميلة تقريباً في ثوبها المنزلي المصنوع من الحرير وكان صوتها الباهت منسجماً مع لون وجهها . وكانت ترمي بيدها الدقيقة بتمهل بعض الاشياء فوق المائدة ، ثم نهضت وهي تقبض بيدها على منديل جميل التطريز . فتناول تشتشيكوف تلك اليد بشيء من السرور في حين قالت له بلغة خفيفة انه مامن يوم يمر دون ان يحدثها زوجها عن بافل ايفانوفيتش وهنا قال مانيلوف :

— هذا شيء طبيعي ، ولقد كانت زوجتي تسألني كل يوم : متى يحضر صديقك العزيز فكنت أجيبها بالخال . صبراً صبراً ياروحي الصغيرة ، حتى تفضلت فشرفتنا بزيارتك أخيراً . انها لسعادة حقيقية لكلينا ، وانه ليوم عيد حقيقي ... وان قلبنا ليفيض ...

وسرعان ما قاطعه تشتشيكوف وهو يستمع الى انه السبب في هذا « الفيضان القلبي » بتلك العبارة المتواضعة :

— أصدقك القول باني رجل بسيط جداً ، وانه ما من لقب لي ...

وقاطعه مانيلوف بدوره وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة كالسكر .

— انت واعم ، فانك تحوي على جميع الخصال بل انك لتحوي على مايزيد على جميع الخصال . وهنا سألت مانيلوفاً :

— هل اعجبتك مدينتنا وهل قضيت فيها وقتاً طيباً ؟

فأجاب تشتشيكوف :

— انها لمدينة مذهلة حقاً ، لقد كنت مأخوذاً بها طيلة إقامتي فيها ، وكان

جميع من فيها ، من الناس طيبين معي !

فسألت مانيلوفاً :

- وكيف وجدت الحاكم فأضاف مانيلوف :

- انه رجل جليل القدر كثير المؤانسة . فرد تشتشيكوف :

- اني من رأيكم ، فهو رجل كله إجلال ، وهو الوحيد الذي يملأ مركزه مما يدعو الى ان يتمنى المرء وجود كثيرين من أمثاله .

قال مانيلوف ايضاً وهو يغلق عينيه بلذة واسترخاء حتى بدا كقطعة عركت أذناها بنعومة :

- كما انه يعرف كيف يستقبل الجميع ويرضيهم . فرد تشتشيكوف :

- انه لا مثيل له ، وهو الى جانب ذلك فنان في التطريز ، فقد أراني كيس نقوده الذي طرزه بيده ... حقاً ان المرأة المتضلة لانستطيع ان تصنع كيساً أجمل منه .

وسأل مانيلوف وهو يغلق عينيه بالتذاذ من جديد :

- ونائب الحاكم ألا ترى أنه رجل محبداً للنفس ؟

فأجاب تشتشيكوف :

- انه ذو قدر عظيم .

- ومدير البوليس ؟ رجل لطيف ، اليس كذلك ؟

فهتف تشتشيكوف :

- اوه ! اوه ! رجل عالي الهمة واسع العلم . لقد اذعت في لعبة الويست

مع النائب العام ورئيس القضاة كل شيء ، وقد دام اللعب طيلة الليل واستمر حتى زمن صباح الديك فسألت مانيلوف :

- ماذا نقول في زوجة مدير البوليس . فاجابها تشتشيكوف

- انها امرأة ماحوطة . ثم انتقل بافل ايفانوفيتش الى السؤال :

- وانت اتقطن دوماً في المزرعة فرد مانيلوف :

- اجل اننا هنا دائماً تقريباً . ولكننا في بعض الاحيان نذهب الى المدينة

الرؤية بعض اصحاب الشأن المهمين من الناس ؛ ذلك اننا لو بقينا هنا دوماً
منطوين على انفسنا لاصبحنا متوحشين .
فتمت تششيكوف

— هذا صحيح ، هذا صحيح . وتابع مانيلوف :
.. انما المهم في الامر ان نوجد صديقاً ... رجلاً بواسطته نستطيع ...
بطريقة ما ... الكلام عن اللطافة ، والثقافة ... او متابعة عالم في اتجاهه العلمية
واخيراً نستطيع ان نحبي فيه روحه ونسير به نحو عليين .
اراد مانيلوف ايضاً ان يعبر عن فكرة عميقة ، ولكنه خاف المبالغة دون
ريب ، فقام بحركة مبهمه ثم تابع :

— اذن ، وفي هذا الشأن ، فان الحلوة والمزرعة نجعلاننا كثيري اللطافة ...
فنحن من وقت لآخر نقرأ (ابن الوطن) وهذا يكفيننا .
وحبذا بافل ايفانوفتش هذا الرأي وازاف بانه مامن شيء يعادل الحلوة اذا
استطاع الانسان ان يتمتع بالطبيعة ويقرأ الكتب الجيدة .
فهتف مانيلوف :

— اوه ، واذا لم يكن له صديق ، فلن ينفس عما يعتلج في صدره ...
فاجاب تششيكوف مقاطعاً :

— صحيح ، صحيح جداً . ان جميع كنوز الارض لاتعادل مثل هذا الصديق
والحكمة تقول : « ماذا يملك المال اذا ما امتلكت الاصدقاء »
وكرر مانيلوف بتعبير نظيف اعذب من دواء ركبته طبيب بارع كي يحظى
باعجاب زبونه :

— انت تعلم يا بافل ايفانوفتش ان الصديق ضروري ، اي صديق كان ،
لأجل المتعة الروحية ... وهكذا اليوم ، فان الصدقة بقلائك تجعلنا نحظى
بالسعادة ويمكن ان نقول ان هذا الصديق نادر يصعب الحصول عليه ... كالتمتع
بصحبتك العظيمة الفائدة . فقاطعه تششيكوف :

- ولماذا صحبته عظيمة فانا رجل خال من اي قيمة .
- اوه ، بافل ايفانوفتش ، اسمح لي ان اصدقك القول اني لانتازل بكل سرور عن نصف ثروتي على ان يكون لي بعض اخلاقك .
- على العكس تماماً ، انا الذي يعتبر صداقتك الرائعة شرفاً له .
واكاد اجعل الى اي حد ستنهي مناجاة صديقنا لو لم ينقذهما منها الخادم الذي جاء ليعلن ان الطعام قد اعد . وهنا قال مانيلوف :
- هيا الى غرفة الطعام ! وازافت زوجته :
- يجب ان تعذرنا على هذا الطعام البسيط ، فانه لا يضاهاى ذاك الذي في العاصمة ، ذلك ان كل شيء بسيط في الريف .
ومن جديد تنازع الصديقان حول من يجب ان يمر قبل الآخر من خلال الباب ، ودخل تشتشيكوف اخيراً وهو يتظاهر بالتواضع . كان هناك صبيان يجلسان على المائدة وكان سنهما يسمح لهما بالجلوس على مائدة الاسرة وقد جلسا على كراسي مرتفعة . وكان المرابي بالقرب منهما يجيى القاديين بلط - وهو بيتسم .
جلست ربة البيت قبل الجميع ثم جلس بافل ايفانوفتش بينها وبين زوجها وجاء الخادم فعقد فوطتين حول عنقي الصبيين . فقال تشتشيكوف :
- ان طفليك لساحران ، كم يبلغ عمرها ؟ فاجاب مانيلوف :
- اما البكر فهو في الثامنة من سنه واما الثاني فعمره ست سنوات . ثم نطق باسم تيميستوكليوس وتابع الحديث وهو يشير الى ان الاول هو صاحب ذلك الاسم ، وكان هذا جالساً يحاول ان يرخي من عقدة فوطته التي شدها الخادم كثيراً حول عنقه .
- تيميستوف كليوس ، اوجب ماهي اجمل مدينة في العالم ؟ وهنا القى المرابي على تلميذه نظرة وحشية وبدا كأنه يريد ان يقفز عليه ليفقأ له عينيه ، غير انه سرعان ما هداً عندما اجاب تيميستوكليوس بقوله : « باريس » فسأل الوالد :

- وعندنا ماهي اجمل مدينة ، وحمد المريني الصبي من جديد فاجاب الاخير :

- بطرسبورج

- والثانية ؟

- موسكو فهتف تشتشيكوف متحمساً :

- كم هو ذكي ، ذلك الطفل ، ان ذكاهه ليعث على الخيرة بالنسبة لصغر سنه ، سيكون بلا ريب شيئاً عظيماً ، فأجابه الاب :

- اوه ، انت لم تعرفه تماماً ، فهو خارق .. ولكن الثاني ، آل سيد ليست له ذاكرة قوية ، غير ان تيميستوكليوس منذ ان يرى رجلاً فاضلاً او يرى حشرة ما ، فان عينيه حينئذ تقدرحان بالشرر ويتركز جميع انتباهه حولها ، سأجعل منه سياسياً . ياتيميستوكليوس الا تريد ان تكون سفيراً ؟

- بلى اريد : اجاب الطفل بذلك وهو يمزغ قطعة من الخبز ويدير رأسه بحركة لولبية ذات الشمال وذات اليمين ، وفي تلك اللحظة مخط المريني هذه العبارة : ان من يريد ان يكون سفيراً في المستقبل يجب عليه الا يدع الحساء يتساقط على فوطته وهو يحتسبه .

وتحدثوا بعد ذلك عن مسرات الحياة الهادئة وسط الحقل ، وعن التياترو والمدينة والفنانات ، واجاب المريني على جميع الاسئلة التي وجهها اليه والداتلميذيه ضاحكاً بثقة واعتزاز عندما لاحظ انها يجبان المبالغة في شتى الامور فهو لم يكن جاحداً بل اراد ان يحظى بحسن التفات ماينلوف اليه ، ولكن وجهه اخذ فجأة تعبيراً جافاً قاسياً وضرب الطاولة بيده وهو ينظر الى الاطفال ! الا ان تيميستوكليوس سارع الى عرك اذن اخيه الذي كانت عيناه مغلقتين وفمه فاغراً فجعل الطفل يبكي ، ولكن الخوف من ان يفقد حصته من الفاكهة جعله يبتلع دموعه بسرعة ويتابع الاكل وقد التمع عذاراه لما علق بهما من الدهن .

وكانت ماينلونا قد سألت تشيتشيكوف ان يعذرها لهذا الطعام البسيط
بما جعله يجيب بلا تردد :

- اني لم اشعر بالجوع ابداً ، ذلك ان السرور بمحادثتك قد لها في عن كل شيء .
واخيراً ارتفعت المائدة وكان ماينلوف كثير السعادة ، فربت على ظهر
صديقه واراد ان يقوده الى الصالة ، ولكن بافل ايفانوفيتش افصح عن نيته
بالانفراد به لعمل ضروري .

- فلنذهب اذن الى غرفتي الخاصة ! قال ذلك ماينلوف وهو يقوده الى غرفة
انعكس النور من نافذتها على قطعة صغيرة من الحشب فاخذت شكل ضباب
ازرق ، وقال تشيتشيكوف معجباً .

- يالها من غرفة صغيرة جميلة .

كانت الغرفة بادية الامر مغطاة كلها بورق رمادي ضارب للزرقة ، تضم
اربعة كراسي ومقعداً كبيراً ، وطاولة عليها الكتاب العتيذ المشار فيه الى الصفحة
الرابعة عشر ، وبعض الاوراق الملطخة بالحبر ، غير ان التنباك كان يسود الغرفة
فهو مبعثر في كل مكان علباً واكداساً ، وعلى النافذتين اصطف كتل من
الرماد خانت هوى سيد المنزل .

قال ماينلوف :

- خذ المقعد الكبير ، ارجوك ، فهو احسن لك .

- لاسأكتفي بالكرسي ، فقال ماينلوف مبتسماً .

- اسمح لي بالالاحاح عليك ، فان هذا المقعد معد خصيصاً للرجال العظام ،

فيجب ان تجلس عليه اذن شئت أم ابيت .

وجلس اخيراً تشيتشيكوف .

- أسمح لي ان اعرض عليك هذا الغليون لتدخنه ؟

فاجاب بافل ايفانوفيتش بتسهل وبشيء من الاسف :

- ولكنني لا ادخن ! فسأل مانيلوف بنفس التمهل والاسف :

- ولكن لماذا ؟

- ذلك اني اردل هذه العادة ، ثم ان الغليون مؤذ .

- هذا حكم اعتباري بحث ، أوكد لك ذلك ، ثم ان التدخين بالغليون أسلم من استنشاق السعوط . اني اعرف صديقاً لي في سرية الجنود برتبة ملازم وهو رجل طيب المعشر بالاضافة الى انه عالم ومثقف ، لا يكتفي فقط بالألأ يدع غاليونه على الطاولة ، ولكنه .. وعذراً .. يحمله معه في كل مكان !

وقد جاوز هذا الرجل الآن الاربعين من عمره واستطيع ان أوكد لك انه في صحة جيدة . فأجاب تشتشيكوف بان هذا محتمل ويمكن ، إذ ان للطبيعة من الحوادث ما يصعب ادراكه ، فهي غامضة حتى على كبار المتعلمين ! - ولكن اسمح لي اني اعتذر عن تدخينه ... ثم تابع تشتشيكوف بتعبير

غريب وحازم وبحركة مبهمة ، جعلت مانيلوف يقوم بها نفسها دون ان يعرف لماذا :

- منذ متى أرسلت للحكومة قائمتك بعدد عبيدك ؟

- منذ زمن بعيد .. ولكنني لا أذكر متى كان ذلك بالضبط .

- ومنذ ذلك الحين كم فقدت من هؤلاء العبيد ؟

- لست ادري ، أنا لا اعلم اي شيء عن هذا ، ولذلك يمكن ان نرسل بطلب مدير املاكي فهو بذلك ادري . ثم نادى مانيلوف الخادم وقال له :

- إيتني بالوكيل ، يجب ان يحضر الى هنا اليوم .

وبعد فترة من الوقت دخل الوكيل وكان رجلاً في العقد الرابع من عمره سبط الشعر يتمتع بالبرود اللماوي وقد دل وجهه المصفر انه لديه بعض الفرش الجيدة والوسائد اللينة . وقد كانت حياة هذا الرجل تشبه الى حد بعيد حياة جميع رفاقه ، وقد شب وتثقف في المنزل فتزوج منذ زمن غير بعيد

من (اغاشكا) الخازنة العزيزة على سيد المنزل ، واصبح بدوره خازناً بعد حين ثم لم يلبث ان اضحى وكيلاً لأرزاق السيد . واخذت حياته شكلاً جديداً اذ اصبح يتملق اغنياء المدينة ويعرض عن الفقراء . واصبح يستيقظ صباحاً في التاسعة وينتظر اعداد السماور ليتناول الشاي .

— اسمع يا صديقي ، كم فقدنا من الفلاحين منذ الاحصاء الاخير حتى الآن؟

— ماذا ... كم ؟ .. يوجد كثير من الموتى . فهتف مانيلوف :

— هذا ما ظننت ، وقد كان ظني صحيحاً .. اجل لقد فقدنا الكثيرين ..

واتجه نحو تششيكوف مكرراً :

— الكثيرين ... فقال هذا الاخير :

— ولكني اريد رقماً .. اريد شيئاً ثابتاً . فعقب مانيلوف موافقاً :

— بالطبع ، لا بد لنا من رقم ... فأجاب الوكيل :

— وكيف يتسنى لي ذلك ... فما من انسان يحصى الموتى . فقال

تششيكوف آمراً :

— حسناً احصهم ، واعمل لي قائمة بجميع اسمائهم .

فأجاب الوكيل :

— امرك مطاع ياسيدي وخرج ، فسأل مانيلوف :

— ولكن لماذا نحتاج الى هذا الاحصاء ؟

وبدا ان السؤال قد اربك بافل ايقانوفتش الذي احمار وجهه قليلاً واتخذ

طابع الانقباض كما لو انه يفتش عن اجابة .

تسألني لماذا .. هاك اذن : لاني اريد ان اشتري منك عبيداً ..

— اسمح لي بمقاطعتك .. فانت ترغب بشراء الفلاحين .. مع الارض

ام بدونها ؟

لم اعن هذا .. اريد .. اريد الميتين منهم ..

— ماذا؟ عفواً .. اني لثقیل السمع قليلاً .. واحسب اني سمعتك تتلفظ بكلمة .. غريبة .

فأجاب بافل ايفانوفيتش :

— اريد أن اقتني الموتى الذين مازالوا معتبرين احياء في الاحصاء الحكومي الاخير .

ووقع غليون مانيلوف فوق الارض . وفغر فاه باتساع عظيم وظل هكذا جامداً على هذا الشكل . وبقي اولئك الصديقان اللذان أخذوا يفيدان في ذكر حسنات الصداقة دون حراك ووجدت انظارهما كما لو ان المصورة النقطة الاولى من وجهه والثاني من سائر جهاته الياساسة . ولم مانيلوف آخر الامر غليونه وانعكست نظراته على تشتشيكوف آملاً ان يكشف في تعبير صديقه ربح الدعابة . ولكنه اصطدم بوجه الجامد الذي ازداد صلابة ويبوساً . وتضرع مانيلوف الى ربه الا يكون ضيفه العظيم قد اعتراه خبل الجنون فأخذ ينظر اليه بذعر ، بينما ظلت عيون بافل ايفانوفيتش صافية هادئة فاقدة كل التهاب يلتصع عادة في نظرة المجنون .

وعبثاً تساءل مانيلوف ، انه لا يعرف على الاطلاق بماذا يفكر وماذا يقول أو يفعل ولم يبق امامه الا ان يقذف بالدخان القليل الذي كان في فمه بشكل حارزوني ناعم وقال تشتشيكوف مكرراً :

— اريد ان أعرف نيتك في هذا الشأن : أتتخلي لي عن هؤلاء الموتى ..

الذين هم احياء في نظر الحكومة ؟ .

واضطرب مانيلوف واحتار ، واخذ ينظر الى ضيفه دون ان ينبس ببنت

شفة . فعلق بافل ايفانوفيتش :

— يظهر لي انك حائر .

— مطلقاً ... ليس الامر بذلك ... ولكن ... لم استطع ان افهم

قصده ... اعذرني ... فان الثقافة المتواضعة التي احملها لا تتسع للدرجة التي افهم فيها كلاً من حر كانك ... ذلك اني لا املك فن الأداء... ولعل كلامك يستر شيئاً ما ... فأنت بلاريب تريد ان تضلني ببلاغتك ... فأجاب تششيكوف :

— لا سأعيد كلامي على مسمعيك ... انا لا اراغب الا بالموتى من عبيدك . واعتري مانيلوف الدوار . وشعر انه يريد ان يتكلم شيئاً ما ، أن يطرح سؤالاً ... ولكن ماذا يطلب ؟ ولعل الشيطان وحده يعرف ذلك ، وقدف للمرة الثانية بالدخان من أنفه بنفس الشكل الحزوني الرهيف .

— إذن ، سنرتب صك المبيع باذن الله .

— صك بشراء الموتى ؟

— مطلقاً ، سنكتب أسماء الاحياء الموجودين في قائمة الاحصاء ، فأنا لا اريد ان اخالف القانون ، ثم ان هذا العمل سيكلفني غالباً ، ولتعذرني فالواجب شيء مقدس بالنسبة لي ، واني لأتضاءل كثيراً أمام القانون .

ورضي مانيلوف بهذه الألفاظ المعسولة ، ولكن شيئاً غامضاً ما زال يكتنف الموضوع ، ولكنه لم يدر بماذا يجيب ، فحشا بنشاط كبير ذلك الغليون الذي اخذ يصفر كالزوبعة ، ثم مكث يتأمل غليونه كما لو أنه ينتظر منه كلاماً ينقذه من هذه الطريقة الثقيلة ، ولكن الغليون ظل يتابع صفيره غير مبالي بما يحدث . وهنا ساءله بافل ايفانوفيتش :

— أليكم ثمة شكوك أو شبه ؟

— لا ابدأ ... فاني لم اطلق حكماً على نيتك مطلقاً ، غير ان هذه التجارة او هذا المشروع الا يخالف القاعدة المتبعة في الروسيا والقضاء المتبع في بلادنا ؟ وقام مانيلوف بعد ما انتهى كلامه بهزة من رأسه واطلق نظرة ذات مغزى غير ان التعبير الذي ارتسم على وجه صاحبه والشفاه المزمومة المفصحة عن الارادة القوية التي طالعتة ، كل هذا جعل مانيلوف يحسب نفسه امام وزير او شخصية

كبيرة مستغرقة في تأمل عميق . وكان هذا حينما اخذ بافل ايفانوفتش يجيب بان
هذه التجارة ليست على الإطلاق مخالفة للنظم السائدة في روسيا ، اذ ان الحزينة
العامة ستجد ارباحاً في هذا العمل ، وستكون الضرائب باهظة .
- اذن فانت تظن ؟ ...

- اجل اظن بان هذا يمكن ان يجري ... فقال مانيلوف :

- ليس لدي اذن اي اعتراض .

- فلنتفق على الثمن اذن ...

- ماذا ! عن اي ثمن نتحدث ؟ انظن باني آخذ منك مالا ثمناً للنفوس الميتة
التي ... بطريقة ما ، نستنتج القول ، بانه يمكن وجودها ؟ واذا كانت هذي
رغبتك ... ماذا اريد ان اقول ... فاني من جهتي ... سوف اتخلى لك عن
هذه النفوس ، واتكفل فوق ذلك بنفقات صك المبيع .

لم يهمل كاتب هذه السطور شيئاً على الاطلاق فيما يتعلق بالمحادثات الجارية ،
وسيضيف الى ما تقدم صفة الجور الامتناهي الذي انسرح في تضاعيف وجه
تشتشيكوف . ورغم تظاهره بانه سيد نفسه ضابط لاعصابه ، فقد اخذ يقفز
فوق المقعد فاضحاً نوبة الفرح الحادة التي عرته . ونظر اليه مانيلوف مشدوهاً
لقد كان خجلاً يحمر الوجه ثم هز رأسه باحتجاج على عبارات صديقه الشاكرة .
واتضح له اخيراً ان كل ما تقدم ليس بشيء ذي قيمة « انه بلا ريب يريد ان
يبين بقلبه الخافق ونفسه المتمغنطة ، ان تلك النفوس الميتة لاتساوي في ذاتها
شيئاً ذا بال »

- لاتساوي شيئاً ذا بال ! ... صاح بذلك تشتشيكوف وهو يشد على يد
مانيلوف بجرارة ويتنفس الصعداء . ثم ، وفي فيض من الحماس ، صرح بقوله :
لو كنت تعلم مقدار الخدمة التي اديتها لي ! كم من الجهود الاليمة التي أملت بي
في الحياة ، لقد كنت كالفارب الصغير وسط المحيط الهائج ، ولكم عانيت من
المالة والاضطهاد ؛ لاجل خدمة الحق والمحافظة على نقاوة الضمير وحمل المساعدة

للأيم والنجدة لليتيم ! وانهر الدمع من مآقي بافل ايفانوفتش فتأثر ماني洛夫 كثيراً وانهد كيانه فألقى بنفسه بين ذراعي صديقه واتحدا معاً في عناق حار طويل . واخذت عيونها تغرورقان بسخين الدموع .

ولم يرغب ماني洛夫 ان يطلق يده من يد بطل قصتنا ، غير ان هذا الاخير ، استطاع ان يحرر منه يده بلطف ثم اوصى صديقه بتهيئة حك الشراء وتناول قبعته يريد الانصراف .

- وكيف تذهب الآن ؟ قال ذلك مانيلوفاً بشدة وهو يستعبد الى ذاكرته حقيقة ما وقع .

وفي تلك اللحظة دخلت مانيلوفاً فقال لها زوجها بخضوع وحزن :

- ليسينكا ، ستركنا بافل ايفانوفتش . فقالت :

- اجل ! هذا لان بيئتنا لا تسره . فقال تشتشيكوف محتجاً :

.. سيدتي العظيمة ، هنا (و اشار بطرف اصبعه نحو قلبه) تخلد اجل ذكرى

الساعات التي قضيتها بجانبكم . ويجب ان تعتقدوا بانه ليس من سرور يضاوي السرور الذي اشعر به اذا عشت معكم ... ان لم يكن في نفس المنزل ففي منزل مجاور على اقل تقدير .

وهتف مانيلوف مفتنناً بهذه الفكرة :

- ولكن ، سيكون العيش باهراً هكذا على وتيرة واحدة ... بلى لسوف

نتفلسف تحت ظلال الدردار وسوف نتبحر في اهم المسائل الكبرى . . فاجاب تشتشيكوف :

- انها حياة فردوسية ، ثم اضاف وهو يقترب من مانيلوفاً ، الى اللقاء

ياسيديتي ، وانت ايها الصديق العزيز وداعاً ولا تنسيا ان تصليا من اجلي ! فاجاب مانيلوف :

- كن مطمئناً لسوف نفعل ذلك !

وهبط الثلاثة قاعة الطعام .

- وانتما الى اللقاء أيا طفلي العزيزين : قال ذلك بافل ايفانوفتش وهو يرنو الى آل سيد و تيمستو كليوس وهما مشغولان باللعب بتمثال خشبي بلا أنف ولا يد.
الى اللقاء ايا مهري الصغيرين ولتعذراني خلويدي من الهدايا لكما ... فانا في الحق غير عالم بوجودكما . ثم التفت الى تيمستو كليوس وقال : سأتيك في المرة القادمة بسيف ، أتريد سيفاً ؟ ... فأجاب الطفل .

- اوه ، نعم !

- وانت انك تريد طبلأ أليس كذلك ؟ فتمتم آل سيد وهو يمز رأسه :

- اوه ، أجل !

- هو ذاك ، وسأتيك به ، انه يفعل هكذا ... توررورت تتورر ورتاتانا . الى اللقاء يا صغيري الى اللقاء .

و ضم اليه الطفلين والتفت نحو والديها اللذين قابلاه بابتسامة لطيفة . وعندما وصل الجميع الى الدرجات الاخيرة قال مانيلوف :
- ابق معنا يا بافل ايفانوفيتش ، فهامي ذي الغيوم المتلبدة ، لا تشير الى حفاء الطقس .

فأجاب تشتشيكوف :

- اوه ، انها ليست سيئة .

- ولكن أتعرف الطريق الموصلة الى سوبا كيفتش .

- لقد كنت موشكاً ان أسألك عنها .

- سأشرح ذلك لحوذك إذا سمحت ...

واستدار مانيلوف نحو هذا الاخير ، واقترب منه متحجباً ثم أخذ يخاطبه خطأً بصيغة الجمع قائلاً بانه عليه أن يسير باستقامة حتى المنحنى الثالث فقال الحوذي .
- لسوف نفعل ذلك يا صاحب السعادة .

وسار تششيكوف ، على حين وقف مانيلوف وزوجته يلوحان بمنديليهما مودعين . وبقي مانيلوف يتابع العربة بعينه وهي تبتعد شيئاً بعد شيء ، إلى ان اخفت في الافق البعيد ، ومع ذلك فقد ظل واقفاً يدخن غليونه . ثم عاد آخر الامر إلى داخل المنزل وجلس على كرسيه واستغرق في تفكير عميق لانه لغيره ، مسروراً من نفسه لانه استطاع ان يشيع الغبطة في قلب ضيفه العظيم . وأخذت افكاره تتجه به في مناح عديدة دون أن يشعر ، افكار لا يعلم بها غير بارها . لقد أخذ يفكر بالفرح الالهي الذي تورثه الصداقة في النفوس ، وشعر بانه يجب أن يحيا مع صديق ما على ضفاف نهر بعيد ... يبني فوقه جسراً ... ويشيد عليه منزلاً كبيراً متسعاً يطل على مئات ومئات من الامكنة المختلفة حتى يصل إلى موسكو ... يتناول الشاي ويتحدث في المواضيع الريقة ... يقضي الايام مع تششيكوف وصفوة المجتمع ، بخطب وده وود بافل ايفانوفيتش الحاكم نفسه ويتكرم عليها بلقب جنرال ... وأخيراً ... فان جميع الاتجاهات التي قاده اليها تفكيره ظلت مجردات لأحلام لا شكل لها .

غير ان طلب تششيكوف الغريب ما زال يقض مضجعه ويعترض مسير تأملاته ، فهذا الطلب غير مدرك الكنه عنده ، وذهبت جميع الجهود التي بذلها لفهم هذا الطلب الغريب عبثاً . ومع ذلك فقد حاول أن يجتهد ويجهد لتوضيح هذا الغموض الشنيع ، ولكن ... لقد أنهكه التعب ... فأخذ يدخن ويدخن ويدخن حتى حان موعد طعامه .



الفصل الثالث

وعندما استقر تششيكوف في عربته التي اخذت تطوي الطريق كان اكثر مرحاً منه في أي وقت مضى ، ولن يستغرب القارئ الذي عرف طبيعة مشاغل بطلنا كون هذه المشاغل تستغرقه كلياً ، كانت الحسابات والفرضيات تنبه في جبهته وتضفي على وجهه ظلاً من الرضى بينما كانت الابتسامة الخفيفة تتراقص على ثغره ، ولم يكن ليلقي بالاً على الخوذي الذي أجهجه حفاوة خدم مانيلوف به وكان لا يني في غمرة سروره ، عن إبداء الملاحظات المناسبة للجواد الايمن ، ولقد كان هذا الحيوان المحتال يتظاهر بجر العربة بينما هو في حقيقة الحال ، يترك العبء على الجوادين الآخرين ، الاشهب والقاضي الذي سمي كذلك لأن تششيكوف كان قد اشتراه من احد القضاة ، كان العبء اذن يقع على عاتق هذين الحيوانين الطيبين اللذين كانت عيونهما تشع بالرضى رغم مانالهما من الاعياء : وكان الخوذي يصرخ : « تحايل ، كن خبيثاً يا صديقي كما تشاء فاني سأكون أقوى منك » ثم يلهب الجواد الكسول بالسوط ويعود من ثم الى الصباح : متى سنتعلم مهنتك ايها البغل الالماني ، ان رفيقك الاشهب ليقوم بواجبه وكذلك

الفاضي فانه جواد طيب .. لتسمع ما سأقوله لك .. انك لجاهل فعليك ان تستفيد من كلامي » ويلهب سليفان الجواد من جديد بسياطه وهو يهتف : « ايها المتوحش الملعون .. انت تعتقدانه بمقدورك ، متسلحاً بجيلتك ، ان تخفي سلوكك اذا شئت ان تكون محترماً فانه يتحتم عليك ان تعيش مستقيماً فاني لا أسر بمجادثة غير الشرفاء ، انك ترى الى معلمنا فهو يقوم دوماً بواجبه وهاهو الآن مستشار لدائرة انتخابية » واستطرد سليفان على هذا المنوال متنقلاً من فكرة الى اخرى بحيث لو سمعه تشتشيكوف لعرف رأي حوذي فيه ، غير انه كان مأخوذاً بالتفكير ولم يستيقظ من سباته الا على صوت رعد هائل جعله يقفز من على مقعده ويرغم على النظر فيما حوله ، كانت السماء ملبدة بالغيوم وكانت قطرات كبيرة من المطر تنهال على الطريق الاغبر ، واشتد قصف الرعود واشتدت باشتداده الامطار غزارة وراحت قطرات منها تنهال على يمين العربية ثم على يسارها ثم جاءت من الامام فاخذت تلسع وجه المسافر ، وعند ذلك سحب بافل ايفانوفتش الستارين الصغيرين وأمر سليفان بالاسراع في سيره وفهم الحوذي انه يتوجب عليه عدم التماهل فقطع خطابه وارتنى معطفاً ومادياً ولسع ظهور الجياد لم يستطع سليفان ان يتذكر الطريق ولكنه بعد جهد استطاع ان ان يتذكر ان المنعطف الثالث الذي كان عليه ان يعبر فيه قد اجتازه منذ فترة طويلة ، وبما ان الروسي لا يرتبك في الاوقات الحرجة فقد تبع سليفان دون اي تردد اول منعطف صادفه دون ان يهتم بما قد يحدث .

وكانت الامطار مازال تنهمر ، وامتألت الطرق بالوحل وازداد ارهاق الحيوانات المسكينة من جر هذه العربية .

وبدا تشتشيكوف يقلق وقد يئس من الوصول الى قرية سوبا كيفتش إذ عليه ان يصل اليها حسب تقديراته منذ مدة طويلة وعبثاً حاول اختراق ظلمة الطريق بانظاره ، فهتف آخر الامر :

— سليفان أترى القرية ؟

— كلا ياسيدي اني لا ألحها البتة .

ثم ألهب ظهور الجياد بسوطه وبدأ في اغنية طويلة لاتنتهي .. لقد كان يغني فيها الأمل والشقاء والسرور والألم وكل ما يغني في روسيا باجمعها ، وكجميع الحوذية كان سليفان يتوجه الى جياده بحماس ويصرخ « الى امام .. هيا يا أعزائي الصغار »

ولاحظ تشتشيكوف ان العربية بدأت بالتأيل كثيراً ، واخذت ترمي به من اليمين الى اليسار وبالعكس ففهم ان العربية خرجت عن الطريق العام وانها تتقدم بمشقة وسط الحقول المحروثة ولاحظ سليفان هذا الامر بدوره فصمت .

وزجر بافل ايفانوفتش :

— ايها الوغد اي طريق اتبعت ؟

— لم يكن في مقدوري أن أتبع غيره وسط هذه الظلمة فاني لا اكاداري سوطي . وكان سليفان يترنح فوق كرسيه وهو يتفوه بهذه الكلمات حتى ان العربية كادت ان تقع ، فتمسك تشتشيكوف بها بجمع يديه كي يحمي نفسه من السقوط . وهنا فقط لاحظ أن حوذي قد سكر .

هتف تشتشيكوف :

— حذار ... حذار ... فعربتنا توشك ان تقع .

— لا ياسيدي .. اني لا افهم لماذا تنقلب عربتنا .. انه ليس من المستحسن ان تقع ... وانا لا اقلب عربية قط .

واراد الحوذي ان يدير العربية ليغير اتجاهه ، فدار ثم دار ... وانقلبت أخيراً العربية .

وتدحرج بافل ايفانوفتش فوق الوحول فاوقف سليفان جياده وهبط من

مقعده ووقف مهوئاً دون حراك بجانب العربة . وأخذ تشتشيكوف يتخبط في الوحل وهو يحاول النهوض ثم هتف آخر الامر :

- أترى ايها الغبي لقد انقلبت اخيراً بنا ... انك سكران كحذاء ..

- لا ياسيدي .. سكران ... واماذا اصح سكراناً ؟

إني لأعلم ان السكر سيء . لقد تحدثت منذ قليل الى بعض الاصدقاء ، انهم جماعة طيبون ... فتناولت معهم العشاء ... العشاء ، وهذا ليس بالامر السيء ... ويمكن للانسان بلا ريب ان يتناول العشاء مع رجل طيب .

- أذكر ايها الغبي ماذا قلت لك آخر مرة سكرت فيها ؟ أجب

هل نسيت ؟

- ولماذا أنسى يا صاحب السعادة ؟ اني اعرف مهنتي .

ان السكرين قوم قبيحون جداً .. ولقد حادثت منذ قليل رجلاً طيباً .

- سأوجعك ضرباً بالعصى كي تتعلم معنى الحديث مع رجل طيب .

- امر سعادتك ... أضر بني ؟ ان ضميري غير مثقل باي عمل سيء . ولكن

اذا كان ضري ضرورياً فلم لا ؟ ... وهذا يتعلق بارادتك ياسيدي ..

يجب على الفلاح ان يعاقب عندما يسكر ، ويجب على النظام ان يحترم .

وجرد هذا الجوب بافل ايفانوفتش من كل سلاح . وفي هذه اللحظة بالذات

اشفق الحظ عليه فسمع نباح كلاب من بعيد فجلس في عربته وأمر

سليفان بالاسراع .

ومها اامت الظروف بصر الفلاح الروسي فانه يحافظ على حدسه دوماً ويصل

الى شاطئه الامان . وهكذا فان سليفان كان يقود جياده وسط الظلام الخالك

الى امام ولم يوقفها الا عندما اصطدمت العربة بحاجز لم تستطع تجاوزه . وخيل

الى بافل ايفانوفتش انه يرى شبح منزل فارسل سليفان ليستجلي له الحقيقة وكان

من الممكن ان يطول به الانتظار بلا طائل لولا ان الكلاب الذكية لحسن حظ

الروسيا تقوم بوظيفة البواب .

كانت هذه الكلاب تنبح بشدة حتى لقد اخطر الى سد اذنيه وهو يتبع
سليفان . وكان ثمة نور باهت يشع من احدى النوافذ وبفضله استطاع المسافر ان
ان يشقا طريقهما ، وطرق سليفان الباب فشهد رأساً ملفوفاً بشال يطل من
النافذة ثم علا صوت صدي يسأل :

- من هنا . . . من استطاع الوصول وسط هذا الجو الشيطاني ؟ .
فأجاب تشتشيكوف :

نحن مسافران ياماتوشكا (لفظ يطلق على النساء المسنات في الريف الروسي)
محمي لنا ان نقضي الليل هنا .

- لقد قمص الشيطان نفسه جسديكما . . . ولكن هذا البيت خاص ، وهو
ليس بفندق .

- وما العمل ياماتوشكا لقد ضلنا الطريق ولا نستطيع قضاء ليلتنا في
الطريق وسط هذه العاصفة .
واكد سليفان :

- آه . . . بلى ان الجو رديء جداً .

فقاطعه تشتشيكوف :

- اصمت ياغبى .

وتابعت العجوز :

- ولكن من انت ؟

- من طبقة النبلاء ياماتوشكا

وارغمت هذه الكلمة المرأة على التفسير ثم قالت :

- انتظر قليلا سأخطر السيدة بالامر .

وبعد مرور دقيقتين عادت معها مصباح ففتحت الباب ، وشع نور من
نافذة اخرى .

وادخل سليفان العربية الى الباحة ووقف قرب بيت صغير لا يكاد يرى وسط
الظلام . وكانت الامطار تنهمر بشدة فوق السقف الخشبي ثم تسيل بصوت
مسموع في الباحة ؛ وكانت الكلاب لما تزل تنبح ، وكان اولها يزجر بشدة حتى
ليكاد ان يبح ، اما الثاني فكان نباحه سريعاً متقطعاً مثل الفاظ (القندلفت)
في ان الثالث كان صغيراً يبعث بصرخات قصيرة تشبه رنين الجرس ، وهكذا
كانت الجوقة مكتملة .

كان بطلنا مبطلا ولم يكن ليطمح الى اكثر من ان ينام في سرير مريح ،
وقفز من العربية منهوك القوى حتى انه اوشك ان يقع على الارض وظهرت
امراة اصغر من الاولى وقادته الى الغرفة فألقى تششيكوف نظرة سريعة عليها .
كانت الجدران مغطاة باوراق ملوثة قديمة شاحبة وكانت تزين هذه الجدران
لوحات صغيرة تمثل طيوراً ، وشاهد بين النوافذ مرآيا قديمة محاطة بأطر سود
وخلف كل مرآة كان يوجد ورق لعب او جوارب او رسائل . ولاحظ
تششيكوف ساعة كبيرة رسمت على اطارها زهور ولم يستطع ان يثبت .
عينيه اكثر من ذلك فقد اغلقنا من الاعياء بالرغم عنه . وكانت صاحبة المنزل
تبعه وقد لبست على رأسها طاقية فوقها شال يحيط بعنقها . وكانت هذه المرأة
من نوع الماتوشكا صغار الملاكين الذين يكون كلما ساء الموسم وينتحبون كلما
خسروا مالا في الوقت الذي يكدسون فيه اكياس الذهب داخل الدروج .
ويحوي احد هذه الاكياس على الروبلات بينما يحوى الكيس الآخر على قطع
من ذوات الخمسين كوبيكا ، واما الكيس الثالث فيحوى على القطع الصغيرة
من فئة الخمسة والعشرين كوبيكا . وتضم الخزائن الثياب وبعض ملفات الحيطان
والمعاطف القديمة التي يمكن ان تقلب الى ثياب جديدة اذا لم تأكلها الفيران او
تهترى من تلقاء ذاتها . فأما النار فلا يمكنها ان تحرق شيئاً واما الاهتراء فان
العجوز دقيقة في عنايتها وهكذا فانه بإمكانها ان تورث خرقها لحفيداتها .

واعتذر تششيكوف عن بغيته في مثل هذا الوقت غير ان العجوز قالت :
- ان هذا لا يزعجني البتة . لقد جئت في جو رديء ويجب ان نتناول شيئاً ،
غير ان الوقت متأخر وليس عندي شيء معد .

وكان فحيح غريب يتخلل كلام العجوز حتى ان بافل ايفانوفيتش خاف أن
يهاجمه جيش من الافاعي فأخذ ينظر فيما حوله ولكنه سرعان ما هدأ عندما
لاحظ ان الساعة تكاد تدق وبالفعل فان ذلك الصغير ما لبث أن تبعه رنين ،
ودقت الساعة دقتين بصوت يحاكي تحطيم الزجاج .

وأسرع تششيكوف يحيب على ربة المنزل وطلب منها ألا تهتم بشيء وانه
لا يطلب إلا سريراً وانه لا ريب سيكون سعيداً لو عرف أين قاده الحظ ثم
سألها :

- أيسكن سوباكيفيتش بعيداً من هنا ؟
غير ان العجوز لم تكن لتعرف هذا الاسم .
فأردف بافل ايفانوفيتش :
- ولكنك تعرفين مالينوف ؟
- ومن هو مالينوف هذا ؟
- من تعرفين إذن من الملاكين ؟
- بويرون وسفنين وكونوباتيف وشاريكيتين وتريباكين وبليسكانوف .
- أغنياء هم أم لا ؟
- لا يا بانيوشكا (مذكر ماتوشكا) فإن واحدهم لا يملك اكثر من عشرين
نفساً واثنيهم ثلاثين ولا يوجد بينهم من يملك المائة .
وفهم تششيكوف عندئذ انه في بقعة ضائعة فسأل :
- هل تبعد المدينة من هنا كثيراً .
- حوالي ستين (فرستاً) . . . اني آسفة لعدم تمكني من تقديم الطعام .
هل لك في كوب من الشاي ؟

- شكراً ياماتوشكا فأنا لا أريد منك إلا السرير .

- اني بعد هذه السن الطويلة أفهم ذلك... ارقد إذن على هذه الاريغة...
ايه يافيتينا هاتي الاغطية والوسائد... ياله من جو فظيع... لقد ذابت
الشمعة أمام ايقونات القديسين... ولكن ماذا بك ياباتيوشكا... انك
لتبدو كالخنزير الصغير ، فظهرك وجبتك مليئان بالوحول... أين علقت بك
هذه الاقدار بحق الشيطان ؟

- لحسن الحظ اني سلمت لانظف ثيابي ، لقد كان من المعقول أن تدق عنقي .

- يالقديسي السماء... ألا تريد ان أدلك لك ظهرك ؟

- شكراً... شكراً مري خادمك فقط بتجفيف ثيابي وتنظيفها .

فقالت العجوز لخادمتها :

- أسمع يافيتينا ؟

وكانت هذه الاخيرة تحمل خافاً كبيراً تضرب عليه بشدة حتى ان الريش
كان يتطاير منه في جميع أرجاء الغرفة .
وتابعت العجوز :

- اليك هذه الملابس ، نظفها كما لو انها للمرحوم زوجي .

فوضعت فيتينا اللحاف على الاريغة وقالت وهي تقوم بترتيب الوسائد :

- كما تأمرن يا سيدتي .

- هو ذا سريرك مهياً الى اللقاء ياباتيوشكا... أنثى لك ليلة سعيدة... ولكن
أحقاً انك لست بحاجة الى شيء ؟ قد تكون معتاداً على تدليك رجلتك قبل
النوم فزوجي المسكين لم يكن يستطيع النوم دون تدليكها .

غير ان بافل ايفانوفيتش لم يشأ الاستفادة من هذا العرض السيئ . وعندما
أصبح صديقنا وحده تأمل سريريه بسرور وكان هذا يصل في ارتفاعه حتى
السقف فاضطر بافل ايفانوفيتش الى الصعود على كرسي ليدخل في الفراش . وما

إن استلقى على السرير حتى أخذ يهبط رويداً رويداً الى أن وصل الى الارض ،
وأخذ الريش يتراقص حوله فأطفأ الشمعة ونام .

واستيقظ تششيكوف في الصباح في وقت متأخر وكانت شعاعات
الشمس تسقط على عينيه مباشرة ، واما الذباب الذي كان يرقد بهدوء على
الجدران ليلاً فكان يحوم فوق رأسه ويقف على اذنيه وشفتيه وعينه ، وغامرت
ذبابه متهورة بدخول أنفه فعطس تششيكوف بشدة أخرجتها . وألقى نظرة
على الغرفة فشاهد لوحة تمثل الجنرال كوتوزوف واخرى لرجل في ثياب عسكرية
من عهد الامبراطور بول وفي هذه اللحظة صمرت الساعة ودقت ست دقات
فانفجر الباب قليلاً وأطل من خلاله رأس امرأة سرعان ما تواري لان
تششيكوف كان متجرداً من ثيابه تماماً لينام براحة . وتذكر بعد جهد ان
هذا الوجه يخص ربة المنزل فارتدى بسرعة ملابسه التي كانت موضوعة على
الكرسي نظيفة ومكوية واقترب من المرأة ليندم نفسه وهنا ايضاً أخذ يتمخط
بصوت هائل حتى ان ديكاً اقترب من النافذة وأجابه على لغته الغامضة فصاح
به تششيكوف : « ايها الحقيير »

و كانت النافذة منخفضة فاقرب منها بأفل ايفانوفتش فرأى في باحة البيت
عدداً كبيراً من الطيور والحيوانات الأليفة وشاهد دجاجات وديكة تحتال
في مشيتها كما شاهد خنزيراً يمر بصحبة أسرته مالبث ان سحق بقدمه فرخاً دون
ان ينتبه اليه ثم استقر في زاوية وأخذ يمضغ قشور الاشجار . وكانت الباحة
محاطة بجازر تترامى خلفه الحقول المزروعة بالملفوف والبصل والبطاطس
والشوندر وغير ذلك من الخضار . وكان هناك ايضاً عدد كبير من الاشجار
المثمرة المغطاة بالشباك لحمايتها من الطيور التي كانت تحوم فوقها .

وكانت اشباح من القش موضوعة لاختافة العصافير في كل مكان ، وكان
احدهما يعتمر طاقية ربة المنزل وشاهد اخيراً تششيكوف وراء الحقول

اكواخاً منتشرة تدل على رخاء الفلاحين كما لاحظ ان جميع السقوف كانت جديدة وان الأبواب متينة ، وكان في كل رواق عربية او عربتان . ففكر تششيكوف : « انها قرية مهجة .. سأحدث الى صاحبها » ونظر من ثقب الباب فشاهد مضيفته تتناول الشاي فخرج اليها متسلحاً بابتسامة تملو شفثيه فوقفت له وقالت :

- صباح الخير ياباتوشكا ، هل ارتحت في نومك ؟

- اني قضيت ليلة مريحة وانت ياماتوشكا ؟

- لقد كانت ليلتي رديئة .

- وكيف ذلك ؟

- اني شعرت بآلام في كليتي وساقى والعظم الواقع فوق عجزى .

- هذا أمر عارض فلا تهتمى له .

- اسأل الله ان يجعله كذلك .. اني ادلك جسدي دائماً بالخناء .. ماذا تريد

ان تتناول مع الشاي .. اليك هذه الزجاجاة من الكحول .

- حسناً .. حسناً ياماتوشكا سأشرب منها .

ولا بد للقارىء ان يلاحظ ان تششيكوف على عدم خروجه عن تلفظه كان يحدث العجوز بحرية ضارباً صفحاً عن التحفظ الذي كان يديه امام مانيلوف ، ويجب ان نذكر باننا اذا كنا متأخرين في روسيا عن الاجانب فقد سبقناهم كثيراً في سلوكنا مع اشباهنا ولسوف يحيا الفرنسيون والامان قروناً قبل ان يدركوا خصائصنا وميزاتنا فهم سواء تحدثوا مع مليونير أم مع بائع سباجر ، يتخذون نفس الوضع ولو تملقوا الاول وجشوا على اقدامه ، اما نحن الروسين فلسنا كذلك اذ اننا نعرف كيف نعدل من تعاييرنا حسب البيئة التي نكون فيها فحديثنا مع ملاك في حوزته مائتا عبد غيره مع من يملك ثلاثائة أوخمائة أو مليون ، لنلق نظرة على مايجري في دوائرنا ولناخذ رئيساً قدم حديثاً فانه

يلقي اوامره على مرؤوسيه فيلي هؤلاء تلك الاوامر بخوف وفزع .. واذا
تفحصنا وجهه فاننا سنقرأ النبل والزهو مرتسمين عليه بل ان المرء ليخاله
بروميثوس بمشيته الموزونة كالملك ، ولكن لنتبع هذا الملك بعد ان يخرج من
مكتبه لىذهب الى مكتب رئيسه فاننا نجده يطير طيراناً كأنه العصفور وقد
تأبط منشقة الخادم ، اما في السهرات فان هذا الآله يظل آلهاً ، حتى اذا ما وصل
موظف أعلى منه مرتبة حدث في بطلنا بروميثوس تحول غريب ، فانه يصبح
ذبابه صغيرة بل اقل من ذبابه .. انه يصبح كذرة الملح فيتساءل الناس :
« ولكن اين ايفان بتروفتش ؟ » ان ايفان بتروفتش شخصية طاعية اما
هذا فانه لا يكاد يفتح فمه الا ليثرها مساً ومع ذلك فلو ان المرء اقترب منه
لوجده ايفان بتروفتش بذاته .

ولنعد الآن الى بطلنا .

اخذ تشتشيكوف ، وقد قرر رفع الكلفة ، كوب الشاي وبدأ بالحديث :
- ان قريتك كبيرة ياماتوشكا .. كم يبلغ عدد سكانها فأجابت ربة لمنزل :
- حوالي الثمانين ياباتيوشكا .. لقد كان الموسم الماضي رديئاً للغاية .
- ومع ذلك فان فلاحيك يبدوون في حالة جيدة .. اسمحي لي بالسؤال
عن اسم عائلتك .
- كوروبتشكا ، سكرتير دائرة انتخابية .. لقد كان زوجي سكرتيراً
لهذه الدائرة .

- شكراً ، لم استطع ان اسألك عن ذلك عند وصولي البارحة في الليل ..
ثم ما هو اسمك .

- تنازيا بتروفنا .

وسأله العجوز بدورها .

- وانت ما اسمك ؟ انك حتما من كبار الموظفين .

- لا ياماتوشكا اني لست كذلك ... فانا مسافر لقضاء اعمال .
 - آه ... انك رجل اعمال ؟ لكم انا آسفة لأني بعث عسلي رخيصاً لهؤلاء
 التجار ، إذ انه من الممكن ان تشتريه مني ياباتوشكا .
 - عسل ؟ من المؤكد إني ما كنت لأشتريه منك .
 - إذن فلا بد أن تشتري أشياء أخرى ... أنشتري ألياف القنب ... أنا
 لا أملك منه الكثير .
 - لا ياماتوشكا فاني أرغب ببضاعة أخرى ... كم فقدت من الفلاحين في
 الآونة الأخيرة .

- اوه ... لقد فقدت منهم الكثير ياباتوشكا ... ثمانية عشر رجلاً من
 أحسن العمال وقد ولد بعضهم أطفال غير انهم لا يساوون الشيء الكثير .
 وأخيراً علي ان أدفع الضريبة عن كل نفس ... انهم أموات ومع ذلك يجب
 ان أدفع عنهم كما أدفع عن الأحياء . وفي الأسبوع الماضي مات حدادي محترقاً
 وقد كان في نفس الوقت صانع اقفال ماهر .
 - هل حصل عندك حريق ياماتوشكا ؟

- نجانا الله من هذه المصيبة ، ان الحريق لشيء فظيع ... لا . لقد سكر
 ذلك الحداد وأشعل النار بنفسه فيما حوله فاحترق ... انه حداد ماهر ولن
 أقوى على السفر بعد الآن لانه لا يوجد من يجدي الحيل .
 فقال تشتشيكوف وهو يتنهد :

- تلك إرادة الله ياماتوشكا ... ان حكمته لنا فائدة ... اعطني اياهم
 يا نازيا بتروفنا .

- من ؟

- جميع من مات .

- وكيف يكون ذلك ؟

- ذلك أمر بسيط بيعيني اياهم وسأدفع لك عنهم نقوداً .
- أعترف بانى لا أفهم ، أتريد ان تنبش قبورهم وتخرجهم منها .
- وأدرك بافل ايفانوفيتش ان العجوز قد تقيم العقبات في وجه الصفقة فتدخل في التفاصيل وأوضح لها في كلمات ان البيع سيتم على الورق فحسب وان الاموات سيسجلون في العقد أحباءاً . (١)
- فهمتنت نتازيا بتروفنا وهي تحملق فيه دهشة :
- ولكن ، اذا تفيد من النفوس الميتة ؟
- ان ذلك يتعلق بي وحدي .
- ولكنها نفوس ميتة .
- لم أقل انها حية ، ثم ان هذا الشراء يجنبك الحسارة ... فانت تدفعين الضرائب عن الموتى وأنا اريحك من ذلك وأدفع لك علاوة على ذلك خمسة عشر روبلاً .
- فأجابت بعد تفكير :
- لا ... لست أدري فانا لم أبع قط نفوساً ميتة .
- لو بعث منها لكانت معجزة أعتقد ان هذه النفوس تفيدك في شيء .
- لا ... لا أعتقد ذلك ولهذا فانا مترددة ... انها نفوس ميتة . وفكر تشتشيكوف : « انها لصعبة الاقناع » ثم قال بصوت مرتفع :
- اصغى الى ياماتوشكا . انك تبذرين مالك بدفع الضرائب عن الموتى .

(١) قبل تحرير العبيد في الروسيا كان الملاكون يدفعون عن كل عبيد حي ضريبة ما ولكن احصاء العبيد كان يجري مرة كل عشر سنوات ولذلك كان يحدث ان يدفع الملاك ضريبة عن الموتى من العبيد على اعتبار انهم احياء . وكان تشتشيكوف بشرائه النفوس الميتة يأخذ على عاتقه دفع الضرائب عنها ويستطيع بابراز سندات البيع ، قبل انقضاء هذه السنوات العشر ، ان يحصل على قروض من المصارف .

— هذا مخيف بالفعل . لقد دفعت في الاسبوع الماضي فحسب مائة وخمسين روبلاً بعد أن لاطفت الموظف كثيراً .

— اذن فانت ترين ياماتوشكا . . . انت ترين ذلك بنفسك . . . لن تحتاجي بعد الآن الى ملاطفة الموظف ، سأخذ على عاتقي جميع النفقات وسأدفع كل شيء حتى نفقات نقل الملكية .

اخذت العجوز بالتفكير ، ان الصفقة لتبدو رابحه ولكنها غريبة الى حد تخشى معه ان يخدعها هذا الرجل الذي يعلم الله وحده من اين أتى في الليل .

— ماذا ياماتوشكا ؟ اقررت البيع ؟

— في الحق بباتيوشكا اني لم أبع في حياتي امواثاً . . . لقد بعت عبيداً احياء لبرويوف منذ ثلاث سنوات . . . لقد بعته فتاتين صغيرتين بثائة روبل عن كل فتاة ، وقد شكرني كثيراً لانها كانتا تحسنان التطريز .

— ولكنني لست اتكلم عن الاحياء ، باركهم الله . . . اني في مجال الحديث عن الاموات .

— الواقع اني خائفة من الاستعجال في البيع . . . انا اخشى الحسارة . . . ومن الممكن انك تريد خداعي بباتيوشكا اذ ربما كانت النفوس الميتة تساوي اكثر من المقدار الذي ستدفعه لي .

— يا للشيطان . . . ما هذا الطبع ياماتوشكا . . . ان نفوسك الميتة ليست الالهة . . . هباء لا اكثر اتفهمن ذلك ؟ خذي اي شيء . . . خذي خرقة بالية ، فانها تصلح لصنع الورق ، اما نفوسك الميتة فانها لاتصلح لشيء . . . وهل تستطيعين إخباري عن فائدتها .

— انه لاقيمة لها بالفعل ، وهذا هو عين السبب الذي يجعلني مترددة . . . انها نفوس ميتة .

وفكر تششيكوف : « ليذهب الشيطان بهذه الدابة اللعينة . . . يبدوان التفاهم معها مستحيل . . . رباه لقد اختنقت من كثرة الحر » واخرج منديله من

جيبه ثم اخذ يجفف العرق الذي بدأ يتلأأ على جبهته . وكان يفتاظ دون مبرر لان كل انسان سواء أكان رجل دولة ام تاجر بسيطاً يقف نفس موقف تنازياً بتروفنا في هذه الظروف . لاشيء يتمكن من ازالة الفكرة الثابتة حتى الادلة المنطقية نفسها فانها تصطدم بالعناد وترتد اشبه ماتكون بكرة المطاط ، ومع ذلك فقد بذل بافل ايفانوفتش مجهوداً اخيراً وقال :

- انك لانودين فهم كلامي ياماتوشكا كانا نتكلمين لتحركي لسانك فحسب اني اعطيتك نقوداً ٠٠٠ خمسة عشر روبلاً نقداً وعداً ، وهو مبلغ كبير لايمكنك ايجاده في الطريق ٠٠٠ اجيبي بكم بعث العسل ؟

- بعث البود (وحدة وزن روسية تعادل ١٦ كغ) باثني عشر روبلاً .

- لا انك لم تبيعيه بهذا المبلغ .

- اقسم لك على ذلك .

- حسناً فليكن ... ولكن هذا عسل ... ولقد تعبت كثيراً كي تحصلي

عليه ... انك ربيت النحل ... اما النفوس الميتة فهي بضاعة ليست من هذا العالم وهي لاتكلف مجهوداً ، ولقد غادرت هذه النفوس الارض بارادة الله ، هناك تربحين اثني عشر روبلاً لقاء عمل قمت به وهنا تأخذين مالاً مقابل لاشيء خمسة عشر روبلاً جديدة .

وظن تشتشيكوف انه افحمها ولكنها اجابت :

- بالحق نطقت ولكني ارملة غير مجربة ، لذلك افضل الانتظار قليلاً إذربما

جاء تجار آخرون فأخذ منهم فكرة صحيحة عن الاسعار

... ولكن هذا مخجل ... مخجل ... مخجل ياماتوشكا ، فكري في نفسك

ماذا تقولين ، من الذي يشتري منك نفوساً ميتة ولأي شيء تصلح

- يمكن ان تنهى الفرصة دوماً في الاعمال

فهتف تشتشيكوف :

وفي اية اعمال تفيد النفوس الميتة؟ انك تبالغين يا ماتوشكا فهل تستخدمين تلك النفوس الميتة لأجل ترويع الشحارير في حقولك ليلاً

كانت العجوز تستمع اليه وجملة ثم رسمت اشارة الصليب واجابت :

- انت تجدف

فأردف تشتشيكوف

- ولكن ان تريدن وضعها ؟ ان الجثث والقبور تظل ملكاً لك والبيع يحصل على الاوراق فقط ... فماذا قررت ؟ ... اجيبي ! ولكن العجوز مازالت تفكر

- بماذا تفكرين يا نتازيا بتروفنا

- في الحق لا افهم شيئاً ... اني افضل ان ابيعك الياف القنب

- لست بحاجة اليها ... اني اطلب منك شيئاً آخر ، وانك لتعطينني بقنبك

فالقنب شيء ، والنفوس الميتة شيء آخر ... ماذا اذن يا نتازيا بتروفنا

- الحق ان الصقعة غريبة وخارجة عن المألوف

وفقد تشتشيكوف صبره فنهض بسرعة ثم رفع الكرسي عالياً وضرب به الارض وهو يقسم بالابالسة ، فأفزع ذكر الشياطين العجوز فهتفت وقد شحب لونها من الهلع

- اوه ... لاتسكلم عن الشيطان ... لقد مضت ثلاثة ايام على حامي بهذا المخلوق اللعين وبعد ان راجعت ورق اللعب وصليت ادركت ان الله قد ارسل لي هذا الحلم ليه اقبني على خطيئة ارتكبتها

- اني لأستغرب اذا علمت بان هذه الاحلام لاتزورك غالباً ... واني لأتصرف مدفوعاً بعامل الشفقة المسيحية ... اني ارى ارملة مسكينة محتاجة يقتلها التعب ... ألا فلتحل اللعنة على هذه القرية بومتها

فنظرت اليه العجوز بفزع وقالت :

انك تجدف ببساطة مابعداها ببساطة

— انت ترغميني على التفوه بهذه الكلمات دونما رغبة مني في اهانتك ...
وتصرفين كخادمة مزرعة وقفت فوق كومة قش كبيرة الى حد لا تدري
ماذا تفعل بها ولا تريد ان تدعها لأنسان ... اني أريد ان اشتري منك اشياء
اخرى لاني اشتغل بالتجارة

وكان يكذب غير أن هذه العبارة التي القاها تشتشيكوف عرضاً نجحت
نجاحاً عظيماً إذ ان الحديث عن التجارة سرعان ما غير من موقف العجوز
فأجابت بصوت فيه رنة رجاء :

— ولكن فيم الغضب ؟ لولا غضبك لتصرفت حسب رغبتك .

— أغضب ... ولكن لماذا ؟ ان الصفقة كلها لا تساوي بيضة فاسدة .

— حسناً فليكن لقد بعثك بخمسة عشر روبلاً ... ولكن تذكري عندما
تريد أن تشتري شيئاً ياباتيوشكا ... كدقيق الشعير والقمح الاسود
والحيوانات ... وإياك أن تخون العهد .

— لا تخشي أية خيانة ياماتوشكا .

وجفف تشتشيكوف عرقه وسأل العجوز عما إذا كانت تعرف أحداً في
المدينة لينهي معه الصفقة فأجابت تنازياً بتروفاً :

— أجل اني أعرف الارشندريت والاب سيريل وابنه عضو المحكمة .

ورجاها تشتشيكوف أن تكتب اليه خيفة مصاعب جديدة وحرر الرسالة
بنفسه . وكانت العجوز أثناء ذلك تفكر : « يجب ان أبيعهُ دقيقتاً وبعض
الحيوانات » وكي تغريه بالشراء قالت :

— لقد بقي عندنا شيء من العجين البارحة ، وأنا خارجة لأمر فيتينيا بصنع
بعض الحلوى بالبيض ولن يطول انتظارنا .

وخرجت لتلقي اوامرها وخرج بافل ايفانوفتش ايضاً ليحلب اوراقاً
فذهب الى الغرفة التي نام فيها فوجد كل شيء منظماً فتناول اوراقه وجلس
لينال شيئاً من الراحة ذلك ان حديثه مع العجوز قد أرهقه « لقد أنهكتني

هذه العجوز اللعينة « وفتح حقيبة سفره ، ولعل القارىء سيهتم بمعرفة محتوياتها فلماذا اذن لا أرضي فضول القارىء ؟ كان هذا الجراب يحوي على قطعة صابون داخل خمسة او ستة جيوب معدة لأمواس الخلاقة وهناك جيوب اخرى للمحابر والريش وقطع الشمع لحتم الاوراق وكان ثمة جيب يحوي على مختلف انواع البطاقات . بطاقات للزيارة واخرى للتعزية وثالثة للمسرح وهي ذكريات قديمة يحتفظ بها . ويلتقي تشتشيكوف بريشته فيأخذ بالكتابة في نفس اللحظة التي تدفع فيها ربة المنزل الباب وتهتف :

- ماهذه الحقيبة الجميلة يا باتيوشكا ، لا ريب انك اشتريتها من موسكو .

فأجاب تشتشيكوف وهو يتابع الكتابة :

- اجل اشتريتها من موسكو .

- كنت اعرف ذلك ففي موسكو يصنعون جيداً فقد اشترت شقيقتي احذية لأولادها منذ ثلاث سنين وما زال الاولاد يلبسونها حتى الآن لثمتاتها . ونظرت الى الحقيبة وكان فيها عدد كبير من الاوراق قد ألصقت عليه الطوابع فقالت :

- آه ماهذه الاوراق اتريد ان تعطيني واحدة اذ ليس عندي ورق اذا شئت ان أقدم طلباً للمحكمة .

فأوضح لها بافل ايفانوفتش ان هذه الاوراق معدة لشراء العبيد ومع ذلك فقد اعطاها ورقة عليها طابع بقيمة روبل وأنهى رسالته فوقعتها العجوز ثم طلب منها قائمة باسماء العبيد .

ولم يكن لدى نتازيا بتروفنا قائمة ولكنها كانت تحفظ عن ظهر قلب اسماء جميع فلاحها . فطلب منها تشتشيكوف ان تملأها عليه وكانت بعض الالقاب تدهش بافل ايفانوفتش ولم يستطع ان يخفي استغرابه بينما كانت العجوز تعدد الاسماء وتلت :

- بيوت سافيليف الملاك هنا .

فهمت تشتشيكوف :

... يا الهي

وتوات الالقاب (آجر البقرة) ثم لقب آخر أب (ايفان الدولاب) . وعندما انتهى بافل ايفانوفتش من الكتابة امتلأت خياشيمه برائحة الزبدة فقالت له مضيقته .

... اتريد تناول الطعام

فنظر تشتشيكوف الى المائدة فرأى فطائر وحليباً وحلوى واشياء كثيرة اخرى فتناول الطعام ثم طلب من نتازيا بتروفناهيئة عربته فارسلت هذه فيتينيا لتنقل الامر الى سليفان وامرتها ان تحضر بعض الحلوى ، فقال تشتشيكوف وقد عاد الى الاكل :

... ان هذه الحلوى فاخرة ياماتوشكا .

فاجابت :

... اجل ان الطاهية تجيد صنعها ، ولكن الموسم لسوء الحظ رديء .
... ودقيق هذه الحلوى ليس جيداً .

وشاهدت تشتشيكوف يتناول قبعته فأضافت :

... انكم انت متلف الى الذهاب ... ان عربتك لم تعد بعد .

... انهم يعدونها وسليفان نشيط جداً .

... أفلن تنسى وعدك اذن ؟

فاجاب بافل ايفانوفيتش

... لن انسى هذا الوعد فانا افكر فيه .

... هل ستشتري مني ايضاً شحم الخنازير

... بالتأكيد ولكن فيما بعد

... سيكون في حوزتي منه في عيد الميلاد القادم

... لن أنسى ذلك .

... ربما كنت بحاجة الى ريش الطيور فسيكون لدي منه ايضاً .

— حسنا ... حسنا .

وعندما وصلا الدرج قالت :

— انك ترى ان عربتك لم تعد بعد .

— ستعد في الحال .. اجيبيني أين يقع الطريق العام؟

— هذا صعب جداً فهناك منعطفات كثيرة ... سأرسل معك فتاة صغيرة ...

أهناك مكان بجانب السائق .

— طبعاً .

— انها تعرف الطريق ولكن لا تأخذها معك .. لقد سرق التجار مني

مثلها ، فطمأنها تشتشيكوف ؛ وفي هذه الاثناء كانت تنازبا بتروفتا تقب جميع

ما يجري في الباحة .

ولكن لماذا نهم بنتازيا كاروبتشكا ؟ وما الفرق بين مانيلوفا وكاروبتشكا

أو بين الحياة الفردية والحياة الراقية ؛ انما يجب التمسك بالحياة السعيدة خشية

أن تتحول الى شقاء .

وربما تساءل القارىء : أ تكون كاروبتشكا منحلة جداً في سلم الكمال

الانساني ، وهل هناك هوة سحيقة تفصل بينها وبين شقيقتها القاطنة في منزل

أرستقراطي مؤثث بالرباش المصنوع من خشب الاكاجو والسجاد المترف .

تلك السيدة الارستقراطية التي تتأب فوق كتاب لم ينته تنتظر زيارة نهيء لها

فرصة لتبرز فيها مواهبها وتعبّر عن أفكار حفظتها عن ظهر قلب تشغل بها

المدينة اسبوعاً كاملاً ، وهذه الافكار لا تتعلق مطلقاً بتدبير المنزل أو الاملاك

التي تتوزعها وانما هي تتعلق بانقلاب سياسي قد يحدث في فرنسا أو في الكاثوليكية .

لنضرب صفحاً عن كل هذا ولننس الاحزان ولنتابع الضحك فان مخلوقات

اخرى سوف تمر أثناء هذه القصة وعندئذ سوف تشرق في وجوهنا الابتسامة .

وشاهد تشتشيكوف العربية تقرب فهتف :

- تلك هي العربية ... ولكن لماذا تأخرت إليها الغبي؟ أرى ان سكر
البارحة لم تزل تماماً
فصمت سليفان

- الى اللقاء ياماتوشكا ولكن أين الفتاة الصغيرة
فصاحت نتازيا بتروفنا بفتاة صغيرة كانت تسير حافية قرب الدرج
- بيلاجيا اذهبي دلي السيد على الطريق
كانت اقدام هذه الطفلة مكسوة بالوحل حتى ليخال المرء قدمها من بعيد
حذائين ، وقد وضعت رجلها فوق درجة العربية فانسخت عندما اخذ سليفان
يساعدها لتجلس بقربه ، وصعد تشتشيكوف العربية بعدها وقال :

- كل شيء على مايرام وداعاً يانتازيا بتروفنا
واندفعت الجياد وكان سليفان حزيناً طيلة المسافة مما جعله يهتم بعمله اكثر
من اي وقت مضى ، وكانت تنتابه هذه الحالة النفسية عقيب كل سكرة أو حماقة
يرتكبها ، واما حيواناته فكانت نظيفة بشكل مدهش
وكان سليفان يلهب ظهور جياده صامتاً دون ان يلقي عليها محاضرة فلسفية
قد لا يرضى عنها الفنان. ويبدو ان الجوادين كانا غير مسرورين لعدم سماعها النعوت
الطيبة التي اعتادا سماعها ، غير ان الجواد الثالث كان يتلقى الضربات متلاحقة
على المناطق الحساسة من جسمه ، وكان يفكر وقد انتصبت اذناه : « ان المعلم
غاضب اليوم وهو يعرف تماماً اين يضرب ، انه لا يجلد ظهري ابداً ولكنه يختارة
النقاط الحساسة من اذني وبطني . »

واشار سليفان بسوطه الى طريق وسط الحقول كسته الامطار بخضرة جميلة
وسأل الصبية بجفاء :

- هل ادور يميناً ؟

- لا ... لا سادلك

وعندما اقتربت العربية من الطريق عاد سليفان الى السؤال :

ولكن أين .. أين ؟

فمدت الطفلة يدها فهتف سليفان

ولكن هذه الجهة هي اليمنى ألا تعرفين شمالك من يمينك ؟

وكان الجو جميلاً ولكن الأرض الموحلة كانت تعيق سير العجلات وهكذا

قضت العربية وقتاً طويلاً لتقطع الطرقات الصغيرة المؤدية الى الطريق العام.

وكان من المستحيل على سليفان معرفتها لولا وجود الطفلة ذلك ان العاصفة

افقدتها معالمها ، وبعد قليل أشارت الصغيرة الى منزل أسود بعيد وقالت :

— هذا هو الطريق العام .

— وتلك البناية ؟

فندق .

— حسناً اذهبي يمكننا هنا ان نتابع السير وحدنا .

وأوقف العربية وساعد الصغيرة على النزول وهو يتمم :

« تلك هي الطفلة ذات الساقين السوداوين » .

وناول تشتشيكوف الطفلة قطعة نقود فعادت هذه مسرورة من نزهتها

في العربة .



الفصل الرابع

أر تستشيكوف سليفان بالوقوف قرب باب الفندق ، وكان السبب في ذلك ان الحبول كانت متعبة وانه كان يشعر بالحاجة الى تناول وجبة طعام دسمة . ويعترف المؤلف بانه يحسد شهية أمثال بافل ايفانوفتش التي تسخر تماماً من أفراد الطبقة العليا في مجتمع بطرسبرج أو موسكو لأن أفراد المجتمع الراقي لا يفكرون إلا بتنوع وجبات الطعام واحتوائها على ألوان شهية قبل ان يذهبوا إلى القوقاز للعناية بعمدهم . أما أمثال بطلنا الذين يأكلون متى شاؤا وكيفما اتفق فان السماء قد حببتهم معدة قوية يتمنى أن يحصل عليها كثير من الاغنياء مضحين في ذلك بنصف عبيدهم واملاكهم المرهونة وغير المرهونة . ولكن هذا العضو لسوء الحظ لا يباع ولا يشري .

واستقبل الفندق القروي تستشيكوف تحت سقفه المضيف وكان مبنياً فوق أعمدة تذكر بشموع الكنائس . وصعد بافل ايفانوفتش درجاً ضيقاً واجتاز رواقاً عريضاً فشهد باباً لا يفتح دون صرير وكانت هناك عجوز ترتدي ثوبا صافياً فتمتمت : « أرجوك من هنا » وشاهد بافل ايفانوفتش أشياء كان يألفها في الفنادق الريفية ... شاهد السجور والمائدة الصغيرة المثلثة المثقلة باواني الشاي

والاكواب وشاهد بيضات صغيرة من الحُزف معلقة بأشرطة زرقاء وحمراء
قرب الايقونات وهرة ومرآة تشوه الوجوه وتضخمها ، كما شاهد زهوراً جافة
لا يقوى المرء على استنشاقها دون أن يعطس .

وتوجه تشتيكوف الى العجوز مسألاً :

— هل عندكم لحم خنزير ؟

— أجل عندنا .

— بالريفور والقشدة ؟

— تماماً .

— اذن أعدي لي منه شيئاً .

وذهب العجوز لنهي الطعام ثم عادت تحمل صحنوناً ومنشفة أشبه بقشور
الاشجار ، ومعلقة قد كسرت احدى قوائمها واخيراً شوكة عجوزاً لم يبق من
اسنانها غير اثنين . واخذ بافل ايفانوفيتش كعادته بالحديث مع العجوز ،
فسألها اذا كانت وحدها صاحبة الفندق او هل هناك معلم وهل تربح كثيراً كما
استعلم ايضاً عن امرة المعلم ... اهو متزوج أم اعزب وهل هو سعيد بالبانة
التي قدمتها زوجة ابنه له وبالأجمال لم ينس تفصيلاً واحداً . واهتم كذلك
بطبيعة الحال بعدد الملاكين في الانحاء المجاورة واجابت العجوز على سؤاله عن
أسماء الملاكين :

— بلوشين ، ايوتشياتيف ، ملينوف ، الكولونيل تشيراكوف

وسوباكيفتش .

— آه أتعرفين سوباكيفتش ؟

فاجابت العجوز انها لاتعرف سوباكيفتش فحسب بل ومانيلوف ايضاً .
وكانت تفضل الاول كثيراً لانها تجده ألطف من الثاني ، وفي الواقع فانه
عندما يحصل ان يحضر الاثنان معاً الى الفندق فان سوباكيفتش يأمر على الفور
باعداد دجاجة ويطلب شيئاً من لحم البقر وكل ما لدى العجوز من اصناف

جيدة ، أما مانيلوف فكان لا يطلب الا صحنا واحداً ولا يدفع اكثر من
السعر العادي حتى ولو حصل أن طلب زيادة .

وفي هذه الاثناء بينما كان بافل ايفانوفتش يبتلع آخر قطعة من لحم الخنزير
سمع فجأة صوت عربة فنظر من النافذة فشاهد عربة يجرها ثلاثة جياذ . وهبط
من تلك العربة رجلان : الاول اشقر طويل القامة والثاني اقصر منه ويميل الى
السمنة . وكان الاشقر يرتدي سترة زرقاء غامضة بينما كان يرتدي الاسمر
معطفاً طويلاً . ثم وصلت عربة ثانية يجرها اربعة جياذ وكان مظهرها حقيراً .
صعد الرجل الاشقر الى الفندق في حين تأخر الثاني عنه ليحضر شيئاً ما من
العربة وهو يشير نحو العربة الثانية ويصبح بالحوذي ، ولم يكن صوته غريباً
على تششيكوف . وفي ذلك الحين دخل الاشقر وكان طويل القامة نحيل
الوجه ذا شاربين أسهين فحيا تششيكوف بادب . وكان على وجهه بعض
الهاباب .. هباب التبغ طبعاً لاهباب البارود . وكان من الممكن ان تجري
محادثة بينه وبين بافل ايفانوفتش لان كلا منهما كان فرصاً لخلاصه من المطر
وغياب الطريق لولا ان دخل الاسمر القاعة فخلع قبعته وامر بيده فوق شعره .
كان رجلاً متوسط القامة متورد الخدين ابيض الاسنان اسود الشعر ، يشعر
المرء بقربه بتفجر الحيوية والعافية والقوة ، وهتف فجأة عندما رأى
تششيكوف :

— با .. با .. با .. انها لصدفة سعيدة .

وعرف تششيكوف فيه نوزدريف ، الشخص الذي قابله عند المدعي العام
والذي رفع الكلفة معه بعد دقائق من تعرفه به دون أي سبب .
وقال نوزدريف .

— الى أين انت ذاهب ؟

واضاف دون ان ينتظر منه جواباً :

- أما أنا فعائد من السوق .. انظر في أية عربة جمّت .. انظر اليها من النافذة
ثم انقض على رأس تشتشيكوف ولواه نحو النافذة بعنف آلمه .
- أية عربة صغيرة هذه العربة .. لقد انتقلت الى عربة رفيقي .
واشار نوزدريف الى رفيقه وقال :
- أو لم تتعارفا بعد .. اقدم لك صهري ميجوييف .. لقد كنت اتحدث عنك
طيلة الصباح وكنت اقول له لسوف ترى تشتشيكوف .. آه ياخي لو تعرف
كم خسرت .. لم يبق لي شيء .. لا الساعة ولا سلسالها .
ونظر تشتشيكوف في محدثه فرأى انه لا يحمل الساعة ولا سلسالها بالفعل وبدأ
لتشتشيكوف ان احدى ساليقه ايضاً ارق من الاخرى .
وتابع نوزدريف :
- لو كان معي عشرون روبلاً فصعب لربحت كل شيء .. عشرون روبلاً فقط
لو وجدت معي اذن .. لربحت ثلاثين ألفاً .
فتدخل ميجوييف وقال :
- لقد اعطيتك خمسين روبلاً فخسرتها .
- اقسم لك اني ما كنت لأخسرهما لولا هذه الحماقة .
لولا هذه السبعة الملعونة لربحت كل شيء .
فرد الآخر :
- ومع ذلك لم تربح ثمة شيء .
- هذا بسبب سوء الحظ .. أعتقد ان طيببك يحسن اللعب .
- ان كان يحسنه اولا يحسنه سيان ؛ انما المهم انه ربح منك .
فصاح نوزدريف :

- هذا كلام .. لسوف أهزمه أنا الآخر واربح منه اضعافاً مضاعفة وسترى
أي لاعب هو .. وبالمقابل ياخي لكم لهونا .. لقد بيعت جميع ما أتيت به بأسعار

جيدة .. ولقد افتقدناك كثيراً ... تأمل انه على مبعده ثلاثة (فرسات) من هناك كانت فرقة من الجيش ... وقد شرب جميع ضباطها وعددهم اربعون ، والكابتن بوستلوف ... ان له شاربين مدهشين ... وهو يسمي نبيذ البوردو « بوردوشكا » واما الملازم كوفشينكوف فهو الطيبة المجسمة ... اية خمرة شربناها عند بوتوماريف ... ان بوتوماريف نذل بطبيعة الحال ، ذلك انه ليست عنده خمرة جيدة ، لقد ملأ زجاجاته بخمالة الخمر ولكنه اخفى الخمر الجيدة في غرفة كتب عليها « خاص » ولن اقول لك بان هذه الغرفة هي الفردوس ... ان شبانيا الحاكم لتتضاءل امام ما شربنا ، ولقد وصل بعدنا امير وفنش فبحث عن زجاجة من الشبانيا في جميع المحال ولكننا شربنا كل شي ... لقد شربت وحدي اثناء العشاء سبع عشرة زجاجة ...

فقاطعه صهره :

- انت لم تشرب سبع عشرة زجاجة .
- بشرف كل انسان نبيل اني شربتها .
- انك لتستطيع ان تقول ماتشاء ولكنك لن تقوى على شرب عشر زجاجات .
- اراهنك اني استطيع .
- وعلى أي شي تراهن .
- على بندقيتك التي اشتريتها حديثاً .
- لا اريد
- جرب إذن
- لا اريد
- أنت تخاف ان تفقد بندقيتك .
- وتابع نوزدريف متوجهاً إلى تشتشيكوف :
- لكم أسفت لأنك لم تكن هناك ... لو كنت لما أمكنك الانفصال عن

الملازم كوفشينكوف ولاصحت صديقا له . ان الفرق كبير جداً بينه وبين المدعي العام وبخلاء المدينة الآخرين الذين يرتجفون لدى انفاق كوبيك واحد... أجبني بصراحة يا تشتشيكوف ما الذي منعك عن الحضور ...

ما أنت الا غبي ... وخنزير ... عاتقني أياروحي الصغيرة فسأحبك حتى الموت ... ميجيوف قل شيئاً ما أفلا ترى ان الاقدار قد جمعتنا مع تشتشيكوف؟ الله أعلم من اين اتى ، وأما انا فاني احيا هنا دائماً ... كم من عربة وحديث في السوق ... اني أروي لك كل هذا باختصار دون اي تفصيل ... أتعلم؟ لقد لعبت البارية ورجحت علبتين من مربى التفاح وكوبا من الحزف وقيةارة ثم جربت حظي كرة اخرى فخسرت ... ياله من رجل فاتن هذا الملازم كوفشينكوف . لقد ذهبنا معاً إلى جميع الحفلات الراقصة وكانت هناك امرأة عارية تماماً ... لا يعلم غير الشيطان ماذا كانت ترتدي ... وقد جلس ذلك الحيوان كوفشينكوف بجانبها والقى في أذنها بعض كلمات المديح باللغة الفرنسية ... انه يحصل على جميع النساء . وهناك استرينا بعض السمك ... لحسن الحظ اني اشتريت قليلاً منه قبل ان أخسر تقودي ... وأنت اين تذهب الآن ؟

فأجاب تشتشيكوف :

- سأزور احدهم

- ليذهب (احدهم) هذا إلى الشيطان ... تعال عندي .

- مستحيل عندي عمل .

- عمل ؟ أي تلفيق ... ايها الحبيث .

- انه عمل عاجل ... اقسم لك على ذلك .

- اني أراهن على انك تكذب ... وإلى عند من أنت ذاهب ؟

- إلى سوبا كيفتش .

فانفجر نوزدريف ضحكا وكشف عن أسنانه البيضاء كالسكر وهز رأسه

الاسمر الكبير . وكانت ضحكته تم عن رجل ثري يستطيع ان يوقظ من النوم جاراً له تفصله عنه ثلاث غرف فيهتف هذا الاخير .. لعنة الله عليه هاهو يضحك كرة ثانية .

فأجاب تشتشيكوف وقد بدا عليه الخلق :

- اني لا أجد في ذلك شيئاً مضحكاً .

غير ان نوزدريف تابع ضحكه وهو يهتف : الرحمة ... الرحمة اني اموت ضحكا ...

وتابع تشتشيكوف :

- ليس من شيء يضحك في ذلك ... ولقد وعدته ...

فقال نوزدريف اخيراً .

- ستلحن حظك حين تصبح عنده ... لا يوجد بخيلان في العالم مثل سوبا كيفتش . اني اعرفك جيداً فانت تخدع نفسك كثيراً ان ظننت انك واجد هناك خمرآ ولعباً ... اسمع يا اخي ليذهب سوبا كيفتش إلى الشيطان ... اني ادعوك الى بيتي فعندي سمك لا تجد مثيلاً له ... ولقد قال لي يونوماريف هذا الحيوان الذي باعني هذا السمك : « تستطيع ان تتجول في المدينة كلها فلن تجد له مثيلاً » اني أتناول طعام الغذاء عنده دوماً مع كوفشينكوف ... آه لقد نسيت ان اقول لك يا اخي انك لن تفارقنا ... سأريك شيئاً لن أبيعك اياه بألفي روبل ... وصاح من النافذة بخادمه الذي كان يحمل في يده سكيناً وفي الاخرى قطعة من الخبز والسمك :

- ايه يورفيرى اعطني كلبى الصغير .

ثم قال متوجهاً بحديثه إلى تشتشيكوف :

- انه حيوان جميل ولقد وعدت صاحبه ان أعطيه مقابلاً له الفرس التي

استبدلناها عند شفوسترىف ... أأذكرك ذلك ؟

وبالطبع فان بافل ايفانوفتش لم يسمع في حياته اسم شفوستريف ... وفي تلك اللحظة سألت صاحبة الفندق نوزدريف :

- ألا تريد ان اقدم لك شيئاً يا سيدي ؟

- لا شيء ... سأحلم بالليلة التي قضيتها مع كوفشينكوف ... ولكن أعطني كوباً من الفودكا ... اي نوع من الفودكا عندك ؟
- فودكا مع اليانسون .

- اعطني منها ... لقد كانت مغنية تنشد على المسرح كأنها الملاك ، وكان الوجد كوفشينكوف يردد طيلة الوقت : « هذه فرصة للاستمتاع بالكرزة الصغيرة يا صديقي » . وجاءت العجوز في تلك اللحظة تحمل الفودكا فأخذ نوزدريف الكأس من يدها فانحنى له ، فهتف وهو ينظر الى يورفييري يأتي بصحبة الكلب :

- هيه ... هانه هنا .

وكان الخادم يرتدي معطفاً طويلاً كعمله إلا انه اكثر انساخاً .

- ضعه على الارض .

فوضع الخادم الحيوان على الارض فأخذ الكلب يشم الارض فرحاً باستعادة حريته ؛ وهتف نوزدريف وهو يرفعه اليه في حين أرسل المسكين عواء حزيناً :

- هل هو جميل

ثم تابع متوجهاً الى يورفييري .

- انك لم تقم بما أمرتك به فأنت لم تنظفه .

- لقد فعلت

فنظر نوزدريف الى بطن الحيوان الصغير بامعان وقال :

- ليس ما تقول صحيحاً .

- لقد نظفته .

- إذن من اين أتت هذه البراغيث .

- ربما كانت في العربة .

- أنت تكذب ... أنت اكذب وانا واثق ايها الغبي من انك وضعت البراغيث في جسده منك . انظر يا تششيكوف هاتين الاذنين وتلك القوائم . فقال تششيكوف .

- اوه ... أرى انه حيوان أصيل .

- ولكن انظر اليه ... المس أذنيه .

ولمس تششيكوف أذني الكلب ليروحي نوزدريف ونغمم « لسوف يكون كلباً جميلاً »

- انظر هذا الفم .

ولم يشأ تششيكوف إغضابه فربت بيده على فم الكلب وقال : « ان حاسة الشم عنده قوية » .

- هذا يكفي احمله يا بورفيري .

فأخذ الخادم الكلب وذهب به .

- اسمع يا تششيكوف يجب ان تأتي معي مهما كلف الامر فيبتي لا يبعد كثر من خمسة (فرسات) من هنا ، ثم تذهب من هناك الى سوبا كيفتش ، وحدث تششيكوف نفسه « وأخيراً ماذا .. يمكنني الذهاب معه .. ثم بماذا هو أسوأ من الآخرين ؟ .. انه رجل خسر كل شيء وربما هذا يساعدي على ان انال منه ما أرغب بسهولة » ثم قال متوجهاً بالحديث الى نوزدريف .

- فليكن .. سأذهب معك ولكن لا تأخرني كثيراً فالوقت عندي ثمين

فهتف نوزدريف

- اذن هكذا أيا روجي الصغيرة ؟ انتظر فسأقبلك لهذه الكلمة الطيبة .

واعتنق الرجلان .

- عظيم لنذهب ثلاثتنا .

فقال الصهر :

- ! دعني فسأذهب الى بيتي .

- هذه حماقة .. ستأتي معنا .

- في الحق ان زوجتي ستغضب علي .. ويمكنك ان تذهب بعربة هذا السيد

فقال نوزدريف ملحاً .

لا فائدة من الكلام .

كان ميجيوف من الاشخاص الذين يبدون لأول وهلة مصرين على آرائهم متمسكين بها ، ثم ، ودون ان ينتظر أحد يتحولون الى قبول ما رفضوه ويجدون معقولاً ما كانوا قد نعتوه بالجنون وأخيراً « يرقصون على ايقاع قيثارة غريبة عنهم » ، وبتعبير آخر انه يبدو من الاشخاص الذين يبدؤون عقلاء وينتهون مجانين .

وهتف نوزدريف وهو يأخذ قبعة صهره ثم يعيدها الى رأسه :

واقنع ميجيوف ونهياً الاصدقاء الثلاثة للذهاب فقالت العجوز :

- انك لم تدفع لي ثمن الفودكا ايها السيد .

- حسناً يا مانوشكا ، ادفع عني ايها الصهر الصغير العزيز اذ لا أحمـل

كوبيكا واحداً .

فسأل الصهر العزيز العجوز قائلاً :

- ماذا تريدن ؟

- جريفيان ونصف ياباتوشكا .

فصاح نوزدريف :

- انك تكذبين ... انك تكذبين اعطها نصف ماطلبت فهو يكفيها .

- ولكنه قليل جداً ياسيدي .

ومع ذلك فانها لم تكتفي بأخذ ما أعطاها وشكره ، بل أسرع الى الباب
تفتحه للمسافرين : ذلك انها طلبت اربعة اضعاف ثمن الفردكا .

وهبط الاصدقاء الثلاثة وأخذوا محلاتهم داخل العربتين ، وكانت عربة
تشتشيكوف تسير بجذاء عربة ميجيوف بحيث كان يمكن للثلاثة ان
يتحدثوا معاً .

وكانت عربة نوزدريف الصغيرة تتبعهم ببطء ، تجرها خيول ضعيفة ، وكان
يوزفيري يقودها وقد وضع الكلب في حجره .

أما الحديث الذي جرى بين الثلاثة فانه لايهم القاريء في قليل ولا في كثير ؛
لذلك فانه من الافضل ان نزيد معلوماتنا عن نوزدريف الذي يلعب دوراً ليس
بالثانوي في قصتنا هذه .

ان طبع نوزدريف بات معروفاً بعض الشيء لدى القاريء . والناس الذين
من طرازه يوجدون في كل مكان تقريباً وهم من العنصر المدعو «بحسن التخلص»
فاذا كانوا في المدرسة فانهم يعتبرون من الاصدقاء المحلصين ولكن ذلك لا يمنع
من أن يضربهم رفاقهم في اغلب الاحايين . ووجوه هؤلاء الاصدقاء مشبعة
بالصراحة والجرأة ، فهم يعتقدون الصداقات بسرعة بشكل لا يمكن فيه للمرء
ان يقول (بانه) قبل ان يرفعوا الكلفة معه . وصداقتهم هذه تبدو للوهلة
الاولى خالدة ، ولكن غالباً ما يحدث ان يقتتل الصديقان في مساء اليوم نفسه .
وهم بالاضافة إلى ذلك من الاشخاص الثوارين العريدين الذين لا تريد سنهم
العقلية في الخامسة والثلاثين عن سن الثامنة عشر . ولم يستطع الزواج ان يغير
من نوزدريف الذي تامل بسرعة بعد ان جاءته زوجه بولدين لا يعرف ماذا
يفعل لهما ، ولكن لحسن حظ الصغيرين انه كانت لهما مربية قديرة . ولم يكن
نوزدريف ليبقى يوماً واحداً في منزله ، فقد كانت له موهبة خاصة في شم رائحة
الحفلات الراقصة وأسواق المواسم والاجتماعات من بعيد . فكان يذهب اليها

بسرعة البرق ليصبح ويناقش ويسبب الضجة والفوضى في المنصة الخضراء لانه كان يتعشق الميسر . وكان يغش في اللعب كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . ولهذا كان اللعب ينتهي غالباً بمعركة يشترك فيها الجميع . وكانوا يتبادلون ضرب الاحذية ويلتفون سألني نوزدريف ، ولهذا فغالبا ما كان يعود نوزدريف إلى منزله وأحد الفيه اكثف من الآخر ، غير ان حيوية خديه كانت عظيمة لدرجة ان لحيته كانت تنمو بسرعة فتعود اجمل مما كانت عليه .

والاغرب من ذلك - وهذا لا يكاد يحدث الا في روسيا - ان هؤلاء الاصدقاء بعد ان يدمي بعضهم بعضاً ، يلتقون بعد ذلك وتعود المياه إلى مجاريها فيما بينهم وكان شيئاً ما لم يحدث إذ لا قيمة للماضي عندهم .

وهكذا عاد نوزدريف شخصية تاريخية ، فما من مجتمع يوجد فيه الا ويحصل فيه شيء ما ، كأن يطرده رجال الدرك من القاعة أو يطرده اصدقاءه بانفسهم . وفي كل يوم تحدث له قصة غريبة لا تكاد تحدث لغيره ، فاما ان يسكر ويضحك كخوار الحيوان ، واما ان يكذب بشكل مخجل له هو بنفسه . وكان يكذب دون فائدة يجنيها من ذلك ، فيدعي مثلاً ان في حوزته جواداً وردي اللون او أزرقه ويروي اشياء غير معقولة تجعل المستمعين اليه يتعجبون من كذبه فيقولون : « انك تبالغ قليلاً ... لا تسخر منا إلى هذا الحد . » ان هناك رجالا يسرون من اهانة الآخرين وهكذا فان رجلاً من طبقة عالية تربى في البلاد الاجنبية ويحمل فوق صدره وساماً رفيعاً يلتقي بك فيصافحك ويحدثك عن نفسه باشياء خليقة بالتأمل والتفكير ثم ... ثم ما يلبث ان يهينك ويشتمك كأبسط فلاح لا كنبيل يحمل وساماً رفيعاً . وكانت لنوزدريف هذه الهواية الغريبة وكان يؤلم في الغالب اقرب المقربين اليه ، ومن الصعب على انسان آخر غيره ان يفتن في ابتداء المحادثات التي يرتكها ، فكان يمنع زواجا ويعطل صفقة تجارية هامة ولا يعتبر نفسه من أجل ذلك عدواً لك ، بل على العكس ، إذ انه

إذا جمعتك به الصدفة مرة أخرى اقرب منك بتودد وإخاء وخاطبك بلطف :
« انك لست لطيفاً ... لانك انقطعت عن زيارتي . »

وكان نوزدريف الى جانب كل ذلك يدعو اصدقاءه للذهاب الى اقصى المعمورة ويناقش صفقة تجارية ويقايض باي شيء : بنادق او خيول او اي شيء آخر ، وليس كل هذا حباً منه بالمقايضة بل لارضاء طبيعته القلقة . وكان اذا ما نجح في السوق بخداع أحد البسطاء ، يندفع في شراء جميع مايقع عليه بصره في حوانيت المدينة من أغنة خيل الى العنب المجفف الى المناديل وأدوات الزينة والتبغ بشكل ينفق معه جميع ما ربحه . ولكنه نادراً ما كان يعود بهذه الاشياء الى البيت ، اذ أنه يخسرهما في المقامرة مع لاعب أشد منه خبثاً ، وكان عليه فوق ذلك ان يراهن على حوائجه الشخصية فكان كثيراً ما يخسر عربته وجياده والحوذي ، فيعود اذ ذاك الى بيته بمعطف قصير وعربة معارة من صديق رؤوف . ذلك هو نوزدريف ، وربما يقول بعضهم ان هذا النوع من البشر لم يعد موجوداً في عصرنا ، ولكن من يعتقد بذلك يمكن لسوء الحظ واهماً لان نوزدريف سيحيا دوماً بين ظهرانينا ، ولكنه لن يرتدي نفس الحلة دائماً فلا يعرفه الناس لضعف ملاحظتهم .

ووصلت العربات الثلاث اخيراً الى بيت نوزدريف ولم يكن شيء معداً لاستقبال المسافرين . وكان داخل غرفة الطعام فلاحان فوق كرسيين يطلبان الجدران وهما يدمدمان اغنية طويلة . وكانت الارض متسخة بالطلاء الابيض وألقى نوزدريف بالفلاحين مع كرسيهما الى الشيطان وذهب لالقاء بعض الاوامر . وسمعه الضيفان يأمر باعداد العشاء فاستاء تشتشيكوف لذلك لان العشاء لايجب ان يقدم قبل الساعة الخامسة في حين كان هو نفسه جائعاً جداً . وعندما عاد نوزدريف دعا صديقيه لزيارة املاكه ، وفي خلال ساعتين اطعماهما على كل شيء حتى على اصغر الدقائق .

بدأ قبل كل شيء بالاصطبلات و كان فيها مهران :الاول رمادي والآخر
أشقر كما كان هناك حصان اسمر اللون قال عنه نوزدريف إنه اشتراه بعشرة
آلاف روبل في حين قال له صهره :
- انت لم تدفع عشرة آلاف روبل ثمناً لهذا الجواد فانه لايساوي
ألف روبل .

- اقسم لك اني دفعت عشرة آلاف .

- اوه ... انك تستطيع ان تقسم الايامين بالقدر الذي تريد .

- فلنراهن على ذلك ... هل تريد ؟

ولكن ميجويف رفض الرهان .

ثم توجه الاصدقاء الثلاثة الى الاصطبلات الفارغة التي كانت حافلة في يوم ما
بالجياذ الجميلة ، و كان هناك وعل ، لان الاساطير القديمة تعتبر وجود الوعل
بالقرب من الجياد فألاً حسناً . ثم فاجأ نوزدريف ضيفيه بمشاهدة ذئب
صغير وقال :

- اني أغذيه باللحم الذي عهداً لاني اريد ان يصبح حيواناً ضارياً .

ثم جاء دور المستنقع وقد اعلن نوزدريف ان فيه أسما كما بلغت من الضخامة
حداً يقتضي جهد رجلين معاً ليستطيعا حمل سمكة واحدة وقد اعلن ميجويف
بدوره شكه في هذا الامر . فقال نوزدريف :

- والآن سأريك يا تششيكوف كلاباً مدهشة .. لكم هي جميلة وقوية

الشم تلك الكلاب ، وما من أحد من الجيوان يملك مثيلاً لها .

و كانت هذه الحيوانات موضوعة في باحة مسيجة من شتى نواحيها ، وعندما
دخلها الاصدقاء الثلاثة شاهدوا فيها كلابا من شتى الاجناس والألوان والاشكال
تقفز وتنبج وتركض هنالك وهنا وترجر رافعة باذيلها الى الأعلى او خافضتها
الى الاسفل او جاعتها بصورة افقية . و كانت اسماؤها : ستريلاي واويروجاي

وناجراد وبوجار بما يتفق مع صفاتها الاساسية : سرعة ، اهانة ، تاج ، حريق .
وجاءت الكلاب كهاتم تحيي سيدها بنباحها الفرح ووضع عشرة منها
قوائمها على كتفي نوزدريف ثم عبرت عن نفس الاحترام لثشتشيكوف اذ
وقفت على قوائمها الخلفية واخذت تلعق وجه بافل ايفانوفتش . ثم اخذ
الاصدقاء يتحدثون عن قرة هذه الكلاب فقالوا :
- انها لكلاب جميلة .

ثم زار الاصدقاء كلبه عبياء وقال عنها نوزدريف انها لن تعيش طويلاً
ولكنها تؤدي له خدمات عظيمة منذ سنتين .

ثم ذهبوا بعد ذلك الى الطاحون وكانت تقع بالقرب من مجرى مائي قوي
ولكن هذه الطاحون ينقصها الكثير من القطع . وهتف نوزدريف :
- والآن الى معمل الجدادة .

ومشوا خطوات فشهدوا معمل الجدادة وبعد ان زاروه قال نوزدريف :
- اثريان هذا الحقل .. انه مليء بالارانب لدرجة انه لا يمكن معه رؤية
الارض ، وقد امسكت بنفسي احد هذه الارانب من قائمتيه الخلفيتين :
فقال ميجيوف :

- منذ متى وانت تملك هذه الغابة ؟ هل اشتريتها حديثاً ؟ انها لم تكن ملكاً
لك من قبل .

- أجل لقد اشتريتها منذ أمد قصير

- ومتى كان ذلك ؟

منذ ثلاثة ايام وقد دفعت ثمنها غالباً .

- ولكنك كنت في السوق خلال هذه المدة .

- ألا يمكن للإنسان اذا كان في السوق ان يشتري ارضاً ؟

لقد اشتراها وكيلي اثناء وجودي في السوق .

فهز ميجيوف برأسه مشككا ثم قال :

— آه .. وكيف ؟

وعاد الاصدقاء الثلاثة بعد ذلك الى البيت عن نفس الطريق وقادوزدريف ضيفه الى غرفة عمله ولم يكن لهذه الغرفة من شكل الغرف غير الاسم ، فليس فيها كتب ولا اوراق بل كل ما كانت تحوية انما يقتصر على بضعة اسياف ، وبندقيتين تساوي احدهما ثلاثمائة روبل والثانية ثمانمائة على ذمة نوزدريف ، وبالطبع فان ميجيوف ابدى شكه بالسعر بعد ان فحصها ، ثم ان نوزدريف اراهما خناجر قال انهما من تركيا ولكن لسوء الحظ كان احدهما مكتوباً عليه اسم صنف روسي « سافيلي سيبيرياكوف » كما اراهما ايضاً ارغناً بربرياً عزف عليه قطعة موسيقية .. ثم ماذا حصل بعد ذلك ؟ كانت يجب ان تنتهي القطعة باغنية « مالبوروف ذاهب الى الحرب » ، ولكن هذه الاغنية انقلبت فجأة الى فالس ، ثم انتقل الاصدقاء الى رؤية الغلايين وكانت هذه من جميع الاجناس منها ماصنع من الطين ومنها ماصنع من الحشب .

وتناول بعد ذلك الجميع المقبلات وباشروا العشاء ، ولم يكن لبدو على نوزدريف الاهتمام بالطعام إذ ان المأكولات لم تكن مهيئة باعتناء فكان لون من الطعام يصل محترقاً بينما يصل اللون الآخر قبل ان ينضج ، وكان الطاهي يتصرف حسب هواه فاذا وجد بهاراً وضعه في الطعام واذا وجد ملفوفاً وضعه وكذلك إن وجد الحليب او اللحم ، وتختلط جميع هذه الاصناف بغير نظام ولكن شريطة ان تكون ساخنة لان الطاهي يرى ان هذا يبعث على الشهية .

واستعاض نوزدريف بالتمر عن الطعام فتناول الاصدقاء قدحاً كبيراً من البورتو قبل الحساء ثم شربوا النبيذ الابيض الفاخر وقدمت بعد ذلك أفخر انواع المادير وكان طعمه يروق لفهم ، وتجار الخمر الذين يعرفون ذوق الملاكين كانوا

يضيفون مقادير كبيرة من الروم والفودكا الى المادير ، ثم امر بعد ذلك نوزدريف بتقديم زجاجة خاصة ادعى انها مزيج من خمر البورتو والشمبانيا وكان يملأ كأسه صهره وتشتشيكوف دون اي ملل ، ولاحظ بافل ايفانو فقتش ان نوزدريف يشرب هو الآخر بسخاء فاستفاد من عدم انتباه مضيفه ليصب كأسه في صحنه ، ثم قدم نوع آخر من الخمر قال عن طعمه نوزدريف بانه يشبه الخوخ غير ان ضيفه لاحظ ان طعم الكحول في هذا الخمر قوي جداً ، وقدم اخير نوع آخر من الخمر اطاق عليه نوزدريف كعادته اسماً غير اسمه الحقيقي .

وانتهى العشاء وما زال الاصدقاء الثلاثة يشربون . ولم يكن تشتشيكوف يريد ان يفتح نوزدريف بالقضية التي تشغل باله امام ميجيوف . غير ان هذا الاخير ليس منه اي خطر إذ انه اكثر من الشرب حتى بدأ رأسه يترنج بشكل يدعو إلى الاسفاق وكان أنفه يغوص داخل صحنه . وقد لاحظ هو حالته تلك فاعلن بصوت متردد عن رغبته بالذهاب فصاح به نوزدريف :

— ولكن لن أدعك تغادرنا هكذا .

— لاتضايقني ... اني ذاهب ... في الحق انك تضايقني يا أخي .

— هذه حماقة ... هذه حماقة ... اتنا سوف نلعب .

— افعل ماتريد فلن امكث لان زوجتي ستغضب ويجب ان أروي لها

ما فعلته في السوق .

— لتذهب زوجتك إلى الشيطان ، ثم انه ليس لديكما امر هام للبحث .

— كلا يا أخي انها طيبة وأمينة ... انها زوجة مثالية وهي تؤدي لي من

الخدمات ما لا يستطيع ان تصوره ، بل اني لأبكي حين انذكرها ... كلا ...

لا تؤخرني ، اني اقول الحق .

فهمس تشتشيكوف في إذن نوزدريف :

— فليذهب إذن فانه لن يفيدنا في شيء .

فأجاب نوزدريف

— هذا صحيح ثم اني لا احب النفوس الخوارة .

وأضاف بصوت عال :

— حسناً لتحملك الابالسة ... اذهب لمناجاة زوجتك ايها الدجاجة المبيلة .

— انك واهم يا أخي فانا مدين لزوجتي بجيأتي ، انها طيبة ... وفاتنة . وان

ملاطفتها لي لتبعث في عيني الدموع . لسوف تسألني عما فعلته في السوق ، فيجب ان أقول لها كل شيء ... آه كم هي لطيفة معي .

— اذهب اليها وقص عليها الكاذبيك ... وخذ هذه قبعتك .

— انك لمخطيء يا أخي في نكران فضائلها ... انك لتهينها إذا لم تقدرها

حق قدرها ، فهي طيبة جداً .

— حسناً عجل الآن بالانصراف .

— سأنصرف يا أخي ... عذراً لاضطراري على مغادرتكما فقد كان البقاء

يسرني .

وبقي ميجيوف يردد هذا الاعتذار دون ان يلحظ انه اصبح وحده في

عربته التي كانت تجتاز الطرقات المغفرة . اما زوجته فان جميع ما لدينا يجعلنا

نعتمد جازمين انها لن تعلم شيئاً عما فعله زوجها في السوق .

وقال نوزدريف وهو ينظر إلى العربة تبتعد :

— ياله من حيوان قذر ... لقد ذهب أخيراً .

وأضاف :

— ان في حوزته جواداً قوياً احسده عليه ، ولكن لا يمكن التفاهم معه ...

انه دجاجة مبيلة ... دجاجة مبيلة بالفعل .

ثم انتقل الصديقان بعد ذلك الى غرفة نوزدريف فحمل يورفييري اليها

الشموع . ولاحظ تشتشيكوف على حين غرة ان بين يدي نوزدريف ورقاً

للعب ولم يدر من أين جاء به . قال نوزدريف :

- لنلعب كي نقضي الوقت ... ولتكن الضربة الواحدة بثلاثمائة روبل .
- فتظاهر تششيكوف بأنه لم يسمع شيئاً وهتف كأنه تذكر شيئاً هاماً فجأة :
- آه ... كدت انسى ... اني امالك شيئاً .
- ماهو ؟
- اقسم اولاً انك ستلييني .
- ليكن .
- اتقسم بشرفك ؟
- اقسم لك بشرفي .
- إذن اليك هذا الامر : انه لديك عبيد موتى لم تحذف اسماءهم من قائمتك منذ الاحصاء الاخير .
- أجل ولماذا ؟
- سجلهم باسمي .
- لماذا ؟
- اني احتاجهم ... وهذا يتعلق بي ... والخلاصة اني اريدكم لي .
- ان وراء هذا الامر غاية ... ماهي ، هيا اعترف !
- ولماذا تكون هناك غاية ؟ ثم انه لا توجد اية فائدة من هذا الامر فماذا تريد ان اضمرك .
- إذن لماذا أنت محتاج إلى العبيد الموتى ؟
- ياله من فضول ... انه يريد ان ينبش الاقدار باصبعه ثم يشمها .
- ولكن لماذا ؟ ألا تريد ان تقول لاي سبب انت تريدكم ؟
- انك لن تفيد شيئاً من معرفة السبب فهذا امر خاص بي .
- هكذا اذن ؟ حسناً لن افعل شيئاً مادمت معتصماً بضميتك .
- ولكنك اقسمت بشرفك .

- لا يهمني ذلك اذ لن افعل شيئاً دون ان اعرف السبب .
وفكر تششيكوف : « ماذا اقول له » وبعد ان فكر دقيقة قال إنه
بحاجة الى النفوس الميتة ليرفع من قيمته في نظر الناس ذلك انه لا يملك مساحة
كبيرة من الاراضي .

فهمت نوزدريف مقاطعاً :

- انك تكذب .. انك تكذب يا اخي .

واعترف تششيكوف بينه وبين نفسه ان التعليل غير معقول فقال :
- حسناً سأحدثك بصراحة .. اني اريد الزواج واسرة خطيبتي كثيرة
المطالب ... اني اجتاز امتحاناً وهذا أمر مزعج .. ان اسرة خطيبتي تريد مني
ان املك ثلاثمائة عبد وبما انه ينقصني مائة وخمسون .

فصاح نوزدريف مقاطعاً ايضاً :

- انت تكذب .. انت تكذب .

فأجاب بافل ايفانوفتش وهو يقوم بإشارة من اصبعه .

- لا .. لا .. لم أكذب الآن .

- اراهن على ضرب عنقي بانك تكذب .

- انك تهينني ... ولماذا تريدني ان اكذب .

- اني اعرفك ... فانت محتال ... اسمح لي ان اقول لك هذا بكل

حب وإخاء .. ولو اني كنت رئيساً لك ، اذن لشنقتك على اول شجرة
أصادفها .

وأثارت هذه العبارة تششيكوف ، إذ ان المساس بكرامته يزعجه فلم يكن
ليسمح لأحد ان يمسه الا إذا كان من طبقة عالية ولذا لم يستطع اخفاء غضبه ،
وردد نوزدريف :

- اقسم لك باني كنت اشنقتك ... واني لأقول لك هذا بكل اخلاص .

لا لأهينك ولكني أقوله بيننا فقط وبكل محبة وإخاء .

فأجاب تشتشيكوف برزاته :

- انه لكل شيء حدود ... وإذا شئت استعمال هذه الالفاظ فاذهب الى

ثكنات الجيش ... ثم اضاف بعد لحظة صمت :

- إذا لم نشأ ان تهديني نفوسك الميتة فبعني اياها .

- أبيعها ؟ ... اني اعلم بانك وعد وانك لن تعطيني كثيراً من أمواتي .

- اوه ... تخابث كما يطيب لك ، انك تعلم ان نفوسك الميتة لاتساوي

جواهر ثمينة .

فقال نوزدريف :

- أرايت ؟ اني اعرفك جيداً .

فهتف تشتشيكوف :

- ان لك تفكير اليهودي ... كان يجب عليك ان تهني اياها دون مقابل .

- حسناً فليكن سأعبك هذه النفوس لأبرهن لك على لطفي ولكنك ستشتري

مني جوادي :

فأجاب تشتشيكوف وقد أذهله هذا الاقتراح :

- ولكن ماذا تريد ان افعل بمحسانك بحق الشيطان ؟

- ولكن كيف ذلك ؟ لقد اشتريته بعشرة آلاف روبل وسأبيعك اياه

باربعة آلاف .

- لست بحاجة الى الحصان لانه ليس لدي اصطلب .

- انك لاتقهرني جيداً .. سأخذ منك اليوم ثلاثة آلاف روبل وأما الالف

الباقى فتدفعه لي فيما بعد .

- ليذهب الشيطان بمحسانك ، اني لست بحاجة له .

- اذن فستشتري مهري الاشقر .

- لا اريد مهراً .

- اسمع ، خذ المهر والجوادر الرمادي الذي شاهدته بالفني روبل فقط .

- لست بحاجة الى جياذ .

انه باستطاعتك ان تبيعها في اول سوق تصل اليه وسيدفعون لك ثلاثة اضعاف هذا المبلغ .

فقال تششيكوف :

- بعها بنفسك طالما انك على ثقة من ربح ثلاثة اضعاف ما تطلبه مني .

- اني استطيع ان اربح هذا القدر بكل تأكيد ولكنني اريد ان شركك بالفائدة .

فشكر تششيكوف صديقه على كرمه ولكنه رفض جميع عروضه رفضاً قاطعاً .

فقال نوزدريف :

- اذن ستشتري مني كلابا ... سأبيعك زوجاً يحوز على اعجابك ، انهما كلبان أصيلان قويان رشيقان بحيث يمران في كل مكان دون ان يتركا أثراً على الاطلاق .

- لست احتاج الكلاب لاني لاأصيد .

- ولكنني اريد ان يكون لديك كلاب ... ومع ذلك اذا لم تشأ ان تشتري مني الكلاب فستشتري الارغن البربري وانت تعلم انه وحيد في نوعه .. لقد كلفني الف وخمسمائة روبل وسأبيعك اياه بتسعمائة فقط .

- لست بحاجة الى ارغن ... كما اني لست المانياً لاجول الدنيا مستجدياً .

- ولكنه ليس ارغناً من النوع الذي يحمله الالمان .. انه من خشب الاكاجو وسأريك اياه كرة اخرى .

وامسك نوزدريف بيد تششيكوف وأرغمه دون ان يلقي بالاً الى مقاومته

على الاستماع الى انشودة « مالبوروف ذاهب الى الحرب »

- اسمع .. اذا لم تشأ ان تدفع نقداً فاني سأعطيك الارغن ونفوسي الميتة
فتعطيني مقابلها عربتك وثلاثمائة روبل .
- لا ينقصني الا هذا ! وكيف أعود ؟
- سأعطيك عربة اخرى .. تعال الى الاصطبل لأريك اياها وما عليك إلا
ان تعيد طلائها فتصبح جديدة .
- وفكر تششيكوف : « من اى جنس شيطاني هذا الانسان » وقرر رفض
جميع عروض نوزدريف ، فقال الاخير :
- وهكذا تأخذ الارغن والنفوس الميتة والعربة .
فأجاب تششيكوف :
- لا اريد شيئاً .
- ولماذا ؟
- لاني لا اريد شيئاً ، ولا فائدة من الالحاح .
فقال نوزدريف :
- ان طبعك غريب .. انه لا يمكن التفاهم معك كالأخرين .. ما أنت
الا منافق .
- آه ! ولكنك تظنني مغفلاً ... احكم بنفسك : لماذا آخذ شيئاً لا يفيدني .
- يمكنك السكوت ... اني اعرفك الآن ... لست إلا ندلاً ... اسمع
منلعب الآن بالورق ، وسأراهن على الارواح الميتة والارغن .
- اللعب بالورق معناه الاستسلام للمجهول .
والقى تششيكوف نظرة خفية على الورق الذي يحمله صديقه فبداه ان
بعض الاوراق فيها رسوم مشوهة . وأردف نوزدريف :
- ولماذا المجهول ؟ ان المجهول معدوم ، فاذا ابتسم لك احظ بمكنت من
ان تربح ما تريد ، واضاف وهو يعبث بالورق ليشير رغبة صديقه .

— تلك هي السعادة ... هاهما الشابان الديناريان ، وتلك هي التسعة المعينة التي جعلتني اخسر في المرة الماضية . لقد كنت اعلم بانى خسرت ولكني تابعت اللعب رغم ذلك وأنا اقول في نفسي : « ليذهب بك الشيطان ايها التسعة المعينة أنت تودين خراي » .

وفي هذه الاثناء قدم الخادم يورفيرى يحمل زجاجة غير ان تشتشيكوف رفض رفضاً باتاً ان يشرب ويلعب ، فعاد نوزدريف إلى السؤال :

— ولكن لماذا لا تريد أن تلعب ؟

— ذلك لأنني لا ارجب بذلك اولاً ولأنني لست مغامراً بالدرجة الثانية .

— وكيف يمكن للانسان ألا يحب اللعب ؟

فرفع تشتشيكوف كتفيه وقيم : « أنا لا احب اللعب » .

— ايها الحيوان القذر .

— لا فائدة ... فقد خلقتني الله هكذا .

— في الحق انك حيوان ... لقد اعتقدتك انساناً شريفاً ، ولكن لا فائدة من الكلام معك إذ ليس لك قلب ... انت حيوان مثل سوبا كيفيتش .

— ولماذا الالهانة ... اني لا ارجب بالمقامرة ولست في هذا مجرماً ، اما نفوسك الميتة فبعني ايها طالما انك تريد الافادة مما لم يعد من هذا العالم .

— بحق الشيطان هذا ما سأعطيكه ... لقد كنت اود ان اقدم لك نفوسي الميتة دون مقابل اما الآن فيمكنك التأكد بانى لن أعطيك شيئاً . انك تستطيع ان تعرض علي ثلاث بمالك ولكنك لن تحصل على شيء ... آه يالك من وغد ... يالك من كلب ... لست اريد التعامل معك .

ثم توجه نوزدريف إلى يورفيرى وقال له :

— اذهب الى الاصطبل وقل لهم ألا يقدموا علفاً للحياد فعلقها يكفيها .

ولم يكن تشتشيكوف ينتظر ان ينتهي الحديث هكذا ، وازاف نوزدريف :

- كان افضل لك ان تبقى حيث كنت .

ومع كل ذلك فقد تناول الصديقان العشاء معاً غير ان نوزدريف لم يقدم خمرأ. وقاد اخيراً رب المنزل ضيفه الى غرفة كانت معدة لاستقبال الضيوف وقال له :
- هاهو سريرك ولكني بكل تأكيد لا أنمي لك ليلاً سعيداً .

وظل تشتشيكوف وحده بعد ذهاب نوزدريف وكان حانقاً على نفسه لانه قبل دعوة نوزدريف فضيع وقتاً ثميناً . والخطر من ذلك انه وثق برجل كنوزدريف في مقدوره ان يكذب ويضخم الامور ويخترع ويقيم ضجة كبيرة حوله . وكان بطلنا يقول في نفسه « لست إلا مغفلاً » . وقضى ليلة سيئة للغاية وكانت الحشرات تلذعه طيلة ليله فكاد يخاطب هذه الحشرات مردداً دوماً :
« فلتذهب الالباسة بك انت ونوزدريف » .

واستيقظ في الصباح الباكر فمضى حالاً الى الاصطبل وأمر سليفان باعداد العربات على الفور وفيما هو يعود الى المنزل صادف نوزدريف يتنزه وغلبونه في فمه ، فحياه هذا وسأله عن ليلته فرد تشتشيكوف بجفاء :

- لم تكن ليلة سعيدة .

فقال نوزدريف :

- اما أنا يا اخي فلن اضجرك بالحديث عن هذه الحشرات الحبيثة التي كانت تنهشني طيلة الليل . تصور اني قد حملت بان هناك من يجلدني ... ولكن من الذي يفعل ذلك ؛ انك لن تعرف هذا ابداً ... انه كان بوتسلويف وكوفشينكوف .

فقال تشتشيكوف في نفسه : « انك تستأهل ان تسلمح حياً »

وتابع نوزدريف :

- لقد تألمت ... وأصابني القلق ... لقد كنت بالفعل متأماً إذ ان هذه

البراغيث القذرة كانت تنهشني . اذهب وارند ملابسك الآن وسألق بك في الحال ولكن يجب ان اذهب إلى المزرعة قبل وكيلي الوغد .

وضعد تشتشيكوف إلى غرفته وارندى ملابسه وعندما ذهب إلى غرفة الطعام وجد الشاي معداً مع زجاجة من الروم ، وبقايا الغذاء والعشاء . ويبدو ان المكنسة لم تكن لتصلح لشيء في هذا المنزل ففتات الخبز والرماد واعتقاب السجائر ، كل ذلك كان يملأ أرض الغرفة . ولم يتأخر نوزدريف عن المجيء ولكنه لم يكن يرتدي شيئاً تحت ثوبه المنزلي فكان صدره عارياً ويحمل بيده غليوناً شرقياً طويلاً فيقدم بذلك نموذجاً جيداً للرسمين الذين يكرهون الوجوه الموردة المصفقة الشعر المشابهة للوجوه المعروضة في واجهات الحلاقين .

وسأل نوزدريف :

- أتريد ان تراهن على نفوسي الميته أم لا .

- لقد قلت باني لا اقامر .. لذا سأشتريها منك .

- انا لا أبيعها فلا تجارة بين الاصدقاء ولا اريد ان اجني ارباحاً في بضاعة

كهذه .. اما في اللعب فالامر يختلف .. هيا بنا اقطع :

- اني ارفض .

- ولن تغير رأيك ابداً ؟

- ابداً .

- حسنأً فلنلعب (بالضاما) .. واذا رجحت فأرواحي الميته لك .. يا بورفيوري

اعطني لوحة الضاما .

- لا فائدة من ذلك فلن لعب .

ولكننا لن نلعب بالورق .. فليس هنا حظ ولا خداع ؛ فاما ان يجيد

الانسان اللعب اولا يجيده ، وبعد فانا من الذين لا يجيدون اللعب ولذلك سأطلب

منك ان تعطيني بعض الاحجار سلفاً .

وفكر تشتشيكوف: « سألاعبه ، اني لست ضعيفاً في هذه اللعبة ومن الصعب جداً ان يغشني » ثم قال بصوت مرتفع:

- حسناً فلنلعب .

- اذن فنفوسي الميته مقابل مائة روبل .
- ولماذا المائة .. ان خمسين روبلا تكفي .
- انت تمزح .. خمسون .. اريد مائة روبل ، امانفوسي الميته فاني سأزيد عليها كلباً كبيراً وهذا الخاتم الذهبي .
- حسناً قبلت

- وكم نقطة ستعطيني سلفاً .
- لاشي* .
- اعطني نقطتين على الاقل .. دعني العب مرتين باديء الامر عوضاً عن المرة الواحدة .

- ولماذا فانا ايضاً لا اعيد اللعب .
فقال نوزدريف وهو يرفع حجراً الى الامام .
- آه ان هذه الاحجار الملعونة لا تجيد اللعب .
فأجاب تشتشيكوف وهو يدفع حجراً بدوره :
- لقد مضى علي زمن طويل ولم العب .
وفي تلك اللحظة كان نوزدريف يحرك حجراً ويدفع آخر بطرف كره .
ونتم تشتشيكوف .

بلى زمن طويل ثم اضاف :
- ولكن هل تسمح بان تعيد الحجر الى مكانه؟ .
- اي حجر؟ .
- هذا .

وفي نفس اللحظة لاحظ بافل ايفانوفتش ان حجرة ثالثاً كان يتقدم مسرعاً
الكثير بما يجب ليصبح ضاماً، ولكن من أين جاء؟ ان الله وحده هو العليم بذلك .
فهتف :

— كلا من المستحيل ان يلاعبك المرء ، فاني لم اشاهد في حياتي لاعباً
يحرك ثلاثة احجار دفعة واحدة .

— ولماذا ثلاثة؟ هذا خطأ ... سأعيد هذا الحجر الى مكانه .
— والآخر .

— أي آخر؟

— هذا الذي اصبح ضاماً .

— كانك لاتعرف ان هذا مكانه الحقيقي .

— كلا يا صديقي فأنا اذكر سير اللعب جيداً ... هو ذا مكان هذا
الحجر الحقيقي .

فهتف نوزدريف وقل احمار وجهه :

— كلا هذا غير صحيح .. ولكنك تحسن الكذب .

— انما الكاذب انت يا اخي .. انك لن تخدعني .

— ولكن من تظنني؟ انك تعتقد بأني اغش في اللعب .

— انا لا اظنك شيئاً .. ولكنني لن أتابع اللعب .

فصاح نوزدريف بغضب :

— لقد ابتداء اللعب ولا حق لك بالانسحاب .

— هذا من حقي لانك لاتلعب كإنسان شريف .

— انت تكذب ... انت تكذب .

— بل انت الذي لاتقول الحق .

— انا لم أغش وستتابع اللعب .

فأجاب تشتشيكوف ببرود :

- لن تستطيع ارغامى على ذلك .

وبحركة فجائية ، نثر الاحجار ، فشار نوزدرىف وقفز نحو بافل ايفانوفتش
فأخّر هذا مقعده قليلاً .

سأرغمك على اللعب معى . . انى اذكر موضع الاحجار جيداً وسأعيدها
الى مكانها .

- لافائدة من ذلك فلن اعود الى اللعب .

اذن فانت لاتريد ان تلعب ؟

- انك تعرف جيداً بانه لايمكن اللعب معك .

فكر نوزدرىف وهو يزداد اقتراباً من تششيكوف :

- اجب أتريد اللعب أم لا ؟

فاجاب هذا وهو يرفع يديه كأنه يريد حماية وجهه .

- انى ارفض .

وكانت حركة تششيكوف ضرورية إذ ان نوزدرىف قام بحركة عنيفة كان
من شأنها ان تهين شرف خدي بطلنا ، ولكنه تجنب الضربة وامسك بيدي
نوزدرىف معاً وشده بعنف :

فزجر نوزدرىف وهو يحاول التخلص .

- بورفيرى . . بافلوشكا . . الى . .

وعند هذه الصرخة لم يشأ تششيكوف ان يشهد الحدم هذا المنظر المغري
فاعاد الى نوزدرىف جريته ، ودخل في تلك اللحظة بورخيرى وبافلوشكا وكان
هذا الاخير عملاقاً يدفع من يفكر بالاشتباك معه الى التأنى والتأمل .
وردد نوزدرىف غاضباً .

- اذن فانت لاتريد ان تتابع اللعب ؟

- لقد كنت اتابعه لو انك تلعب كانسان شريف .

— انت لا تريد ان تلعب ايها الشقي لانك كنت خاسراً .

ثم هتف بالخدامين .

اضرباه .

وتسلح هو بغليونه الطويل .

وهنا شحب لون تششيكوف فاراد ان ينطق بشيء غير ان شفتيه ارتعشتا

قبل ان يتلفظ بكلمة ، وهتف نوزدريف وقد خرج عن وعيه .

— اضرباه ، اضرباه .

وكان في شكاه هذا اشبه بملازم يهاجم قلعة وهو يرى امامه شيخ الجنرال سوفوروف فيصيح بجنوده : « الى الامام ايها الرفاق ؛ ولكن إن كان نوزدريف يشابه هذا الملازم فان خصمه كان اضعف من التشبه بالقلعة المنيعه ؛ ذلك ان روح تششيكوف سرعان ما هربت من جسمه لتختبي تحت قدميه ؛ وأما الكرسي الذي كان يجتمي به فقد اصبح في حيازة العدو ، وفيما كان ينتظر وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة ، ان تنهال عليه الضربات رن جرس في الخارج وعلت ضجة وقوف عربة امام المنزل وتسرب صوت ترجيع نفس الجياد الى الداخل ، وبجركة غريزية اتجهت انظار الجميع نحو النافذة ، وترجل من العربة رجل بشارين كبيرين يرتدي ملابس نصف عسكرية ونصف مدنية ، وبعد ان استفهم من الرواق عما يريد دخل الغرفة بينما كان تششيكوف الذي لم يستعد شجاعته بعد يشبه المحكوم عليه بالاعدام .

وتظر المجهول كالمشدود الى رب البيت الذي كان يرفع غليونه عالياً كأنما

يريد ان يضرب به احداً وسأله ؟

— من منكم السيد نوزدريف ؟

ثم اخذ يتأمل في تششيكوف الذي بدأ يعود اليه وعيه شيئاً بعد شيء وقال :

— الى من أتشرف بالحديث .؟

فأجاب نوزدريف وهو يقترب منه :

- حبذا لو تفضلت بالاجابة عن نفس السؤال اولاً .

- اني الكابتين رئيس بوليس المنطقة .

- وماذا تريد ؟

- جئت أعلمك اني تلقيت امراً بتوقيفك حتى ينظر القضاء في الدعوى المقامة

عليك حديثاً .

فهتف نوزدريف :

- اية دعوى هذه ؟ وما هذه الحماقة !

- انك ضربت الملاك ماكسيوف وانت مثل بقضيب حديدي والتحقيق

مازال جارياً في هذا الموضوع .

- انت كاذب ، فانا لم اصادف في حياتي رجلاً بهذا الاسم .

- اسمح لي ياسيدي ان الفت نظرك الى اني ضابط بوليس ، وهذه الطريقة في

الحديث يمكنك ان تستعملها من خدمك لامعي .

واما تششيكوف فقد انقض على قبعته دون ان ينتظر رد نوزدريف

وتسلل من وراء الضابط ثم قفز الى عربته وامر سليفان ان يطلق لجياده العنان .

الفصل الرابع

حقاً ان بطلنا قد قاسى من الخوف ما يورث الجنون ، ومع ان العربية انحدرت بكل سرعة ممكنة ، ومع ان قرية نوزدريف اصبحت منذ زمن غير قليل بعيدة عن الانظار ، مختبئة وسط الحقول الخضراء وخبايا الارض والتلاع ، مع كل ذلك فقد ظل بافل ايفانوفيتش يتلفت خلفه بين الحين والحين وهو يظن انه مطار د . لقد كان يتنفس بصعوبة كبيرة ، وكان يشعر بقلبه يخفق وينتفضع عندما يضع عليه يده كعصفور سيء الحظ مسجون في قفص . أخذ يفكر : « آه ! يالها من سورة حنق اخذت علي السبيل » ثم جعل يصب آلاف اللعنات بصوت خافت فوق رأس نوزدريف . وهذا طبيعي ، فهو روسي وفوق ذلك في حالة غضب شديد ! وقال ايضاً في نفسه : « المهم هو انه لولا هذا الضابط لما ظلمت حياً ارزق في هذا العالم ، لولاه لاختفيت كفقاعة هواء داخل الماء ، دون ان اترك اي أثر او وارث او وصية للاولاد المقبلين او ارث او اسم عاطر » . وهكذا راودته فكرة النسل فاهتم بها اهتماما كبيراً .

وأخذ سيلبغان من جهته يفكر ايضاً « يالهذا المعلم البائس ! لم أر في حياتي ما يشبهه ، ولقد بصقت في صفحة وجهه وانا جدمسرورو لو استطعت ، لقد اتبع هذا اللعين نظاماً هو ألا يطعمني شيئاً كما ان علف الخيول قد نفد ... »

وحتى الحيول ، الحيول نفسها لم يكن رأيا حسناً بنوزدريف ، فزاج هذه
البهائم الثلاث كان سيئاً للغاية ، ولم يكن لدى سيليفان ما يقدمه لها الا الشوفان
الرديء ، مما جعلها تضطرب كثيراً وتطلق صرخات متوحشة مخيفة ، ولكنها
اخيراً ، وبعد ان يئست من وجود علف أجود ، أكلت من ذلك الشوفان بينما
العكس يجري عند نوزدريف .

وبرزت مفاجأة عنيفة في سير القصة وضعت حداً لهذا الوضع السيء المسيطر
على الجو ، مفاجأة قوية وغير منتظرة . كانت صدمة قوية جبارة جعلت الجميع
حتى الحوذي ايضاً يرتدون الى الخلف بعنف عندما اصطدمت بهم عربة تجرها
سته جياد اصطداماً مروعاً ، وعلت بالقرب منهم ضجة الوعيد مختلطة باصوات
نسائية انسابت الى أذني سيليفان وارتاحت فيها . ثم نبج حوذي العربة الجديدة
قائلاً : « ايه ! بالك من حيوان قدر ، لقد طلبت منك ان تتجه الى يمين الطريق ،
فما فعلت ، أأنت ثل ! واستفاق سيليفان من أثر الصدمة ، وكان كجميع الروس
لا يعترف بخطئه إذا وقع فيه امام الغرباء ، فأجاب صارخاً بصوت أعلى :

— حسناً ! وأنت ؟ انك لتسوق ببلاهة وحمق دون ان تنظر أيان تذهب !

لقد اضعت بلاريب عينيك في قعر زجاجة داخل الحانة !

وحاول سيليفان ، وقد اختلطت العربة الاولى بالثانية مع جميع الحيول ،
ان يستخلص عربته بالتقهقر بجياده بعض الخطوات الى الخلف ، ولكن كل شيء
كان متشابكاً ببعضه بشكل مخيف ، واستثم الجواد المنتمر فرحاً راحة اصدقائه
الجدد فارتاح اليها .

اما فيما يتعلق بالسيدتين الموجودتين داخل العربة الاخرى فان آية الرعب
قد ارتسمت على وجهيهما . كانت الاولى عجوزاً كبيرة السن والثانية شابة في
السادسة عشر من عمرها ، وقد تأطر وجهها اللطيف بشعر جميل مستوysl حتى
لكأن الوجه في شكله اشبه بالبيضة في بياضه وشفوفه ، اما الاذنان فكانتا

دقيقتين شفافتين وقد تخللتها حرارة منبعثة من لونها الضارب للزهر . وكانت شفاهها المنفرجة قليلا تجسم الذعر الذي انتابها . اما عينها فقد كانت مغرورقتين بالدموع . وكان كل ما فيها يفصح عن جاذبية عظيمة جعلت بطل قصتنا يسر قليلا مع العلم انه كان جد غريب عن كل ما حدث .

وصرخ الحوزي الغريب بما يشبه العواء :

- حسناً ! ومتى تريد ان تذهب عني ، ايها الغراب العجوز ؟

وجذب سيليفان الأئنة اليه وفعل الآخر فعله ، فتراجعت الجياد الى الخلف ثم تقدمت من جديد ، لتتشابك تلك الجياد والاعنة من جديد بصندوقي العربية . وكأنما اصاب هذا الحادث هوى في نفس الجواد المتمنر الهائج فرفض تنفيذ أوامر سيده ووضع مخطمه فوق رأس صديقه الجديد ، ليزجي له ، بلا ريب ، عواطفه الحارة .

بينما أخذ الاخير يحرك أذنيه علامة السرور . وعلى اصوات هذه الضجة الكبيرة جاء فلاحو القرية المجاورة مسارعين . ان مثل هذه الانماط من المشاهد تخلف في نفس الفلاح الروسي السرور نفسه الذي تخلفه نوادي السمر في الالمان وتجمع غمر عظيم من هؤلاء الفلاحين حول هذه الكتلة المتلاحمة من الجياد والركاب والحوزية ، ولم يبق في القرية غير الشيوخ المقعدين وصغار الاطفال واستطاع القوم ان يعرفوا اخيراً صندوقي العربتين ، واخذوا يكيلون اللطمات المتتابعة للفرس الهائج حتى أجبروه على التراجع ، وفي لحظات قليلة كانت العربتان منفصلتين . وكأنما أثار الجياد غضب شديد من جراء ذلك ، او انها أرادت البرهان على عنادها الشديد ، فظلت على الارض جامدة مسمرة بالرغم من اللطمات الهائلة التي كالحا الحوزيان لها . فازدادت حماسة الفلاحين حرارة ، فأخذ كل بدوره يقدم رأياً : « حسناً لا بأس ، وانت يا آندريوشكا اجبر هذا الذي في اليمين على التقدم ، وانت ، ايها العم مبتيا لتصعد فوق الجواد الاوسط »

وتسلق العم ميتيا ، وهو كهل نحيل ، ظهر الحيوان بلحيته الروسية وقد حمل خشبة طويلة كانت تستعمل لحمل العديد من أسطل الماء المنزوح من البئر، فكان في وقتته تلك اشبه بقبة ناقوس القرية . وساط الحوزي الحيوانات من جديد ، ولكن عبثاً فعل ، فقد ذهبت جهوده أدراج الرياح وظلت الحيول محافظة على جمودها وكذلك العم ميتيا فانه ايضاً لم يتوصل الى اي شيء . وصاح الفلاحون : - صبراً ، صبراً ، لتذهب إلى اليمين ، وانت امها العم ميتيا فانت العم مينياي سيأتي لياخذ مكانك .

والعم مينياي ، فلاح عريض الكاهلين بلحية سوداء كاللحم ، وبطن منتفخ يتدحرج أمامه عندما يسير ، وقد اخذ هذا الانسان مكانا له فوق ظهر الفرس الذي مالبت ان ناه تحت ضغط ثقله . وصاح الفلاحون معاً : - والآن اضربه ، اضربه ، ولا تشفق على هذا الملعون الذي يأبى إلا المعاندة وعدم التحرك .

ولما لم يصلوا الى اي طائل ، جلس الاثنان على الفرس اليمين واخذآندروسكا مكان مينياي . غير ان الحوزي فقد صبره فطرد الفلاحين ، وحسناً فعل ، لأن الحيوانات البائسة اخذ العرق يتصبب منها بغزارة كما لو انها ركضت آلاف (الفرستات) فتوكها برهة لتأخذ قسطاً من الراحة ، ثم سارت من تلقاء نفسها . وفي اثناء هذا المشهد العجيب ، لم ينقطع بافل ايفانوفيتش عن التلمي من محاسن الشابة الغريبة ، ولقد حاول في كثير من المرات ان يدخل معها في مناقشة بسيطة ، ولكن المناسبة كانت دائماً نعوزه . وبينما كانت العربية تسيير كانت الشابة الصغيرة ، بتقاطيعها المنمنمة وخصرها النحيل ، قد أخذت في الاختفاء والتقلص كأنها الحلم ... وبدأ الطريق من جديد ، فهذه عربية وتلك زحافة ، كما اخذت الاصوات تنسجم مع سكوت الحقول التي تجتازها العربية .

في جميع معالم هذه الحياة، في الطبقات القيّمة، المتعفّنة، القدرة من المجتمع، تلك الطبقات المتلفعة بالبؤس، والفظاظة، وفي الطبقات الراقية، الجامدة على التقاليد وعدم المبالاة، في كل شيء من مظاهر الحياة، يحدث في لحظة ما، ان يبرز الجمال فيوقظ عند المرء احساساً حياً دائماً ومنذ اللحظة الاولى. في كل شيء، وبالرغم من الاحزان الذي يمتلي به وجودنا، تنبجس لمع من الافراح. فالغني ببطائنه المترفة وعدة جياده الذهبية، وخدمه الملمعين كالمرايا؛ هذا الغني عندما يجتاز قرية فقيرة صغيرة تكاد تكون مجهولة، لم ير فيها فلاحوها غير الفاقة والمرض، فانهم بلا ريب، سيظلون مشدوهين، وقبعاتهم بأيديهم، ينظرون من بعيد الى تلك العربة السماوية. مثل هذا الظهور الجمالي اللطيف الذي برز فجأة في قصتنا وعلى غير انتظار سرعان ما تلاشى بالسرعة نفسها التي ظهر فيها. وبطبيعة الحال لو كان في العربة عوضاً عن تشتشيكوف شاب في العقد الثاني من عمره، كمرشح ضابط مثلاً او طالب او معتمد جديد؟ فما هي الاحاسيس، يا ترى، التي لا تستوفز وتنتفض لتفضع دخيلته؟ يا لهي: انه بلا ريب سيجلس طويلاً في مكانه دون حراك، وسيثبت عينيه في المدى الغامض البعيد، ناسياً رحلته واتجاهه، ثم يتقرب من جيرانه قدر الامكان متحدثاً عن التوبيخات المحتملة بسبب تأخره، وعن عطلته والعالم وكل شيء.

ولكن بطلنا غير ذلك، انه انسان نضج سنه فأصبح ذا مزاج بارد يميل الى التفكير، فطبيعي ان يحلم ويتأمل، ولكن بشيء من الاناة، ولذلك كانت افكاره متزنة وايجابية: « بالمرأة الصغيرة العذبة »، قال ذلك وهو يفتح علبة سعوطه ليأخذ منها ما يحشو به انفه: ولكن ماهو الشيء الذي يجعلني مسروراً؟ انها شابة، وقد خرجت من مؤسسة تربوية حديثاً او انها تخرجت من المدرسة الداخلية، فهي لم تصبح بعد امرأة، بمعنى ان ما يكره عادة في المرأة لم يدخل في تكوينها بعد، انها كالطفلة، كلها بساطة وسذاجة، تقول ما يدور بخلدّها

وتضحك عندما تفرح ، مثل هذه الفتاة يمكننا ان نجعل منها مايدهش ، ومع ذلك فمن المحتمل ان تصبح مملّة ، وأخشى ماأخشاه ألا تنجو من الحواجز التي ستعترضها في هذا الطريق ، من اء اجب حتماً على امها وعمتها ان يشغلا نفسيهما بتأديبها وتربيتها ، فانها في ظرف سنة واحدة ستكتسب خلقاً جديداً ، جديداً في كل شيء . لدرجة ان والدها نفسه لن يستطيع التعرف عليها ، وستختفي بلا ريب جميع حركاتها الطبيعية بعد ان تتعلم النفاق والمراء ، وعند ذلك لن تكن صالحة على الاطلاق .

اخذ تلتشيكوف يتأمل قلبلاً ثم تابع حديثه مع نفسه ، لقد كان فضولياً عندما حاول ان يعرف عائلتها ، ومن يكون ابوها ؟ أهو ملاك غني أم رجل ساذج يتنعم برأسمال جيد جمعه من عمله ؟ واذا كانت هذه الفتاة تملك مائتي الف روبل كمهر لها ، عند ذلك .. يالها من قطعة صالحة للاقتناء ! وان أي رجل فاضل يستطيع ان يكون راضياً بها !

واختلطت المائتا الف روبل بقوة في خيال بافل ايفانوفيتش ، وانتهى من تأمله بان اعترف بينه وبين نفسه ان ماينقصه انما هو السلوك الجيد ، وقد وجد نفسه انه سيء الصورة امام الحوذي الذي استفهم بطبيعة الحال عن المسافرين وعرف عنهم كل شيء ، وبدأت منازل قرية سوبا كييفتش التي ظهرت في الافق تقترب من المسافرين ، ولحسن الحظ ان هذا الامر وجه افكار بافل وجهات اخرى واعاده لتذكر الغرض الذي جاء من اجله .

بدت اخيراً القرية امام ناظريه متسعة ، وكان يحيط بها غابتان من السندر والصنوبر من الجهتين كجناحي طائر .

وفي وسط تلك البلدة نهض منزل خشبي فيه فتحة شباك صغير ، سطحه احمر اللون وجدرانه رمادية ، واتخذ بذلك شكل عمارة بنيت خصيصاً لأجل المهاجرين .

من الجنود أو العناصر البروسية ، والناظر اليه يدرك حالاً ان مهندس ما اكثر
ما كان يدخل في شجار مع سيد المنزل واهوائه .

ذلك ان مهندس هذا رجل متصلب الرأي متغطرس يأبى الا ان يجعل
المنزل خاضعاً لما يسمى بالتناظر . بينما سيد المنزل يريد ابدأ الرفاهية والراحة
فيحاول مضطراً ان يثقب كوة في الجدار لاجل الاستعمال . ثم ان مقدمة
المنزل لا تنسجم مع الواجهة النصفية بالرغم من جميع الجهود التي بذلها
مهندسنا الفنان ، ولكن الامر بسيط اذ يجب هدم احد العواميد الاربعة
الثابتة فيها وكانت الساحة التي حول ذلك البناء مؤطرة بجواجز كبيرة صلبة
تبعث على الاستغراب والدهشة . ولكن يجب ان نفهم من ذلك ان صاحب
المنزل يعنى بالمئانة في كل شيء .

كانت هناك جسور ثقيلة عظيمة تستعمل لاجل بناء الاسطبلات والسقوف
والمطابخ فتبدو كأنما تريد مقاومة الزمان . ثم ان اكواخ الفلاحين كانت
مبنية بنفس الطريقة وقد حفرت لأجلها الاساسات القوية والعميقة . حتى البئر
نفسه جهاز بصخور قاسية مستديرة ، تصلح لأن تستعمل كبراج للمقاطعة او
أرحية للمطاحن . كان بافل ايفانوفيتش اينما ارسل انظاره يجد كل شيء مغلقاً
بنظام فيه شيء من الغلظة وعدم الانسجام .

وعندما اقترب من درجات المنزل لمح رأسين في احدى النوافذ يرقبانه :
الاول وجه امرأة على رأسها قبعة مستطيلة اشبه بالققاء ، والثاني وجه رجل
ضخم مستدير كاليقطين المولدافي . ولم يلبث الوجهان ان اختفيا باسرع مما
ظهرا . وبدا الخدم على رأس الدرج بكسائه الرمادي وعنقه المستقيم ، وفي
نفس الوقت جاء صاحب المنزل وادخل تشيتشيكوف متسلحاً بعبارته الدائمة
(ارجوك) الى الصالة .

ورمى تشيتشيكوف سوباكيفيتش بنظرة سريعة ؛ كان هذا الاخير اشبه
يدب متوسط الحجم ، وكانت ملابسه التي تستر جسده تساعد كثيراً في

تشكيل هذه المشابهة ، و كان كذلك رداؤه الخارجي له لون الدببة ، اما
اكامه فطويلة فضفاضة وكذلك سرواله فقد كان عظيم الاتساع . كان
سوبا كييفيتش يمشي وهو يدندن وكثيراً ، بل غالباً ما يدوس فوق اقدام
اصدقائه برجليه الغليظتين الثقيلتين . وكان وجهه مشبعاً بالحمرة . انه في العالم كثير من
الوجوه التي يبدو ان الطبيعة صنعتها على عجل دون جهد او مراعاة التناسق
باستعمال الازميل او المبرد او المثقب او بقية الادوات التي تصلح لهذا العمل .
واما فيما يتعلق بسوبا كييفيتش فيبدو ان الطبيعة قد اقتطعت مادته بضربات
الغفوس ؛ وخصت انفه بضربتين وفمه ضربة واحدة ، واستعلمت المثقب لحفر
عينيه ، واكتفت الطبيعة بهذه الضربات العاجلة دون تنقيح او تلميس واخرجت
صوتها المجلجل : « فليحيا » .

وعكذا فان تركيب رأس سوبا كييفيتش طبيعي ايضاً لذلك تراه منحنيّاً
دائماً تقريباً ليرى الارض لا ليرى السماء . كما ان سوبا كييفيتش بالاضافة الى
ذلك يحتفظ برأسه دوماً في حالة الاستقامة ، وبعنقه دون حركة . لذلك فانه
نادراً ما ينظر الى مخاطبه ، ولكنه لا يكاد ينقطع عن تثبيت انظاره في زاوية
الباب او في المدفأة . وفي اللحظة التي دلف فيها الى غرفة الاستقبال القى بافل
ايفانوفيتش آخر نظرة عليه : « انه دب ، دب لا ينقصه شيء » هكذا قال
لنفسه . وثمة هناك مشابهة اخرى بينهما ، فقد كان يدعى ميخائيل سيميونوفيتش
« وهو اسم يطلق على الدب بالروسية » وبما انه كان معروفّاً بخصالته الدائمة ،
وهي انه يدوس فوق اقدام من يسير معهم ، فان تشيتشيكوف لم يتقدم معه
الا بجذر لا بل تركه يسير امامه .

وكان سوبا كييفيتش يعرف هذا الخطأ عن نفسه لذلك كان يسأله بين الفينة
والفينة عما اذا سبب له ألماً . وأكد له بافل ايفانوفيتش بان كل شيء على مايرام
حتى الآن بعدما اطلعه على انه يعرف فيه هذه الطبيعة .
وعندما دخلا الصالة قاده سوبا كييفيتش الى مقعد هناك وكرر على مسمعه

- الحاكم ؟ ..

- اجل .

- احقر لص التقيت به حياتي ..

- الحاكم .. لص ! صرخ بذلك تشتشيكوف وهو يكذذهنه ليفهم العدالة

في هذا الحكم ، ولكنه تابع : اقر لك باني مافكرت بهذا الامر بعد ؛ ولكن
هناك اعتراض ولتسمح لي به ، ان الطريقة التي يعامل بها الناس هذا الحاكم تخالف
زعمك .. بل اني اجده على العكس ، اجده رجلاً نظيفاً جداً .

واخذ تشتشيكوف يتحدث عن كيس النقود الذي طرزه الحاكم بيده
الماهرة وانهى كلامه بالحديث عن اللطافة التي ترتسم على وجهه ، فهتف
سوبا كييفيتش .

- انه وجه لص ! اعطه سكيناً واتركه وحيداً في عرض طريق عام ، فانه
بالارب سوف يقتل ويسلب الناس لأجل كوبيك واحد .. ومساعدته طبعاً
على غراره .

وخاطب بافل ايفانوفيتش نفسه :

« انهما ولارب على خلاف ، إذن فلأحدثه عن مدير البوليس ، ولا اظن الا
انهما صديقان .. » ثم تابع حديثه بصوت مرتفع :

- كل هذا لا يعني ، ولكني سأقول لك ان مدير البوليس رجل مثالي
دون أدنى ارتياب ... اخلاقه جيدة وقلبه نقي . فأجابه سوبا كييفيتش ببرود :
- انه سافل منحط ، يبيعك فيغشك ، ثم لا يتورع عن قبول العشاء معك .
اني أعرف الكل ، وان سكان المدن جميعهم يتألفون من السفالة والانحطاط
ويمكن استثناء واحد من جميع هؤلاء ، اخلاقه حسنة وهو النائب ، ولكنه
مع ذلك فصعل .

وقضيا بعد ذلك وقتاً في تصفح رجالات المدينة الممتازين ؛ وادرك

تشتشيكوف اثناء ذلك ان صاحبه يستحيل عليه ان يتكلم عن الآخرين دون
تلبهم .

- أرجوك

وهكذا اعاد سوبا كيفيتش تلك اللفظة الخالدة وهو يشير الى الطاولة .
واقتراب بافل مع صديقه منها وكانت تحوي على كثير من انواع المقبلات ،
حيث تناولا قدحين متوعين من الفودكا واخذوا يكيلان لبعضهما الالفاظ اللطيفة
ترافقها الخدمات الخفيفة التي يستدعيها جو المائدة ، كما هو الشأن تماماً في جميع
المدن والقرى الروسية على العموم . وعادا بعد ذلك الى غرفة المائدة . فافتحت
فيودوليا ايفانوفنا الحديث واندست في حلقة المجلس كاللازمة .

وقرب المائدة الصغيرة لغرفة الطعام كان يوجد اربعة امكنة للجلوس ،
وكان رابع الامكنة مشغولاً بامرأة ، ويمكننا تمييز هذه المرأة ، ولكن
بصعوبة : انها فتاة او امرأة صغيرة ، من ارباب المنزل او من اصدقائها ،
راسها عار من كل شيء ، تبلغ الثلاثين تقريباً ، وثوبها ذولون غريب يلتفت
النظر . يوجد في الكون اشخاص لا يعدون كبقية الاشياء المعروفة ، بل يبدون
كأنهم عثرات ، فيشغلون نفس المكان ويجر كون رؤوسهم دوماً حركات
معينة . قد يرغب بهم من يرغب كقطعة من الاثاث في المنزل ، فهم دوماً
ساكتون هينون ، ولكن لو تبعتهم الى مخادع الفتيات ، والدوائر ... فانك
بلا ريب ستجد لهم اساناً

- هذه الشوربة . شوربة الملفوف ممتازة اليوم اياروحي الصغيرة . قال
ذلك سوبا كيفيتش وهو يتناول الـ (نيانيا) وهي الوقعة المعروفة بمرافقتها
الدائمة للشوربة على المائدة وتصنع من أضلاع الخروف وقوائم العجل والمخ مع
قليل من الخلطة . تابع سوبا كيفيتش كلامه بعد ذلك وهو يلتفت نحو
تشتشيكوف : انك لن تجد (نيانيا) كهذه في المدينة ان الشيطان وحده يعلم
ماذا يعطونك هناك ، فأجاب بافل :

— لقد ظهرت لي المائدة جيدة عند الحاكم .

— أتعلم كيف يطبخون هناك ... لو أعلمتك بذلك فانك لن تقوى على الطعام مطلقاً .

— انا أجهل بالطبع كيف يطبخون ... ولكن أضلاع الخنزير التي قدمت لي عندهم والسمكات بما يشتهي كثيراً .

— إنها تبدو لك حسنة ... ولكن أنا الذي أعلم ماذا يشترون وكيف يطبخون . ان طبّاخهم السافل الذي تعلم مهنته من الفرنسيين يذبح القطة ويقدمها لك على أنها أرنبية . وهنا قاطع سيد المنزل زوجته .

— اسكتي يا للخبجل ..

— لماذا ، اني لاقول الواقع .. وتلك ليست غلطي ... ان جميع مايرمي به اكلوكا ، ولتسمح لي ان اقول هذا ، في البئر من الاوساخ ، يحسد طريقه حالاً الى داخل الحساء ... ذلكم هو الحساء الذي يقدم هناك ، وعلق سوباكيفيتش :

— انك .. انك لاتتحدثين على المائدة الا عن هذا ... ثم كرر .

— ولكن ايتها الروح الجميلة ، فكري لو صنعت مثل هذا فاني لن آكل ابداً والآن ضعي السكر على الضفادع ، فاني لما المسها بعد .. وانت يا بافل ايقانوفيتش تناول من هذا الخروف فهو لذيذ جداً مع الكاشا ، انه ليس بذلك اللحم المرعب الذي يبدو كما لو انه صنع في مطابخهم القذرة الغنية بالاغنام التي انقضى عليها اربعة ايام فوق مفرش المسالخ ... ولا خير في هذا فان الاطباء الالمان والفرنسيين هم الذين اخترعوا هذه الطريقة ... ان هذه الاغنام لتبوت جوعاً طيلة هذا الوقت قبل ان تذبح وتغلى على النار ، ان الامعدة الالمانية تناسبها هذه الطريقة ولكن أمعدتنا الروسية قاسية جداً فانها لاتسرب مثل هذه الطريقة ولا ترضى عن هذا (الريميم) الذي يجريه هؤلاء النعس على تلك الحيوانات ... ان

مثل هذه الطرق لاتصلح لي ... وهنا قام سوبا كيفيتش بحركة عنيفة وتابع ، كل هذا يسمونه : التهذيب والثقافة : اما انا فعندما يكون لدي خنزير ، فيجب ان آكله باجمعه وقس الامر نفسه بالنسبة للخروف أو الاوزة أو ما أشبهه ، وعندما آكل صحنين فيجب ان آكلهما بشبهة حسنة .

ووضع سوبا كيفيتش هذا المبدأ موضع التنفيذ فأهال فوق شوكتة نصف ما في صحنه وقذفه في فمه الواسع ، وسرعان ما ذاب اللحم داخل ذلك الفم العريض ولم يبق فيه غير العظام . وفكر تشتشيكوف .
- ان معدة هذا الرجل - حقاً جيدة .

وتابع سوبا كيفيتش وهو يمسح يديه بفوطاة السفرة .

- وعندي هنا لا يحدث كما يحدث عادة عند بليوشكين . فهذا الرجل يملك ثمانمائة نفس ويأكل مع ذلك اقل مما يأكل اصغر ابناء ملتزمي الاراضي التي ملكها .

وسأل بافل :

- ومن يكون بليوشكين هذا ؟

- لص بخيل ، يكاد لا يراه الناس الا لماماً : اما فلاحوه فانهم يموتون من الجوع .

- أحقاً ؟ وبدا الاهتمام على تشتشيكوف : وتقول ان هؤلاء العبيد يموتون

بعدد وفير ؟ فأجاب سوبا كيوفيتش :

- انهم يموتون كالحشرات وبالجمل .

- كالحشرات ... وهل هو يقطن بعيداً من هنا ...

- على مبعدة خمسة فرسات فقط .

- فقط ؟ ولكن قل لي ، عندما أغادر ك كيف استطيع الوصول اليه ،

أمن جهة اليمين أم الشمال ؟

- لا أنصحك بالذهاب إلى مثل هذا النكب الخثير ؛ وانه لأحسن لكلينا
ان نذهب إلى منزل سيء السمعة مشبوه من أن ندنس أقدامنا بنزل بليوشكين .
وقال بافل ايفانوفيتش :

- اوه ! سأدرس هذا ... وسأهتم بكل شيء .

وبعد الانتهاء من صدر الحروف جاء دور الجبن بالكريما وقد طفع بها
الوعاء ، ثم بعد ذلك جاء دور الديك الهندي الضخم وقد خلط به البيض والأرز
وجميع المنتجات الحيوانية ، وكان هذا هو الطبق الأخير . ولم ينهضوا من
الطاولة إلا عندما شعر تشتشيكوف بانه أصبح أرزق مما كان بكثير .

وسار الجميع إلى الصالة حيث كان على الطاولة وعاء مليء بالحلويات المختلفة ،
ولما لم تجد ربة البيت غير صحيفة واحدة خرجت لتأتي بعدة صحاف أخرى .
واستغل تشتشيكوف فرصة غيابها وقال لسوبا كييفيتش :

- هناك عمل أريد ان أحادثك في شأنه . وكان سوبا كييفيتش آنذاك قد
استرخى فوق مقعده الوثير وأخذ يشخر من انفه بضجة مزعجة حاول ان يخفف
من حدتها بوضع يده على فمه .

- هاهي الحلوى . قالت ذلك سيدة البيت وهي تدلف إلى الصالة في تلك
ال لحظة ، ان هذه الحلوى مصنوعة من الفجل والعسل . فأجابها سوبا كييفيتش .

- سنأكل بعد حين . اذهبي الى غرفتك الآن ، لأننا سنخلع ملابسنا
ونتمدد قليلاً .

وأرادت فيودوليا ان تأتي ببعض الوسائد للاستناد ولكن زوجها اوضح
لها ان الامر لا يحتاج الى هذا وانها سيكتفيان بالتمدد على المقاعد ، فخرجت
آخر الأمر دون ان تبدي أي اعتراض .

وأرخبى سوبا كييفيتش رأسه منتصباً الى صديقه ، واستعد تشتشيكوف
لدخول الموضوع بصورة غير مباشرة . فتحدث عن روسيا ومدح عظمتها

وذكر ان الامبراطورية الرومانية نفسها لاتضاهيها عظمة... حتى ان الاوروبيين وغير الاوروبيين من الاجانب يندهشون لعظمتها... « وكان سوبا كييفيتش أثناء ذلك ينصت وهو منحني الرأس » وتحدث عن القوانين الراقية التي لا يوجد مثلها في بقية الدول ، وتحدث عن العبيد الذين يتابعون وجودهم على الأرض في قائمة الاحصاء بعد ان يموتوا إلى ان يحل الاحصاء الجديد « وكان سوبا كييفيتش أثناء ذلك ينصت وهو منحني الرأس » وهذه بطبيعة الحال ثقيلة على الملاكين لأن عليهم أن يدفعوا الضرائب عن النفوس الميتة كما لو كانت حية . ثم ان تشتشيكوف بالنتيجة اكراماً لصديقه العزيز سوبا كييفيتش وإعزازاً له سيحاول أن يتحمل عنه بعض هذه الضرائب .

حقاً ان بافل ايفانوفيتش قد تكلم بكثير من التبصر والاناة فيما يتعلق بالغرض الاساسي الذي جاء من اجله ، والدليل على ذلك انه شمل في حديثه جميع النفوس المفقودة لالميتة فسحب .

كل هذا وسوبا كييفيتش ينصت منحني الرأس دون ان يتحرك أو يغير من تعبير وجهه ، فظهر وكأنما غادرت روحه جسده ؛ وسأل تشتشيكوف :
- والآن ماذا تقول ؟ وظل صامتاً ينتظر الرد باضطراب .

- أأنت تحتاج الى نفوس ميتة ؟ كانت هذه العبارة الصادرة من سوبا كييفيتش مصحوبة بنبرة طبيعية جداً كأنما الحديث يتعلق بشراء الخنطة وأجاب بافل .

- أجل : ثم رقق من عبارته : « نفوس غير موجودة » فقال تشتشيكوف :
- سنوجد لها .. ولم لا ؟

- في هذه الحالة سيكون سرورك عظيماً بلا ريب اذا تخلصت منها .

- اني على استعداد تام لبيعك تلك النفوس : قال ذلك سوبا كييفيتش وهو يرفع رأسه قليلاً الى الاعلى إشارة الى انه يتربص بالشاري حذر أن يدفع بعملية الشراء لصاحبه الخاص .

وقال تشتشيكوف نفسه .

— بالتوفيق الرائع ، انه مستعد للجميع دون ان يطلب أي تفسير أو تعليل .
وأضاف بعد ذلك بصوت مرتفع : ماهو السعر الذي يناسبك في هذه البضاعة
الغريبة .. فأجاب سوبا كييفيتش .

— لست مبالغاً أبداً اذا طلبت منك مائة روبل بدلاً عن كل نفس ميتة ،
فزعق تشتشيكوف وقد صعق دهشة .

— مائة روبل ! وثبت عينيه في وجه صديقه آملاً بينه وبين نفسه ان يكون
سمعه قد خانه ، أو ان لسان سوبا كييفيتش تعجل بذكر رقم دون رقم .
— يبدو ان السعر لا يناسبك ، إذن ماهو الثمن الذي ترتأيه ؟

— ماذا ! الثمن الذي ارتأيه ؟ اعتقد ان هناك سوء تفاهم كبير بلاريب ..
لعلنا لم نفهم بل اننا نسينا مادة الشراء .. أقول لك صادقاً ان ثمانية (كريفين)
سعر مرتفع جداً في نظري .

— ماذا تريدني ان اعمل بثمانية (كريفين) .

— اني بعد تفكير عميق في الامر اقول انه لا يمكن ان اضيف عليها شيئاً ..
— واني لست ببائع احذية .

— عفواً .. انا لاسماؤمك على النفوس الحية .

— اذن جد الاحق الذي يقبل ان نبيعك بثمانية كريفين نفساً مسجلة في
لائحة الاحصاء والمراقبة .

— ولكن هذه النفوس لاعلاقة لها بالاحصاء .. انها ماتت منذ زمن بعيد ،
ولا تعترف بوجودها الا دائرة جباية الضرائب التي عليك ان تدفع لها .. هذا
وليس لدي ما اريد سوى ان اقبل بدفع روبل ونصف الروبل فقط .

— افلا خجلت من عرض مثل هذا الرقم ، قبل انك لاتريد الشراء .. أو
حدد ثمناً موافياً .

— تستحيل علي الزيادة ، لا استطيع .

ولكنه مالمبث ان اضاف خمسين كوبيكا عندما لاح له ان صيغ الاستحالة التي تكرم بها لم تنفعه شيئاً ، وقال سوباكيفيتش .

— ولكن لم انت بخيل الى هذا الحد ؟ حقاً ان السعر الذي اطلبه ليس مرتفعاً انه لو وجد آخر غيري وأراد ان يبيعك من مثل هذه البضاعة فانه سيغشك بلا ريب ويعطيك أخس القاذورات بدلاً من النفوس .. ان بضاعتي نسيج وحده وعندما لا يكون البائع حازماً فيجب ان تكون لديه بضائع اخرى من نفس النوع !.. ولتنظر ذلك بنفسك ان صانع العجلات ميشيف .. يعمل العجلات كابرع صناع بل ان الروسيا كلها لاتحوي رجلاً في مثل حذقه وسرعته .. فانه في ظرف اربع وعشرين ساعة ينهي عمله .. لالا !.. انها لقساوة !.. ويضاف الى ذلك انه يطلي العربات بنفسه ويخرفها .

واراد تشتشيكوف ان يقاطعه ليوضح له ان ميشيف هذا قد مات ومر على موته زمان ليس بالقصير ، ولكن ما من شيء يمكنه ايقاف سوباكيفيتش الذي اصبح ثرثاراً تنساب من فيه الكلمات دون توقف ..

— وشم النجار وكستيبان ، اني لأقدم رأسي للقطع إذا ما وجدت فلاحاً من قيمته ، ياله من بطل ! لو كان حذراً فقط ، إذن فالله وحده يعرف الحد الذي سيصل اليه في بطرسبرج . ان طوله يبلغ مترين وثلاثة عشر سنتيمتراً .

واراد تشتشيكوف ان يقول ايضاً ان بروكا هذا ايضاً من عداد الاموات ولكن سوباكيفيتش كان في حالة فيض فلا شيء يمكن ايقافه عند حده فكل ما يمكنه العمل هو الانصات اليه .

— وفلاحي ميلوشكين ! العامل الذي يعرف صناعة المدافي !.. وصانع الاحذية ماكسيم تيلديانتيكوف ياله من صناع ماهر ويلها من جلود وأحذية ! وهو رجل صالح لم يشرب الفودكا قط ! ولنتكلم ايضاً عن ايرمي سوروكوبليوشين ،

فهذا رجل عجيب يعرف كل شيء ويجيد اي عمل . وقد عاد من موسكو مرة
وفي خروجه خمسمائة روبل قدمها لسيدة ... انهم رجال ! وليسوا رجالاً اولئك
الذين يبيعهم بليوشكين .

— ولكن اسمح لي ، علق بهذه العبارة تشتشيكوف الذي اتعبه جداً هذا
السيل المتواصل من الكلام الذي بدا له ان لا نهاية له .. لماذا تعد لي صفاتهم؟
فهم لن يصلحوا لشيء طالما انهم في عداد الاموات !

— طبعاً ... لقد ماتوا ... اجاب بذلك سوبا كييفيتش وقد تذكر تلك
الحقيقة المرة واطهر أسفه الشديد لمفارقتهم ... ثم تابع : ولكني اقول لك ان
هؤلاء الاحياء الباقيين ... هؤلاء الذين يحسبون احياء ... انهم حشرات ...
انهم ليسوا رجالاً .

— ولكنهم على الاقل يعيشون ... بينما الآخرون ليسوا سوى أحلام
— ابدأ ابدأ ... ميشيف لامثيل له ! أهو حلم ؟ ان في كاهليه من القوة
مالايملك الحصان مثلها ... جد لي إذن حلاً من هذا الطراز . وعاجله
تشتشيكوف بقوله :

— لن أعطيك اكثر من روبلين .

— ايها العزيز ، يجب الا انهم باني طلبت منك ثمناً فاحشاً وباني ماتصرف
معك كصديق صدوق ، لذلك أرى لزاماً علي ان أتنازل لك عن النفوس لقاء
ميتين روبلاً عن كل نفس ، وهذا التساهل الذي قد يدهشك انما هو من قبيل
الصداقة فقط .

— أتخسبني ابلهاً إلى هذا الحد ، قال ذلك تشتشيكوف ثم أردف بصوت
أجش : حقاً ان هذا غريب ويبدو لي اننا نقوم بتمثيلية هزلية . انت امرؤ
ذكي أريب نشيط ، ولكن لننظر ... فانك لا تبدو هنا الا تاجراً خيالياً ...
ماذا تساوي هذه النفوس ؟ انه ما من انسان بحاجة اليها .

- عفواً ، انت تريد شراءها ، فانت إذن تحتاجها !
وعض بافل ايفانوفيتش على شفتيه بجنق ، ولم يدر بما اذا يجب . ثم أخذ يتحدث عن ظروفه العائلية ومشاغله الحاضرة التي تملأ جميع اوقاته . غير ان سوباكيفيتش أجاب بكل بساطة :

- لست اهتم بمعرفة مشاغلك الحاضرة وظروفك العائلية ، فهي لاتهم سواك ولا تدخل إلا تحت تمحيصك . ان ما أفهمه فحسب هو انك تريد ان تقني نفوساً ، وانا أبيعك اياها .. أتريد ان تعتذر عن شرائها ... فأجاب تشتشيكوف :
- روبلان

- ألا تريد ان تخرج عن روبليك هذين ، هيا واطرح رقماً آخر .
وفكر تشتشيكوف : لياخذه الشيطان . سأخيف له خمسين كوبيكاً . وقال بصوت مرتفع .

- لا بأس ، ليكن الثمن روبلين ونصف .
- اما من جهتي فان السعر الاخير الذي اعرضه عليك سيكون خمسين روبلاً . فانا الذي يضع على نفسه ... انك لن تجد ابداً بضاعة جيدة بهذا السعر البخس .

- « باللفظة » قال ذلك بافل لنفسه ثم اضاف بشيء من الغضب :
- انني اشتري وكأنما في الامر ما يهم ... الا تعلم بانني آخذ هذه النفوس للشيء ... ان الجميع سيكونون سعداء بالتخلص منها ... حقاً يجب ان اكون من الحيوانات كي احتفظ بهم وادفع الضرائب عنهم .
- فانت إذن لا تعلم بتحضير مثل هذه المشتريات - اني اقول ذلك فيما بيننا وعلى سبيل الصداقة - واني ، سواء أتحدثت انا بها او تحدث بها شخص آخر . فان الرجل الذي يشتغل بها يفقد كل ثقة عند التجار ؟ فلا يعقدون معه اي اتفاق ، كما انه يخسر عمله التجاري .

وفكر بافل ايفانوفيتش :

- ايه : لقد قبض على زمام الامر ، هذا الماكر اللعين . ثم قال بيروود :
- كما تشاء ، ولكنني لم ارجب بشراء النفوس لاني اجد ذلك ضروريا ، كما
ظننت ، بل لتحقيق بعض الافكار . افلاتريد روبلين ونصف ، اذن
الى اللقاء .

- وفكر سوبا كييفيتش : لا يمكن ان نعمل معه شيئاً .
- هيا ساعدنها لك بثلاثين روبلاً عن كل نفس ، خذها ولا تدع هذه
الفرصة تفوتك .

- مستحيل ، ارى انك لا تود بيعها ، استودعك الله .
- اسمح اسمح لي ، زعق بذلك سوبا كييفيتش وهو يجذب تشيتشيكوف
من يده ويدوس في نفس اللحظة على قدمه . وتشاء الصدقة ألا يحترس بطلنا
للامر فدهست قدمه واطلق صرخة حادة ثم جعل يقفز على قدم واحدة
بألم واضح .

- سألتك الصفح يا عزيزي ... هل سببت لك ألماً حقاً ؟ ارجوك خذ مكاناً
هناك ... ارجوك .

واجلسه بحذر شديد ولطافة متناهية كدب متأدب علموه كيف يعمل
الحسنى ويجيب بطريقة عملية على امثال هذه الاسئلة « أرونا يا مديشا كيف نغتسل
النساء في الحمام ؟ - مديشا ، ماذا يعمل الاشقياء عند سرقة الخمر ؟ »
وقال تشيتشيكوف :

- لقد اذعت وقتاً ثميناً يجب ان اذهب .

- دقيقة واحدة ... سأقول لك شيئاً لطيفاً ، واقترب سوبا كييفيتش من
صديقه وهمس في اذنه : ايعجبك ان تدفع ورقة صغيرة عليها صورة البطة ثناً
كل نفس ؟

- خمسة وعشرون روبلاً ... اني لارفض ربع هذه الورقة الصغيرة ...
ولن أزيد كوبيكاً واحداً على ما دفعت .
وخمد سوبا كييفيتش وظل تشيشيكوف ساكناً ينتظر ، ومرت دقيقتان
وقال بعد ذلك سوبا كييفيتش :
- وما هو السعر الاخير الذي ستدفعه ؟
- روبلان ونصف .
- ألا تساوي نفس الانسان عندك اكثر من ذلك ؟ ليكن ثلاثة روبلات
- مستحيل .
- لا يمكن عمل شيء معك .. ليكن لك ذلك ! لا ريب في اني اخسر ..
ولكن لي ميزة كلب . ولا استطيع الا ان أسر صديقي .. ولكي يكون
كل شيء قانونياً فاننا نحتاج الى عقد للمبيع .
- طبعاً .
- ان هذا مضجر ... إذ علي ان اذهب الى المدينة .
وهكذا انتهى الجدل واتفق الصديقان على اللقاء في المدينة صباح الغد عند
مسجل العقود للختم على انتقال ملكية تلك النفوس . وطالب بافل بقائمة اسماء
العبيد فسار سوبا كييفيتش الى مكتبه ليكتب اسماء تلك النفوس الميتة وصفاتها
جميعاً . واخذ تشيشيكوف اثناء ذلك يتأمل في عرض كتفي سوبا كييفيتش
وكان لظهر هذا الاخير ضخامة ارداف الجياد ، أما ساقاه فيشبهان اوتاد التخوم
الغليظة التي توضع على الارصفة . ولم يقو بافل على كتم ما هتفت به نفسه « حقاً
ان العناية الالهية من صفك .. هل ولدت دُباً ام انك اصحبته بالعيش في جوف
هذه الولاية ، مع حقول قمحك وفلاحيك حيث اعادتلك المؤلفه امرءاً غليظاً ؟
لا ! انك دب منذ الوقت الذي نشأت فيه على طراز بطرسبرج ورشقت في
هذه الحياة الدنيا لتلك العاصمة رشقاً . ولكن الفرق هو انك هنا تبتلع طبقاً

مليئاً بالكاشا مع صدر خروف بعد تناول المقبلات ، اما هناك فطعامك شطائر من الكمأة . انك هنا سيد عدد من العبيد وعلاقتك بهم جيدة ولا تستطيع الا ان تعاملهم بالحنى وإلا رموا بك على قمة رأسك بطريقة من الطرق . اما في بطرسبرج فانك ستكون تحت الاقدام تطيع جميع الاوامر الملقاة اليك وتسعى لارضاء مرؤوسيك بأية وسيلة . ان الرجل الغليظ لن يعرف السرور الى قلبه سبيلاً هناك ، ويحسن به ان يكون جاهلاً ، لانه اذا ماتتقف وتعرف على علم من العلوم واراد ان يكون حاذقاً فيه ، فان التعاسة سيوجدتها تنخر في اعماقه .

قال سوبا كييفيتش وهو يلتفت خلفه :

لقد انهيت القائمة .

— حسناً ، اعطنيها .

وتصفحها بافل ايفانوفيتش معجباً بنقاوتها من كل سائبة ؛ ما من شيء ينقصها فقد ذكرت المهنة والاسم والعمر والوضع العائلي ، حتى المحافظة على القانون وحسن السيرة قد ذكر على هامش خاص باخلاق الفلاحين ، وقال سوبا كييفيتش .

— ستعطيني سلفة مقدماً .

— ولماذا ؟ سأعطيك كامل المبلغ عندما تمهر العقد غداً .

— ولكن العادة في المعاملات هنا تجري هكذا .

— لست احمل دراهم كثيرة .. اليك هذه الروبلات العشر .

— عشر روبلات ! يجب ان تدفع لي خمسين على اقل تقدير .

واراد بافل ان يتمنع ولكن سوبا كييفيتش عاجله بقوله :

— معك بطبيعة الحال الكفاية فمن العبث ان ترفض ، فقال تشتشيكوف

لخيراً :

— هاقـد وجـدت لك خـمسه عـشر رـوبـلا آخـر فـيـصـبـح مـجمـوع مـامـعـك خـمـسة وعـشـرين رـوبـلا ، اعـطـني بـها وـصـلا .

— ماـذا تـفـعـل ؟

— ان الـايـام اتـتـعـاقـب عـلى غـيـر تـشـابـه .. وـلا احـد يـدري ما يـمـكـن ان يـحـدث في الغـد .

— ليـكـن ذـلك ، اعـطـني الـدراهم مـقـدمـاً .

— ولـماـذا ؟ هـاهـي ذـي مـعـي وـعـنـدما اسـتـلم الـوـصل سـأعـطـيك المـبـلـغ .

— كـيـف تـريـدني ان اكـتـب لك وـصـلا باسـتـلامـي خـمـسة وعـشـرين رـوبـلا دون ان اـراها ؟

وـرمـى تـشـتـشـيـكـوف بـالمـبـاغ فـوضـعه هـذا فـوق مـكـتـبـه ووضـع فـوقـه يدـه الغـليظـة وحرـر بـعد ذـلك وـصـلا بانـه اسـتـلم مـبـلـغ خـمـسة وعـشـرين رـوبـلا كـدفعـة عـلى الحـسـاب ثـمناً لمـبـيع النـفـوس المـيـنة .

وبـعد ان مـهر الـوـصل بـامـضائـه اخـذ ينـظر في الـاوراق المـالـية مـتـفـحـصاً ثـم قال و هو يـقـتـرب مـن النـافـذة :

— ان هـذه الـورقة المـالـية مـكـتـهـة قـليـلا و يـمـكـن ان تـتمـزق بـسـهـولة ، و لـكـن لـيس لـهـذا اـهمـية بـيـن الـاصـدقـاء ، و قال تـشـتـشـيـكـوف في نـفـسه .

— يـالـه مـن رـجـل غـليظ وحيـوان قـدر .

— الـا تـريـد نـسـاء .

— لا و شـكراً .

لـن اطـلب بـها غـالـياً . يـكـفـي رـوبـل و احـد عـن كـل امـراة .

— لا ارغـب بـهـذا الجـنس .

— فـلنـوقـف الكـلام في هـذا اذن ، ثـم ان الـواحدـة كـما يـقـول المـثـل تـحب الكـاهـن .

بـيـنـما تـحب الـثـانـية زـوجـها .

وقال تششيكوف وهو يخرج .

- اريد منك طلباً اخيراً ، وهو ان يظل هذا الامر سرّاً بيننا فقط .

- يستحيل ، بالطبع ، ان يعلم به ثالث ، ثم اني لا اريد ما يفرق بين صديقين حميمين ، الى اللقاء وشكراً لزيارتك اللطيفة ، ولا تنس اخيراً ان تأتي للغداء عندنا عندما تجد في وقتك متسعاً ، صدق اننا سنسر كثيراً .. كما يمكننا ان نقدم لبعضنا بعض الخدمات .

« طبعاً طبعاً .. قال ذلك تششيكوف نفسه وهو يمتطي العربة ، ان هذا اللص هذا الحيوان القذر ، قد أخذ مني مبلغ روبلين ونصف ثمناً للنفس المينة » .

انه يقصد سوبا كييفيتش بكلامه هذا بطبيعة الحال ، وهو مع ذلك يجب ان يعتبره صديقاً له ، لانه التقى به عند الحاكم وعند مدير البوليس ، ولكن هذا الصديق عامله معاملة الغرباء .. لقد اخذ منه المال ثمناً لجيف منتنة ! وعندما اجتازت العربة ساحة الدار التفت بافل الى الخلف فامح سوبا كييفيتش واقفاً على الدرج كما تركه وبدا كأنما يريد ان يعرف وجهته ، ولم يستطع الا ان يخرج من بين اسنانه هذه الكلمات « هذا السافل المنحط مازال هناك » وسلم مقاليد السير لسيليفان الذي انحدر نحو اكواخ الفلاحين كي لا تقع انظار سيد المنزل على وجهة العربة في تسيارها الجديد . انه يريد ان يعود الى بليوشكين حيث يموت عنده العبيد كالحشرات وبالجملة . ولكنه مع هذا لا يرغب في ان يراه سوبا كييفيتش . وعندما وصلت العربة الى اول القرية دعا احمد الفلاحين وكان يحمل على كاهليه جسراً غليظاً .

- ايه انت ، يا صاحب اللحية الغليظة كيف تتمكن من الذهاب الى منزل بليوشكين دون ان تمر بمنزل ذلك المعلم وتوقف الفلاح وبدا كأنه لا يعرف كيف يجيب .

— الا تعرف ؟

— لا ... لا اعرف المعلم .

— وشعرك مع ذلك اشيب ! أو لا تعرف بليوشكين البخيل ... انه لا يأكل رجاله إذن .

— آه ! رجل الحرق البالية ، ذلك (المرقع) . ثم اضاف الفلاح كلمة يستحيل علينا التصريح بها .

ويستطيع القارئ بلا ريب ان يتنبأ بقيمة جمال تلك الكلمة . ولكن تشتشيكوف ظل داخل العربية طويلاً وقد ارتسمت على شفاهه ظل ابتسامة . حقاً ان الشعب الروسي يملك تعابير قاسية . ولقد كان ذلك الفلاح من اصحاب النية الحسنة ، وكانت نيته تلك ترافقه ابداً اينما سار ، في الجندي او في بطرسبرج او في المنفى . ان الكلام الذي يصيب الهدف انما هو كالكتابة الخالدة ، وهذا وحده هو ما يجعل روسيا بارزة واضحة ، الروح الروسية الحقيقية الحية والقوية ، وهذه الروح بتلك الميزات تبرز اكثر من الروح الالمانية تلك الروح الطوعية التي تضر كل شيء ... أجل يستحيل ان نضيف اي صفة او خط الى هذه الصورة ، فقد ارتسم الرجل الروسي فيها من قنة رأسه حتى اخمص قدميه .

ان القديسين والنبلاء في روسيا يملكون عدداً من الكنائس والاديرة والصلبان والقباب والاجراس يكاد لا يحصى ، ويملكون الى جانبه عدداً محترماً من الانسال والشعوب والعروق يموجون كلهم فوق هذه البسيطة . ويحمل كل من هذه الشعوب امكانيات خالقة ، ويعتز بشخصيته ، وبتلك المعطيات الالهية التي يملكها وهو يثري العالم بطرائفه الطريقة في القول الذي يوضح ميزاته . ان الانكليزي يبرز ثقافته المتوازنة مع الحياة ، والفرنسي يظهر حماه الفني الطافر ، والالمانى يتأمل في علومه طويلاً وبعمق بعيد الغور ، ولكن ما من شعب يملك هذه الصرخة الصادرة من القلب ، العريضة الواسعة ، الحية المدوية ، واعني بها تلك الكلمات الانيقة التي تميز الشعب الروسي .

الفصل السادس

مذ زمن بعيد عندما كنت صغيراً اذ كراني أثناء سني طفولتي التي مرت علي نهائياً كان كياني كله يتوئب فرحاً عندما أصل إلى بلد جديد لا اعرفه ، مدينة كانت أو قرية فقيرة ، أو ضيعة أو اي شيء آخر . وكانت نظراتي الفضولية الباحثة لا تكاد تنقطع عن التطلع والاستكشاف ، لقد كان كل بناء في نظري بل كل شيء على الاطلاق يحمل في طياته ميزات خاصة ، مؤثرة ، وكل هذا كان يؤثر في ويدهشني . فالحجارة الحجرية بنوافذها المعوجة وعزلتها الخزينة بين المنازل البورجوازية وبقبتها المستديرة السامقة الثابتة ، وكذلك الكنيسة الجديدة البيضاء كالثلج وسوق القرية الانيق الذي يضع في المدينة ، كل هذا وغيره لا يستطيع ان يفلت من انتباهي الدقيق المركز . حتى شكل الثوب الجديد الحديث التفصيل كنت اتأمل فيه ملياً . وكذلك الشأن في الصناديق الخشبية الملمية بالمسامير والكبريت والكافور والعنب الحديث القطوف والصابون وغير ذلك من الاشياء المخفية كلها وراء واجهة التوابل قرب قطر ميزات البونبون المستوردة من موسكو . كما اني لم اغادر بانظاري اي موظف جاء حديثاً ، وكل كنت اقول لنفسي عندما اشاهد بائعاً يختفي في عربته بسرعة : أين سيذهب ؟ إلى اخيه ام إلى مكان يقضي فيه السهرة ؟ ام انه سيذهب إلى بيته حيث يجلس

قراءة النصف ساعة على الدرج حتى يبين الغسق ، ثم يقوم ليتناول وجبة طعامه المسائية مع أمه وزوجته واخته الحسنة وبقية أفراد عائلته ؟ وبماذا ، ترى ، سيتكلم الجميع عندما تلبس الحُدم قلايدها الزجاجية او حين يظهر ابن متعهد الارض بقميصه الفضفاض يحمل بعد تناول الحساء شمعاً مثبتة فوق شمعان دبت في أوصاله الشيخوخة لكثرة الاجيال التي مرت عليه .

وعندما أصل امام ضيعة صغيرة لأحد الملاكين آخذ بالتأمل في القبة الخشبية العالية حيث تقوم الكنيسة القديمة ، المتسعة ، ذات الحُشب القاتم . وكنت أرى في البعيد وسط النبقات الكثيفة المتشابكة أعمدة السقوف الحمراء والمدافئ البيضاء الخاصة بمنزل السيد ؛ كل هذا كان يجلب مني النظر ، وكنت ازاء هذه الرؤى انتظر بصبر نافذ ان تنبسط الحقول من الجانبين لتسمح لي برؤية القصر بقضه وقضيضه حيث يبدو الكل في وحدة جميلة وتعود من جديد نفس الاسئلة للخطور : من يكون هذا السيد أهو كبير ، وهل له اولاد ذكور وحوالي نصف دزينة بنات ، يضجون بضحكهم وألعابهم ، وهل اصغرهم جميل حقاً وهل للجميع عيون سوداء جميلة ، وثم ... والدهم نفسه ، أهو رجل بشوش ام عابس مقيت كأواخر ايام ايلول ، وهل أنفه مدسوس ابدآ خلف روزنامته يسم الصغار باحاديثه التافهة عن العلف والقمح والشعير ؟؟

اما اليوم .. عندما كبرت فاني لم أعد اهتم بشيء في رحلاتي امام مدينة حديثة بل اني انظر اليها دون أي اعتناء ، حقاً ان نظراتي تجلّت وقد كدت أنسى كيف ابتسم ، وهذا الذي كان يثير في وجهي قديماً امارات الارتعاد والرجفان ، كضحكة سارة وخطابات واسارات لانهاية لها ، اصبح الآن مرذولاً عندي فأبقى واقفاً امامه صامتاً باكتئاب ، فأه .. بالطفولة وبالغضارتها .

لقد كان تشتشيكوف إذن داخل عربته يفكر مبتسماً في هذا اللقب الذي

اضفاء الفلاح على بليوشكين ، ولم يلحظ ابداً انه وصل بعربته الى قلب قرية متسعة فيها كثير من الطرقات والاكواخ ، وكانت صدمة قوية قاسية أعادت تششيكوف الى معرفة هذه الحقيقة ، ذلك ان تششيكوف بينما كان يمد رأسه من النافذة اذا بالعربة تنقلقل ثم ترتفع وتنخفض بسرعة أثناء سيرها فكانت تلك اللطمة التي حطت فوق جبهته بقوة جعلته يقضم لسانه الممدود بأسنانه دون ان يكون لارادته دخل في هذا الموضوع ، وهنا شاهد تششيكوف نفس الجو القديم المهيمن على اكواخ تلك القرية ، فأخشاب هذه الاكواخ مثلاً قائمة عفة وكثير من ركائز السقوف مثقوبة بوساعة لكثرة مانغل فيها السوس وكانت بعضها لا يحمل غير العوارض الداخلية كما كانت بعض الوصلات الخشبية مسندة برداءة الى مساند غير صالحة لمثل هذا ، وبدا الامر وكأننا فيه للفلاحين ارادة إذ الظاهر ان هؤلاء الفلاحين بدوا كأننا خلعوا بانفسهم تلك الالواح من على السطوح حاسبين ، وهذا صحيح ، بان اكواخهم لم تعد تستطيع الصمود امام الامطار .

كانت نوافذ تلك الاكواخ خالية من الزجاج ، وكان بعضها مسدوداً بقطعة من القماش او من الحصى . وقد شيدت بعض الشرفات على الاكواخ لسبب ما لا يكاد يعلم به احد ، وكانت كلها معوجة يسيطر عليها سواد حزين . وكانت صفوف من الطواحين خلف هذه الاكواخ مهمة منذ زمن بعيد بلا ريب ، وكانت اكداس القمح مصفوفة بلونها القرميدي وقد تخللها العفن ، وقد نمت الاعشاب تحت هذه الاكداس فافلقتها من مكانها قليلاً ، ان هذا القمح ملك لسيد القرية بلا ريب ، وخلف هذا المكان كانت توجد اكداس اخرى من القمح وبعض الركائز التلفة وكنيستات منتصبان نحو السماء برأسهما المتناظرين وكان تششيكوف يراها في عربته السائرة تارة من جهة اليمين واخرى من اليسار حسب دوران العربة ، وهاتان الكنيستان كانتا فارغتين

والاولى منها مبنية من الخشب اما الثانية فبناؤها من الحجارة وحيطانها
 صفراء قدرة . ثم بدت جهة من منزل سيد القرية وبعد ذلك ظهر البيت برمته
 خلف صفين من الاكواخ وبستان محاط بسور منخفض مهدم من جميع اركان
 كان هذا القصر الغريب يشبه البأس الكسيح بطابقه الوحيد وسقفه المظلم ،
 وقد شيدت عليه شرفتان باخ لونها . وكانت حيطان هذا المنزل تسمح برؤية
 الصفائح الخشبية التي زينت في عهدها الغابر بالرسوم . وهناك نافذتان فقط ظلنا
 مفتوحتين اما النوافذ الاخرى فقد ظلت مرتجة المصاريع وكان بعضها يثير
 الاستمزاز بالواحه العفنة المسمرة على الجدار . اما احدى النافذتين اللتين يستعملهما
 صاحب المنزل فقد كانت تسمح للمرء بان يلاحظ آثار الزجاج الذي كان فيها
 قديماً ، اما اليوم فقد الصقت مكان الزجاج قطعة من الورق المقوى بشكل مثلث
 وكان خلف ذلك القصر بستان واسع جداً يمتد الى ما وراء القرية ويتبعه بعد
 ذلك في حقل كبير منعزل ، غير انه باعشابه النامية يهب شيئاً من الحياة لتلك
 القرية الكبيرة ذات المنظر الاليم المؤثر بعزلته المحزنة . وكان يشاهد من بعيد
 قباب غير منتظمة واوراق اشجار خضراء مرعشة ، وكان ثمة جذع ضخم من
 شجر السندر قد احترق رأسه برمية صاعقة ، ينهض وراء ذلك المشهد الملون
 بالحضرة ويبدو كان الرخام مادته . اما دروته المحطمة فتشبه عصفوراً اسود
 يقف فوق كومة من الثلج الابيض . وكانت حشائش الدينار هي الغالبة
 وسط ادغال البندق وتلتوي حول لوحة ذلك المشهد كالافعوان وتبلغ في
 علوها منتصف اشجار السندر الغليظة ، ثم تنحني فوق ذرى بقية الاشجار او
 تمكث وحدها في الجو منهادية بحفنة مع رفيف الهواء . وكانت هناك اكوام
 مبعثرة من الاوراق الخضراء تظهر في كل مكان وتلتصع تحت اشعة الشمس
 وتظهر في بعض الزوايا التي لا يصلها النور كابية معتمة . وفي وسط هذه الظلمة
 الداكنة يمكننا اذا ما سرحنا النظر ان نشاهد طريقاً مستقيماً وحواجز خربة
 ونقوشاً نخرها السوس كما نشاهد الطلح واشجار السوق بالعصون يتخلل كل

ذلك بعض العروق اليابسة واوراق يغيرها النور بعض الشيء فتلتصع . اما في
الجهة الجانبية بالقرب من هذه الحديقة فكان هناك طائفة جبارة من شجر الخور
السامة مليئة باعشاش الغربان المشيدة في اعاليها . وكانت اغصان بعض هذه
الاشجار محطمة بفعل الرياح الشديدة فبدت اوراقها جافة يابسة .

كان كل شيء جميلاً ، جميلاً من ذلك الجمال الذي لا تبده الطبيعة أو الفن
ولكنه يصح كاملاً تمام الكمال عندما تتوحد جهود الطبيعة وعمل الانسان
الابداعي ، أو عندما تتمم الطبيعة ذلك العمل الانساني الفعير للبشر : انها تخفف
من غلظ الاجساد وتخرب الترتيب المتسرب ؛ وتبطل مفعول جميع تأثيرات
الاجزاء المخزنة التي تفضح الرسومات الفقيرة ، وتهب الحرارة لكل اولئك الذين
يوافون داخل اذهانهم الجامدة المعادلات الدقيقة .

وبعد دورة أو دورتين وجد بطلنا نفسه امام منزل المعلم الذي بدا له إذ
ذاك في حالة أبأس مما شاهد عندما كان بعيداً عنه . كانت هناك عدة ابنية
صغيرة : كوخ مسقوف شديد خصيصاً للعجلات ، وبعض دكاكين ، وعدة اكواخ تملأ
فناء البيت ، وعلى الجهتين اليمنى واليسرى كانت هناك بعض الابواب المقفلة
المؤدية الى اقنية اخرى . كان كل شيء ينيو الظلمات امام عودة الماضي حيث
ياخذ الجميع مشهداً حزيناً . وليس ثمة ما يبعث في هذه لهب الحياة . كانت هذه
الابواب تبدو للناظر انها مقفلة منذ سنين ، ولم يكن يظهر إذ ذاك اي وجه
انساني ، بل كان كل شيء يزغر هجراناً تاماً لأية فاعلية . كان الباب الرئيسي
هو الوحيد المفتوح من بين جميع تلك الابواب ، وكان ذلك بسبب قدوم
فلاح يحمل الحصر ، ولقد دخل ذلك الفلاح كأنما يريد ان يشبع الحياة في هذا
المكان الميت . اما في الاحوال الثانية فان هذا الباب ايضاً يظل كغيره مغلقاً
على الدوام والشاهد على صحة هذا القول ذلك القفل الثقيل المعلق ابدآ في
الرتاج الحديدية .

لاحظ تششيكوف بسرعة ان ثمة شخص ما قرب الاكواخ آخذ بالصراخ في وجه ذلك الفلاح ، فتوقف زمناً ليس بالقصير دون ان يقدر على استنباط اي شيء يقوده إلى معرفته . فالرداء الذي يلبسه فضفاض اشبه برداء النساء ، وكان يزين رأسه بقلنسوة سيد القرية . اما صوته فقد تبين لتششيكوف لدى سماعه انه من الممكن ان يكون لامرأة . « انه لسيد شجاع » قال ذلك في نفسه و اضاف « ولكن ذلك مستحيل ... لا ! .. ولو كان حقاً سيداً » كان يفكر في هذا وهو يحاول ان يتثبت اكثر فاكثر من هذا الصراخ الغريب . واما الاخير فانه اخذ ينظر بحذر نحو ذلك القادم الجديد . حقاً ان ظهور هذا الرجل الغريب بدا له امرأ مدعشاً . لقد أخذ يتأمل بفضول عظيم ليس فقط تششيكوف بل سبيلفان ايضاً والحيوانات التي اخذت كذلك تترصد بجسدها كله ابتداء من ذيلها حتى ذروة رأسها .

وشاهد تششيكوف المفاتيح معلقة في زنار تلك السيدة العجيبة فعرف انها خازنة بليوشكين .

— اسمعي ياماتوشكا ، قال ذلك وهو يهبط من عربته ، أين يوجد المعلم .

— لقد خرج اجابت بذلك المرأة ثم تابعت ، ولماذا ؟

— إني بحاجة اليه .

— لتدخل إذن ! وادارت له بعد ذلك ظهرها فشاهد ثوبها القذر الملوث بالطحين والتمزق برمته تقريباً من جهته السفلى .

ودخل تششيكوف في ممر رحب مظلم ، حيث تسود فيه برودة الاقيبية الجلدية . ثم دلف إلى غرفة مظلمة ايضاً لا يبدد بعض ظلمتها الا ذلك الخط من الشعاع المتسرب من أسفل الباب . ثم فتح الباب فامتألت الغرفة بالنور ووجد تششيكوف نفسه عندئذ امام الفوضى التي عاينها سابقاً . قيل له ان الخدم باثروا بغسل سقف الغرفة الاخرى فكدسوا جميع الاثاث في هذه الغرفة الوحيدة !

كان هناك كرسي مكسور فوق الطاولة ، وكانت هذه الطاولة مع حماتها قرب الساعة التي يغطي العنكبوت نواصها ؛ وثمة مرآة اسندت برداءة بالغة إلى الحائط وعليها بعض الادوات الفضية العتيقة وبعض القناني والاواني الصينية .

وعلى منضدة مزينة بنقوش الموزاييك اللامع كان يوجد عدد من الاشياء المليئة بالغبار ، وكتاب احمر مغطى بالجلد ، وليمون بجفف تضاءل حجبته حتى غدا كثرة الجوز ، وبعض أذرع للمقاعد المحطمة ، وإناء فيه بقية قديمة من الكحول دلفت اليه ثلاث ذبابات للاغتسال وقطعة من الشمع جعلت لها سدادة ، وبعض الحرق البالية وفرشاة ومسواك مصفر كان بليوشكين يستعمله قبل سقوط موسكو بيد الفرنسيين .

وكانت هناك ايضاً بعض اللوحات المرتبطة إلى بعضها والمعلقة على جدران الغرفة ؛ وعليها نقوش مليئة بتلك البقاع الصفراء الغرائية تؤلف موقعة حربية وكانت مليئة بالطبول العديدة والجنود فوق جيادهم يصرخون وهم يقطعون النهر ساجحين ، وهناك لوحة ضخمة تكاد تملأ نصف الحائط ، فيها ثمار وزهور ، وثرثرة قطب وبطة مخنية الرأس كثيراً . وقد تدلت من سقف هذه الغرفة ثيابا ملئت بالتراب المتراكم . وكان هناك ثمة أشياء اخرى تكدست في ركن الغرفة ، ويكاد يستحيل احصاء ما تتألف منه لكثرة اختلاطها ، واليد التي تخاطر بالبحث فيها فانها ستخرج سوداء قذرة ، ولكن المتأمل يستطيع ان يلاحظ بين هذه الكتلة رفساً ونعلاً أكل الدهر عليه وشرب . ولا يستطيع انسان ان يحكم بان مثل هذا الخداء كان يلبسه انسان ما . وكان على الطاولة قلنسوة عتيقة مستعملة ولكنها نظيفة .

وبينا كان تشتشيكوف يعن في تفحص ما تضمه الغرفة إذا بباب جانبي يفتح وتدخل منه الخازنة التي شاهدها سابقاً ، فأخذ يفكر : « ان هذا الانسان لا يمكن ان يكون خازنة » والدليل ان المرأة لا تحلق بينا هذا تبدو عليه آثار

الحلاقة ، ذلك انه لاحظ بعض الشعرات القاسية بارزة في أسفل ذقنه وهي لقساوتها تشبه افرجون الحديدي الذي يستعمل عادة في الاسطبل لتنظيف الدواب . واخذ تشتشيكوف يتفحص الرجل بنظرة يفهم منها ان صبره قد نفذ او كاد ؛ اما الحازن فانه كان من جهته ينتظر من الغريب ان يبدأ بالكلام . واخيراً قال بافل ايفانوفيتش بعد ان اندهش لعادة هذا الحازن في الصمت :
- ايه حسناً ! هل المعلم موجود ؟ فأجاب الرجل .

- انه هنا .

- وأين .

- ايه باتيوشكا ! انك بلاريب لست أعمى ، انني انا المعلم .

وتراجع تشتشيكوف بالرغم عنه وثبت نظره في مخاطبه ، لقد شاهد كثيراً من الناس وكثيراً من النفوس التي يجهلها الكاتب كما يجهلها القارىء، ولكنه لم يلتق قط برجل يشبه بليوشكين .

كان ذا وجه نحيل متجعد يشبه وجوه جميع الكهول النحيلين ولا ينفرد عنهم بشيء خاص ، وكانت ذقنه فقط بارزة قليلاً تؤمن له الايبصق خارجها ، ولذلك كان عليه ان يضع دوماً منديل على فمه بلا انقطاع ، وكانت عيناه الصغيرتان تلمعان تحت حاجبيه الغليظين بنظرة فيها حيوية وثبات ، وكانت البسمات الخفيفة تنبعث من اماكنها المعتمة وهو يقتل شاربيه ، كما كانت اذنه الرقيقة تتحسس الجو لتستشعر بوجود قط أو طفل لعين .

وكانت بزته التي يرتديها هي الميزة التي يمتاز بها ذلك انه من المحال ان تعلم من أي قماش صنعت ، أما اكمامه وثنايا ثوبه الخلفية فقد كانت مليئة بالشحوم اللامعة التي تشبه الى حد بعيد تلك المادة التي يحتاجها الناس لتلميع الاحذية ، وكانت رداؤه ذا شقين يؤلفان اربع قطع منفردة حيث تختفي بطانة الثوب المحشاة ، وكان عنقه محاطاً بربطة من نوع خاص أشبه بالشبال أو الزنار ولكنها

بطبيعة الحال لانشبه على الاطلاق ربطة العنق ولو ان تشتشيكوف شاهد هذا الانسان على باب كنيسة اذاً لرمى في يده قطعة نقدية من فئة الكوبيك ، ذلك ان بطل قصتنا يملك قلباً شفوفاً فاضلاً ولايستطيع ان يمر بالقرب من متسول دون ان ينفحه بصدقة ، غير ان هذا الرجل الذي امامه لم يكن فقيراً ، بل هو سيد يملك اكثر من الف نفس كما يملك كمية محترمة من القمح والطحين وبعض مستودعات للعجلات والاقمشة والاصواف والاسماك والخضار ، وفي المركز الرئيسي لأملاكه يمكننا ان نرى كثيراً من ذخائر الحشـب والامتنعة من جميع الالوان لدرجة يمكن الاعتقاد فيها بان في موسكو تجارة للنجارة عالية ، حيث يتبع صاحبنا دائماً زوج الأب و بنت الزوج وخدمهم لاجل ايجاد خشب مقتول وآخر مستدير وثالث مجدول : وعلب ودنان واجرنة وسطول وطبول.وسلال وقفاف من جميع الانواع ، وغير ذلك من شتى الاصناف والاشياء التي تحتاجها روسيا الغنية والتعبئة على السواء .

وماذا ترى بليوشكين يفعل بهذا الغنى المتراكم ؟ انه يملك تقريباً مايعادل ملكين مجتمعين لافطاعيين بل مايفوقهما ، وكان الى جانب ذلك يسير كل يوم في جميع طرقات قريته ليرقب ماتحت الجسور وما بين اكداش القمامات ، فيجلب بعضها معه ليرمي بها في تلك الزوايا القذرة من الغرفة المعدة للتخلص من الاشياء التي لايرغب فيها : كالنعال البالية والحرق الممزقة ، والمسامير وبعض القطع الجلدية الصغيرة وكل مايقع في متناول اليد ، وكان الفلاحون عندما يرونه يفتش بين اوزار القمامات يقولون : « هاهوذا الصياد يصيد » وكانت الطرقات عقب قيامه بمثل هذه النزعات ، تخلو من كل شيء يرمى به على الارض ، وحدث مرة لضابط ان اضاع ياقته فالتقطها بليوشكين ، ونسي مرة اخرى فلاح دلوه قرب البئر ، فلم يجده عندما عاد ليتفقده ، ذلك ان بليوشكين التقطه واخفاه ، ولكن هذا الرجل كان اذا ماشاهده فلاح يلتقط شيئاً يخصه وينهبه الى ذلك ،

فانه عند ذلك يعيد له ما يخصه في الحال دون اي جدال ، غير ان هذا الشيء اذا اخذ طريقه نحو مستودع القمامات في منزله ، فما من شيء عندئذ يستطيع ان يجبره على اعادته ، ذلك ان بليوشكين كان يعتقد ان أي شيء يخصه أما لانه اشتراه في يوم كذا من مكان كذا ، وأما لانه عاد اليه من تركة والده ، ففي منزله كان يلتقط بأناة وحذر كل ما يقع على الارض ، حتى تلك القطعة الضئيلة المتبقية من الشمعة والقصاصه الصغيره من الورقة والريشة ويضع الجميع فوق مكتبه أو على حافة نافذته .

و كان هذا الرجل الى جانب ذلك من الملاكين الكبار في السابق كما كان كثير الاقتصاد في نفقاته وينظر دائماً في عاقبة جميع الامور ، متزوجاً وله عائلة ، و كان يستقبل بكثير من التردد الاصدقاء الذين يأتونه في الاماكن القصية ليحلوا في ضيافته ويسألوه ان يرشدهم عن كيفية ادارة الاملاك . و كان الجميع يحبون ان يعملوا بنظام ونجاح ، سواء كان ذلك في المطاحن او في المصانع ومعامل الاقمشة والورشات والمصايغ . ففي كل مكان كان سير العمل نشيطاً تحت انظار المعلم الخالية من كل إسفاق ، ولم يكن لتبدو عليه الا الفطنة والحذر ، اما حديثه فانك واجد فيه الكثير من أثر الاختبار ومعرفة الناس . و كان كل واحد يسر لحديثه والاصغاء اليه ، أما سيدة المنزل فكانت امرأه مضايقة تثرثر بكل شيء يجري لها او تعرفه ، وهناك فتاتان جميلتان غضتان كالزهور ترينان هذه الاسرة ، و كان الأخ الصغير يركض وهو لطيف مرح ، ليرتمي على عنق اي كان مقبلاً هذا او ذاك دون ان يفكر فيما اذا كانت هذه البادرة تطيب للناس وتلقى قبولاً حسناً . و كانت جميع النوافذ مفتوحة آنذاك الحين اما الطابق العلوي فقد كان يشغله المربي الفرنسي ، وهو رجل مغرم بالصيد جداً و كان غناؤه دوماً يتألف من البط والدجاج و كمية من بيض العصافير الدورية يصنعون له منها عجة لا يأكل منها احد غيره . وهناك ايضاً امرأة

افرنسية تشاطره طابقه وتقوم بخدمة الفتاتين . و كان سيد المنزل يضع في بعض الاحيان رداء على الطاولة وهو رداء مستعمل قليلاً الا انه نظيف ويمكن الظهور به امام الناس .

اضاع بليوشكين زوجته فعاد اليه شطر من المسؤولية في ادارة المنزل ، واصبح بذلك اكثر ارتياباً وبخلاً كغيره من المترولين . ولم يستطع ان يضع ثقته عند الكسندرا ابنته البكر و كان هذا التصرف من جانبه في محله ذلك ان هذه الفتاة لم تلبث ان فرت في احد الايام مع ضابط من الفرسان بعد ان عقدت قرانها منه بسرعة في كنيسة القرية الصغيرة ، وكانت تعلم ان والدها يخشى جميع الضباط ويرى فيهم فئة من المقامرين المختلسين . وصب الوالد اللعنه عليها ورفض ان يتبعها ليعيدها الى المنزل . وهكذا أصبح البيت اكثر خلاء كما اصبح المعلم اكثر بخلاً ، ولم يلبث ان شاب شعره و كان اكبر الاثر في ذلك لبخله . ثم صرف المربي الفرنسي من الخدمة لان ابنه بلغ سن الجندية ، كما طرد الخادمة لأنها اتهمت بمساعدة الكسندرا ستيبانوفنا على الهرب . وارسل ابنه الى العاصمة ليدخل في سلك دواوين القضاء ، فدخل هذا سرية الجنود وارسل الى والده بعد ان مهر التعهد المطلوب منه في السرية كي يبعث اليه بعض النقود لتجهيز نفسه . فكان جواب والده : « لن ابعث اليك بكوبيك واحد واني لن اُعرف عليك بعد الآن » . وعندما ظلت الفتاة الثانية وحيدة في ذلك المنزل ادركتها الوفاة بعد زمن قليل . وهكذا ظل ذلك الشيخ هو السيد والحارس الوحيد لجميع ارباح ملكه العريض .

و كانت هذه الحياة القاسية تسمح لبخله بالاتساع والتكامل ، و اضمحلت جميع مشاعره الانسانية وأخذت نفسه تموت شيئاً بعد شيء . واذا اردنا ان نعزز ما زعمناه لبليوشكين من غرائب فاننا نقول ان ولده اضاع في الميسر مبلغاً ضخماً فصب الشيخ لعنته الابدية على وحيدة ولم يعد يهتم ابداً بوجوده او عدم وجوده .

وفي كل عام تغلق بعض النوافذ والى الابد « ونحن نعلم ان تشيتشيكوف لم يشاهد غير اثنتين مفتوحتين » ، وتراكت الانتفاض في القصر والبساتين عاماً بعد عام ، ولم يعد بليوشكين يهتم الا بقصاصاته الصغيرة وقاذوراته ، واصبح شيئاً بعد شيء شرساً مع عملائه الذين كانوا يدفعون له ائماناً جيدة لبضائعه ، ولكنهم ازاء معاملته انتهوا بان اهلوه نهائياً مصرحين بان الشيطان قد ركبـه وانه ليس بانسان . ولم يلبث القمح ان فسد في مستودعاته وكذلك الشعير وتحولت الطواحين الى اطلال ومزابل ، واصبح الطحين في اقبية كالحجارة الصلدة ولم يعد بالامكان تكسيـرها الا بالمعاول ، وأما الاقمشة النسيجية فقد غابت بجميع انواعها تحت التراب .

وانتهى بليوشكين بان نسي ما يملك من ثراء ، ولم يعد يفكر إلا بما تبقى عنده من زجاجات الخمر . واخذ يرسم اشارات على حيز المستوى الذي وصلت اليه الخمر في دنانها كي لا يستطيع احد ان يشرب منها سراً . واعتنى ايضاً بخواتيم الشمع والريشات وبخابئها . وظلت محاصيل املاكه كما هي ، ذلك انه يترتب على كل فلاح ان يدفع نفس القيمة التي كان يدفعها سابقاً . كما كان كل فلاح مجبراً على ان يسلم نفس كمية محصول البندق ، او ان يقدم نفس عدد القطع النسيجية التي كان يقدمها . ودب العفن في كل شيء في مستودعات العجلات والدكاكين ، وتحول إلى خرق بالية يعمل في زواياها العفن ، وحتى السيد نفسه مع جميع ما يملك اضحى خرقه انسانيه بالية .

ومرة جاءت ابنته الكسندرا ستبانوفنا لرؤيته مع طفل لها لعله ينال من والدها شيئاً من النقود . ذلك ان حياة الجنديـة مع ضابطها لم تكن قط جذابة كما تخيلت قبل زواجها منه . وقد صفح بليوشكين عن زلتها وأعطى الطفل زراً ليتلها به ولكنه لم يقدم لابنته كوبيكا واحداً . وعادت الكسندرا مرة ثانية للمجيء وكان معها طفلان وجلبت لوالدها قطعاً من الكاكاو لأجل الشاي

ورداءاً منزلياً نظيفاً ذلك ان الرداء الذي يلبسه ابوها يبعث على الحجل . فلاطف بلبوشكين حفيديه وشكر ابنته للاشياء التي جلبتها له ولكنه لم يعطها شيئاً . هذا هو الانسان الذي كان امام تشتشيكوف . وهو ظاهرة موضوعية نادرة في روسيا ، في ذلك البلد حيث يكون الرجال أميل إلى افشاء الحقائق من كتمانها ... ولعل هذه الظاهرة الموضوعية الحسية تشمل كثيراً من الملاكين الذين باتوا سعداء في معيشتهم ، يحبون منشرحين دائماً وهم لا يعدون من الروسيين ، ويجرقون ، كما يقال ، الحياة من جميع مسامها . اما الفلاحون الذين يجتازون هذه الاراضي فانهم يندهشون عند مشاهدة القصور ويتساءلون من هو ذلك الامير الذي يملك جميع هذه الاملاك . فمنازل هؤلاء السادة الامراء بجاراتها البيضاء تشبه القصور في جميع مظاهرها ، في مدافنها وجناحاتها وغرفها المعدة لشتى الطبقات من الاصدقاء الطارئین . وهاهي ذي المسارح والملاعب المرتجلة ، والانوار المناسبة والحداثق الغناء . فالاقليم كله يوجد في هذا المكان ملخصاً تقريباً . وان جميع صعوبات الحياة واطوارها لتزق امام هذه الاضواء الاصطناعية التي تنفجر خلال العواصج الملتفة والاشجار وتحيل لونها الاخضر إلى لون آخر اقل عذوبة . اما في الاعالي ، فان السماء المظلمة لتصبح اشد عبوساً وقتاماً ، بينما تبدو ذرى الاشجار وكأنها منغمسة في الظلام الخيم وابعدها فيه قراراً ، كما تبدو متلهفة امام ذلك النور الزائف الذي يضيء جذوعها .

وقف بلبوشكين ساكناً مدة وجيزة أما بافل ايفانوفيتش فانه من جهته لم يحاول ان يستهل الكلام ، بل كان مندهشاً مشتبك الفكر امام مرأى سيد المنزل وتلك القاعة ، واعمل فكره لايجاد علة تبرر زيارته ظاناً انه يحسن به ان يطري فضائل بلبوشكين وخصاله النادرة ، وانه مسرور بالمثل امامه واعلان خضوعه له ، ولكنه شعر بان مثل هذا الكلام مبالغ فيه مباغة ظاهرة ، فرمى بآخر نظرة على جميع تلك الاشياء التي تملأ المكان وفكر بان الفاظاً « كالفاضل

والحُصَال الجيدة » يجب عليه ان يبذلها بألفاظ أخرى كالنظام والاقتصاد ،
وسرعان ما بديل عبارته واللقى بها موجزة تعبر عن سروره بالتعرف على رجل
مثله وتؤكد احترامه له ، وكان بمقدور تششيكوف ان يجد حجة أخرى افضل
من تلك الحجة ولكن الخيال لم يسعفه .

وكان بليوشكين اثناء ذلك يحيب بالفاظ غير مفهومة ويدندن بشفتيه ، ولم
يكن في فمه اسنان وكأما كانت أحاسيسه توحى له هذا القول : « اذهب الى
الشیطان انت واحترامك » الا ان قوانين الضيافة الروسية قاسية جداً
لا تسمح لأي انسان كان ، ولو انه بخیل ، ان يزدريها ، ثم اضاف بليوشكين
بصوت مرتفع :

- تفضل بالجلوس .. لقد مر زمن طويل دون ان استقبل أحداً واعترف
لك باني جد مسرور من ذلك كثيراً .. لقد سادت عادة سيئة في مجتمعنا ، ألا
وهي الزيارات .. لقد تغذيت منذ زمن والمطبخ منخفض جداً وقد تحطم الفرن
لسوء الحظ هذا الصباح .. ولو اني اوقدت النار فيه الآن لعم المنزل الحريق .
« آه آه .. هتف بذلك تششيكوف في نفسه ، لقد قيل لي ذلك ..
ولحسن الحظ اني تغذيت غذاء جيداً عند سوبا كييفيتش » وتابع بليوشكين :
- اما فيما يتعلق بعلف الدواب فلا يوجد عندي رجل خاص به .. وكيف
احتفظ بمثل هذا الرجل ؟ ان املاكي صغيرة وفلاحي كسول ، يكره العمل
فاقضي طيلة ايامي مع جراب المتسولين ، وقال تششيكوف بشيء من الحيرة
والارتياب .

- لقد قيل لي انك تملك اكثر من الف نفس .

- ومن قال لك ذلك ؟ يجب ان تبصق في وجهه ياباتيوشكا ! انه بلا ريب
لص خبيث اراد ان يسخر منك .. ان عدد فلاحي قد تناقص بسرعة ! .. ذلك
ان الحمى قتلت كثيراً من عبيدي خلال تلك السنوات الثلاث الاخيرة .
- اأضعت كثيراً من عبيدك حقاً !

- اجل .. اضع عددًا كبيراً جداً .

- أسمح لي بسؤالك عن عددهم بالضبط .

- ثمانون .

- مستحيل .

- انا لا اكذب يا باتيوشكا .

- وتلك النفوس الميتة ! أهي معدودة في آخر احصاء .

- لقد فقدت منذ الاحصاء الاخير حتى الآن ما يربو على المائة والعشرين فلاحاً .

وهنف تشتشيكوف :

- مائة وعشرون .

- باتيوشكا . اني رجل كبير السن ولذلك لا اكذب ، فلقد بلغت السبعين

من عمري .

والظاهر ان بليوشكين قد اخطأ في فهم سبب هتاف بافل آيفانوفيتش ، وعرف الاخير انه اساء التصرف لانه لم يظهر شففته لمصائب الآخرين ، فصعد زفرة وشرح عطفه العظيم على بليوشكين لهذه الكوارث التي حلت به .

- ان العطف يا باتيوشكا لا يعني في شيء .. انظر مثلاً انه بالقرب من منزلي

يوجد ضابط ، لعل الشيطان قد جاء به ، يقول انه قريبي ، ولا ادري من أين

ينبع هؤلاء الاقرباء ! انه يناديني بعمه العزيز ، ويضم يدي بجمرة .. ثم ،

وعندما يبدأ بقص شكايته لي .. آه ! فاني عند ذلك أضع القطن داخل اذني ..

ان وجنتيه محمرتان دوماً كالجزر .. انه بلا ريب يسبح في الخمر ! لقد أضاع مامعه

منذ ان بدأ حياته كضابط بالميسر أو مع ممثلة من الممثلات .. وهاهو يحاول

استدراار عواظي .

وحاول تشتشيكوف ان يشرح لبليوشكين بان اشفاقه عليه ليس له أية

صلة بذلك الضابط ، واستطاع ان يبرهن له ان ذلك ليس بالكلام العادي المعسول

بل بالحجج الدامغة اذ صارحه بانه على استعداد لأن يدفع له نقداً المدفوعات

المرتبة عليه عن المائة والعشرين عبداً المتوفين منذ الاحضاء الاخير . وبدا ان هذا العرض قد جمد بليوشكين ، فانفجرت عيناه انفراجاً كبيراً ، وحملق في مخاطبه طويلاً ثم قال :

- ألم تخدم في الجيش قط يا باتيوشكا ؟

- لا .. اني مازلت من المدينيين .

- من المدينيين ؛ ثم أخذ يحرك بشفتيه كما لو انه يمضغ بعض الاطعمة ...

نك سوف تخسر نقوداً لقاء هذا العمل .

- اني على استعداد تام لان اضيع النقود كي اسعدك .

- آه يا باتيوشكا ! يالك من محسن كريم .. هتف بذلك بليوشكين دون

ان يلحظ انه اثناء نوبة سروره قد اوقع بعض التبغ من غليونه وان رداءه المنزلي قد انفرج انفراجاً اكثر مما تسمح به الآداب . ثم تابع :

- انك لتقدم جميلاً لشيوخ كبير . آه ! ايها الاله المخلص ! ويا اولياء السماء !

ولم يستطع ان يضيف شيئاً ، ولكن الفرحة ظهرت على وجهه القاسي وعاد

تعبيره الى اكتساب طابع الاهتمام الشديد . فجفف وجهه بمنديله ومسح

شفته العليا به .

- اوضح لي ، ارجو المذرة اذا قاطعتك ، كيف تستطيع بحق السماء ان

تدفع هذه الضريبة السنوية ؟ .. والنقود .. اعطينيها لي أم تدفعها خزانة

الدولة بنفسك ؟

- اليك ما سنفعل ... سنعمل صكاً ببيع العبيد كما لو كانوا احياء ونسجل

فيه اني اشتريتهم منك .

- صك بالمبيع ، اجل ، قال ذلك بليوشكين وهو كالحالم واخذ بتجريك

شفاهه . صك بالمبيع ان هذا يكاف ... ان مثل هذه المعاملات ليس من ذمة

فيها .. لقد كنا في السابق ننال ما نريد ببضعة كوييكات ووعاء مليء بالدقيق

اما اليوم فانه يازمنا عربات مليئة بالبرغل .. وقطعة صغيرة حراء من فئة العشر روبلات .. ما هذا الجوع للذهب !.. هؤلاء الذين يستطيعون ان يقودوا الى هذه المعاملات حتى جميع الفوانين المسلكية المسيحية . ان الكلام الجميل له سلطان عظيم .. وما من انسان يستطيع المقاومة امام نفوذ الكلام الذي ينقذه .

« وانت ... لقد قاومت » فكر بذلك تشيتشيكوف وتبين له انه يجب عليه احتراساً من بليوشكين ان يجعل نفقات الصفقة مكان اعتبار .

وحزم بليوشكين بان مخاطبه احمق سخيف ، لم يخدم في الجندية قط، ولم يستطع ان يخفي سروره فتمنى كل النجاح والسعادة لجميع الناس على السواء وليس لتشيتشيكوف فحسب بل حتى لجميع اولاده ولم يحاول ان يسأل عما اذا كان له اولاد ام لا . ثم اقترب من النافذة وضرب زجاجها بيده وصاح :
- ايه ! بروشكا !

ومرت برهة طويلة ، ثم سمع بعدها انسان يركض في دهليز المنزل ، وبقي هذا الراكض مدة طويلة وقد خرجت من حذائه خبطة عظيمة وفتح الباب اخيراً ودلف منه شقي يبدو عليه انه في الثالثة عشر من عمره ينتعل حذاء اضخم من قدميه بكثير . ولكن لماذا لم ينتعل بروشكا حذاء جيداً ؟ السبب في ذلك انه وضع زوجاً واحداً من الاحذية بقياس ضخم يصلح لجميع خدم بليوشكين ، وهذا الزوج يجب ان يوضع دوماً في مدخل بيت المعلم . وكل فلاح يستدعيه المييد عليه ان يسرع بالجيء حافياً يقفز في باحة المنزل فوق الماء والحجارة . وعندما يصل الى الدهليز ينتعل ذلك الحذاء ويظهر بعد ذلك امام المعلم . وفي أواخر فصل الخريف حيث يبدأ التجلد بالظهور في كل مكان يمكن مشاهدة العبيد يقفزانهم العجيبة كالراقصات او الراقصين في الباليه .

- انظر الى هذا الرأس القذر ! قال ذلك بليوشكين وهو يشير الى وجه بروشكا ... انه حيوان يبدو كصنع من الحشب ، ولكنني نسيت نعتاً

آخر له ، هو انه سارق ايضاً . ماذا جئت تعمل هنا ! هيه اجب ايها الابله .
وساد السكون . أعد لنا السماور أسمع ؟ خذهاك المفتاح ، اعطه لمافرا ،
وقل لها ان تذهب للمطبخ وتأتي بالكاتو الذي جلبته لي الكسندرا ستيبانوفنا ،
والذي صنعه خصيصاً للشاي ... ولكن انتظر إلى اين تركض ؟ يالك من أبله !
ليذهب الشيطان بقدميك . هيه ؟ استمع الآن ، ان أسفل الكاتو قد احابه
العفن ... ليكشط عنه عفته هافرا بسكينه ، ولا تدعه يرمي بشيء بل ليأت به
إلى بيت الدجاج ... اما أنت فعليك ان تحذر ، اياك ان تدس أنفك في المطبخ ...
وإلا فالعصا تعرفها جيداً ! انها لتزيد في شهيتك ... احذر ان تدس انفك ...
وإلا فسترى ! ...

— ان هذا المخلوق لا يمكن اثباته على شيء ! تابع بليوشكين حديثه بهذه
العبارة متوجهاً بها الى تشتشيكوف بينما انصرف بروشكا .

ولم يفت بليوشكين ان يرمي بافل ايفانوفيتش بانظار حذرة . لقد كانت
طيبة غير عادية بما جعلها تبدو في نظر بليوشكين مستحيلة فقال في نفسه :
« الشيطان وحده يعلم ما إذا لم يكن يعظم نفسه كهؤلاء الضباط اللصوص ، انه
يكذب كي يكافئني ويتناول الشاي من عندي ، ثم يذهب بعد ذلك دون ان
أقال منه شيئاً » . ثم ، ومن قبيل الحذر ، ولأجل الاختبار ، طلب من بافل
ايفانوفيتش تحرير صك المبيع بأسرع وقت ، ذلك انه لا يمكن الوثوق بالغد ،
فالذي يحيا اليوم قد يموت غداً . ووضح تشتشيكوف انه مستعد لذلك دون
اي تأخير واكتفى بطلب قائمة تامة بجميع اسماء العبيد .

وانقشعت غمامة الشك عن عيني بليوشكين ، وحاول ان يتجنب من ضيقه ،
فتناول المفاتيح واقترب من الخزانة ، ففتحها وبعد ان حرك فيها الكثير من
الزجاجات والكؤوس قال :

— هاهي ذي ، لقد وجدتها ... هنا يوجد قليل من المشروب الرائع ...
لقد شرب لي اكثرها هؤلاء اللصوص .

وكان تشتشيكوف قد ساعد قبل قليل زجاجة صغيرة بين يدي بليوشكين
مغطاة بالغبار .

- انها زوجتي التي صنعت هذا ... ومنذ ان تزلت نسي ان يغطيها الوضعا
فوقع في داخلها جميع انواع البعوض ، ولكنني استخرجت جميع ما وقع فيها
وهاهو ذا الشراب نظيف صاف . سأملأ لك كوبا صغيراً .

غير ان بافل ايفانوفيتش اسرع بالرفض معتذراً بانه قد تناول الغذاء كاملاً
قبل ان يأتي لزيارته . فقال بليوشكين :

- لقد اكلت وشربت اذن ، وهذا صحيح ، ان الاشخاص الذين ينتمون
للطبقة العالية يعرفون انفسهم جيداً ، انهم لا يأكلون وإن كانوا جائعين .. بينما
اولئك اللصوص يزددرون كل شيء دون توقف .. مثال ذلك جاري الضابط
فانه يدخل الى بيتي وهو يصيح : « اعطني ماآكل يا عمه » وانا لست بعمه ؛ وهو
ليس عنده ما يتبلغ به ؛ وانا متأكد من ذلك ؛ وإلا لما اتاني يتسول .. وانت انك
تريد قائمة باسماء هؤلاء اللصوص .. هذا حسن .. سأكتب لك منذ الآن على ورقة
خاصة لأحذف اسماء الميتين من قائمتي حتى الاحصاء القادم .

وثبت بليوشكين نظارتيه فوق أنفه وذهب إلى المنضدة ليجلب بعض
الاوراق . وهناك فك حزمة ضخمة بعد ان أزال عنها ما تراكم عليها من الغبار
بما سبب لتشتشيكوف العطس وتناول اخيراً ورقة عليها اسماء الفلاحين تحوي
على مائة وعشرين اسماً . وتبسم تشتشيكوف وهو يرى هذا العدد الكبير من
النفوس الميتة . فوضع الورقة في جيبه وقال لبليوشكين انه يتحتم عليه ان
يذهب غداً إلى المدينة ليختم عقد الصفقة .

- إلى المدينة ! ماذا تقول ؟ ولمن أترك هذا المنزل ؟ وليس عندي فيه غير
اللصوص انهم سيذهبون كل شيء في أقل من اربع وعشرين ساعة . بل اني سأجد
عند العودة قميصي مفقوداً .

— أما من صديق عندك ؟

— صديق ؟ لقد مات جميع اصدقائي ومنهم من تركني . ليس لي صديق
باباتيوشكا ! ثم هتف بليوشكين . عندي واحد فحسب هو رئيس المحكمة نفسه ...
ولقد جاء هنا مرة راداً لي الزيارة ... لقد كنا في الصغر نشترك معاً في جميع
الهماقات ... واني استطيع ان اكتب اليه .

— وهل يمكنك ذلك .

— لقد كنا نحب بعضنا كثيراً ... وكنا زملاء في مدرسة واحدة .
ولم يلبث وجه بليوشكين المصفر ان استضاء قليلاً بالاختلاجات العاطفية
التي انعكست عليه . وهذا الحادث الواقعي المحسوس نستطيع ان نشبهه بغريق
طفلاً فوق سطح الماء مما جعل الناس الذي وقفوا يشاهدونه يطلقون صرخة الفرح
والسرور ، ولكن عبثاً يرمي اخوته واصدقاؤه له الجبال ذلك لان جسده لم
يظهر لهم قط ، فهو ثقيل ضيق عار فوق الشبح . هكذا اصبح وجه بليوشكين
بعد هذا الوميض المشع من العواطف اكثر قساوة وشراسة .

— لقد كان فوق هذه المنضدة فرخ من الورق الابيض ولكنني لست اعلم
ما حل به ، كان بليوشكين يقول ذلك وهو يفتش في كل مكان تقع عليه نظاره ،
فوق الرباش ، وفي كل ركن وزاوية . ثم اخيراً نادى بصوت عال :
— مافرا ! مافرا !

وركضت امرأة تحمل صحناً عليه قطع الكاتو التي كان المعلم قد طلب جلبها .
فسألها بليوشكين :

— ايتها المنكودة اين وضعت فرخ الورق ؟

لم أره ايها المعلم ، لم أر غير قصاصة الورق التي سددت بها هذه الزجاجة .
— أرى عينيك تكذبان أرى فيها انك سرقتها .

— ولماذا ؟ وماذا تريدني ان اكتب عليها ! اني لا اعرف حتى القراءة .

— انك كاذبة ... لقد اعطيتها القندلفت الكنيسة ... ذلك الذي لا يعمل شيئاً غير توسيخ الورق ... لقد اعطيتها له .

— لو كان القندلفت يحتاج إلى الورق لاشتراه ، فهو ليس بحاجة لوريقتك .

— انتظري قليلاً ... ستأخذك الشياطين يوم الدينونة وستشوي جسدك بالنار الالهية ... سترين !

— ولماذا تشوي جسدي طالما اني لم اقترّب من رقتك ... قد اكون ضعيفة كغيري من النساء ، ولكنني لم اسرق شيئاً قط .

— لقد قلت لك ان الشياطين ستقذف بك في النار تشويك شيئاً ، وذلك لانك لا تنقطعين عن تخطئة معلمك ، لسوف يستخرجون من جسدك دهنك بعد ان يغلي .

— وأنا سأقول لهم بان ذلك غير صحيح ... خذ هاهي ذي وريقتك ... انك دوماً ترميني بالتهم ظالماً .

— وشاهد بليوشكين ورقته فصمت قليلاً ثم تابع :

— ولماذا تحتدين؟ ياله من أمر سيء . الأجل كلمة واحدة تقال لها تردبعشرين كلمة ؟ اذهبي واثنين بالنار كي استطيع ختم الرسالة ... ولكن انتظري ... انك ستأتين بالشمعدان ... لا ، انه يشتعل بسرعة ويكلف غالياً ... احضري لي عود ثقاب .

وخرجت مافرا ، وجلس بليوشكين على مقعده وتناول قلمه وأخذ يطوي الورقة واستمر كذلك طويلاً ليرى ما اذا كان نصفها يتسع للشيء الذي يرغب بكتابته . ولما رأى ان ذلك مستحيل ، غمس قلمه داخل الدواة المليئة بسائل اسود غطاءه البعوض . ثم اخذ يكتب بخط اشبه بالنوطة الموسيقية . ولما تعنت يده اليمنى نقل القلم الى يسراه واخذ يحط جاهداً اكبر عدد من الاسطر وهو متأسف بينه وبين نفسه لان اسفل الورقة سيظل ابيض خالياً من الكتابة .

تلك هي الخزيات ، وذاك هو الاحطاط الاخلاقي وحمأة العدم التي تردى فيها ذلك الانسان ! فهل صحيح ان هذا الحادث واقعي ؟ بل كل ذلك صحيح فجميع الامكانيات موجودة في الذات البشرية وان الشاب المليء بالحياة ليرتجف فرقاً حين يفكر بما نخفي له الشيخوخة . يجب ان تعيشوا جميع المظاهر الغالية لكل سن وعقد . لا تحتقروا أية خطوة من السطوات الانسانية . فانكم ان لم تفعلوا ذلك لن تستطيعوا استعادة تلك الحياة قط . ذلك ان الشيخوخة قاسية رهيبة لا تهب شيئاً ولا تدع اي شيء .

- أولا تعرف صديقاً لك يستطيع ان يشتري شيئاً غير النفوس الميتة ، كالنفوس الآبقة مثلاً ؟ سأل ذلك بليوشكين وهو يطوي الرسالة .
- وهل يوجد عندك عبيد آبقون ؟ قال ذلك تشيتشيكوف وهو يحملق بعينه :

- أجل بطبيعة الحال .. ولقد حاول صهري ان يقبض على هؤلاء الفارين .. ولكنه للأسف فقد آثارهم ، غير انه جندي وسيدشكي الى الحاكم .

- وكم يبلغ عدد هؤلاء الفارين ؟

- نحو السبعين .

- مستحيل !

- اقسم لك على ذلك ... ما من سنة تمضي وإلا ويهرب فيها الكثيرون .. انهم كلهم شرهون .. لا يفكرون الا بالطعام وانا لا يوجد عندي هنا ما اقتات به ؟ ولكنني اقنع بسرعة .. قل ذلك لصديقك واعلمه ايضاً انه لم يقع في الفخ من هؤلاء العبيد الا عشرة وهذا سيجعل صفقته مريحة جداً .. وانت تعلم ان العبد الواحد يساوي خمسمائة روبل .

« طبعاً لن اقول شيئاً لأي انسان » قال ذلك تشيتشيكوف لنفسه ثم اجاب بانه لا يجدر بالمرء ان يتكل على أحد ؛ فان النفقات المباشرة تبدو اعلى من الارباح ، فالذهاب الى الحاكم يكاف كل شيء تقريباً حتى يبلغ حد تضيق

الملابس . ولكنه ، اي تشيتشيكوف ، لا يرغب الا بمساعدة بليوشكين .
- اذن كم تدفع لي ؟ طرح بليوشكين هذا السؤال وقد تشنجت يداها .
كالهودي .

- خمسة وعشرين كوبيكاً عن كل نفس .

- في الحال .

- أجل .

- ولكن يا باتيوشكا ، انا رجل فقير ، اعطني اربعين عن كل نفس .

- سيدي العزيز ، هتف بذلك بافل ايفانوفيتش ، ان ما اريد اعطائك اياه
ليس اربعين كوبيكاً فقط ، بل اربح باعطائك خمسمائة كوبيك عن كل نفس ،
ذلك اني لا استطيع ان ادع شيخاً له قلب مثل قلبك يتألم ويعيش في مثل
هذه الحال من البؤس الشديد .

- هذا صحيح ، هذا صحيح ، قال ذلك بليوشكين وهو يحني رأسه ليتخذ
مظهر الشهيد ، أجل ... ان حالي حسن ! ...

- فانت ترى اذن بافي اعرفك جيداً ... اذن لماذا لا ادفع لك الخمسمائة
كوبيك عن كل نفس ... ان السبب في ذلك اني لا املك مالاً ... ولكني
مع ذلك سأضيف لك خمسة كوبيكات ... فيكون المجموع ثلاثين كوبيكاً
عن كل نفس وهذا كل ما استطيع ان ادفعه لك .

- اصف كوبيكين ايضاً .

- ليكن لك ذلك ... اثنان وثلاثون كوبيكاً ، وعندك سبعون نفساً
أليس كذلك ؟

- بل ثمان وسبعون بسعر اثنين وثلاثين كوبيكاً عن كل نفس .

وفكر بطلنا هنية ثم قال : سيكون المجموع اربعة وعشرين روبلاً وستة
وتسعين كوبيكاً . ان تشيتشيكوف قوي جداً في الحساب .

ثم طلب كذلك من بليوشكين ان يجر له قائمة باسماء العبيد الهاربين واعطاه المبلغ نقداً ، وامسك بليوشكين بالنقود وحملها الى الطاولة بنفس الاناة والحذر الذي تتحلى به عندما تقرب من فنا كأساً من الخمر طافحة كي لا يقع منها شيء على ثيابنا فيتلفها ؛ وعندما وصل الى المائدة نظر الى نقوده مرة ثانية ثم وضعها بحرص شديد داخل درج الطاولة ، ان هذا الكنز سيظل هكذا مدفوناً في هذا المكان حتى ذلك اليوم الذي يدفنه فيه الابوان كارب وبوليكارب سيدا القرية وتكون الفرحة الكبرى لابنته وصهره كما قد تكون ايضاً لذلك الضابط الذي يدعي انه من اقاربه ، وهذا بليوشكين بعد ان نظم نقوده ، ومر وقت طويل وهو هادىء ساكن لا يكاد يجد موضوعاً يثير فيه النقاش .

— هل ستغادرننا الآن ؟ قال ذلك صاحبنا وهو ينظر الى تشتشيكوف يقوم بحركة لأخذ منديله ، واعاد هذا السؤال لذهن بافل ايفانوفيتش بانه ليس لديه وقت لتضييعه ، فأجاب وهو يتناول قبعته .
— اجل انه وقت الرحيل .
— والشاي ؟ .

— اذا سمحت سنتناوله معاً في المرة القادمة .

— ولكن كيف . . لقد اعددت السماور ، ثم اني والحق يقال لست براغب جداً بالشاي . . فالشراب غالى الثمن والسكر ابدأ سعره يتعالى ، ثم صاح : يابروشكا لاتأتي بالسماور وأعد هذه القطعة من الكاكو الى ماقرأ كي تضعها في نفس المكان الذي كانت فيه . . لا . . انتظر قليلاً ! سأذهب بهذه القطعة انا . . إذن بحفظ الله ياباتيوشكا ، بوركت اعط هذه الرسالة لرئيس خزانة السجلات . . وليقرأها انه صديق قديم . . ولقد تزوجنا معا في يوم واحد .

ثم قام ذلك الشيخ الغريب ، ذلك الشيخ العجيب بمرافقة بافل ايفانوفيتش الى الباب الكبير ذي الرتاج الغليظ الذي مالبث ان قفل بعد ذلك خلف الزائر

مرتين وطاف بعد ذلك بجميع املاكه ليرى ما اذا كانت الحرس مازالوا في اماكنهم ، فوجدوهم يضربون على برميل فارغ بمجارف خشبية مما يجعل اللصوص يمتنعون عن الدخول الى هذه الاملاك فتتأمن الحراسة ، ثم عاد الى المطبخ ليرى اذا كان الجميع قد اكلوا جيداً ، أما هو فقد ازدرد صحناً مليئاً باللحم المسلوق وبعد ان عامل عبيده معاملة اللصوص عاد الى غرفته ، وهناك ظل وحيداً يفكر في كيفية مكافأة زائر العظم لأجل طيبته التي لامثل لها حقاً ، « سأجعل له هدية مؤلفة من ساعة .. ستكون جميلة جداً » لانها من الفضة الخالصة لا من النحاس أو الزنك .. انها لا تسيروا سيرواً حسناً ولكنه بلا ريب سيصلحها . انه شاب فهو يحتاج الى ساعة لأجل زيارته الخُطبته .. لا ! قال ذلك فجأة بعد لحظة تفكير : سأدعها له في وصيتي ليتذكرني بها يوماً .

اما بطلنا فانه رغم ذهابه دون هدية فقد كان غارقاً في سرور عظيم ، ذلك ان الكسب الذي حصله يساوي في الواقع اكثر مما هو في الحقيقة ، لقد ربح مائتي عبد من الموتى ، ولكن ربحه لم يقتصر على الموتى بل تعداه الى الابقين ، ذلك انه ربح منهم الكثير ، لقد كان متأكداً من حدسه عندما زار بليوشكين بانه قام بعمل رائع ، غير انه لم يفكر بانتصار كهذا الانتصار ، أجل انه كثير المرح ولذلك اخذ يصفر فيما بين اصابعه كما لو انه ينفخ في مزمار ، وقد انتهى من صفيحه بافجار هائل لأغنية مضحكة سخيفة ، حتى ان سليفان نفسه بعد ان أصغى اليها مندهشاً قال وهو يهز رأسه : بالعلم انه يعني .. انظروا اليه كيف يعني .

وكانت الظلمة قد عمت الكون تقريباً عندما وصل الى اول بيت في القرية وكانت الاشياء تبدو انها غارقة في الظلمة التي بدأت تزداد قتاماً ، وبدت الوان الحواجز غير واضحة ، أما شوارب الحراس فقد كانت تتراعى انها ارفع من جبينهم بينما كانت انوفهم مخفية تماماً تقريباً ، وقد فهم تشتشيكوف من قرعة

العجلات واهتزاز العربَة انه يسير فوق طريق معبد ، لم تكن المصابيح موقدة بعد ، ولكن كانت انوار ضئيلة تجتاز بعض النوافذ ، وكانت الجنود والعمال والحدوية يلتقون في المنعطفات والأزقة فيتناقشون في امور مبهمة يستدعيها عادة في هذه الليلة هبوط الليل وتولي النهار ، وكان الناظر يرى ايضاً نساء بشال احمر واقدام غارية داخل الاحذية ، ومجموعة من الاحياء التي بتخليقها المنخفض في المحال العامة تشبه الخفافيش .

لم يلحظ تششيكوف شيئاً من ذلك ، بل انه لم ير حتى الموظفين وهم يأتون من نزاهاتهم الى المدينة متسلحين بعضهم الصغيرة ، وكانت تفرع اذنيه من وقت لآخر صرخات نسائية مختلطة : انت تكذب ايها السكير ، اني لم اسمح له بمعاملة سيئة كهذه ابداً ، او اه .. لاتضربني ايها الحيوان القذر .. اذهب الى مفقش البوليس وسوف اتبعك ، وهناك صرخات اخرى تبعث على الجنون تلعبث من حناجر الشباب المراهقين الذين لم يتجاوزوا العشرين ، وهم يحملون عند خروجهم من التياترو الى « شوارع اسبانيا » الى المعبودات من النساء اللواتي يخطفنهم ليلاً على اصوات الجيثار ، ان نشوة الخيال تجعلهم في السماء يزورون شيار .. ولكن هاهم يعودون الى الاقذار ، الى الحقيقة التي لامفر منها ، الى أوشاب السوق الرئيسي ، الى الحياة الارضية العادية التي تكون في كل يوم .

وبعد هزة اخيرة ظهرت العربَة وكأنها تسير داخل حفرة ؛ كانت قد وصلت في الحقيقة الى ماتحت باب خادم الفندق ، وجاء بتروشكا فاستقبل تششيكوف وكان يحمل بيده جانب ردائه كي لا يتطاير في الهواء بينما يمد يده الاخرى لسيدّه كي يعينه على الخروج من العربَة ، وظهر بعد ذلك صبي الفندق وهو يحمل شمعة بيده ومنشفة على كتفه « ولكن ترى ، هل سيعجب بتروشكا بعوده معلمة حقاً اني اجهل ذلك ، ولقد تبادل مع سليفان النظرات فالتمعت ضحكة فرحه في وجهه العبوس .

وعندما صعد تششيكوف الدرج الى غرفته خلف الصبي الذي يحمل بيده الشمعة ، قال له هذا الاخير :

- لقد تنزهتما طويلاً .

- أجل هذا صحيح وانت كيف حالك .

- حسن والله الحمد .. لقد جاءنا احد الضباط البارحة فاحتل الرقم ١٦ .

- ضابط ؟

- من ريزان .

قال تششيكوف وهو يلج غرفته .

- حسن جداً . عد الى عملك كي ارضى عنك .

وعندما اخذ يجتاز الممشى قال لبتروشكا .

- لقد استطعت على الاقل ان تفتح النوافذ .

فأجاب بتروشكا بانه فتحها ، ولكن تششيكوف أحس انه يكذب ، الا انه كان زاهداً في النقاش ، انه تعب لدرجة الاعياء الشديد من جراء اسفاره الطويلة ، فطلب حساء خفيفاً ثم نفى عنه ثيابه ، وانطرح فوق فراشه وراح في سبات عميق لا يستطيع ان يوقظه منه شيء .

الفصل السابع

ما أسعد الانسان الذي يعود إلى منزله بعد سفر طويل يمل عانى فيه التعب وقاسى الشيء الكثير من ضجيج الاجراس وتصليح العربات مع المتشردين الذين يصادفهم في الطريق . حقاً ما أسعد رجلاً كهذا يعود فيستمتع بالضوء ينير له الطريق منذ وصوله وهو يجتاز غراً حبيبة اليه ويسمع صيحات الترحيب من أفواه الاطفال ويشعر بمظاهر الود والحنان تحيطها به اسرته فينسى من ثم متاعب السفر . ألا ما أسعد مثل هذا الانسان وما اشقى العازب .

ثم ما أسعد الكاتب الذي يبتعد عن النفوس الكثيرة ويترك الواقع المؤلم ويصف الطبائع الراقية . وانه لسعيد سعيد ذلك الكاتب الذي يختار من الاوساط المنحطة الشخصيات الشاذة فلا يخون إلهامه ولا ينحط إلى مستوى البؤساء فينطلق في الاجواء الاثيرة حيث لا تعيش غير الخلوقات الجميلة . ان مثل هذا الكاتب يحسد على شئين ، فهو في محيطه يصف هذه الاجواء أولاً ونجده أبعد صدى ثانياً . ذلك انه يضع ستاراً كثيفاً على عيون الاشخاص الذين وصفهم ليحجب عنهم احزان الحياة ويكتفي بوصف الجميل والنبيل فتصقق له انجاهير وتبعه وتنادي به كعبقريّة فذة تحوم في خيالاتها كالنور يداعب أعلى

القلم . وتحقق القلوب لدى ذكر اسمه وتسيل دموع الاعجاب . . . انه إله .
واما الكاتب الذي يجروء على نشر ما لاتراه العيون العادية ويعترف من آنية
مصائب الحياة ويعرض الشخصيات البائسة المسكينة الفارقة في الانحطاط من
التي يصادفها كل يوم . . . اما هذا الشاعر القاسي الذي يصف بقوة وغفوات
ويبرز هذا الواقع ليطل عليه الناس ، اما هذا الرجل فليس له ان ينتظر تصفيق
الجمهير ، ذلك انه لن يرى ابدآ دموع الاعجاب ولن يشعر بحماس القلوب كما
لن تهرع اليه عذراء اخذتها الشفقة ، وهو نفسه لن يغيب عن وعيه مأخوذاً بروعة
اشعاره ولن يفلت اخيراً من حكم معاصريه المنافقين الذين يدينون أدبه ويضعونه
في مصاف الكتابات المبتسرة للمهينة للانسانية متجاهلين القلب والروح والعاطفة
التي أوحى بمثل هذا الادب . ذلك ان هؤلاء الحكماء لا يفهمون ابدآ ان العبقريّة
هي هي عندما يصف الانسان الشموس البعيدة وحين يرسم لوحات حياة
الحشرات التي لا يلحظها احد ، ولا يفهمون ان الموهبة عظيمة جداً حين تستدعي
سخط المجموع ، وان الضحكة الشديدة تعادل الاعجاب الارستقراطي الهادي ،
وان الهوة التي تفصل بين الضحكة الصافية وبين نكشيرة دجالي السوق انما هي
هوة سحيقة . . . كلا . . . ان الحكماء المعاصرين ليجهلون هذه الحلقة ولا ينون
عن إهانة الكاتب الذي يبقى وحده محروماً من العاطفة والتأييد فيجس حياة
قاسية في وحدة مريرة مع نفسه .

اما أنا فيجب علي ان اسافر طويلاً مع شخصياتي الغريبة وأتأمل الحياة
التي تنكشف للابصار بصورها التي لاتكاد تحصى ، وأدرسها بعمقها ساخرة
تنقل بين الاجيال ، ودموع غامضة مجهولة . . . ولكن لنمض في طريقنا ،
فان هذه الاشياء التي مرت ظلالها امام انظاري بعيدة عني . . . فماذا يفعل
تشتشيكوف ؟

استيقظ بافل ايفانوفيتش من نومه وتمطى فشعر بالراحة ، وتذكر وهو

مستلق على ظهره بانه اصبح سيد اربعمائة نفس فأخذ يفرك يديه مبتهجاً ثم قفز من سريره دون ان ينظر الى المرأة وهي عادة كانت حبيبتها جداً الى نفسه اذ كان يحب كثيراً ان يتأمل وجهه وخاصة ذقنه ويفخر بشكلها أمام اصدقائه : « انظر كيف هي مستديرة » . وفي هذا الصباح انتعل بسرعة حذاءه المزين بشتى انواع النقوش من مختلف الالوان . ونسي سنه ووقاره فقفز مرتين ، ثم وقف على رؤوس اصابعه . وتناول محفظته وفرك يديه ابتهاجاً كأنه قاض يجلس للغداء بعد تحقيق طويل وتناول اوراقه ، وكان قد قرر ألا يرجي اعماله الى الغد وان يحرق بنفسه عقود البيع ويكتب عنها نسخة ثانية كي لا يدفع عليها اجراً ثانياً وكان في القديم قد تتقف بمعرفة طريقة كتابة العقود .

كتب بحروف كبيرة : « عام الف وثمانمائة و » ثم كتب بحروف أصغر من الاولى : « نحن الموقعين ادناه . . . » وتابع الكتابة . . . وبعد مرور ساعتين كان قد انتهى من عمله .

واحس تئشيكوف بشعور لا يوصف وهو يقرأ اسماء هؤلاء العبيد الذين عاشوا كفلاحين شرفاء مجتهدين او كسكييرين كسولين خدعوا اسيادهم بمختلف الطرق . كان هناك ثمة ميزة خاصة بكل قائمة ومن خلال هذه الميزة كانت العبيد المسجلون في القائمة يعودون الى الحياة بطبيعة خاصة حسب ميزة القائمة كان لكل من فلاحي كوروبتشكا لقب . وكانت قائمة بلبوشكين تمتاز بالايجاز فأسماء العبيد مسجلة عليها بالحروف الثلاثة الاولى فقط ثم يلي ذلك عدة نقاط بعدها . اما قائمة سوبا كيفيتش فقد كانت تعدد الصفات ، ودقتها بما يستلقت الانظار ، ذلك ان سوبا كيفيتش لم ينس صفة واحدة من صفات فلاحيه : « نجار ممتاز » و « ذكي ... لا يسكر » فكان يذكر كل شيء حتى آباء وامهات فلاحيه واخلاقهم ، وقد اضاف الى صفات فلاح يدعى فيدوشوف هذه العبارة : « مجهول الاب ... مولود من خادمة المزرعة كابيتوليننا ولكن اخلاقه جيدة »

ولا يسرق» فمثل هذه الاوصاف على كثرتها كانت تضيي على القائمه الحياه
فيظهر العبيد وكأنهم عادوا ثانيه الى الحياه .
شعر بافل ايفانوفيتش بالحنان وهو يقرأ هذه الاسماء فتهد وقال : « يا الله ...
ما اكثركم اجببوا ما ذا فعلتم في حياتكم وكيف جاهدتم حتى لا تموتوا
من الجوع ؟ »

وتوقف دون قصد على اسم : « بيوترسافلين فيوناجاي كوريتو كوروبتشكا »
ولم يستطع تشتت شوكوف كتمان دهشته فهتف : « ما هذا الاسم .. انه يكاد
ياخذ سطرأ برمته .. هل كنت عاملاً ماهراً أم فلاحاً بسيطاً ؟ وكيف مت ..
أفي الكوخ أم سحقتك عربة في الطريق ؟ » وشاهد اسماً آخر فتابع :
« بروبكاستيان .. خطاب .. رجل قنوع جداً .. آه لقد كان يصلح للخدمة
في غرفة الحرس .. لقد اجتاز الريف الروسي وهو يحمل في حزامه فأسه وعلى
كتفه حذاءه ، وكان يتغذى بكوبيك خبزاً وكوبيكين سمكاً ثم يعود الى منزله
ومعه مائه تسلكوفيس (نقود روسية تعادل الواحدة منها اربعة فرنكات
افرنسية) وقد احتاط باخفاء مبلغ في حذائيه ، وانت كيف انتهيت ؟ هل
اردت ان تربح مبلغاً كبيراً باصلاح قبة جرس فوقعت من شاق وكنت في
الاسفل رجل وليكن اسمه ميشي ، فما إن وقعت حتى حك برقبته وقال :
« لقد تحطم غليونك يا صديقي فاينا » ثم ربط وسطه بجبل متين وتسلق البرج
ليحل مكانك .

وقرأ من جديد : « مكسيم تليانتيكوف .. حذاء .. » ثم فكر :
« حذاء .. سكيو كالحذاء .. اني اعرفك جيداً يا عزيزي وإن شئت فسأروي
لك قصتك .. لقد تعلمت مهنتك من الماني كان يضربك عند كل خطيئة تقع فيها
ولم يكن يسمح لك بدقيقة واحدة تراح فيها ، وكان يمدحك كثيراً عندما
تحدث عنك مع زوجته ، وعندما انتهت من تعلم المهنة قلت في نفسك : « لقد

جاء دوري الآن في استئجار محل لي ولن اكون كهذا الالماني الذي لم يربح شيئاً في حياته ، أجل لسوف احاول أن اصبغ غنياً ، وبعد ان دفعت لسيدك فدية كبيرة استأجرت دكاناً وتلقيت الكثير من التوصيات ثم اشترت جلدأ رديئاً من حيث لا يعلم أحد وبعته احذية مصنوعة بضعف الثمن الحقيقي ، وبعد مرور خمسة عشر يوماً كانت الثقوب تملأ تلك الاحذية ، فلعنك الزبائن وفرغت دكانك ، فأخذت تتجول في الطرقات ثملاً وانت ترجر : لقد ساءت الاحوال كثيراً جداً ، ولم يعد في مقدور الروسيين ان يعيشوا في بلادهم لان الالمان اصبحوا السادة في كل مكان .

وانتقل إلى اسم آخر وقال : « وهذا الفلاح ؟ آه ... ان هذا اسم امرأة ... أليزافينا فوروبي ولكن ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ لقد خدعني ذلك المحتال سوبا كيفيتش » وكان تشتشيكوف على حق فقد كان الاسم لامرأة وقد دسها سوبا كيفيتش بين أسماء العبيد بعد ان حرف في اسمها قليلاً ، بحيث يتوهم المرء انها رجل وحذف بافل ايفانوفيتش الاسم بكل بساطة ، وقرأ اسماً آخر : « غريغوري الذي قد يصل او لا يصل . . » وفكر : « وانت كيف كنت ؟ لقد كنت تلك زحافة وعربة فغادرت قريتك واخذت بالتنقل من سوق الى آخر مع التجار . . . فهل فارقت الحياة وانت تسير ؟ أو لم يفلح اصداؤك في تقييدك بأرملة جندي متوردة الحدين ؟ أو لم تلفت عربتك بخيولها الجميلة نظر سارقي الاخشاب ؟ و ثم . . . وبعد تفكير طويل هل دخلت احد الفنادق حيث اودعت روحك في حجرة حقيرة هناك ؟ . . . حقاً ان الشعب الروسي مضحك . . . وان روسيا لا تحب الفخامة في الموت . »

وتابع تشتشيكوف وهو يقرأ أسماء عبيد بليوشكين الآبقين : « رانتم يا اصداقائي الاعزاء ما زلتم احياء ولكنكم لاتصلحون لشيء ، ولذا فأنتم والاموات سواء . أخبروني أكنتم تعانون كثيراً عند بليوشكين ام انكم

استسلمت لنزوة طارئة عندما تهتم في القفار تقطعون الطرقات ؟ أنتم اليوم في السجن ام انكم تحرثون الارض في خدمة سيد آخر ؟ أرمي كارباكين ... نيكيتا فولو كيتا وابنه انطون فولو كيتا .. ان قراءة هذه الاسماء وحدها تكفي ليعلم المرء ان اصحابها من اللصوص المحتالين .. وهذا بوبون خادم المزرعة يبدو انه يجيد القراءة .. هو لا يقتل بالسكين ولكنه بلا ريب قد أصبح لصاً بطريقة شريفة .. وبما انك لامتلك جوازاً فقد اوقفك الكابتن اسبرافنيك وكنت بلاريب جريئاً في التحقيق ، وسألك الضابط وهو يضيف الى اسمك نعتاً رناناً :

- من يكون سيدك ؟

فأجبهته بجرأة :

- النبيل فلان .

- وماذا تفعل هنا ؟

- اني في عطلة .

- وأين جوازك ؟

- لقد اعطيته لبيموتوف ، معلمي .

- فليدخل بيموتوف هذا .. أنت بيموتوف .

- أجل انا .

أصبح انه اعطاك جوازه ؟

- لا .

وهنا قال الضابط وهو يكرر استعمال النعت الرنان :

- لماذا كذبت ؟

فأجبهته بحسارة :

- هذا صحيح فاني لم اعطه جوازي لأنني وصلت الى البيت ليلاً ولكني

اعطيته لقارع الاجراس بروشوروف .

- فليدخل قارع الاجراس .. هل اعطاك جوازه كما يزعم ؟

- لا .

فهتف الضابط وهو يلعن ويشتم :

- لقد كذبت ثانية .. أين هو جوازك ؟
فأجبتته بجرأة :

- لقد كان معي جواز ولكنني قد اكون فقدته وأنا في الطريق فقال الكابتن

اسبرافنيك وهو يضيف الى اسمك نعتاً مهيناً :

- لماذا سرقت معطف الجندي ... ولماذا سلبت الكاهن حافظة نقوده ؟
فأجبتته ببرود :

- هذا غير صحيح فاني لم أسرق في حياتي ... اما كيف جاءني هذا المعطف

فالحق اني لا أدري ... ولا شك في ان احدهم قد حملة إلي .

فصاح الكابتن اسبرافنيك :

- حيوان ... حيوان ... قيدوه وضعوه في الزنزانة فأجبت :

- بكل سرور ... فليكن .

وتناولت علبة سعوطك بكل هدوء وقدمتها لجنديين مشوهين جاء لتقييدك
وانت تستفهم منهم في أي حرب اصبوا ومتى تم فصلهم من الخدمة الحقيقية .
وانت الآن تعيش في السجن بينما يستمر التحقيق في قضيتك . ثم قررت المحكمة
نقلك من سجن تساريفوتشيك الى سجن آخر . وعندما وصلت الى السجن الجديد
قلت : لقد كانت الزنزانة هناك انظف وأوسع وكان فيها عدد كبير من
المساجين » .

وقرأ تشتشيكوف : « ابا كوم فيروف » ثم أخذ يفكر : « وانت كيف
كنت ؟ هل استهواك الفولغا وحياة البحارة الحرة » ثم غرق بافل ايفانوفيتش
في احلامه وهو اجسه . ترى لماذا كان يفكر ؟ أني مصير ابا كوم فيروف ام في
صور الحياة الحرة التي يحبها كل روسي مهما كانت طبقته ؟ وعاد اخيراً الى
التفكير في فيروف :

« أين فيروف الآن ؟ انه بلا ريب يذهب ويحيي على المرفأ حيث تتكسدس
الحبوب فيساوم على ثمن بضاعته . ان جميع العمال يضحكون ويمرحون قبل ان
يفادروا عشيقاتهم ونساءهم . وهم يغنون ويرقصون بينما يوزح الجمالون تحت وطأة
أحمال الشعير التي ينقلونها الى قعر المراكب بين عاصفة من الشتاء والاهانات .
وكانت إهرامات من الاكياس تنتظر بعيداً ان تنقل الى البواخر الكبيرة .
تلك هي حياتكم يا عمال المرافيء فانتم دوماً مرحون وكما ترقصون وتشدون فانكم
ستعملون وتتعبون وانتم تحاولون تسلية انفسكم باغنية طويلة لا تنتهي كالروسيا
نفسها . وهتف تشتشيكوف وهو ينظر الى ساعته : « آه انه الظهر ... لقد
تأخرت ... لو اني انهيت عملي ، إذن لما ان الامر ، ولكني ما أزال في البداية ...
لقد شغلتنني الاحلام ... اني حيوان » .

وسرعان ما ارتدى ملابس على عجل وشد حزامه ولكن دون ان يفلح في
تصغير حجم كرشه ، وتعطر ثم أخذ قبعته وأوراقه وذهب الى المحكمة لتسجيل
عقود البيع . وكان في عجلة من امره لا لأنه يخشى ان يكون متأخراً فريس
المحكمة صديقه وهو وحده يستطيع ان يختصر او يطيل اوقات الدوام كالاله
زبوس الذي كان يطيل الايام ويقصر الليل لمصلحة من يحبهم ويسمح لهم بذلك
ليربحوا معركة او لينهوا خصومة . ولكن باغل ايفانوفيتش كان يرغب بانهاء
مشاكله بسرعة لا لان كل شيء يبدو له غامضاً قلقاً ، فقد كان لا يصدق انه
يملك هذه الارواح لذلك كان يريد ان ينتهي باسرع ما يمكن من تسجيل العقود .
وما كاد يخرج من فندقه وهو يرتدي معطفاً من الفرو حتى صادف رجلاً
آخر يرتدي معطفاً آخر من الفرو ايضاً وقبعة مصنوعة من فرو كلب الماء وصرخ
الرجل عندما شاهد تشتشيكوف ، انه مانيلوف ؛ وسرعان ما ارتقى الرجلان
على بعضهما وبقياً هكذا مدة خمس دقائق يتبادلان القبل بشكل ظل كلاهما
يعاني الامرين من ألم اسنانها طيلة ذلك النهار . كان فرح مانيلوف عظيماً وقد

ظلمت عيناه مغلقين طويلاً ولم يترك يد تشتشيكوف إلا بعد مضي ربع ساعة ،
وقد شعر هذا الأخير باصابعه تحرقه بشدة عندما افلتها مانيلوف من قبضته .

قص مانيلوف على بطلنا كيف وصل الى المدينة وصور له شدة شوقه لعناقه
وكان يستعمل في ذلك أعذب الالفاظ وارشقها ، وانهى كلامه ليفرغ الى مديح
لا يوجهه إلا رجل لفنائة راقصها في احدى الحفلات . وفتح تشتشيكوف فمه وهو
لا يدري بماذا يجيب ثم قدم له مانيلوف ورقة يلفها شريط وردي اللون .

— ما هذه الورقة ؟

— قائمة اسماء الفلاحين .

ففتح بافل ايفانوفتش الورقة وابدى اعجابه الشديد بالخط .

— لقد كتبت الاسماء جيداً ، ولا حاجة بي لاعادة كتابتها الآن ...

وهذا الرسم ... لو رسم جيداً عندك .

— لا تتكلم عن هذا .

اهو انت ؟

— لا ... بل هي زوجتي .

— آه ... اني خجل لما سببته لك من المشقة .

— ايمس هناك من مشقة عندما يتعلق الامر ببافل ايفانوفيتش .

فانحنى تشتشيكوف شاكراً . وعندما علم مانيلوف ان صاحبه في طريقه

الى المحكمة لتسجيل عقود البيع عرض عليه ان يرافقه . وهكذا ذهب الصديقان

الى المحكمة يتأبط كل منهما ذراع الآخر . و كان مانيلوف كلما صادف عقبة

في الطريق من منخفضات او مرتفعات او ادراج ، يسند تشتشيكوف وكأ انه

يريد ان يحمله ، ذلك انه لا يحتمل ان يؤلم تشتشيكوف قدميه الصغيرتين .

واخيراً وصل الصديقان الى المحكمة . و كان مقرها يقع في بناء مؤلف من

ثلاثة طوابق من الحجر الابيض ترمز نظافته الى نقاء موظفي العدالة المحلية .

واما بقية الابنية المجاورة فكانت أصغر من بناء المحكمة ؛ و كان هناك مخفر

للجنود يقف الديديان امام بابه ، و كان يوجد عربتان او ثلاث تنتظر زبائنها
لتقودهم الى السجن . واخيراً كانت هناك اسوار عالية تملؤها الكتابات والصور
المرسومة بالفحم ، و كان هذا كل مايزين ذلك الميدان المنعزل .

كانت رؤوس الموظفين تطل من نوافذ الطابق الثاني والثالث ولكنهما
سرعان ما نوارت فجأة ؛ ذلك انه بلا ريب قد مر الرئيس بهذه المكاتب في تلك
الآونة . وصعد الصديقان السلم أو بالأحرى اجتازاهما قفزاً ، ذلك ان
تشتيكوف كان يسرع الخطى خشية ان يحاول مانيلوف مساعدته ؛ بينما
كان مانيلوف يقفز بدوره كي لا يتعب صديقه . ووصل الصديقان الى بهو طابق
المكاتب وقد انبهرت انفاسهما من التعب . ولم يكونا بحاجة لاطهار اعجابهما
بمنظافة المكان ذلك انه لا يهتم احد بتنظيفه والقدر يظل قذراً على مر الايام ،
ذلك ان العدالة تستقبل ضيوفها دون كلفة . كان يجب وصف المكاتب ولكن
المؤلف يشعر بالجنون امام مكاتب الموظفين ، فاذا ما اتفق له ان مر في الغرف
الفضمة حيث يبرق فيها كل شيء ، فانه يسير بسرعة وانظاره متجهة بتواضع نحو
الارض بحيث لا يكاد يرى شيئاً .

وشاهد بطلانا كمية كبيرة من الورق الابيض والورق المسود بالكتابة
ورؤوساً مخنية واعناقاً غلاظاً ومعاطف انيقة وثياباً خيطة في الريف . ولفت
نظرهما معطف رمادي صاف و كان الرأس الذي يخرج من هذا المعطف ملتصقاً
به تقريباً .

كان هذا الرجل يكتب بسرعة محضراً يتعلق باملاك اشتراها ملاك مسلم
ورغم ان هذا الملاك عاش حياته ملاحقاً من قبل العدالة فقد كان يعيش بأمان
مع عائلته يحيط به اولاده واحفاده . و كانت تتعالى من حين لآخر امثال
هذه الصيحة : « أتريد الملف رقم ٣٦٨ يا فيدوسي فيدوسفيتش » او « انك تبذر
حبر التاج » . و كان صوت مرنان يتعالى في بعض الاحيان ويقول بلهجة آمرة :
« اكتب بسرعة والا حسمت عليك مرتب ستة ايام » ففسرع الاقلام في

وركضها فيخرج عند احتكاكها بالورق صوت اشبه بصوت زحافات تمر فوق
الكداس من اوراق الاشجار الميتة .

واتجه تشتشيكوف مع صديقه مباشرة الى اول طاولة فسالوا موظفين شابين
كانا وراءها :

- أسمعان بان تدلانا أين يجب ان نتوجه بشأن قضايا العبيد ؟

فأجابا :

- وماذا تريدان ؟

- عندي طلب اريد ان اقدمه .

- وهل اشتريت عبيداً ؟

- اريد ان اعرف اولاً اين يوجد مكتب العقود أهو هنا ام في مكان آخر ؟

- قل اولاً ماذا اشتريت وماهو السعر الذي دفعته وبعد ذلك نذلك على

المكتب ، والا فمن المستحيل ان نرشدك .

وفهم تشتشيكوف ان هذين الموظفين فضوليان كجميع الشباب أو انها
يريدان ان يسبغا على نفسيهما الوقار والاهتمام فقال :

- اسمع لي ؛ اني اعرف تماماً ان جميع قضايا بيع العبيد تعالج في نفس المكتب

فأرجوكما إذن ان ترشداني الى هذا المكتب اما اذا كنتم تجهلان عملكم فأسألوهم
الى آخر غيركم .

ولم يجب الموظفان ولكن احدهما اكتفى بأن أشار باصبعه الى زاوية في
الغرفة كان موظف هرم يرتب اوراقاً فيها ، فمر تشتشيكوف ومانيلوف بين
عدة مناضد واقتربا من الشيخ الذي كان منصرفاً الى عمله فقال تشتشيكوف
وهو يحويه :

- اسمح لي ان اسألك عما اذا كنت المكلف بعقود بيع العبيد .

- نحن لانعالج قضايا العبيد هنا .

- وأين اذن ؟
- في مكتب العقود .
- وأين يكون هذا المكتب .
- هناك حيث يجلس ايفان انطونوفتش .
- وأين هذا الايفان انطونوفتش ؟
- فأشار الشيخ الى زاوية اخرى من الغرفة .
- فذهب تشتشيكوف مع صديقه الى ايفان انطونوفتش .
- وما إن رآهما هذا الاخير حتى القى نظرة خلفه ثم القى نظرة اخرى عليها وعاد بعد ذلك الى عمله .

قال بافل ايفانوفتش :

- اسمح لي ان اسألك عما اذا كان هنا مكتب عقود بيع العبيد .
- ولم يبد على ايفان انطونوفتش انه لانهاكه في عمله ولذلك لم يجبه .. لقد كان رجلاً ناضجاً لا فتياً ثرثاراً ، وكان يبدو عليه انه تجاوز الاربعين من عمره ، كث الشعر اسوده ، قد برز القسم الاوسط من وجهه بحيث يبدو على سوية واحدة مع انفه .. وكان وجهه في جملته من الوجوه التي تسمى عادة باسم : قبضة الابريق .

وعاد تشتشيكوف الى السؤال :

- هل تسجل العقود هنا .
- نعم .
- اليك اذن بطلي .. لقد اشتريت عبيداً من عدة ملاكين في هذه المقاطعة وهاهي عقود البيع معي ، ولم يبق غير تسجيلها .
- هل البائعون هنا ؟
- ان بعضهم موجود ولكن بعضهم الآخر منحني تفويضاً مطلقاً ..

- وأن طلبك ؟

- ها هو معي .. اني بحاجة الى السرعة ، . ايمكن ان انفض يدي من

المشكلة اليوم ؟

- يستحيل ذلك ، اذ يجب ان نرى ما اذا كان هؤلاء العبيد محجوزين .

- ان علاقتي طيبة مع رئيس المحكمة ايفان غريغورفتش ولتعجيل الامور

يمكن ..

فقاطعه ايفان انطونوفتش بشدة :

- ان ايفان غريغورفتش ليس الوحيد هنا .

وفهم تشتشيكوف بان عليه ان يكون حريصاً هنا فقال .

- اني لا انسى احداً فقد كنت في خدمة الدولة وأعرف كيف تجري الامور .

فقال صاحبنا بلهجة ألطف :

- اذهب الى الرئيس واحصل منه على امر للاشخاص الذين تتعلق قضيتك

بهم فينتهي الامر .

فمد تشتشيكوف يده الى جيبه وأخرج ورقة مالية ووضعها بلطف امام

ايفان انطونوفتش ولم يبد على صاحبنا انه لاحظها ولكنه غطاها بجلدة مصنف ،

فأراد بافل ان ينبهه اليها غير ان ايفان انطونوفتش افهمه بإشارة من رأسه ان

لا داعي لذلك ، ثم أشار الى موظف وقال :

- سيقودكما الى قاعة المحاكمات .

كان الموظف الذي اشار اليه قد خدم العدالة باخلاص بحيث ان ثقب كمي

معطفه تسمح بروية البطانة بوضوح ، ورافق الموظف صديقنا الى قاعة المحاكمات

حيث كان هناك بعض المقاعد وطاوله عليها لوحة خشبية مثلثة سجلت عليه

القوانين الثلاثة الاساسية للعدالة الروسية ، وكتابان كبيران كان الرئيس وراهما

يشع كالشمس .

ودار الموظف على عقبه احتراماً لهذا الحرم الذي لم يكن ليجرؤ على دخوله
بعد ان فتح الباب للصديقين .

وعندما دخل مانيلوف وتشتشيكوف القاعة رأيا ان الرئيس لم يكن
وحيداً فقد كان سوبا كيفتش جالساً الى جانبه محتجباً خلف تلك اللوحة المثلثة ،
وعلت صيحة ترحيب تستقبل الصديقين وتحركت المقاعد الرسمية محدثة ضجيجاً
مزعجاً ووقف الرئيس كما بدا سوبا كيفتش بكمين طويلين ، ونلقى الرئيس
بافل ايفانوفتش بين ذراعيه ورددت جدران الغرفة صدى القبلات وسأل كل
منها الآخر عن صحته وصرح الاثنان انها يعانيان آلاماً في الكايتين وقد عز
الامر للحياة العصرية .

كان سوبا كيفتش قد أعلم الرئيس بمشتريات بافل ايفانوفتش فأسرع هذا
بهنئه مما جعل تشتشيكوف يتأثر كثيراً بالتهنئة ويشكره بحرارة مرتفعة جداً عليها ،
ثم توجه الى سوبا كيفتش وسأله :

— وانت كيف صحتك .

فأجاب سوبا كيفتش .

— لا اشكو شيئاً والله الحمد .

وبالفعل فانه يمكن للحديد نفسه ان يتأثر بالبرد اكثر من هذا الملاك القوي .
وقال الرئيس :

— انك مشهور بالصحة فقد قيل لي ان المرحوم والدك كان قوياً كالطود .
فقال سوبا كيفتش

— لقد كان بوسعه ان يصرع دباً وحده .

— ولكن يبدو لي انك الآن تستطيع بسهولة ان تصرع دباً لوحدك .

— لا ... فقد كان أبي اقوى مني

ثم تنهد وتابع :

- لم نعد من نفس الطينة اليوم... انظر الى حياتي فهي ليست في الواقع حياة
- وما الذي ينقص حياتك لتكون جميلة ؟
فقال سوبا كيفيتش وهو يهز برأسه :

- اوه ... لاشيء حسن بالمرة ... احكم بنفسك يا ايفان غريغورفيتش ! لقد
تجاوزت الخمسين من عمري ولم أمرض يوماً قط ... كان من الممكن ان اصاب
بألم في حنجرتي او في اي شيء آخر ولكن ... لاشيء ... لاشيء ... ان هذا
لدليل سيء فمن المؤكد بانني سأدفع ثمن هذا غالياً ذات يوم .

وبدا على سوبا كيفيتش انه حزين . فحدث كل من الرئيس وتشتشيكوف
نفسه قائلاً : « انه يبالغ ... كيف يجرؤ انسان في مثل قوته على الجأ بالشكوى ؟ »
واخرج بافل ايفانوفيتش من جيبه رسالة بلبوشكين ثم قال متوجهاً بجديته
الى الرئيس :

- عندي رسالة لك

فأجاب الرئيس وهو يتناولها :

- ومن ؟

ثم مزق الغلاف وهتف

- آه ! من بلبوشكين ... أما زال على قيد الحياة ... يلاحظ لقد كان
انساناً ذكياً وثرياً جداً في الماضي ... ترى ماهي احواله الآن .

فقال سوبا كيفيتش

- انه كاب حقيير يميت عبيده جوعاً .

وقال الرئيس بعد ان قرأ الرسالة

- حسناً اني اقبل ان أمثله ، متى تريد توقيع العقود فأجاب تشتشيكوف :

- اليوم لاني اريد ان اغادر المدينة غداً وعندي جميع الاوراق .

- حسناً ولكن ثق باننا لن ندعك هكذا ، سنسجل العقود اليوم ولكننا

سنملئهم معاً ... انتظر قليلاً لألقي أوامري .

وفتح الرئيس باباً يطل على غرفة مليئة بالموظفين الذين يشبهون النحل في كثرتهم إذا جاز لنا ان نشبه خلية نحل مليئة بالعسل ، بمكتب في محكمة ، ونادى الرئيس :

— هل ايفان انطونوفتش هنا ؟

فأجابه صوت : « نعم »

— ايتني به

وجاء ايفان انطونوفتش الى قاعة المحكمة فحيا باحترام :

— خذ جميع هذه العقود يا ايفان انطونوفتش ... فقاطعه سو با كيفتش .

— لا تنس يا ايفان انطونوفتش انه يلزم شاهد لكل فريق فاستدع

المدعي العام فهو دائماً دون عمل لأن حاجبه زولوتوشكا وهو اكبر وغد في العالم

يقوم باعماله . واستدع كذلك مفتش الشؤون الصحية فهو فارغ دوماً وستجده

في مكتبه ايضاً الا إذا كان يلعب بالورق عند صديق . واخيراً هناك بالقرب

من هنا تروخاتشفسكي وبيفوشكين اللذان لا يعرف احد ما جدوى حياتهما .

فهدف الرئيس :

— انها فكرة حسنة .

وأرسل في الحال موظفاً لاستدعاء الاشخاص المذكورين .

وقال تشتشيكوف :

— أرجوك ايضاً ان تستدعي وكيل ملاكة اشترت منها عبيداً وهو أبونا

الكاهن سيريل وأحد موظفيك . فأجاب الرئيس :

— بكل تأكيد ... سننجز كل شيء ولكنني أرجوك ألا تدفع شيئاً لأحد

فأصدقائي لا يدفعون . ثم وجه امرأ بصوت منخفض الى ايفان انطونوفتش يبدو

انه لم يعجب الاخير . وأثرت عقود البيع في نفس الرئيس تأثيراً حسناً وخاصة

عندما رأى ان قيمة المشتريات ترتفع الى مائة الف روبل تقريباً فنظر الى
تشتشيكوف بفرح ثم قال :

- آه ! ... لقد اشتريت كل هذا يا بافل ايفانوفتش ... هذا مذهش ...
هذا مذهش .

فأجاب تشتشيكوف :

- أجل لقد اشتريت كل هذا .

- انها صفقة مذهشة .. بلى مذهشة .

- لم يكن بإمكانى ان افعل احسن من هذا . ان هدف حياة الانسان
يتحدد عندما يضع قدماً ثابتة على الارض ويهجر الاوهام التي غدت شبابه .

ثم وجه بافل ايفانوفتش عبارة مناسبة في مهاجمة الافكار التحررية والشباب
ولكن كان عدم الاقتناع بما يقول يبدو في كلماته ؛ وكان يحدث نفسه قائلاً :

« ان جميع ما تدلي به يا صديقي غير صحيح ... وانك لكاذب » ولم ينظر الى
سوبا كيفتش او مانيلوف خشية ان يقرأ الامتعاض على وجهيها ، ولكن خوفه
كان في غير محله فقد ظل سوبا كيفتش على بروده وأما مانيلوف فقد سحره
خطاب تشتشيكوف فكان يهز رأسه بسرور كما لو كان احد عشاق الموسيقى .
يستمع الى مغنية بلغت أوج الفن في غنائها .

وفجأة قال سوبا كيفتش :

- ولكن لماذا لا تقول لايفان غريغوروفتش ماذا اشتريت ؟ وانت يا ايفان
غريغوروفتش لماذا لا تستفسر عن مشترياته ... لقد اشترى ذهباً صافياً ، لقد
بعته صانع العربات فيجييف .

فأجاب الرئيس :

- فيجييف ؟ انك تمزح ... اني اعرفه جيداً ... لقد اصلح عربتي ، ولكن
اسمح لي ان اذكرك بأنك قلت لي انه مات .
فهتف سوبا كيفتش دون ان يضطرب :

- فيجيب مات ؟ ان اخاه هو الذي مات ، اما فيجيب فحي وفي صحة جيدة ... لقد صنع لي منذ ايام عربة يحسني عليها سكان موسكو انفسهم ... انه يستحق ان يشتغل عند القيصر .

- نعم انه عامل ماهر ويدهشني انك استغنيت عنه .

- اوه لقد بعته آخرين ايضاً ... لقد بعته بروبكا ستيبان الخطاب وميلوخين وماكسيم تلماتنيكوف الخذاء ... لقد ذهب الجميع ... لقد ذهبوا ...

فسأله الرئيس عن السبب في بيع عبيد يفيدونه كهؤلاء .

- لا ادري ... حماقة ... لقد قلت لنفسي : ماذا لو تخلصت منهم ... وبالفعل فقد تخلصت منهم .

وأخى رأسه كما لو كان نادماً على حماقته وأضاف :

- لم يزد ذكائي مع بياض شعري .

وسأل الرئيس بافل ايفانوفتش :

- ولكن اسمح لي ان اسألك : انك تشتري العبيد دون الاراضي فهل

تنوي ان ترسلهم ليشغلوا في مناطق اخرى ؟

- نعم .

- هذا أمر آخر ... وأين تريد ان ترسلهم ؟

- الى ... الى حكومة خرسوك .

فقال الرئيس :

- ان الاراضي بمنازة هناك والمراعي خصيبة ، ولكن هل تملك كثيراً من

الاراضي هناك ؟

- ما يكفي لتشغيل الفلاحين الذين اشتريتهم .

- وهل تملك انهاراً او مستنقعات ؟

- أجل عندي الانهار والمستنقعات ايضاً .

وألقي تشتشيكوف نظرة سريعة على سوبا كيفتش وهو يتلفظ بهذه العبارات

ولكن وجه الاخير كان عديم التأثير كالمعتاد ، ومع ذلك فقد كان يبدو انه يقول لتشتشيكوف :

« ماهذه الاكاذيب التي تسمعونها ياها ، انك لا تعلمك انهاراً ولا مستنقعات بل لا تعلمك الا راضي »

وبدا في هذه الاثناء الشهود بالورود : و كان اولهم المدعي العام ثم مفتش الادارة الصحية واخيراً تروخاتفسكي وبيفوشكين وآخرون من الطفيليين كما وصفهم سوباكيفتش . وكان تشتشيكوف يحبل شخصيات بعضهم ، وقد اكتمل العدد اللازم من الشهود ببعض موظفي المحكمة ثم جاء سيريل وابنه . ووقع كل منهم ذاكرة تحت توقيعه طبقته وجميع ما يحمله من أوسمة وشهادات ، كما وقع بعضهم باحرف مائلة وبعضهم الآخر باحرف مستقيمة . وكانت بعض الاحرف تقرب من بعضها حتى لتبدو غريبة عن الابجدية الروسية وأنهى ايفان انطونوفتش الشكايات وسجلت العقود ووضعت عليها الطوابع ودفع تشتشيكوف اقل قدر ممكن من المال ، ذلك ان الرئيس قد أمر ألا يؤخذ منه الا نصف المبلغ المحدد بالقانون واما النصف الآخر فقد ألغى بطريقة لا يفهمها انسان ، وعندما انتهى كل شيء هتف الرئيس :

— لم يبق الآن الا ان نشرب على شرف هذه الصفة .

فقال تشتشيكوف :

اني تحت تصرفكم وما عليكم الا تحديد الساعة ذلك اني لا استطيع ان ارفض بضع زجاجات من الخمر الجيد لهذه (الشلة) الكريمة .

فأجاب الرئيس :

— انت لم تفهمني ، إذ اننا نحن الذين سنقدم لك الخمر لان هذا من واجبنا ، وما انت الا ضيفنا فعلينا ان ندعوك .. عندي فكرة جيدة ايها السادة .. لنذهب الى مدير البوليس فهو من صانعي المعجزات ، وما عليه الا ان يبدي

إشارة بسيطة حتى تقام مأدبة فاخرة وجيدة في نوعها ثم تلعب بعد ذلك الويست سوياً .

لم يكن في مقدور انسان ان يرفض اقتراحاً كهذا ، فكلمة مأدبة وحدها تكفي لأن يشعر الشهود بشبهة عظيمة ، وهكذا اخذ كل منهم قبعته ورفعت الجلسة ، وعندما مروا بكتب ايفان انطونوفتش تقدم (قبضة الابريق) من تششيكوف وتمت :

— لقد اشترت بمائة الف روبل عبداً ولم تدفع لي الا ورقة مالية صغيرة .

— فأجابه بافل ايفانوفتش بصوت منخفض :

— أي عبداً .. انهم عديمو الجدوى ولا يساؤون نصف هذا المبلغ .

ففهم ايفان انطونوفتش انه امام انسان لا يستطيع ان يأخذ منه كوبسكا واحداً ، وفي هذه البرهة اقترب سوباكيفتش من تششيكوف وسأله بصوت منخفض :

— كم دفعت ثمناً للعبد الواحد عند بليوشكين ؟

— قل لي انت اولاً لماذا وضعت اسم فوروبيا في قائمتك ؟

— اي فوروبيا ؟

— المرأة اليزافيتا فوروبيا .. أتذكرها .. لقد ذكرت اسم اليزافيتا .

فقال سوباكيفتش وهو يلحق بالجماعة .

— كلا فاني لم اسجل اسم فوروبيا .

ووصل الجميع الى مكان مدير البوليس ، وكان هذا بالفعل من صانعي المعجزات ، فما ان عزف الرغبة الوافين عليه حتى نادى ضابط الحرس وهمس في اذنه كلمتين ثم اضاف بصوت عال : « افهمت ؟ » وفي الحال ، وبينما بدأ الاصدقاء يلعبون الويست امتلأت الطاولة في غرفة الطعام بشئ انواع اللحوم والأسماك والحلويات الفاخرة النادرة .

كان مدير البوليس بمثابة أب لهذه المدينة الصغيرة فقد كان يعيش مع مواطنيه وكأنهم من عائلة واحدة ، فهو يتصرف بالحوانية والاسواق كما لو كانت في منزله تماماً . وكان الى جانب ذلك يحسن القيام بواجبه كمدير للبوليس حتى ليصعب التمييز فيما إذا كان قد خلق لهذه الوظيفة ام انها خلقت له . وكان قد رتب اموره بشكل يجمع معه اضعاف موارد أسلافه ، ومع ذلك فقد غزا قلوب سكان المدينة . فالتجار يحبون له عدم تكبره وهو بدوره يحضر عمادة اولادهم ويدخل بيوتهم . واما أنه كان يسخرهم لزيادة ثروته فهو يفعل ذلك على الاقل بهارة . ذلك انه كان يربت على اكتافهم عندما يراهم ويضحك معهم ويقدم لهم الشاي ويستفهم عن أحوالهم وينصحهم بأدوية يحددها لهم إذا علم ان احداً اولادهم مريض ... لقد كان بالفعل رجلاً طيباً .

وعندما يجتاز المدينة بعربته كان يلحظ كل شيء ويعرف كيف يلقي الكلمة اللطيفة على مسمع كل انسان : « هيه ميشيتش يجب ان نلعب الفوركا » فيجيب ميشيتش : « بكل تأكيد يا أليكسي ايفانوفتش » ... « وأنت يا إيليا بارامونوفتش تعال شاهد جوادي ولنجعل له يتسابق مع جوادك وسنرى من يربح » فيضحك التاجر الذي يحب حيواناته من اعماق قلبه ويحب وهو يداعب لحيته : « حسناً سنرى يا أليكسي ايفانوفتش » . واما موظفوه الذين يخاعون قبعاتهم له عند التحية لا يستطيعون ان يمنعوا انفسهم من القول حال مروره : « ان اليكسي ايفانوفتش انسان طيب » والخلاصة انه استطاع الفوز بشعبية قوية ، وكان التجار يقولون : « ان اليكسي ايفانوفتش يخدعنا ولكنه يعرف كيف يحميننا عند اللزوم . »

وما إن وضعت الاطعمة على المائدة حتى طلب مدير البوليس من ضيوفه الانتقال الى غرفة الطعام وتأجيل اتمام اللعبة الى مابعد الغداء . وكانت الروائح الشهية تداعب انوف الضيوف وكان سوبا كيفتش يراقب سمكة كبيرة وضعت

في طبق بعيداً عن سائر ألوان الطعام. وبعد ان تناول الجميع كأساً من الكحول تسامحوا بشوكة وانقضوا بها على المائدة واندفع كل منهم الى نوع من المقبلات . وتناول بعضهم الكافيار والبعض الآخر اخفى بهجومه سمك السردين والبيض والجن . اما سوبا كيفتش فقد نظر باحتمال الى هذه المقبلات وجلس قرب السمكة الكبيرة، وبينما كان الآخرون يشربون ويثرثرون ابتلع صاحبنا السمكة في اقل من ربع ساعة . وهتف مدير البوليس بضيفه عندما تذكر السمكة : « ايها السادة ها كم احدى معجزات الطبيعة » ولكن معجزة الطبيعة تلك لم يبق منها في هذه اللحظة الا ذنبها . وكان سوبا كيفتش في تلك الاثناء قد انتقل الى طبق آخر مليء بالسمك المقلي ، وبعد ان سجل نصره انتحى جانباً واخذ يرقب (الشلة) وعينه تغمران باستمرار .

اما مدير البوليس فقد كان يحب الحُر لدرجة الهيام ، ولذلك لم تنتهي الانتخاب . وبالطبع فان الكاس الاولى كانت نخب سيد خرسوك ثم نخب ازدهار اراضيه ونخب نجاح توطين عبيده في ذلك البلد الجديد ، ثم نخب زوجة بافل ايفانوفتش المقبلة الحسنة دون ادنى ريب ، وبالطبع فان هذه الكلمات كانت تشجع بطلنا على الابتسام . وقد احاط به الجميع ورجوه ان يبقى بينهم خمسة عشر يوماً على الاقل .

— لا يا بافل ايفانوفتش ... ان الانسان لا يفتح باب غرفته ليدخل البود اليها ... ستبقى معنا قليلاً ... سنزوجهك ... سنزوجه يا ايفان غريغوروفتش اليس كذلك ؟

فهتف الرئيس :

— أجل سنزوجه ... عبثاً تقاوم ... سنزوجهك ... لقد زرتنا ... لا تقل شيئاً فنحن لا نخب المزاح .
فقال تستشيكوف مبتسماً :

- ولم المقاومة ؟ ان الزواج شيء جميل حقاً ، ولكن الامر امر الخطيبة .
- ستكون لك خطيبة ... ولم لا ؟ ستحصل على جميع ما ترغب .
- اوه ... ولكن لي خطيبة بالفعل .
فهتف الجميع :

- برافو سيبقى ... عاش بافل ايفانوفتش ... هورا هورا ! ...
واقترب الجميع منه يحملون بايديهم الاكواب فقرعوها وصاح المتحمسون :
« ايضاً .. ايضاً » وقرعت الكؤوس ببعضها ثلاث مرات وكان المرح عاماً ،
اما الرئيس فقد كان يقبل بافل ايفانوفتش بلطف يتزايد كلما أمعن في الشراب
ويناديه بأعذب الاسماء : « اياروحي الصغيرة .. أياامي الفتية » ثم اخذ (يفتش)
أصابعه ويتراقص حوله وهو يغني الاغنية الشعبية : « أهذا انت يا فلاح كامارا)
وقدمت الشمبانيا مع نبيذ هنغاريا فزاد هذا في صرح (الشلة) ونسي الاصدقاء
الويست واخذوا يتناقشون ويصيحون ويزجرون ؛ كانوا يتحدثون في كل شيء
في السياسة ، وفي الشؤون العسكرية ، ويبدون من الآراء الثورية مالمو أيدها
ولد احدثهم منذ ربع ساعة جلوده ، كما وجدوا حلولاً كثيرة لأعقد المشاكل ،
اما تششيكوف فلم يسيق له ان شعر بهذه النشوة وكان يعتقد انه فعلاً ملاك في
خرسوك فأخذ يتكلم عن الاصلاحات التي سيدخلها في اراضيه كما تحدثت عن سعادة
قلبين جمع بينهما الحب ، ثم أنشد سوباكيفتش قصيدة من قرن الى شارلوت ،
ولكن هذا لم يقلح في اثارة اهتمام حديقه الذي زادت السمكة في نعاسه .

~ وادرك تششيكوف بسرعة خطر هذا المرح فطلب عربة ولكن المدعي
العام قدم له عربته وكان حوذها رجلاً مجرباً ففاد العربة بيده اليمنى بينما امسك
الششيكوف بيسراه كي لا يقع على الطريق ، وهكذا وصل صاحبنا في هذه
الشروط الى الفندق ، وكان خياله شارداً يحلم بعذراء فتية جميلة كما اخذ يحلم
القرى خلافة حول خرسوك ، وأموال وفيرة ، فدعا اليه سليفان وامره ان

يجمع فلاحى المستعمرة الجديدة في باحة الفندق وان يناديهم باسمائهم . واصفى
سليقان الى سيده مدة طويلة دون ان يتبس بحرف ثم ذهب الى بتروشكا وقال
الله : « اذهب وساعد السيد على خلع ملابسه ! » فامر ع بتروشكا الى تشتشيكوف
وكان السكر قد بلغ ببطلنا حدّاً كاد ان يوقعه على الارض فأخذ الخادم ينزع
الحذاء من قدميه . وبعد ان خلع ملابسه استلقى على سريره نام وهو يعتقد انه
بالفعل سيد خر سوك .

اخذ بتروشكا الملابس وعلقها على مشجب صغير ثم جعل ينفضها بقوة حتى
متلاً المرر بسحب من الغبار . وفي اللحظة التي بدأ فيها بالدخول الى غرفته
شاهد سليقان يخرج من الاسطبل ، فنظر كل منهما الى الآخر بصمت وفهم كل
واحد ان الآخر يقول : « لقد نام السيد فلنذهب لنمرح قليلاً . » وفي الحال
رتب بتروشكا ملابس بافل ايفانوفتش ونزل الى الباحة ومشى الصديقان جنباً
الى جنب دون ان يقول احدهما للآخر اية كلمة عن هدفهما . وكانت نزتهما
قصيرة فقد اجتازا الطريق ثم دخلا حانوتاً تجاه الفندق فوجدا نفسيهما في غرفة
شبه كهفاً يجلس فيه اشخاص عديدون الى موائد خشبية . ترى ماذا فعل
سليقان وبتروشكا ؟ ان الله وحده يعلم ذلك ، فقد خرجا بعد مضي ساعة يمك
كل منهما بيد الآخر ويبديان لبعضهما ، ولكن بصمت ، كل انواع الود والمحبة
وبعد ان قضيا ربع ساعة طويلة في تسلق الدرج نجحا في اجتياز الدرجة الاخيرة
وفتحا باب غرفة بتروشكا . ووقف هذا برهة كبيرة قرب سريره متسائلاً كيف
تنام ثم استلقى على الارض بجانب السرير ، ووضع سليقان رأسه فوق بطن
صديقه ونام ناسياً ان عليه ان ينام في غرفة الخدم او في الاسطبل . ونام الاثنان
في الحال وقد ملأ الغرفة شخيراً ، وكان معلمها يجيب عليه بصغير خفيف يخرج
من انفه ، ثم خيم هدوء عميق على الفندق وبقيت نافذة واحدة مضاءة ... انها
نافذة غرفة الضابط الذي وصل بالامس من بازان ، وكان من هواة الاحذية ؛
ذلك انه أوصى حين وصوله على اربعة ازواج من الاحذية وقضى نهاره برمته

وهو يجرب الحذاء الخامس ، واقترب من سريره اكثر من مرة ليخلع هذا الحذاء وينام . كان في هذه البرهة يجلس على حافة السرير ويرفع ساقيه بين الفينة والاخرى ، ولكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من الاعجاب بشكل حذائه .

نموذج الحذاء

الفصل الثامن

أصبحت مشتريات تشتشيكوف حديث المدينة وأبدت مختلف الآراء والنظريات حول مدى فائدة شراء عبيد لتوطينهم في أرض جديدة. وكان بعضهم يقول ان اراضي الجنوب خصبة بلا ريب ولكن ماذا سيصنع فلاحو تشتشيكوف دون ماء؟ ذلك انه لا يوجد انهار هناك .

— ان عدم وجود الماء ليس بذي قيمة باستيفان ديمتريش ولكن نقل هذا العدد ... تلك هي المشكلة . وبعد ، تصور عبدآ في أرض جديدة دون بيت او بقعة مألوقة فانه سيهرب بلا أدنى ريب . واني متأكد من ذلك تأكدي من ان الاربعة هي حاصل ضرب اثنين باثنين ، أجل سيهرب دون ان يدع اثرأ خلفه . — اسمع لي يا الكسي ايفانوفتش ان اعترض على قولك ؛ اني لا اعتقد ان عبيد تشتشيكوف سيهربون . فالروسي قادر على كل شيء وهو يعتاد بسرعة على تغيرات الاقليم . ولو انك ارسلت العبد الى كاماشتكا شريطة ان تزوده بمعطف دافئ ، فانه سيضرب يده بالآخرى ويمسك بمطرقته ليبدأ ببناء بيت له . — انك تنسى نقطة هامة يا ايفان غريغوروفتش وهي اخلاق عبيد بافل ايفانوفتش .

ان الملاكين لا يبيعون العبيد الشيطانيين ابدآ ، واني لأراهن على قطع عنقي بان
كلاً من عبيد تششيكوف إن لم يكن سارقاً او سكيراً ، فهو على الأقل
كسول او مشاكس .

- هذا صحيح ... ان الملاكين في الواقع لا يبيعون احسن عبيدهم وما عبيد
تششيكوف الا من السكيرين . ومع ذلك فهناك نقطة يجب مراعاتها : انهم
هنا كسولون ولكن تغير الجو والبيئة سيؤثر فيهم ، ونحن نعرف امثلة كثيرة
من هذا القبيل ، والتاريخ نفسه يبرهن على صحة هذا الرأي .
فهتف مدير مصانع التاج :

- ابدآ ... ان هذا لا يحصل على الاطلاق ... ان فلاح تششيكوف
سيكون له الآن عدوان : أولها المقاطعات الروسية التي على الحدود حيث تباع
الكحول ، وأؤكد لكم بانهم سيصبحون بعد مضي اسبوعين من وصولهم
سكيرين لدرجة الموت . واما العدد الثاني فهو عادة التشرذ والتجوال التي
ستتغلغل في اعماقهم اثناء عملية نقلهم ... هذا الا اذا قام تششيكوف بمراقبتهم
باستمرار ، وعرف كيف يقودهم ويعاقبهم على اقل ذنب دون وسيط ...
فيضربهم بنفسه على الفك او على النقرة ...
- ولماذا يضربهم تششيكوف بنفسه ؟ سيكون له وكيل يقوم عنه
بهذه المهمة .

- الوكلاء ؟ انهم عصابة لصوص .

- هذا صحيح ، والسبب في ذلك ان الملاكين انفسهم لا يهتمون باعمالهم .
فهتفت عدة اصوات :

- هذا حق .

- اذا كان الملاك يعرف كيف يدير املاكه واذا كان يفهم الناس فهماً
صحيحاً فانه بلا ريب سيستطيع ان يحصل على وكيل طيب .
وهنا قال مدير المصانع بانه لا يمكن الحصول على وكيل بأقل من خمسة

آلاف روبل في العام . فأجاب الرئيس بأن اي وكيل يقبل ثلاثة آلاف روبل بسهولة ، فهتف مدير المصانع :
- هلا دلتني ان يوجد ؟ أفي انك ؟

- ولماذا في انفي ؟ اني اعرف واحداً في مقاطعتنا .. واسمه بيونزبيوتروفش سامو الوف ؛ وان تشتشيكوف بحاجة لمثله .

وابدى الكثير عطفهم على تشتشيكوف ، وكانت مصاعب نقل هذه الكبيرة من العبيد يخيفهم ، فبدأوا بالتخوف من ثورة هؤلاء العبيد وهنا قال مدير البوليس بان الثورة مستحيلة وان الكابتين اسبرافنيك يعرف كيف يحافظ على الامن ، وهو لن يحتاج الى ازعاج نفسه بل سيكتفي بارسال عمرته .. وهذه العمرة وحدها كافية لسوق الجميع حتى خرسوك ، ثم انتقل الجمع الى بحث الوسائل التي تؤدي الى ترويض نفوس تشتشيكوف الثائرة ، فاقترح بعضهم اقصى الاساليب العسكرية واما البعض الآخر فكان ارحم قليلاً ، وقال مدير البوليس بانه يتوجب علي بافل ايفانوفتش ان يكون اباً لعبيده فيجعلهم يستفيدون من حسنات العلم .

تلك هي الاحاديث التي دارت في المدينة الصغيرة ، وتوصل اصدقاء تشتشيكوف الى نصحه بان يطلب فضيلة من الجنود تواكب عبيده ، ولكن بافل ايفانوفتش شكرهم واعلن بانه سيعرف كيف يستفيد من تلك النصائح ، ولكنه رفض كل مساعدة عسكرية لان فلاحيه هادئون بالاضافة الى انهم يرغبون بالذهاب الى خرسوك فلا خوف والحالة هذه من حدوث ثورة .

وكانت لهذه الاحاديث نتائج طيبة لم يكن تشتشيكوف لينتظرها . وقد اشاع بعض اصدقائه بانه مليونير لا اكثر ولا اقل . وكان سكان المدينة يحبون تشتشيكوف حباً عميقاً كما كانت امثال هذه الشائعات تزيد في تقدير المدينة وحبا لبطلنا . وسكانها اناس طيبون يعيشون متفاهمين وتسود بينهم الالفة والمحبة .

اما احاديثهم فهي مليئة بالتعابير البسيطة والعاطفية : « يا صديقي العزيز ايليا ايليتش » « اسمعني يا اخي انتيباتور زاخارفش » « ايه ! .. ولكنك تكذب ياامي الصغيرة ايفان غريغورفش » اما عندما يكون الحديث موجهاً الى مدير البريد فان الحديث إذ ذاك تضاف اليه بعض التعابير الالمانية .

والخلاصة انهم يحبون كعائلة واحدة ولم تكن الثقافة لتنقص بعضهم؛ فريثس المحكمة يحفظ قصيدة « ليودميلا » لجوكوفسكي عن ظهر قلب . بل كان يلقي منه باتقان عدة مقاطع امثال : « الغاب والهضبة تنام » وكان ينام (يلفظ) تنشاء بقوة حتى ان المرء يكاد يرى الهضبة تغفو ، ورغبة منه في زيادة التأثير يسبل جفنيه شيئاً بعد شيء . واما مدير البوليس فقد كان منصرفاً الى الفلسفة يقرأ في الليل باستمرار « ليالي يانغ » و « مفتاح اسرار الطبيعة » لايكارتهاوس . وكان ينقل منها مختصرات كثيرة ولكنه لم يكن يعرضها على انسان كما ان هذه الدراسات لم تكن تمنعه من ان يكون روحياً . وكان يحب الالفاظ المنتقاة ويرغب في ان يراها مزدهرة في خطبه كما كان يقول . وبالفعل فان المرء يسمع اكثر من مرة في عباراته : « ياسيدي العزيز » و « انت تعرف ... انت تفهم ... » و « تصور ... » و « نسبياً كما يقولون » و « على شكل ما » وفوق ذلك كان يغمز بعينه عندما يتلفظ بتعبير جميل . اما كبار بقية الموظفين فقد كانوا ايضاً مثقفين . فهذا قرأ (فارامسي) وذاك اشترك في « انباء وسكو » والثالث لم يقرأ شيئاً البتة . وهناك ثمة انسان يعيش دون حراك حتى انه يتوجب عليك ان تدفعه لتشعر بحياته ، وهناك آخر يقضي حياته مستلقياً على أريكة ولا فائدة من إضاعة الوقت معه فهو عاجز عن إبداء اي جهد للنهوض .

وأما عن صحتهم فالجميع على احسن حال ولم يحدث ان اعرف احدهم معني السل الرئوي ؛ والكل ينعم بسماع زوجته تناديه : « ياقرعتي الكبيرة » ياكرتي الضخمة . والجميع طيبون ومضيفون حتى ان كل غريب يذوق خبزهم

ولهم ويلعب معهم اليست يصبح حالا من اخصائهم . وهكذا كانت الحال مع بافل ايفانوفيتش الذي عرف فوق ذلك كيف يرضهم بعذوبته وميزانه العديدة . وكان الجميع يظهر ون حبههم بشدة لبطلنا الذي كان يتساءل كيف يغادر المدينة ذلك انه كان يسمع دائماً : اسمع يا بافل ايفانوفتش ابق بيننا اسبوعاً واحداً ،

ولكن الأدهش من كل ذلك حقاً ، هو ذلك الاثر العميق الذي تركه تشتشيكوف في نساء المدينة . ولفهم هذا الاثر يجب التوسع في وصف هؤلاء النساء مجتمعهن والوان ارواحهن الفاقعة . وهي مهمة صعبة على المؤلف لانه يحترم زوجات كبار موظفي المدينة جداً ؛ ومن جهة اخرى ... اجل من جهة اخرى ليس الامر من السهولة (باي مكان) .

كانت سيدات مدينة (ن) ، كانت ... لا ، لا ، لا استطيع ... اني لأشعر الحجل حقاً ... كان ابرز ما فهن ... امر غريب ... آه ! ان القلم ليرفض الاستمرار ... وهو يصبح ثقيلاً كالرصا ص . فلندع هذه المهمة اذن لمن يملك الواناً حية ، واما نحن فسنكتفي بقول كاشي عن مظهرهن الخارجي ، وسنقولهما بشكل سطحي .

ان هؤلاء السيدات ، كما يقال عادة ، يصلحن للظهور في المجتمعات ، ومن هذه الوجهة يمكن اعتبارهن مثلاً يحتذى به . ان هؤلاء السيدان في سلوكهن وانتقائهن اللهجة والالفاظ ، وفي محافظتهن على تقاليد المجتمعات وتببعهن آخر تفاصيل تطور الازياء ، ان هؤلاء السيدات في جميع هذه الاشياء يسبقن سيدات بطرسبرج وموسكو بمراحل كبيرة . فهن يلبسن آخر الازياء ويتنزهن في عربات يقف في مؤخرتها خادم يرتدي بزة مذهبة . وكانت بطاقة الزيارة مطلوبة من كل انسان حتى ولو كانت مكتوبة باليد وعلى ورقة من ورقات اللعب . وكان هناك ثمة عادة اخرى قد تنخاصم صديقتان اذ خطر لواحدة منهما تجاهلها . وهذه العادة هي رد كل زيارة بزيارة مثلها . وعشياً يحاولون زواجهما او اقاربهما اصلاح ذات البين بين هاتين الصديقتين . ويحد الجميع انفسهم مرغنين على الاعتراف

بأنه وان كان كل شيء ممكن على الأرض فمن المحال ان تصفح سيده عن تجاهل
تقليد الزيارات . وقد تحصل مشاهد عنيفة من جراء هذا الامر اذ يشعر الزوجان
ببقية باقية من اخلاق الفروسية حين يتدخلان لانهاء المشكلة ، ولكن الامر
لا يصل ابرأ الى المباراة ؛ والسبب في ذلك ان الجميع كانوا موظفين مدنيين ،
ولكن لا يدع احدهما فرصة تمر دون ان يوجه الى خصمه اهانة ما ، الامر الذي
يخلق حالات اصعب بكثير مما لو وقعت المباراة بالفعل .

وكانت سيدات مدينة (ن) قاسيات جداً من الوجهة الاخلاقية ، ولهذا
فان كل ماهو رذيلة أو اعراء يغيظهن ، فيعاقبن كل ضعف دون رحمة ، ومع
ذلك فانه اذا اتفق ان حصلت مغامرة صغيرة بينهما ، فانهن اذ ذاك يكتمن
السر جميعاً ، فتبقى المظاهر سليمة ويكون الزوج بالتالي مهيباً لوضع حد لكل
سؤال فضولي وهو يضيف هذا المثل : « ليس من خصائص احد التدخل اذا
عاشر الاشبين الاشبينة » ، ولنقل ايضاً ان سيدات مدينة (ن) كأخواتهن
سيدات بطرسبرج ، يمتزن بانتقاء عباراتهن ، فلا يقلن مطلقاً : « تمخطت » أو
« مسحت عرقي » أو « بصقت » ، بل نجد ان مثل هذه العبارات ينطقنها على
هذا الشكل : « لقد خففت عن انفي » أو « لقد استعملت منديلي » كما انهن
لا يقلن ابداً : « هذا الكوب أو هذا الصحن منتن » بل يقلن : « هذا الصحن أو
هذا الكوب ليس كما يجب » ، وكن ايضاً ، وذلك بقصد تجميل اللغة الروسية
يتحدثن بنصف لغتنا تقريباً ويستعصن عن النصف الثاني باللغة الفرنسية .

هذا كل ما استطيع ان اقله عن سيدات مدينة (ن) بصورة سطحية غير
اني اذا شئت ان اتعمق .. انه لمن الخطر التعمق في النظر الى قلوب السيدات
فلأتابع إذن .. وبصورة سطحية طبعاً .

كانت سيدات مدينة (ن) قد تحدثن قليلاً جداً عن تششيكوف غير انهن
كن مجمعات على انه بهي الطلعة ، وما ان انتشرت الشائعات حول ثروته حتى
وجدن له مزايا عديدة مستجدة .

ان سيدات مدينة (ن) لا يتأثرن بالثروة في الواقع ، ولكن كلمة مليون أثرت فيهن كثيراً ، ذلك انه في هذه الكلمة ، عدا عن معنى المال الذي تحمله ، شيء يؤثر على جميع الناس ، صعا ليك وأغنياء ، فالمليونير بوسعه ان يتسلى بمشاهدة الحطة والدناءة دون ثمن ؛ والكثير يعرفون ان لا أمل لهم مع هذا المئري ، اذ لاحق لهم في هذا الأمل . ومع ذلك فانهم يدعون له وينحنون احتراماً ويسعون الى ان يدعوم الى العشاء معه . ولا يستطيع ان اقول ان هؤلاء السيدات شعرن باستعداد خاص لهذا النوع من الحطة دون غيره ، ولكنهن مع ذلك ازددن في التحدث عن بافل ايفانوفتش . وكانت أحاديثهن عنه ، انه بلا ريب ، ليس جميلاً جداً ، ولكنه سيبدو اقل جمالاً لو كان اكثر بدانة وبالنسبة فان هؤلاء السيدات عندما يتحدثن عن رجل نحيف قلن انه يشبه المسواك اكثر مما يشبه الرجال . وقد ازداد اعتناء السيدات بهندامهن وأضحت المخازن تعج بمجموعهن حتى غدت مكاناً جديداً للزهوة لا يعدم الانسان فيه التسلية . ودعش التجار عندما وجدوا ان كميات من الاقمشة كانت كاسدة عندهم لارتفاع ثمنها قد نفدت بسرعة . واما في الكنيسة ، فان كل سيدة تأتي للصلاة ، كانت تجر وراءها ذيل ثوبها الطويل مما يضطر الشرطي معه الى شق الطريق لها بين الجماهير كي لا تقع مصيبة لهذا الثوب الجميل .

واصبح من المستحيل على تشتشيكوف ألا يلاحظ انه موضوع هذا الاهتمام . وفي ذات يوم عاد الى غرفته فوجد على الطاولة رقعة صغيرة ولم يستطع ان يعرف من اين جاءت ، فقد قال خادم الفندق ان الشخص الذي حملها له قد حصل منه على وعد شريف بالسكوت والكتمان . اما الرسالة فكانت تبدأ هكذا : « كلا ... يجب ان اكتب اليك ... » وتدعي الكاتبة بعد ذلك ان شيئاً ما يؤلف بين قلبيهما ... ثم اتت بعد ذلك بافكار حول الحياة : « ماهي حياتنا ؟ انها واد عامر بالآلام ... وما هو العالم ؟ اكداس من الكائنات عديمة الحس » وتتابع الكاتبة بعد ذلك : « اني اسقي بدموعي صفحات كتبها أمني التي

توفاها الله منذ خمسة وعشرين عاماً . ثم تدعو الكاتبة بعد ذلك تشتشيكوف الى الهروب من المدن ، حيث يخنق الانسان في الاطر الضيقة ، الى هدوء الصحارى وسكونها . ثم تنهي رسالتها بعبارات تصور فيها اليأس ، وترددها بهذه الابيات :

ستدلك حمامتان
على جثتي المتجمدة
وسيقول لك نواحيها
انها ماتت غريقة بدموعها

وكان البيت الاخير مختل الوزن ... ولكن ما الاهمية في ذلك ؟ وكانت الرسالة مكتوبة بروح العصر ولكنها لا تحمل تاريخاً ولا توقيعاً ولكن يوجد فيها حاشية تقول : ان علي بافل ايفانوفتش ان يحزر من كتب له ، وان كاتبة الرسالة ستكون مساء الغد في حفلة الحاكم الراقصة .

واهتم تشتشيكوف بالموضوع ، فقد اثارت هذه الرسالة اهتمامه فقرأها واعاد قراءتها ، وتم آخر الامر : « يجب ان اعرف على الاقل من كتب لي هذه الرسالة » وفكر في الموضوع اكثر من ساعة ثم هز رأسه وقال : « انها محبوبة جيداً » ثم طواها ووضعها في الصندوق ، بين اعلان ودعوة الى زواج لم يغير موضعها منذ اكثر من سبع سنوات . وبعد بضعة دقائق ، تلقى تشتشيكوف دعوة الى حفلة الحاكم ، وهذه الطريقة ، كانت هي الوحيدة لتعبر بها الطبقة الارستقراطية عن جهاد احترامها للسلطات الحاكمة .

وتوقفت اعمال المدينة ، واتجهت جميع الافكار والجهود في هذه الحفلة الراقصة . ومن المؤكد انه منذ خباقة العالم لم يستغرق الهدام في اية بقعة من بقاع المعمورة ، ما استغرقه من الوقت في هذه المدينة . فقد وقفت السيدات اكثر من ساعة قرب المرأة يجربن على وجوههن التعابير المختلفة ، ويتلفظن بكلمات غير مفهومة تشبه نوعاً ما الكلمات الفرنسية ، وهي اللغة التي لا يفقه منها

تشتشيكوف حرفاً . وتهاً بافل ايفانوفتش للحفلة بدوره ، فوقف قرب مرآته يتسلى بتقطيب حاجبيه وتحريك شففيه ، ثم داعب ذقنه بعد ان اعجب بجماله ثم انصرف الى هندامه ، وكان حسن المزاج ، فأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو يضع ربطة عنقه ، ويجيي وينحني . ورغم انه لم يرقص في حياته قط ، فقد مشى خطوتين راقصاً ، فأسقط الفرشاة على الارض وارتجت خزائنه

أحدث وصول تشتشيكوف الى الحفلة اثراً عميقاً ، فأسرع الجميع الى استقباله وكان يحمل بعضهم ورقاً للعب ، بينما قطع البعض الآخر حديثه عند عبارة : « أجابت المحكمة على هذا ... » ونسي المحدث ماذا أجابت المحكمة وأسرع الى بافل ايفانوفتش وصاح :

— بافل ايفانوفتش .. آه .. يا آلهي ! بافل ايفانوفتش . يا عزيزي بافل ايفانوفتش .. ايها المحترم بافل ايفانوفتش .. ياروحي الصغيرة بافل ايفانوفتش ، أهذا انت يا بافل ايفانوفتش .. اعطونا اياه لنستطيع معاقبته . آه يا عزيزي بافل ايفانوفتش .

وألقي بطلنا اصدقاءه يقبلونه دفعة واحدة ، فما كاد يتخلص من عناق رئيس المحكمة حتى وجد نفسه بين ذراعي مدير البوليس ، وسلمه هذا الى ذراعي مفتش الشؤون الطبية ، وألقى هذا به الى مدير مصاحبة الكحول ومن ثم الى المهندس .

كان الحاكم في هذه الاثناء يقف وسط السيدات وهو يحمل تحت ابطه كلباً ، ويبيده الاخرى كلباً من الحلوى . فما كاد يرى بافل ايفانوفتش حتى رمى بالحيلوان والكيس ارضاً . والخلاصة ان تشتشيكوف استقبل بفرح وغبطة ، فلم يكن وجهه إلا وشع بالسرور والرضى ، حتى ليقال إنها السعادة التي سرحت على وجوه الموظفين بعد وصول رئيسهم ، فأفرخ روعهم بعد ان وجدوا الرئيس في وضع سار ، حتى انه ألقى ببعض الكلمات اللطيفة استقبلها الموظفون الذين

سمعوها بالضحك ، واما الذين لم يسمعوها فانهم ضحكوا ايضاً مع الآخرين ،
ويبدو بعيداً عنهم شرطي ، لم يضحك في حياته قط . قد ساءت الابتسامة في
وجهه و كأننا يجلس نفسه عن قهقهة .

احاب بطنا ببشاشة على الجميع ، وحيا من اليمن ومن اليسار ، ففتن الجميع
واحاطت به السيدات و كأنهن حديقة من الزهور والعطور ، واخذت تشيكوف
ينشق من هذا العبير بتلذذ . وكانت زينة النساء في تنافس ، فالشرائط والزهور
تداخلت في بعضها بتشويش طبيعي لتزين اثوابهن .

واما قوامهن فكان يبدو مرسيقاً . ولنقل بالمناسبة ، ان نساء مدينة (ن)
يملن الى البدانة ، ولكنهن يعرفن كيف يستعملن الحزام بفن ودراية تتوارى
معهما السمنة . وكن الى جانب ذلك يفكرن في كل شيء ويتذكرن التفاصيل
وكانت الصدور والاكتاف عارية ، ولكن ، دون ان يندى لها الجبين . ذلك
انهن يسفرن مفاتهن الى حد لو تجاوزنه قليلا ، اذن ، لتسبين حتما بضياح
لب رجل . وكن يتسترن بذوق رفيع ، فهناك شريطة تعرف باسم « قبلة »
تغطي العنق وما تحت الاثواب ، وكانت تبدو هناك زخارف من الحرير الثمين
تدعى باسم « تواضع » . ولا شك في ان هذا « التواضع » يخفي ما لا يمكن باي
شكل ان يسبب ضياح رجل ، ولكنه كان يخلق جواً من الغموض يبعث على
الاغراء . وكانت القفازات ترتفع حتى المرفق وتترك اجمل قسم من الذراع
عارياً . وبالفعل ان اكثر اذرعة النساء بضة مفتولة بشكل يحسدن عليه . وقد
حاولت بعض السيدات ان يرفعن القفاز اكثر من ذلك بقليل ، ولكن النتيجة
انتهت بتمزيق هذا القفاز . والحلاصة ان كل شيء كان يهتف : « لسنا في الريف
... هذا العاصمة ، هنا باريس نفسها » . وبالتأكيد كان بإمكان المرء ان يرى
هنا وهناك قبعة صغيرة او ريشة طويلة تتعارض مع الزي ، ولكن اليس من
مميزات مدينة ريفية ان تنكشف بشكل ما النعمة المزمنة .

كان تشيشكوف يتساءل وهو ينظر الى هذه السيدات : « من كتب لي هذه الرسالة ؟ » ولكن موجة من الاكمام والمرافق والأشرطة والقمصان المعطرة كانت تمر امام ناظره بسرعة . كان هناك زوجة مدير البريد ، وزوجة الكابتن مفوض الشرطة ، والسيدة ذات الريشة الزرقاء ، والاخرى ذات الريشة البيضاء ، والامير تشيشيلسيف الجيورجي ، وموظف من بطرسبرج ، وفرنسي يدعى كوكو ، ويير شونوفسكي ، ويير بندوفسكي ، كان كل هؤلاء يرقصون الفالس .

وفكر بافل ايفانوفتش وهو يتراجع : « هوذا الريف ينطلق » . وما كادت السيدات تعود الى الجلوس ، حتى اخذ يتأمل فيهن واحدة فواحدة عليه يكتشف صاحبه من تعبيرات وجوها . ولكنه لم يستطع اكتشاف شيء ، ذلك ان وجوه السيدات كانت تبدو مغلقة لا يمكن فهم ما تعبر عنه ، فقال تشيشكوف : « اية نفسية هي نفسية النساء » وبداعليه القنوط ، اذ انه لن يتمكن من تفسير ما يرى على وجوههن ... ان المرأة وحدها مملكة يتيه فيها الرجل ، ولا شيء يمكنه من انقاذه منها فيما لو استسلم . انه لمن المحال ان يحدد حال هذه النظرات : دافئة ، عذبة ، تعبة ، منتشية ... جذابة ... مثيرة ... تبعث على الجنون ... المرأة ؟ ! ولكنها الضف الجميل من الجنس البشري وكفى !

وعذراً من القارىء ! ان بطلي قد تلفظ بكلمة تحدى اذواق النساء المترفات . ولكن ما العمل ؟ ان الشعراء الروس مرغمون احياناً على استعمال اللغة الشعبية ولكن القراء وحدهم هم المسؤولون عن هذا ، وخصوصاً قراء الطبقات العالية . انه لمن المستحيل ان يسمع الانسان لفظة روسية منتقات ، فالجميع يعبرون عن افكارهم بشكل مدesh بالفرنسية والألمانية والانكليزية ؛ فهم يكلمون هذه اللغات جيداً ويتلفظون بها بصورة أحسن . فيلفظون الفرنسية من أنوفهم ويترقبون كالصقور بالانكليزية ، وطنينهم لا يظهر الا في بيوتهم الريفية .

هؤلاء هم قراء الطبقة العليا وكل من يريد ان ينتمي الى هذه الطبقة . وهذا ما يدعونه : « يجب ان تكون اللغة الروسية معقولة وصافية ، ولكن لاحق لها في ان تستسلم اي جهد » .

لم ينجح تشتشيكوف في اكتشاف « المجهولة » التي كان دائباً على البحث عنها . وقد امعن في النظر فلاحظ ان نظرات جميع السيدات ترمي الى إشارة شعور هو خليط من الامل والألم . فاستسلم أخيراً لليأس وحدث نفسه : « لافائدة من البحث فلن أنعرف عليها » . ومع ذلك فقد بقي مزاجه صافياً ، فكان يتبادل الكلمات اللطيفة مع الفاتنات ماراً أمامهن بخطى صغيرة كما يفعل الكهول الرشيقون ، دافعاً بتحية نحو اليمين وبانحناء نحو اليسار . وكان بافل اي فانوفتش يتقدم فيضع قدمه ثم يرفعها وأخيراً يعيدها الى مكانها فوق الارض راسماً بذلك فوق بلاط الغرفة أشكالاً هندسية متنوعة اما السيدات فقد كن مسرورات لانهن وجدن فيه الى جانب الظرف والفتنة ، تلك الطلعة المهيبة الجريئة التي تسمر الجنس الجميل . ولم يمض وقت قليل حتى بدأن بالنافس من أجله ، وقد لاحظ بعضهن انه من الواجب الوقوف امام الابواب ، فأمرعن الى احتلال المقاعد الحالية في تلك المناطق للاقتراب منه . ووقعت مشادة بين سيدتين ، وكادت تكون العاقبة وخيبة في النتيجة ، وقد وصفت السيدات اللواتي نجحن بالجلوس قرب بافل اي فانوفتش بالوقاحة .

وانشغل تشتشيكوف بالحديث مع السيدات اللواتي عرفن كيف يحطن به ويثرن اهتمامه بالاحاديث الجذابة التي لم يستطع ان يفقه منها حرفاً ، حتى انه نسي ان يقدم فروض الاحترام لربة المنزل . وقد تذكر ذلك عندما سمع صوت زوجة الحاكم وكانت تقف الى جانبه ، فقالت له بنبرة يمتزج فيها اللوم بالعذوبة :
- آه يا بافل اي فانوفتش ... انه لمن المستحيل ان يصل المرء اليك .

ولن استطيع ان انقل بالنص كلمات زوجة الحاكم فقد كانت من النوع المصقول الذي برع في وصفه كتابنا الحديثون الذين يفهمون تماماً اللغة المنتقاة

واساليب حديث الطبقة العالية . واستدار بطلنا نحو ربة الدعوة وكاد يجيبهم ا
بعبارة من فصيلة عبارات زنوفسكي وليتسكي وليدين وغيرهم من
العسكريين اللبقين . ولكن ما إن رفع عينيه حتى أصيب بالذهول والبهرة ؛ ذلك
ان زوجة الحاكم لم تكن وحيدة . بل كانت تمسك بيد فتاة في السادسة عشر
من عمرها ، شقراء فاتنة ، مع انسجام في القسمات ، ووجه لطيف بديع من
النوع لا يصادف الا على ندرة في روسيا حيث يمتاز كل شي . بالفخامة ، سواء
أكلت ذلك امرأة ام مدينة ، ام جبلاً وغابات ام وجوه وشفاه وأقدام .
وكانت هي بنفسها تلك الفتاة التي صادفها وهو في الطريق عندما غادر نوزدريف
واصطدمت عربته بعربتها بشكل أضى فصلهما العم ميتيا وميناي . وبلغ من
ارتباك تشتشيكوف انه لم يستطع ان يجد لفظه ذكية ، ولم يعد بين عباراته
وعبارات غريمين وزنوفسكي وليدين اي وجه للمشابهة .

قالت زوجة الحاكم :

— انك لا تعرف ابنتي بعد ، والسبب في ذلك انه لم يمض كبير وقت على
مغادرتها المدينة .

واجاب تشتشيكوف بانه يدين لصدقة سعيدة باهرة بالتعرف الى ابنة الحاكم
واراد ان يضيف بضع كلمات اخرى ، ولكن الالهام لم ينجده . فقالت زوجة
الحاكم عبارة اخرى ثم غادرت برفقة ابنتها الى (شقة) اخرى . واما بافل
ايفانوفتش فقد ظل برهة طويلة دون حراك كرجل خرج للنزهة ثم تذكر انه
نسي شيئاً هاماً ، ففقد لامبالاته واخذ يجهد نفسه ليذكر ما ينقصه ، فمديله
معه ، وكذلك تقوده ، ولكنه يسمع مع ذلك هاتفاً يحدثه بانه نسي شيئاً ما ،
فينظر بذهول الى الجوع المتماوجة امامه ، وتختلط امام ناظريه العربات والمارة
وبنادق الجنود الذاهبين .

وفجأة أصبح تشتشيكوف غريباً عن كل ما يحيط به ، ولكن السيدات لم

ينقطعن عن إرهابه بالاسئلة المخرجة :

« اتسمح لنا ، نحن سكان الارض ، ان نتجراً على سؤالك عن موضوع احلامك ؟ » او « اين تكون هذه البقاع المباركة التي تسكن اليها افكارك ؟ » او « ما اسم تلك التي تثير فيك جميع هذه الاحلام المورقة ؟ »
وقد تلقى بافل ايفانوفتش هذه الاسئلة بعدم اكتراث ، بل انه غادر هؤلاء السيدات دون استئذان ليجد ربة المنزل وابنتها . غير ان السيدات العنيدات لم يثنان الاستسلام ، فقررن استعمال احط الاساليب للفوز بتشتشيكوف . ان نقطة الضعف في بعض النساء ، ولا اقول في جميع النساء ، انهن عندما يكتشفن موضع جمال في انفسهن ، في الجبهة مثلاً او الشفتين او اليد ، يخيل اليهن ان هذه الفتنة تبهر جميع الانظار ، وان كل من يراهن من الرجال يقول في نفسه : « ما ابداع هذا الانف الاغريقي الاسم ! » او « يا لهذه الجبهة الجميلة الناصعة ! » ، وأما من تكون ذات كاهلين جميلين فانه يخيل اليها انها تسمع سلفاً آهات الشباب المعجبين وهمسهم : « ما اروع هذين الكفتين ! » . وهي تظن ايضاً أن هؤلاء الرجال لن ينظروا الى الشعر والانف والجبهة والوجه . بذلك كان السيدات يفكرن ، ولذلك فان كل من اتى الى هذه الحفلة منهم قد صمم على اظهار مفاثنه اثناء الرقص .

كانت زوجة مدير البريد نحى رأسها بتراخ وهي ترقص الفالس ، حتى انها لتشبه بالفعل مخلوقة سماوية . وكان يوجد سيدة لم تحضر للرقص لان قدمها اليمنى تعاني تورماً قالت عنه بالفرنسية إنه في حجم حبة العدس . . ولكنها لم تستطع ان تقاوم الاغراء ، فرقصت قليلاً حتى لا تظن زوجة مدير البريد نفسها ملكة الحفلة . ولم يهتم تشتشيكوف بكل هذا ولم ينتبه للحلقات التي ضربت حوله ، فكان يقف على رؤوس اصابعه ليحظى بمشاهدة الشقراء الفاتنة . وشاهدها اخيراً جالسة قرب امها التي عرفها من عمامتها الشرقية المزينة بريشة تهتز بعظمة وخيلاء . فأسرع اليها وكأنه يريد ان يشن هجوماً عليها . . . ترى أكانت الرغبة هي

السبب في اندفاعه ام ان اندفاعه هذا تسبب عن تراحم جموع الراقصين خلفه ؟
في الحق انه ما من احد يدري . . . ولكنه كان يسرع في مشيته وهو يرتطم
بالجميع . وتلقى مزارع منه ضربة كاد يقع معها على الارض ، ولكنه تماسك
حسن الحظ بصعوبة ، ذلك ان سقوطه سيجر معه سقوط صف كامل من
الراقصين . وتراجع مدير البريد بدهشة مزوجة بالتهكم وهو يشاهد بافل
يفانوفتش ، ولكن بطلنا لم ير احداً لان نظاره كانت معلقة بالشقراء الجميلة
اللابسة قفازها بشكل ينم عن رغبة بالرقص عارمة . وكان يوجد بالقرب منها
اربعة ازواج من الراقصين يرقصون المازوزكا ، وكان ضابط من سلاح المشاة يحرك
قدميه وذراعيه وجسده متخذاً من الاوضاع ما لا يمكن تصويره حتى في الاحلام .
ومر تششيكوف بجانب الراقصين حتى وصل الى قرب زوجة الحاكم وابنتها ،
ولكنه جبن فجأة وظهر الارتباك في حركانه .

ليس في مقدورنا ان نقرر ان بطلنا قد أحب ، : انه من المشكوك فيه
ان يكون امثاله من الرجال المتراوحين بين النحول والبدانة ، قادرين على
الاحساس بشعور كهذا . ومع ذلك فقد احس بانفعال مبهم عصي التفسير
يضيق عليه الحناق . وقد بدا له ، كما اعترف فيما بعد ، ان الحفلة الراقصة غابت
عن ناظره ، وان القيثارات والابواق تعزف في البعيد خلف الهضبة ، وان كل
شيء قد تلفع بضباب يشبه الضباب الذي يحيم على الحقول .

وفي اعماق هذا القرار الغامض كانت قسرات الفتاة الجميلة تسفر عن وجه جميل
بيضوي . . وقوام رهيف رشيق ، وثوب ابيض يضم اعضاء جسمها الفض
بحنان ما بعده حنان ، لقد كانت ابنة الحاكم وحدها تبدو وحدها بيضاء
شفافة وسط هذا الجمع الغامض .

هكذا يتحول كل شيء في هذه الدنيا ويصبح امثال تششيكوف شعراء ،
ولو كان ذلك لساعات قصيرة في حياتهم . وربما كان هناك ثمة مبالغة في اطلاق

اللفظة شاعر ، ولكن بافل ايفانوفتش ظن نفسه شاباً بل فارساً . وشاهد قرب السيدتين مقعداً شاغراً فاقتعده ، كان الحديث في مبدأ الامر صعباً ، ولكن بطلنا سرعان ما شعر بالاتياع فازداد جرأة .

وهنا يتوجب علينا ، بملء الاسف ، القول إن الرجال الوقورين الذين يحتلون المناصب الرفيعة لا يعرفون كيف يكونون خفيفي الظل في احاديثهم مع السيدات ؛ فالسادة الضباط ابرع منهم في ذلك ... ولكن هؤلاء ماذا يفعلون ؟ انهم لا يقولون اشياء غريبة او عظيمة ، ولكن الفتاة التي يتحدثون معها لاتني عن الضحك . واما الوزراء فان الله وحده يعرف ماذا يروون : هم يقولون بأن روسيا بلاد واسعة ، ثم يتفوهون بمديح مأخوذ من احدى القصص ، وبعد ذلك يغامرون بمزاح يضحكهم اكثر مما يضحك مستمعهم . اقول هذا لوضح السبب الذي ادى بالشقراء الى التثاؤب ، ولكن بطلنا لم يلحظ شيئاً من هذا ، فراح يكيل للفتاة عبارات ؛ احفظها عن ظهر قلب ، من الثناء كان قد قررها بنفسه كثيراً من المرات في ظروف اخرى مماثلة : في سيمبر يسكي عند سوفون ايفانوفتش بيزيتشين أمام ابنته وزوجات اولاده الثلاث ماريا واميليا والكسندراجافر يلفنا ، وعند فيدور فيدورفتش بيويكون ، وفي ربا زنسك ، وعند فرول فاسيلفتش بوييدونسي في بانزا ، وعند اخيه بيوتر فاسيلفتش امام شقيقة زوجته كاترينا ميخايلوفنا وابنتي اخيه روزا فيودورفنا واميليا فيودورفنا ، وفي فياتنسكا عند بيوتر فارسوتوفتش امام شقيقة زوجة ابنه بيلاحيا ايجوروفنا وابنة اخيه صوفياروستيسلوفنا وابنتي عمه صوفيا الكسندروفنا وماكلانورا الكسندروفنا .

وسخطت السيدات لسلوك بافل ايفانوفتش . فمرت احداهن بالقرب منه ليلحظ امتعاضها ، ومرت طرف ثوبها الطويل فوق قدم الشابة الشقراء ، ولمزتها بطرف منديلها ، وفي نفس اللحظة ألقت سيدة اخرى بعض العبارات الحبيثة الجارحة . ولم يسمع بافل ايفانوفتش اي شيء من هذا ، بل الاخرى

ان نقول انه لم يظهر عليه ما يدل على انه سمع . وكان هذا خطأ منه ، إذ يتوجب عليه ان يقيم وزناً كبيراً لرأي السيدات ، ولقد ندم على موقفه هذا فيما بعد ، ولكن بعد ان سبق السيف العذل ، اي عندما لم يعد بمقدوره إصلاح ما فسد . وارتسم الغضب على الوجوه ! لقد كان تشتشيكوف يتمتع بالتقدير لملايينه ، ولظهره النبيل . ولكن ، كانت هناك امور لا تغفرها النساء ، والرجل خاسر بعدها بلا مرأى . ان المرأة اضعف من الرجل واقل منه ثباتاً ، ولكنها تبدو في بره معينة قوية تسيطر على الظروف . ان اللامبالاة التي اظهرها تشتشيكوف قد اعادت الوحدة الى السيدات ، تلك الوحدة التي تهددت عند الهجوم على المقاعد . ثم اخذت هؤلاء السيدات بايجاد المعاني السيئة لبعض العبارات البريئة التي تلفظ صاحبنا بها . وما زاد الطين بلة ، ان شاباً نظم قصيدة ساخرة حول الراقصين والراقصات ، الامر الذي يحدث دوماً في الحفلات الراقصة في الريف . فنسبت على الفور الى بافل ايفانوفتش ، وبدأ الحنق يتزايد فأخذت جميع السيدات تحكم على بطلنا بقسوة ، واما ابنة الحاكم فانها عولت بقسوة اشد . كانت مفاجئة بغیضة جداً تنتظر بطلنا ... إذ بينما كانت الشقراء الجميلة تتشاءب وبينما كان تشتشيكوف يروي لها قصصاً من ابطاها الفيلسوف ديوجينوس نفسه ، ظهر نوزدوف في قاعة الرقص . ترى هل كان قادماً من البوفيه ام انه جاء من الصالة الخضراء حيث كان فيها اكبر المقامرين ، ثم ، هل خرج منها باختياره ام انه غادرها مطروداً ؟ وما الفرق ... فقد كان مرحاً يمسك بيد المدعي العام منذ امد طويل بلا أدنى ريب ، ذلك ان هذا الاخير المسكين كان يقطب حاجبيه ويحاول بشكل ظاهر ان يتخلص من نوزدوف الذي كان يتناول كوبين كبيرين من الشاي الممزوج بمقدار من الروم جعل طلاقته لا تكاد تنضب . وما إن رآه تشتشيكوف حتى قرر مغادرة القاعة لانه لم يكن يتوجس خيراً من هذه المقاتلة . ولكن ، لسوء الحظ ، تقدم الحاكم بنفسه ليعلن ابتهاجه برؤية صديقه العزيز بافل ايفانوفتش ، وطلب منه ان يكون حكماً في مناقشة جرت

مع سيدتين عن وقار النساء في الحب . ولكن نوزدويف كان قد رأى بدوره
بافل ايفانوفتش فمشى مباشرة نحوه . ثم صاح من بعيد بضحكة ارتعش لها خداه
الطربان المتوردان :

- آه ... سيد خرسوك ... ملاك خرسوك ... ايه ... لقد اشتريت
كثيراً من الاصوات ...

ثم صاح متوجهاً بجديته نحو الحاكم :

- ولكن سعادتك لاتعلم بانه يتاجر بالارواح الميتة ... اسمع ، اني في الحق
يا تشتشيكوف اقول لك هذا بكل مودة لاننا صديقان ، أليس كذلك ؟ اقول
لك امام سعادته باني كنت اشفقك لو استطعت الى ذلك سبيلا ... اجل ... اني
في الحقيقة اشفقك .

وود بافل ايفانوفتش من اعماقه لو ان الارض ابتلعتة .

- انك لن تصدقني ، يا صاحب السعادة ... ولكنه عندما قال لي : بعني
ارواحاً ميتة انفجرت من الضحك ، ولما جئت هنا قبل لي انه اشترى بثلاثة
ملايين روبل فلاحين لينقلهم الى بقعة من الارض ... ولكنه طلب مني ان
ابيعه امواتاً . اسمع ، يا تشتشيكوف ... انك وحش ... وحش حقيقي ...
واني اردد هذا امام صاحب السعادة .. أليس كذلك ؟ يا سيدي المدعي العام ؟
ولكن المدعي العام وتشتشيكوف والحاكم كانوا مرتبكين فلم يجدوا
جواباً . وتابع نوزدويف مستفيداً من الارتباك العام المحيم على الجميع :

- ايه .. وانت ، يا اخي .. لن اتركك قبل ان تقول لي لماذا تشترى نفوساً
ميتة ؟ انصت لي ، يا تشتشيكوف .. يجب ان نخجل في الحق من نفسك .. وانك
لتعلم باني من اخلص اصدقائك .. وها هو ذا صاحب السعادة حاضر وكذلك
المدعي العام .. انك لا تستطيع يا صاحب السعادة ان تتصور الى اي حد يعبد
أحدنا الآخر .. اني اتصور لو انك سائلتني قائلاً : نوزدويف ، قل لي بصدق
من نحب اكثر : انا ام تشتشيكوف ؟ لأجبتك بصدق وبدون تردد :

« تششيكوف » . انتظر يا صديقي العزيز لسوف اقبلك ، اسمح لي يا صاحب السعادة بتقبيله؟ .. هيا يا تششيكوف لا تمنع ، واسمح ان لي اطبع على خدك الناصع كالثلج قبله صغيرة .

ولكن تششيكوف دفعه عنه بعنف كاد معه ان يقع على قفاه ، فابتعد الجميع ولم يعد يصغي اليه احد .

ومع ذلك فان ما أدلى به حول النفوس الميتة قد سمع بوضوح في انحاء القاعة وانهر له جميع المدعويين .

بدا ان الحبر غريباً فبقي الجميع مهوتين يتساءلون بأنظارهم .

ولاحظ بافل ايفانوفتش ان عدة سيدات قد اخذن بتبادل ابتسامات تنطق بالحبث . وكانت بعض الوجوه تعبر عن الحيرة العميقة التي تنتاب النفوس . وكان الجميع الى جانب ذلك يعرفون عن نوزدويف افكه ووقاحته . وما من احد يدهش اذا سمع منه اغرب القصص . ولكن طبع الانسان غريب حقاً ، ذلك ان الحبر مهما كان مصدره فانه يأخذ طريقه في المجتمع حتى ولو كانت الغاية من سريانه هي السماح لبعض المثرثرين ان يقولوا : « اسمعوا هذه الكذبة المنتشرة » ولبعضهم الآخر ان يجيب بعد ان يستمع اليه بسرور بالغ : « اجل انها كذوبة قدرة لا تستحق اي اهتمام » . ومع ذلك فانهم يسارعون الى روايتها في كل مكان . ويهتف الجميع : « يا لها من اكذوبة خبيثة » وهكذا تسمع المدينة بومتها تلك القصة التي لا تستحق اي اهتمام .

واثر هذا الحادث ، التافه في ظاهره ، كثيراً في بطننا ، مما يدل على ان كلمات الاحق يمكنها في بعض الاحايين ازعاج رجل زكي ، فقد شعر بالارتباك فجأة كرجل لمع حذاه ثم اتسخ بالوحل حالا . حاول ان يفكر في شيء واراد ان يسلي نفسه بلعبة الويست ولكنه لم ينجح في اللعب ، وارتكب اخطاء فاضحة وكان رئيس المحكمة يعرف عن بافل ايفانوفتش انه لاعب قدير ، ولذا لم يستطع ان يفهم سبب هذه الاخطاء . سخر مدير البريد والرئيس ومدير البوليس من

تشتشيكوف وادعوا انه عاشق ؛ بل صرحوا أنهم يعرفون الشخص المجرم الذي جرح قلبه . ولكن شيئاً ما لم يستطع ان يعزي بطلنا رغم محاولته الضحك والمزاح . فظل على ارتباك اثناء العشاء رغم ان الحاضرين بدوا لطفاء دمثين ، ورغم ان السيدات طردن نوزدويف منذ امد طويل بعد ان احقهن سلوكة ، ذلك انه جلس على الارض اثناء الرقص وجذب مراقصته من ثوبها ، وهذا لا مثيل له في الوقاحة كما قلن .

كان العشاء مرحاً جداً ، فقد جلس المدعوون حول شمعدانات بثلاثة اذرع ، وزهور ، وحلويات ، وزجاجات ، وقد ظهر الفرع على وجوههم . وكان الضباط والسيدات والرجال يتنافسون في الظرف . وكان الرجال يغادرون مقاعدهم ويتزعون الصحاف من ايدي الخدم ليقدموها بأنفسهم الى السيدات . وقدم عقيد الى جارته صحناً طفق بالحساء على رأس سيفه . اما الرجال الناضجون الذين جلس بينهم تشتشيكوف فقد كانوا يتناقشون ويصيحون وهم ياتهمون كميات هائلة من السمك واللحم . وكانوا يعالجون مواضيع كان من الممكن ان تثير اهتمام تشتشيكوف في وقت آخر . ولكن بافل ايفانوفتش ظل صامتاً كأنه مسافر انهكه التعب ، غير قادر على الاشتراك في حديث هام لان جميع افكاره قد غادرته ، ولم ينتظر نهاية العشاء فعاد الى غرفته في ساعة مبكرة . كانت نفسه قلقة عندما رجع الى غرفته كهذا المقعد الذي يجلس عليه . وكان القلق يستولي عليه ، واما فكره فكان يسبح في الفراغ ويردد غاضباً : « ليذهب بك الشيطان بعيداً ، يا من ابتدعتم الحفلات الراقصة ! » ثم . . . ولماذا هذا المرح ؟ ان الموسم ردىء والاسعار مرتفعة ، وبالرغم من ذلك فان الجميع يذهبون الى تلك الحفلات الراقصة ! . . . والسيدات . . . انهن يرتدين الملابس الثمينة ، وهذه واحدة منهن قد ارتدت ثوباً يكلف آلاف الروبلات التي يدفعها الفلاحون . . . ان ضمير الانسان لشيء عجيب . . . ترى لم كل هذا

الفساد وتلك الاكاذيب؟ .. بلى ! ان كل هذا يحدث كي يشتري الرجل زوجته
شالاً او اقمشة جميلة .. اجل ! كل هذا يحدث لثلاث تقول امرأة ان زوجة مدير
البريد ترتدي ثوباً اجمل من ثوبها . ويهتف الجميع : الى الرقص .. الى الرقص
.. الى المرح .

ان الحفلات الراقصة لمي عار اي عار ، وفضيحة اي فضيحة . هي ليست
روسية ولا تلائم مزاج الروسيين والروح الروسية . ومن المضحك حقاً ان تشاهد رجلاً
ناضجاً متشعراً بالأبأسود الرسمي ، يقفز فجأة برشاقة الشيطان ، ثم يلوح بساقيه كالاطفال ،
او ان تشاهد آخر يناقش اموراً هامة وهو يقفز كالوعل الصغير ويميل من اليمين
ومن اليسار . حقاً ان هذا لتقليد على طريقة القروء . اما اذا كان الفرنسيون يظنون
اطفالاً حتى سن الاربعين ، فهل يتوجب علينا ، نحن الروس ، ان نكون على شاكلتهم .
اني لأشعر بعد كل حفلة راقصة باني قد ارتكبت حماقة امتعض جداً لمجرد
تذكرها . ما من شيء يعلق في الذهن .. اني اذا تحدثت مع احد رجال
المجتمعات فانه يتكلم في جميع المواضيع ويحتر ما قرأه في الكتاب ببلاغة وطلاوة
لا نظير لهما ، ولكن ليس ثمة شيء ينم عن شخصية هذا الرجل . واتحدث بعد
ذلك الى بائع لا يعرف غير عمله فأفيد منه اكثر مما افدت من جميع احاديث
المجتمعات ... ثم ماذا افيد من الحفلات الراقصة ؟ ... لو شاء كاتب ان يصف
ما يجري فيها لعكست صفحاته نفس الفراغ .. وماذا تكون النتيجة ، الأخلاقية
أم لا أخلاقية ؟ لا اعلم ! ولكن الكتاب عندئذ لا يصلح الا للقذف به جانباً .
بهذا كان يفكر تشتشيكوف بعد عودته من تلك الحفلة ، ولكن غضبه كان
له في الواقع سبب آخر . ان الحفلة لم تغضبه بمجد ذاتها بقدر ما اغضبه الفشل
الذي مني به والدور المضحك الذي مثله فيها . وكان عندما يحاكم الامور بهدوء
يرى ان جميع ما حدث لا تحشى عقابه طالما ان صفقة النفوس المينة قد تمت .
ولكن الانسان عجيب حقاً ، فتتشتشيكوف لا يطبق ان يسيء به الظن اولئك
الذين يحتقرهم ولا يقيم لهم وزناً . فهو وإن كان يأخذ عليهم تفاهتهم وفخامتهم

الفارغة فقد كان ما يثيره انه اعتبر نفسه مسؤولاً عما حدث في تلك الليلة . ومع ذلك فانه لم يحكم بقسوة على نفسه ، وهو على حق في هذا ، إذ اننا جميعاً نشترك في نقطة ضعف شاملة ألا وهي التساهل مع انفسنا في اخطائنا وإلقاء التبعة على الآخرين ، على الخادم ، او الموظف ، او الزوجة ، او الكرسي الذي نرى انه من المناسب ان يتحطم على احد الابواب . كان على تششيكوف اذن ان ينفث غضبه ، فصب على نوزدوف وابلاً من الشتائم لم يسمع بمثلاً اي حوذي من ضابط او جنرال مهما كان ماهراً في الابداع ، كما انه لم ينج شخص واحد من عائلة نوزدوف من شتائم بطلنا .

كان بافل ايفانوفتش جالساً على مقعده يشتم نوزدوف مهتاجاً ، يتناوبه النعاس والافكار السود ؛ بينما كانت الشمعة تحترق مهددة بالانطفاء السريع ، وكان الليل قد اقترب من هزيعه الاخير ، فسمعت من بعيد بعض الديكة تصيح ، واما في المدينة الغارقة برقاها فقد كان بعض المارة يجتازون الطرقات الوعرة التي يعرفها السكIRON الروس معرفة جيدة . ومع ذلك فقد كان حادث يتهبأ هناك في الطرف الآخر من المدينة من شأنه ان يزيد في حراجة موقف بطلنا .

كانت عربة غريبة تسير بضجة في شوارع وأزقة المدينة الصغيرة المقفرة ، ولم تكن هذه العربة لنشابه عربة او عجلة او زحافة ، ولكنها تشبه جذع شجرة ركب فوق العجلات .

كان بابا هذه العربة لا يغلقان جيداً بسبب خلل في القفل وقبضة الباب . ولم يكن البابان لبثتا في مكانيهما لولا أنهما ربطا بالحبال . كانت العربة مليئة بالوسائد والاعطية والاكياس والحُزب وجميع انواع المعجنات . وكان على درجة العربة خادم يرتدي معطفاً وطنياً تكسو وجهه لحية وطنية مهملة خالطها المشيب ... وكان هذا الخادم من النوع الذي يدعى دائماً « يا صغيري » . وأيقظت ضجة العربة مع صرير البابين حارساً ليلياً رفع رأسه وصاح وهو يغالب النعاس :

« من هذا ؟ » لما لم يبصر أحداً وسمع صوت عجلات العربى بعيداً مديده الى
ياقة معطفه فالتقط حشرة ثم اقترب من النور وسحقها على إظفره والقى سلاحه ،
ومن ثم عاد الى النوم حسب قواعد الفئة التي ينتسب اليها .

ولم تعد الحيوانات تقوى على جر العربى والسير بها لعدم اعتيادها على طرقات
المدينة المدهشة التعبيد . فدارت في عدة طرقات ثم دخلت أخيراً في زقاق مظلم
ومرت امام كنيسة القديس نيقولا ووقفت قرب باب مسكن الكاهن . وهبطت
من العربى فتاة التفت بشال وامسكت بيديها باب العربى بقوة كقوة الرجل
وكان الخادم نائماً اذ ذاك الحين .

وعوت الكلاب وفتح الباب فدخلت العربى الغريبة الى باحة ضيقة مليئة بالاخشاب
والسلال وبيوت الدجاج . وخرجت السيدة من العربى وكانت هي بذاتها
كوروبتشكا الملاكة . ان هذه العجوز قد قلقت بعد ذهاب بطلنا ، فقضت
ثلاث ليال لا تعرف للنوم طعماً ، واخيراً قررت السفر الى المدينة لتعلم اذا كان
تشتشيكوف قد خدعها ام لا . كانت تريد ان تعرف الثمن الحقيقي للنفوس
الميتة لانها كانت تخشى ان تكون قد باعتهما بثلت الثمن الحقيقي .

وسوف يعرف القارىء نتائج وصول كوروبتشكا الى المدينة من حديث
بين سيدتين . وسنروي هذا الحديث في الفصل القادم .

الفصل التاسع

في ذلك الصباح ، وفي وقت مبكر جداً عن اوقات الزيارات العادية ، خرجت امرأة من منزل خشبي بلون البرتقال ، له نافذة صغيرة اقيمت فوق أعمدة زرقاء . كانت هذه المرأة تلبس ثوباً أنيقاً مخططاً بالتربيعات ، يرافقها خادم على رأسه قبعة مستديرة ، ويلبس رداء ذا ثنيات عديدة مطرزة بشرائط الذهب . صعدت هذه المرأة الى عربتها بسرعة واغلق الخادم بابها وفك (فرامل) السير وصاح بالسائق : « سر ! » . وفي نفس اللحظة كانت المرأة تحاول ان تستعيد القصة التي سرت لتعرفها عليها كي تحفظها . ولم تنقطع عن النظر من خلال زجاج الباب لتتأكد ، وهي غاضبة ، بأنها مازالت في منتصف الطريق . كان كل منزل يبدو لها أطول مما كان ، والمستشفى بنوافذه الصغيرة العديدة يبدو وكأنه لا نهاية له . وهتقت هذه المرأة بعد ان فقدت صبرها : « يا للبناء الملعون ، انه يأبى الاختفاء ! » أما الخوذي فقد تلقى هذا الأمر مرتين : « بسرعة اكثر ، بسرعة اكثر يا اندريوشكا . انك لم تنتهي اليوم ! » وفي النهاية وصلت بطلتنا .

توقفت العربة امام منزل ومادي مؤلف من طابق واحد عليه نقوش بيضاء نائنة تحت نوافذه ؛ ونهضت بالقرب منها (شعرية) من الخشب عالية ، ويبدو على بعد قليل حائط مؤلف أوتاد قد ابيضت لكثرة ماتراكم عليها من الغبار . وفوق النوافذ صفت أواني للازهار ، وبنغاء تتأرجح

داخل قفصها وقد خطم منقارها داخل حلقة ، وكلبان نائمان تحت اشعة الشمس .
وفي هذا البيت كانت تقطن صديقة وفيه « لسيدتنا » .

ان الكاتب ليهتم كثيراً باعطاء اسم لهانين المرأتين يرضى عنه الجميع .
ويرى انه من الخطأ ابداع اسم مرادف ، لذلك فهو يجد دائماً احدهم محل هذا
الاسم في اي زاوية من زوايا مدينة ضخمة . وهذا في الحق ما يثير الغضب
والسخط ، ذلك ان الكاتب متهم دوماً بالتجسس ، وبافشاء اقل سر في حياته
وبالحديث عن الصحف التي يحبها والملابس التي عليه ، وعماتهن له زوجته كي
يصلح لطبقته ، وبذلك تصبح الطبقة الاجتماعية اكثر خطراً .

لقد اصبحت طبقتنا الاجتماعية اكثر اهمية في عصرنا ، ذلك انه ينطبع كل
شيء بطابعها ويبدو انه خطأ شخصي بحت ، مداره الهواء الذي يسري . ويكفي
ان يقال ان أحق يقطن المدينة كي يصبح رجل من الخارج مقراً : « وانا ايضاً
اقطن هذه المدينة ، واذن ، فأنا سخيّف ! »

وكي اتجنب الضجر ايضاً ، سأدعو المرأة التي كانت موضع الزبارة : « بالمرأة
المحبة من جميع وجهات النظر » . هكذا كانت تدعوها مدينة (ن) برمتها في
جميع الامكنة . ان هذه المرأة قد نالت هذا الاسم بصورة شرعية ، ولكنها
كانت دوماً تعمل لصالحها لتكون ابدأ محبوبة كثيراً ، محبوبة من ذلك الحب
الذي يخفي غالباً : تحزات الدبابيس وخطوطاً رقيقة انثى . ولا يجب علينا ان
نقول بأن الخطر قد اسرع بتلك التي تجرأت على منازعته المكان الاول ! ولكن
ذلك بأجمعه قد اصبح معروفاً بأنه يخفي خارج الوجود . في حركات هذه المرأة
كثير من الظرف ، وهي تحب الحشرات ، وتعرف كيف تأخذ نفسها حالمًا وهي
تحني رأسها ببطء . والجميع موافقون على دعوتها : « بالمرأة المحبة من جميع وجهات
النظر » .

اما الصديقة التي جاءت لزبارتها ، فانها ليست كثيرة الغنى بمزاياها ؛ فلندعها
نحن ايضاً : « بالمرأة المحبة بكل بساطة » . ان قدوم تلك المرأة قد ايقظ

الكليين الصغيروين اللذين ينأمان معرضين للشمس: أدبل بشعره الطويل، وبوبوري بخطاه السريعة. وقد أسرع كل منهما في الدهليز رافعاً ذيله الى حيث خلصتها المرأة من لجاميهما. وكانت هي في داخل ثوب ذي لون عصري، وعلى عنقها اطوق طويل؛ اما جو الغرفة فكان مفعماً بعبير طيب الياسمين.

وما إن عرفت المرأة المحببة من جميع وجهاً النظر بقدم المرأة المحببة بكل بساطة، حتى هبطت سريعاً لتقذف بنفسها بين ذراعي صديقتها. وتعانقت المرأتان وأخذتا بتصعيد الهناوات الداخلية الحديشة العهد. وأما القبلات فكانت أشد ضجيجاً من الكليين اللذين اخذاً بالنباح من جديد، مما سبب لهما ضربة بالمنديل. ثم ان الصديقتين ذهبتا الى الصالة الزرقاء حيث وجدتا منصدة أهليجية وحواجز مزينة باللبلاب. وجاء على اثرهما الكليان، أدبل بشعره الطويل وبوبوري بخطواته المسرعة.

هتفت سيدة المنزل وهي تدعو صديقتها الى الجلوس فوق الاربكة:

— هنا، ها، في هذه الزاوية الصغيرة؛ اجل هكذا... وهذا المسند.

وكانت وهي تقول ذلك، تضع المسند الذي طرز عليه رسم ضابط مدرج

الانف مربع الشفاه.

— لكم انا سعيدة لانك.. لقد سمعت ضجة العرب فسألت نفسي: من يأتي في

مثل هذا الوقت المبكر؟ وقالت لي بارشا: «ولكنها امرأة نائب الحاكم!»

فأجبتها: أجاأت هذه الحفقاء لتزعجني... سوف لن استقبلها.

وعندما حاولت المرأة ابلاغ صديقتها النبأ العظيم الذي جاء من اجله

خرجت صرخة من المرأة المحببة من جميع وجهاً النظر، أعطت انجهاً مخالفاً

للحديث تمام المخالفة.

— الهندية الحسناء. هتفت بهذه العبارة وهي تنظر الى رداء المرأة البسيطة

المحببة.

— اجل نجمل الى حد كبير! وقد قالت لي براسكو فيا فيدوروفنا بأنها تحب

ان تشاهد التربيعات اصغر قليلاً ... وان تكون التنقيطات زرقاً لا كستنائية ... ولقد عمدت الى إرسال قماش جميل جداً لاختي ... فيه من الجلال مالا يعبر عنه بالكلام ! ... ففي مواجهة قلبي قليلاً .. خطوط صغيرة ... دقيق ، دقيق ... ادق من ان يستحضره الخيال الانساني ... وفي الاسفل لون سماوي وبين الخطوط عيون واذرع ثم عيون واذرع من جديد ! ... انه نسيج وحده ! نستطيع ان نقطع في الحقيقة بأنه لا يوجد ما هو اجمل منه في الدنيا .
- ولكنك يا صديقتي العزيزة جداً لقد زينت كثيراً .

- ابدأ

- اوه ! اؤكد لك ...

يجب ان نعلم بأن المرأة المحببة من جميع وجهات النظر كانت مادية قليلاً ، وكثيرة الاهتمام بالمشاكسة والشك ، وترفض ان تصدق ما يؤمن به الناس . فبعد ان برهنت لها بأنها لاترين لها الكلام في الثوب ابدأ ، هفت المرأة المحببة بكل بساطة :

- آه تهانئي ... لا يوجد فيه خمل ابدأ !

- كيف ؟

- اجل ... والغالب في الاكليل الزهر !

- ولكن الاكليل ليست جميلة !

- الاكليل .. كل شيء اقل جمالاً من الاكليل .. زوار بالاكليل ،

واكليل على الاكمام ، والاكتاف ، وفي الاسفل ، وفي كل مكان .

- اكليل في كل مكان ، ان ذلك ليس بشيء جميل يا صوفيا ايفانوفنا .

- سنرى يا انا غريغورينا ، ولكنه لطيف طريف ! لفتتان ... فتحات

عريضة ... وهذا ما يدهشك اكثر أيضاً ! ... هذا الذي سيجعلك تهتفين اعجاباً

... اتعلمين ان الحصر يصبح اكثر طولاً ... (فالننورة) مشاة على شكل

حلل قديمة .. وتوضع ايضاً وسائد صغيرة محشاة ، وهكذا تصبح المرأة جميلة جداً .

- هذا ، واعترف لك بأنه كثير ...

- انا من رأيك تماماً !

- اقسم لك بأني لم ارتدي هذه الاثواب مطلقاً .

- ولا انا ... ثم انه لا يمكننا ان نعرف الى اي حد سيتجه الطراز !...

وهذا يستدعي اي شيء !... لقد طلبت من اخي طرازاً صحيحة للضحك ...
ولقد بدأت ميلاني بالحياطة ...

فصاحت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر وهي لا تستطيع ان تخفي
ماظهر عليها من اضطراب :

- آه ! هناك طرز في حوزتك اذن ؟

- اجل ، ولقد جلبتها لي شقيقتي .

- اعطينها ... أيا روعي الصغيرة ... استحلفك بأقدس القديسين .

- آه ! ولكني وعدت بهابراسكوفيا فيدوروفنا ... فاذا اخذتها انت
فانك ستلبين هذا الطراز بعدها .

- ولكن من يقتني ثوباً بعد براسكوفيا فيدوروفنا ؟ إنه لغريب من جهتك
ان تؤثري الاغراب .

- ولكنها عمتي .

- عمتك ... من جانب زوجك ! ... لا يا صوفيا اي فانوفنا ، لا اريد ان
امسح شيئاً ... انها اهانة فظيعة منك !... اني ارى بأن صداقتي التي لها وزنها
عندك تريد ان تحطيمها !..

ولم تعد تعرف المسكينة صوفيا اي فانوفنا ما تفعل ؛ فقد أدركت الطريق
الحاطي الذي ورطت نفسها بسلوكه ... لذلك فهي تود لو تقطع لسانها !

وسألت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر بقوة :

- وهذا الولد الجميل ؟

- آه ! ايها المولى القدير ! انا التي أظن هنا ... ان هذا لعجيب ! ولكني

قد جئت لك لأجله . لقد أخطأت المرأة المحببة بكل بساطة بأضاعه نفسها تحت
مد الكلمات التي تورطت فيها عندما بكرت بقول كل شيء !

— انك تستطيعين ان ترتلي مدائح ذلك الرجل ، وان ترتقي به الى السحاب ؛
ولكني اقول لك بأنه قدر ، قدر ، قدر !

— لتسمعي اذن ما سأقصه عليك .

— لقد عدوه رجلاً عظيم الجمال !... أهو رجل جميل ؟... ان له انفاً ...
انفاً متقلباً قوياً !

— ولكن اسمحي لي ان اقص عليك ... يا آنا كريكوريفنا ، يا روجي
الصغيرة ، اسمحي ان اقول لك ... انها قصة ، تفهميني ... قصة ... ما يسمى بقصة .

وتلفظت صوفيا ايفانوفنا هذه الكلمات بالفرنسية بلهجة حزينة متوسلة .

وليس من الصعب ان نلاحظ ان المرأتين قد خلطتا مجادلتها بكثير من
التعابير الاجنبية وبعبارات فرنسية طويلة ايضاً . وبما ان الكاتب مليء اعجاباً
بالفرنسية التي استدعت لانقاذ شقيقتها الروسية ، ومليء باجلال اعضاء المجتمع
الراقي ، هذا المجتمع الذي يتكلم افراده في جميع الساعات اليومية بالفرنسية حباً
بوطنهم ، فان الكاتب قد فضل ان يستعمل عبارة اجنبية واحدة فحسب ، في
تلك القصيدة الروسية . واذن فلنتابع بالروسية .
.. ولكن اي قصة .

— آه ، يا عزيزتي ! لو انك تتصورين في اي طريق وجدت نفسي هذا الصباح ،
لقد جاءت زوجة الاب سيويل ... وماذا تظنين ؟ ان رجلنا هادى جداً ،
اقصد مسافرنا ... من هو ؟

— ماذا ! اقام بدور زوجة الاب سيويل .

— دور !... ليس هذا بشيء ، يا آنا كريكوريفنا ، اسمعي ما قالته
لي !... ان الملائكة كوروبتشكا قد جاءت اليها ، خائفة مصفارة الوجه كالتموتى ...
وسردت ... سردت ... لا ولكن اسمحي ... قصة حقيقية !... لقد فعل

ذلك بقسوة ، في ليلة مظلمة بعدما نام الجميع عندها طرق الباب طرقة خفيفة
ثم خرجت صرخات تقول : « افتحي ، افتحي ... او يكسر الباب !... »
ماذا تقولين ؟ وماذا تظنين في هذا السيد الجميل ؟

— وهذه الكوروبتشكا ؟... أهى صغيرة ، جميلة ؟

— انها امرأة عجوز .

— لطيف ! .. فهو يركض اذن خلف العجائز !... انى اهنى سيداتنا ،
لقد عرفن من يعشقن .

— ولكن ، لا يا آنا كريكوريفنا ، انك لست كذلك ! انظري اليه

لقد اصبح جندياً من قمة رأسه الى اخمص قدميه ... من جنس رينالدو رينالديني ...

ومنسق : « بيعيني جميع ممتلكين من النفوس الميتة ! » فاجابته كوروبتشكا

متفكرة : « لا استطيع بيعها لانها ميتة » — لا انها ليست بميتة ... وهذا

يمكنني من معرفة ما اذا كانت ميتة ام لا ! » . ثم صرخ : « انها ليست بميتة ...

ليست بميتة ، ليست بميتة ! » وقصارى القول انه اثار فضيحة . فتراكض جميع

اهل القرية ، وبكى الاطفال ، ولم يفهم اى شخص شيئاً ما ... فساد الهول

والاضطراب بكل بساطة !... ولكنك لاتستطيعين ان تتصورى هلعي وانا

اسمع هذا الحديث . وقد قال لي ماشكالي : « سيدتي العزيزة ، انظري انك

مصفرة » . ولم يكن في نظرتي اى حزن ... فقلت : سأسرع ركضاً الى آنا

كريكوريفنا . وهكذا اسرعت ... وقد سألتى الحوذي : اين الذهاب ؟ فلم

اعرف بماذا اجيب ، واخذت انظر اليه وكأنه مجنون ... وقد ظن حتما انى

فقدت صوابي ! آه !... اليس لديك اية فكرة عن اضطرابي ورجفاني ؟

فهتفت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :

— ان هذا نسيج وحده ! ثم ماذا تعني تلك النفوس الميتة ! اصارحك بانى

لم افهم شيئاً ، وتلك هي المرة الثانية التى اسمع فيها عن تلك النفوس الميتة . وقد

اكذب لي زوجي ان نوزدويف قد كذب !.. ولكن هناك بعض الحق

الى جانبه حتما .

- ولكن راقبي سلوكي وانا اسمع هذه القصة . ثم ان كوروبتشكا قالت :
« وانا الان لا ادري ما افعل ، انه يضيق علي كي أمهر له ورقة غير صحيحة ،
وقد اعطاني خمسة عشر روبلاً ثمناً لكل رأس .. واني امرأة متوملة تنقصها
التجارب والدعامات ! » اجل هذا ماجري ! رباه ، لكم يقلقني هذا !
- على رسلك ، كما تشاؤن .. ولكن هذه النفوس الميتة تخفي وراءها
شيئاً ما .

- اجل ، اني اعترف لك بهذا . قالت هذا المرأة المحببة بكل بساطة .
ولكي تعرف الى اي حد ولكن سيحتفظ هذا الحديث بسريته سألت :
ولكن باذا تفكرين ؟
- وانت ؟

- انا ... سأضيع كلية .
- اريد ان اعرف تماماً جميع اقتراحاتك .
ولم تجد المرأة المحببة بكل بساطة لديها ما تقوله . ولذا تأثرت بسهولة .
ولكنها وجدت نفسها لا تصلح لتأليف اقل فكرة ، لقد كانت دون هذه
المقدرة ، وهي تحتاج اكثر من غيرها الى النصائح والصدقات .
قالت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :
- اذن استمعني الي ، ان النفوس الميتة ...
- وصديقتي ، كلها عيون وآذان ، وهي بالرغم من انها ثقيلة نوعاً ما ، فقد
بدت أخف ، حتى انها لتشبه ريش الطائر تقذف به اقل نفخة . او هي تشبه
صياداً روسياً عندما يصيب الحيوان بالرغم من العاصفة التي تبيض عينه وشاربيه
وحاجبيه بأغشية رقيقة من الجليد .

قالت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :
- ان النفوس الميتة ...
فهمت صديقتها :
- حسناً ؟ ماذا ؟

- ان النفوس الميتة ...

- قولي ... بحق السماء !

- انها تخفي .. الحقيقة .. وهي .. ان تششيكوف يريد ان يخطف ابنة الحاكم .

كانت هذه الحادثة غير متوقعة بالاضافة الى انها جنونية من جميع وجهاً النظر . وبدأ أن المرأة المحببة بكل بساطة قد تحجرت ، فشحب وجهها ، وارتعدت من الخوف ووضحت بيضاء كالاموات .

- يا الهي ! .. ليس في مقدوري ان أظن !

- اعترف لك بانه منذ ان تكلمت .. تنبأت بكل شيء !

- يا لسلامة النية ! لسمك ارتفع ضغطها .

- سلامة النية ! لقد سمعتها .. انها قالت اشياء لا اكاد اجد المرأة الكافية في نفسي لأقولها .

- يا آنا كريكوريفيا . . ان القلب ليمزق حسرة عندما تفكر في جميع

هذه الاخلاقيات .

- ان جميع الرجال مجنونون بها .. واعترف لك بانني لم افهم بعدما ذا تملك

هذه الشابة .

- انها متصنعة ، وهذا لا يطاق .

- انها تشبه الرخام .. وليس في وجهها اي حيوية .

- أنها متصنعة .. متصنعة .. متصنعة ! ولا اعلم بمن استقت كل

هذا التصنع .

- وهي الى جانب ذلك بيضاء كالتمثال ، كالمتوتى .

- لا يا صوفيا ايفانوفنا ، لا تقولي ذلك .. انها تضع الحجرة .. . بوقاحة .

ما بعدها وقاحة .

- ولكن لا .. يا آنا كريكوريفنا .. انها بيضاء ، بيضاء كقطعة الحوار .
- ولكني يا عزيزتي قد جلست بقربها في احد الابام .. فشاهدت الحمرة التي
تضعها .. انها في ثخانة الاصبع .. تنساقط منها كقطع الجص الدقيقة .. وكل ذلك
ذلك من تربية امها .. ان البنت تصبح ايضاً اكثر اعتناء بهندامها من الأم !
- اسمحي لي .. اني على استعداد للمخاطرة ، لاي مخاطرة ، اني على استعداد
لتضييع اطفالي ، وزوجي ، وارزائي .

فهمت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر وهي تضرب كفاً بكف :
- ماذا تقولين اذن ، يا صوفيا ايفانوفنا ؟

فاجابت المرأة المحببة بكل بساطة وهي تضرب بيديها ايضاً :
- انك لغريبة ، يا آنا كريكوريفنا .. اني انظر اليك و... انت تدهشيني .
مثل هذه المحادثة يجدها القارىء طبيعية جداً بين صديقتين اذا كان الموضوع
التقاء انسانيتين في نفس اللحظة . وان كثيراً من الاشياء لتبدو بيضاء صافية لتلك
السيدة التي ظهرت بلون القرمز امام صديتها .
وتابعت المرأة المحبة بكل بساطة :

- ان البرهان باهت جداً ... اذكرك .. بانني جلست قريبة من مانيلوف
وقلت له : انظر اليها ، كم هي صفراء !

- يجب على ازواجنا ان يكونوا بليدين كي يغمى عليهم امامها ، وفيما يخص
رجلنا الجميل ... انك لا تستطيعين التصور ، يا آنا كريكوريفنا ...
لكم يلذ لي .

- ان الكثيرات يتعلقن به .

- طبعاً لست من هؤلاء .. يا آنا كريكوريفنا .. انك لا تستطيعين
ان تقولي ذلك .

- اني لا اتكلم عنك .. فأنت لست الوحيدة في الميدان .

— ابدأ ، ابدأ ، يا آنا كريكوريفنا ! اسمحي لي ان ألفت نظرك الى اني
لا اعرف تماماً .. هناك اخريات كثيرات بعيدات المنال .
— اسمحي لي ، يا صوفيا ! فاناوفنا .. اني لا اقوم بمثل هذا الفنج ابدأ ..
لعل الآخريات يفعلن ذلك ، اما انا فلا !

— ولم الغضب ؟ .. ان النساء الآخريات يكن في المرقص .. اولئك اللواتي
كن يتسارعن نحو الابواب مثلاً لاحتلال المقاعد .
وهذا الكلام الاخير الذي ادلت به المرأة المحببة بكل بساطة ، كانت من
شأنه ان يحرك العاصفة .. ولكن الصديقتين سكتتا . وتذكرت المرأة المحببة
من جميع وجهاً النظر بانها لم تنل بعد بغيتها من طراز الثوب التي طمعت فيه ،
في حين ان المرأة المحببة بكل بساطة كانت تتوق الى تفصيلات اخرى حول
موضوع اختطاف ابنة الحاكم . ولذا فان العاصفة التي هبت سريعاً واستفحلت
ما عتمت ان خبت وهمدت . اما في المواقف الاخرى فان هاتين السيدتين
كانتا عاجزتين تماماً عن التعرض للسوء والتصرف الوقح . ولكن ، في المجادلة ،
كانت كل واحدة منهما لا تقوى على مقاومة لذة القذع والقذح : « فقد كانتا
تقولان مثلاً لبعضهما : اليك . التقطي .. خذي وابتلعي واحلق ان لقلوب
النساء والرجال حاجات كثيرة .

قالت المرأة المحببة بكل بساطة :

— لم استطع بعد ان افهم ، كيف ان تشتشيكوف ، هذا المسافر البسيط ،
يتجرأ على مثل هذه الضربة ! ثم أليس له شركاء ؟
— أوه ! أتستطيعين افتراض ذلك ؟
— ولكن من يعينه ؟
— اعتقدي ان نوزدويف ! ..
— نوزدويف ! .. حقاً ! ..

— انه لجدير بذلك ... لقد اراد ان يبيع أباه ... انه اللعب بالورق .

— يا آلهي ! ... يا لها من احاديث جديدة هامة ترفينها الي ... اني لم افترض

قط ان نوزدويف يمكن ان يختلط في هذه القصة .

— ان هذه الفكرة قد جاءتني بصورة طبيعية .

— الا يجب ان تكون في العالم ؟ .. انظري ، انتمكن من الاعتقاد

بكل هذا عندما يصل تشتشيكوف ... آه ! لكم ارتجفت ، يا آنا كريكوريفنا !

... فاذا لم احظ بصدافتك ! ولطفك ... فاني تأهة . وقد راقبت ماشكا

اصفراري ، فقالت : ولكنك بيضاء كالاموات - انها تتصرف احسن من

هذا يا آلهي ... ونوزدويف ايضاً ... اني اكاد اجن !

وارادت المرأة المحببة بكل بساطة ان تعرف حقائق اعمق عن الحادث ساعة

وقوعه ، مكان وقوعه ، ولكنها اشتطت في بحثها ، فاعلنت المرأة المحببة من جميع وجهات

النظر انها تجهل كل شيء . فهي لا تعرف الكذب ولا تسمع - وهذا غريب

جداً - ان تستبدل عقيدة تعتنقها بأي ثمن .

اما الاختطاف الذي لم يكن بالنسبة الى الصديقتين بادیء الامر الا مجرد

فرضية ، فانه سرعان ما اصبح حقيقة . وقد مار الرجال الاذكياء ، كما يقولون

عن انفسهم ، بنفس هذا الاتجاه . ويمكن الاعتراف حتى بهذا بالنسبة لاعمق دروس

علمائنا . وكان يبدأ هؤلاء ، بكل لطف ، بالاسئلة اللبقة وهم في تمام هدوئهم :

« أليس السبب الاصلي هكذا ؟ واسم هذه البلاد أليست من هذه الرقعة من

العالم ؟ وثم ، هذه الحجب الا تدل على عهود اخرى سحيقة في القدم ؟ واخيراً

هذا الاسم الدال على شعب بالذات ، ألم يكن اسماً لأمة اخرى ؟ » واخذوا

بتعداد اسماء الكتاب القدماء لعلهم يجدون بينهم بادرة تؤيد فرضيتهم ، وقد تجرأوا

الان فتسكلموا عن الكتاب الراحلين ، ينقبون بينهم ويحييون عنهم ، ناسين الباقية التي

كانت مبدأ فرضيتهم الاولى . لقد ظهر كل شيء لهم واضحاً كما قالوا : « لقد

ثبت الامر ، هذا هو اسم الشعب الذي نرغب ، وهكذا يجب ان تحل

المسائل ! » . سقطت هذه الكلمات من على المنبر ، ودوخت تلك الحقيقة الجديدة العالم ، وقهرت كثيراً من المتعصبين والمتحمسين الامناء .

وبينا كانت الصديقتان مشغولتين بحل تلك المسألة الصعبة اللادة ، دخل الوكيل غرفة الاستقبال . وفي الحال ، وضعته المراتان في معرض الفكرة الجديدة ، وأعلمته بقصة النفوس الميتة . فأخذ يعض عنبه اليسرى وينظف لحيته الملوثة بالتبغ بمنديله ، ولكنه لم يفهم حرفاً مما تحدثت به المراتان . فتركناه وخرجنا للتجوال في أنحاء المدينة الصغيرة . لقد تم لهما ما اراداه ، ولسنا بحاجة لأكثر من نصف ساعة حتى يحتاج الشعب ويشور ، ولكن ما من إنسان أكثر للقصّة . انهما ستقهران العالم اجمع ، وعلى الخصوص هؤلاء الموظفين الذين يحبون متبلدين وقد بدت حالهم كتمليذ حلم اثناء نومه ان رفاقه قد غرقوا في البحر جندياً ، او كورقة تتطاير في الفضاء وقد ملئت تبغاً . وقد شعر هذا التلميذ في نومه بكل ما يخالج نفس الغريق ، فما إن استيقظ حتى اخذ يقفز حول نفسه ، ولا يشعر الا بريح زمهرير باردة ، فأجبر نفسه على فهم ما يجري حوله . ثم شاهد بعد ذلك أشعة الشمس تتراقص على الجدران ، وسمع قهقهات رفاقه الخنثيين في الزوايا ، كما شاهد من خلال نافذته الفجر حالت انبثاقه ، والغابة تستيقظ على حذاء العصافير ، والجدول السلسبيل وقد ملئ بالساجين . ثم لاحظ أخيراً ان الجندي الغريق يمنعه من التنفس ! تلك هي الحالة الاولى التي كان يعانيها السكان والموظفون في مدينة (ن) . . . بادى الامر . ولكنهم يشبهون ايضاً حالة الحراف وهي تثب دون أن تعلم ماذا تريد أن تفعل . النفوس الميتة ، هذه الفكرة العجيبة قد اختلطت بآونة الحاكم حتى لم يعد التمييز بينهما سهلاً .

لقد هذا بعد ان تملكهم الحيرة وأغلقت مجرى تكبيرهم فأخذوا يعدون الامر عدته حاقدين لانهم لم يروا اي شرح عقلي لكل هذا . اي شيء هذه النفوس الميتة ؟ اي شيء هي ؟ ! ... اي منطق تحمله تلك النفوس الميتة ؟ ! ... وكيف يمكن شراء نفوس ميتة ، بل أية حماقة هذه ؟ واي ثمن باهظ يدفع ، ولاي شيء

تصلح تلك النفوس؟... وابنة الحاكم ، ماذا ستفعل إذا هذا الحادث الغريب؟ وهو ، إن كان يريد شراء نفوس ميتة فلماذا يحاول خطف ابنة الحاكم ؟ أريد أن يقدم لها هذه النفوس كهدية ؟ وهذه المدينة ، أية سخافة تجري فيها؟ واخيراً ، ما سبب هذه النفوس الميتة؟... انه لا سبب لها !... ان هذا شيء بسيط!... سورينت ايتها الحكماء... ليأخذك الشيطان !

انظروا هوذا المدينة بقضها وقضيضها تثرثر بهذه النفوس الميتة وابنة الحاكم وتشتشيكوف ، وهكذا... وهكذا ابدأ... تمر العواصف بهذه المدينة الصغيرة الراقدة دوماً... ولقد خرج الرجال العاقلون من أفصاهم . والآن ، هاهي الاحلام تدور حول هذه المخلوقات التي قضت حياتها داخل أثواب النوم ، الصارخات في وجه صانعي الاحذية والخدم والسكران والحياطين الذين يتأخرون دوماً عن مواعيدهم . وهكذا أيضاً تدور الاحلام حول هؤلاء الذين قضوا صلاتهم مع العالم ، فلا يعاشرون الا الزغافاليشيين والبوليجافيين والسوبيكوفيين والترايوفينتسكيين . ويشاهد اخيراً ، من جديد ، هؤلاء الناس الذين حاربتهم الروسيا بجمع قواها ، لا يتمكنون ان يخرجوا من انفسهم . لقد ظهرت مدينة (ن) فجأة ، مدينة كبيرة تغص بالشبان ، حتى اكانها مدينة واسعة الارحاء . وشوهد سيدسوا بافنو تيفتش ، وماكدونالد كارلوفيتش الذي لا يعرفه انسان ، وهو مجهول اجتاز الصالونات ، بجروح في ذراعه ، ذو قامة طويلة . وامتلات الشوارع بالعربات والمسافرين الغرباء الزري والمحافل العجيبة الشكل . ولكن كل هذا الضجيج كان لا يجذب انتباه اي انسان في مناسبة اخرى او برهة ثانية . الا ان مدينة (ن . ن) كانت منذ زمن طويل و كأنها قطعت عن العالم ، حتى ظهر في هذه المدينة منذ ثلاثة شهور وبدون حدوث أية ضجة ، جماعة ثرثارون لا بد من وجودهم في مدينة احوج ما تحتاج اليه هو الاحياء . وانقسمت المدينة قسمين ، وتنازعها رايان : الاول يؤلفه جماعة الرجال ، والثاني يؤلفه النساء . فأما القسم الاول ، وهو الاكثر حماقة ، فانه لم يكتوثر

• الا بالنفوس الميتة . واما القسم الثاني ، فانه لم يتم الا باختطاف ابنة الحاكم .
ويجب ان نعترف هنا بان النساء قد ظهرت بمظهر النظام والاحترار ، وهؤلاء
يعرفن بطبيعة الحال ، كيف كيف تكون ربات البيوت ، وكيف يمكن
ترتيب المنازل وتنظيمها . كان كل شيء بالنسبة لهن واضحاً وثيناً كأننا وضع في
رواية محكمة العقدة مترابطة الحيوط . ويجب هنا ان نعرف بان تستشيكوف
كان مغرمًا منذ مدة طويلة . وقد شوهد مع ابنة الحاكم في حديقة تحت اشعة
القمر ، ولكن الحاكم كان بلا ريب يريد ان يزوج ابنته من ثري كبير ،
يهودي مثلاً . ولكن ... ولكن تستشيكوف كان قد طلق امرأته (ولم يعلم
احد انه كان متزوجاً) . وقد كتبت امرأته هذه رسالة مؤثرة الى الحاكم فقرر
تستشيكوف ان يختطف الفتاة قبل ان يعلم بذلك احد .

ان التاريخ ليروي هذه الاشياء محرفة . ان تشتشيكوف لم يكن متزوجاً ، ولكنه من الرجال الذين لا يصلحون لشيء . وكانت تربطه علاقات مع امرأة الحاكم ثم طلب بعد ذلك يد ابنتها . ولم ترد الام ان توقع جريمة ، فرفضته رفضاً قاطعاً تحت وخز ضميرها . ولذا صمم تشتشيكوف على عملية الخطف . لقد روى بعضهم هذه الحادثة على هذا الشكل ، الا ان البعض الآخر رواها بشكل مخالف . وعلى اية حال فان هذه الحادثة قد اذيعت في احياء المدينة بالطول وبالعرض . ان العامة تريد دوماً ان تتغذى بغذاء الخاصة . ولقد كان الحديث عن تشتشيكوف يدور في بيوت لم يشاهد فيها قط . ولكن ، كما هو الحال دوماً عند اشاعة الاخبار ، فقد اضيفت الى الحادثة زيادات وتعليقات وتحشيات ، فازداد انتشار الخبر ساعة بعد ساعة حتى وصل الى اذن امرأة الحاكم . وبما انها ربة امرة عظيمة ، ويشار اليها بالبنان في المدينة ، فقد اغتاضت كثيراً . واشتأزت من العمل . ولم يقتصر الخبر على الام فحسب ، بل تعدى ذلك الى ابنتها المسكينة التي لم تكن باحسن حال من والدتها . وقد لاقى هذا الخبر ، بطبيعة الحال ، سلا من الاسئلة والتهديدات والنصائح وغير ذلك

ما يروج عند انتشار الشائعات . ولم تفهم الفتاة المسكينة اي شيء من هذا لانها كانت غريقة دموعها .

وبعد انتهاء كل شيء ، اوضحت النساء بصف الرجال بعد ان افحموهن بصحة نظرتهن . ولكن النفوس الميتة ليست الا مجرد اساعة وأهية لابعاد كل شبهة عن تحقيق الحطف . وقد رضى بعض الرجال لهذا الرأي وانضموا الى فئة النساء رغم التنبيهات العديدة والتحديات الكثيرة من بقية الرجال الذين وصوهم بالتخنث لانضمامهم لفئة النساء .

ولكن فئة الرجال لم تحظ بالنظام والاتقان الذي تحلت به الفئة المقابلة ، بالرغم من المساعي والجهود التي بذلوها . كان كل شيء عندهم مشعناً غليظاً قبيحاً ، تعوزه الادارة الحسنة . وبقيت افكارهم حائرة ، مرتبكة ، متناقضة . فأخذ الفراغ يخنقهم لطبيعتهم العاجزة عن كل تنظيم ، وكل معرفة بالهدف ، وامتلئوا بالخوف والشك . ولذا استنتجوا أن هذه الاساعة إن هي الا اضحوة ومهزلة ، وان اختطاف ابنة الحاكم انما هو من شأن رجل عسكري ، ليس من العامة . فقتشيكوف لن يستطيع القيام بامر من هذا النوع . واخذ النساء يكذبن مرددات : هذه فئة من الفاجرات ، وتلك تشبه الدرافيل ، ثم اخذن ينقلن ما يسمعن مع الاضافة والتشويه . ولكن الشيء الهام الذي يجب تركيز الاهتمام عليه ، انما هو عن تلك النفوس الميتة . ولكن في اي مكان تخفي تلك النفوس ؟ . ان الشيطان وحده يعلم بذلك .! يجب الحصول اذن على قصة اسوأ من هذا او اكثر اذية .! ترى لماذا يعتقد الرجال ان الاسرار الخفية انما هي خاطئة ؟ والآن لقد قدم حاكم آخر ليحكم المقاطعة ، وهذا ما جعل الرعب يسيطر على قلوب الموظفين . ان هذه التولية الجديدة انما تعني ، في واقع الامر ، بحثاً وتمحيصات وتحقيقات ومحاسبات ومراجعات . ثم ان الرئيس الجديد لا بد له من ان يستدعيهم .

وقال الموظفون التعساء :

- واذا علم الحاكم الجديد بهذه الخبيثة المنتشرة في مدينتنا... ان ذلك سيكون بلا ريب سبباً في حياتنا او في موتنا جميعاً .

وسقط مدير الصحة مريضاً في فراشه ، ذلك انه اعتقد ان النفوس الميتة تعني ، بكل بساطة ، جميع المرضى الذي ماتوا في المشافي بعد مرض معد ، دون ان يؤخذ لهذا المرض اي تدبير من قبل السلطات . وبالنسبة اليه ، كان تشيشيكوف رسولاً من قبل الحاكم العام ليفتح تحقيقاً في هذا الموضوع . ولذلك فقد اسرع مدير الصحة الى الحاكم ليخبره بخاوفه وهو اجسه . وقد رد عليه الحاكم بان فكرته هذه لا يقوم عليها دليل ، ومن ثم عراه الاصفرار وسأله :

- أمانت نفوس تشيشيكوف حقاً ؟ فهو يملك الثمن اذن ؟ ثم ما ادراك اذا لم يكن الحاكم العام الجريد قد قبض الثمن ؟ وركض الحاكم بدوره ليبث مخاوفه الى اصدقائه . فاصفر الجميع وشملهم الخوف بسرعة اكثر من سرعة انتشار الطاعون .

واخذ يتساءل جميع من في المدينة : اية غلظة هذه ؟ ان النفوس الميتة لتأخذ معنى لم يفكر به احد من قبل . ولقد دفنت جميع هذه الاخبار عندما انتشر حديثان جديدان هما المدينة هزاً عنيفاً . وكان اولهما يدور حول تجار من سولفيد تشيكود جاءوا الى مدينة (ن ...) اثناء السوق السنوية ، فدعوا الى وليمة غداء عند اصدقائهم الاوستيسولسكيين . وكان عصر اللوز والليمون واشياء اخرى كثيرة ، من حلويات هذه الوليمة . وقد انتهى الغداء حسب العادة بدعوة الى ألعاب المصارعة . وقد تغلب السولفيد تشيكوديون على زملائهم تغلباً ميبناً . وكانت النتيجة ان تلقى احد المنتصرين ضربة من جمع يد قوية على انفه حطمته وهدت كيانه .

وانتهى الامر بأن اعترف المنتصرون بخطئهم وطلبوا الصفح على أساس ان ما جرى كان من قبيل المزاح فقط . وهكذا عم الضجيج في كل مكان عندما ترك المنتصرون اخصامهم واعطوهم بعض القطع النقدية . لقد ظل كل شيء غريباً وانتهى الامر على ان الاوستيسولسكيين قد هزموا شر هزيمة .

واما الحادثة الثانية فقد جرت قبل ذلك . كان فلاحوا قرية فيشيفا ياسيس قد تعاقدوا مع الموجيك وهم في منطقة بوروفكا - زاديروفا على استبدال الشرطي بانسان آخر يدعى دروباجكين لينوب عنه . وقد زار هذا الشرطي اولى نعمته زيارة ودية ، كان داعيها ان رجل الامن هذا ، كان قد يكشف عن سر رجل حقير ينصب الاشرار للنساء والفتيات . ولم يستطع احد ان يكتم التحقير الذي يستحقه هذا الرجل الشرير ، ولكن الموجيك اكدوا ان الشرطي قد اظهر عدوه بمظهر الهر رغم تبينهم له على ذلك اكثر من مرة . وقد وقع الشرطي يوماً في احد الاشرار ، وهذا ما يستحق . ولكنه لم يعذر الموجيك على عدم انقاذهم له ، وهكذا وجد المسكين ميتاً على الطريق وقد تمزقت ثيابه ولم يعرف احد لون وجهه شكله . ففتح القاضي تحقيقاً واسعاً ، ولكن المجرم ما زال مجهولاً . وبما ان الموجيك كانوا حاضرين باجمعهم ؛ فقد كانوا بحاجة الى رأى جازم نهائي ! وهكذا قالوا جميعهم : ان الشرطي هو وحده المجرم ، لانه لم ينقطع عن انزال المظالم بالناس الآمنين ، وقد مات في مكان ناء بالسكتة القلبية .

ان هذا العمل اشبه شيء بالحطة المرسومة ، وقد اتخذ الموظفون الآت بالتساؤل : لماذا تكون النفوس الميتة من الرجال المقضي عليهم في مثل هذه المناسبات ؟ وقد جاء الى الحاكم من جديد دليلان في وقت واحد فدعر جميع الموظفين . قال الاول للحاكم : انه بحسب بعض التقارير تبين ان ضارب النقود الذي يصنع المناجل كان موجوداً في حكومته . وقد تجول داخل المدينة تحت اسماء مختلفة ، فأصدرت الاوامر حالا للبحث عنه . واما الدليل الثاني فقد نقل تقرير حاكم المقاطعة المجاورة بتوقيف من لا يحمل جواز سفره . وقد اخافت هذه الاشياء مدينة (ن) وذهبت جميع الفرضيات والحلول السابقة ادراج الرياح ، ولم يدر اي سؤال حول تششيكوف . وقد اخذ الجميع الآن يقولون ان الامر يتعلق بماضي بافل ايفانوفتش . فهو قد ذكر بنفسه ، مرتبكا ، من اين

جاء ، وقد قص آلامه الناتجة عن تتبعه الحقيقة بغموض ما بعده غموض . كما اعترف بالأعمال الشريرة التي حاكها له أعداؤه العديدون اثناء حياته السالفة . كما ذكر ان حياته في خطر ، وانه مراقب دوماً ! ولكن لماذا ؟

من هو تششيكوف ؟ انه لا يصنع المناجل ولا يشابه اللصوص ، فمن يكون اذن ؟ ان جميع الموظفين يضعون هذا السؤال منذ المقطع الاول من قصتي هذه ! يجب ان يستفهم هؤلاء الذين اشتري منهم النفوس الميتة ، ترى ماذا يعني الشراء ؟ وماذا تعني النفوس ؟ ان بافل ايفانوفتش قد اعترف بقصده المكتوم فتحدث عن نفسه شخصياً مع كثير من الاشخاص المختلفين .

ذهب الموظفون بادى الامر الى كوروبتشكا ، ولكن المعلومات كانت معدومة تقريباً . فتتششيكوف قد اشتري نفوساً واشتري ايضاً ريش طيور بخمسة عشر روبلاً وكان يشتري اشياء كثيرة بلاريب . انه يشبه رجلاً آخر يشتري ريش الطيور ، عرف كيف يخدعها ، ويخدع زوجة الكاهن باكثر من مائة روبل . وقد رددت كوربتشكا هذه الاحاديث عدة مرات فتتحقق لدى جميع الموظفين انها بلهاء . اما مانيلوف فقد اقسم انه يأخذ تششيكوف على مسؤوليته وانه ليضحي بجميع املاكه ليملك فقط جزءاً من مائة من مزايا بافل ايفانوفتش . والخلاصة ان تحدث مادحاً واذاف الى حديثه بعض تأملات عميقة عن الصداقة صحبها بغمزات رشيقة من عينه . وقد دلت هذه الاحاديث على رقة قلب مانيلوف ولكتها لم توضح للموظفين اي شيء يحل المسألة .

اما سوبا كيفتش فقد اكد ان تششيكوف رجل شريف وانه باعه احسن عبيده وكلهم احياء ولكنه لا يريد ان يتنبأ بالمستقبل ، فالفلاحون قد يموتون بعد السفر بسبب التعب وهو ليس مسؤولاً عن ذلك لان هذا تابع لارادة الله فالجُميات والامراض القاتلة تملأ العالم وهناك قرى بكاملها قد ذهبت الاوبئة بها . فلجأ الموظفون عند ذلك الى طريقة يعوزها الشرف ولكنها يمكن ان تحقق لهم فائدة ، الا وهي استجواب خدمي تششيكوف بواسطة خدم المدينة . وقد

سألوهما عن تفاصيل حياة سيدهم الماضية ولكنهم لم يفيدوا من ذلك شيئاً لأنهم لم يفهموا من بتروشكا اي شيء . واما سيفان فقد قال ان تشتشيكوف قد شغل اول أمره منصباً في الدولة ثم عمل بعض الوقت في الجمارك . ان مثل هذه النوع من البشر طبيعة غريبة . فاذا ما ألفت عليهم سؤالاً صريحاً مباشراً ، لا يذكرون لك شيئاً ، ولا تكون لديهم اقل فكرة . وما إن تنتقل الى موضوع آخر حتى يتحدثون معك عن أشياء كثيرة مفصلة حتى لتصبح راغباً باسكاتهم فقط . وهكذا أدت تحقيقات الموظفين الى زيادة تأكدهم بانهم لا يعرفون اي شيء عن تشتشيكوف . ومع ذلك فان تشتشيكوف يجب ان يكون شخصاً ما ؛ قد أتى من جهة معينة . فقرروا عقد اجتماع ليتدارسوا المسألة ويفحصوا التدابير التي يجب ان يتبعوها ؛ وان يبحثوا عما اذا كان بإمكانهم اعتقال بافل ايفانوفتش كمشبوه ، او عما اذا كان بإمكانه ان يلقي بهم في السجن باجمعهم . وقد تقرر ان يكون مكان الاجتماع منزل مدير البوليس الذي كان يعتبر كما نعرف اباً أو محسناً لمدينة (ن . .) .

الفصل العاشر

لاحظ الموظفون الذين اجتمعوا عند والد المدينة البار كم هزلت اجسادهم من الهم . فقد ارهقهم تعيين حاكم جديد للمدينة ، كما ارهقهم الوثيقات والشائعات التي انتشرت في كل مكان ، الى اصبحت فيه وجوههم شاحبة ومعاطفهم اكثر عرضاً .

أما رئيس المحكمة فقد نخل ايضاً مثل صديقه مفتش الشؤون الصحية ، وأما المدعي العام فقد أصبح مثل انسان يدعي سيميون ايفانوفتش لم يناده احد باسم أسرته . وكان هذا يحمل في سبابته خاتماً تعرفه سيدات المدينة معرفة جيدة ، لقد نخل هذا الرجل ايضاً واصبحت سبابته بالتالي نجيلة ... وبطبيعة الحال كان يوجد في المدينة بعض الشجعان الذين ظلوا محافظين على رباطة جأشهم ، ولكنهم كانوا جد قليلين ، وكان من بينهم مدير البريد الذي لم يتعكر مزاجه بل كان لا يني عن القول : « اني اعرفكم جيداً ايها الحكام العامون ، فانكم تبدلوا اما كن وظائفكم ثلاث او اربع مرات ، واما انا فما زلت هنا منذ ثلاثين عاماً » وكان الآخرون يجيبون : « حسنا ايها العزيز ايفان اندريفتش ، انك

في مركز حسن ، لم تتلقى رسائل او ترسلها ، فانك تستطيع ان تغلق مكاتبك ساعة قبل انتهاء الدوام ، كما تستطيع ان تؤخر رسالة لتاجر ، او ترتكب خطيئة ، وهكذا فانت تبدو في مركزك دوماً قوياً ، ولكن ماذا تفعل لو كانت الى جانبك الشيطان بعينه ابدأ ؟ »

لكم هو مزيج حقاً قبول ما سبق ان رفضته ، او ارضاء هذا والابتسام لذلك .

بهذا كان الموظفون يفكرون فيما بينهم . . وبالطبع لا يمكن مقاومة الشيطان وهكذا اجتمعوا عند مدير البوليس ، ولكن كان عند بعضهم ما تسميه العامة بالتفكير السليم . نحن الروس ، لم نخلق لاجتماعات من هذا النوع ، انك تستطيع ان تجد في اجتماعات العلماء واجتماعات الفلاحين رئيساً ، ولكن النتيجة ستكون الفوضى والبلبلة . واما السبب في ذلك فانه من الصعب معرفته ، إذ لسنا نصلح للمآدب والحفلات والنوادي ، ولكن هذا لا يمنعنا من المبادأة إطلاقاً ، فكل ربح تدفعنا الى تأسيس جمعيات خيرية او غير ذلك ، يكون الهدف منها جيداً ، واما القوة التنفيذية فمعروفة . وفي بادىء الامر نرضى عن انفسنا حتى ليخيل اليك ان العمل قد انتهى . فعندما تؤسس جمعية لاغاثة الفلاحين وتدفع اشتراكات كبيرة فاننا اول ما نبدأ به هو الاحتفال بالامر ، ويكون ذلك باحياء حفلة ندعو اليها جميع شخصيات المدينة فننفق بهذا نصف ما جمعناه ، ثم نستأجر للإدارة شقة فخمة ، ونستأجر لهذه الشقة خدماً ، ثم . . ثم يكون الباقي خمسة روبلات ونصف الروبل فقط ، لتوزع على الفقراء ، ومع ذلك فما من احد عرف كيف توزع هذه الروبلات المسكينة ، فيبدي كل رأيه في الموضوع . اما اجتماع موظفي مدينة (ن . .) فقد كان من نوع آخر ، لم يكن الامر هنا متعلقاً بالفقراء او الاغراب . بل كان كل من هؤلاء السادة المجتمعين مهتماً بصورة شخصية ومباشرة بالقرار الذي سيتخذ . كان هناك اذن خطر

واحد يهدد الجميع ، ولذا يجب ان يكون الاتفاق تاماً . ومع ذلك فقد كانت الحالة سيئة ؛ ففقدان التوجيه التام يبدو واضحاً ، وكل ذلك بالاضافة الى الافكار المتناقضة التي كانت من طبيعة كل اجتماع او مؤتمر .

فقد قال احدهم مثلاً : « ان تششيكوف يزور المستندات » ، ثم لم يلبث ان اضاف : « ومع هذا فيمكن الا يكون الامر صحيحاً . » واكد آخران « بافل ايفانوفتش كان مبعوث الحاكم العام » ثم قال : « ولكن هذا لا يبدو على وجهه » وقد نفى الجميع اعتباره لصاً متخفياً . فطلعت النبيلة واسلوبه في الحديث لا يناف عن رجل بقدره ان يقوم بجميع اعمال اللصوصية .

وفجأة هتف مدير البريد بعد ان غرق برهة في الصمت ، وبدا كأنه مدفوع بوحى مفاجئ :

— ايها السادة ، تعرفون من هو تششيكوف ؟

وتلفظ بهذه الكلمات بنبرة هزت الجميع ؛ فهتفوا دفعة واحدة :

— من هو ؟

— ايها السادة ! انه الكابتن كوبيكين .

وعندما قالوا :

— ومن هو الكابتن كوبيكين ؟

اجاب مدير البريد :

— انتم لا تعرفون اذن من هو الكابتن كوبيكين ؟

فاعترفوا جميعهم بجهلهم ، ففتح مدير البريد علبة سعوطة قليلا كي لا تستطيع الاصابع ان تغوص فيها لانه لم يكن يؤمن بنظافتها ، ولذا كان يقول غالباً :

— ايها الاصدقاء اني لا اعرف اين تضعون اصابعكم غالباً ، ولكن الذي عرفه ان التبغ يجب ان يظل نظيفاً .

وقال ، وهو يبر اصابعه على التبغ :

— ان الكابتن كوبيكين يمكن ان يكون موضع قصة عظيمة .

- فأبدى الموظفون عند ذلك رغبتهم في التعرف على هذه القصة أو هذه القصيدة كما شاء مدير البريد ان يسميها .
وبدأ صاحبنا حديثه :

قصة الكابتن كوبيكين

انه بعد حملة ١٨١٢ بآسيدي العزيز ، قال هذا بالرغم من ان المستمعين كانوا ستة اشخاص « أوجد الكابتن كوبيكين بين الجرحى . وكان رجلاً مجنوناً وسيطاناً مريداً عرف كيف يصلح لكل شيء ، وفقد في كراستوي وليبنغ ذراعاً ثم ساقاً . وفي ذلك العهد لم يكن هناك تدبير خاص بالجرحى ومشوهي الحرب .

والخلاصة ان الكابتن كوبيكين وجد نفسه بحاجة ماسة الى العمل كي يقوم بأوده . ولكن لم يبق له الا اليد اليسرى فذهب الى ابيه الذي قال له : « ليس لدي ما اعيلك به ، والذي عندي لا يكاد يكفي » ، فقرر الكابتن عند ذلك ان يذهب الى بطرسبرج ليحصل على مساعدة منها ، لانه دفع للوطن الشيء الكثير من دمه وحياته . وهكذا وصل بجقائبه الى العاصمة . تصوروا الكابتن كوبيكين وقد وجد نفسه فجأة في بطرسبرج ، المدينة التي لاتضاهيها مدينة في العالم ، وقد بهرتة انوارها وعماراتها .

وحاول الكابتن ان يجد لنفسه مسكناً ، ولكن الاسعار كانت مرتفعة ، كوبيكين لا يملك اكثر من عشر ورقات كل منها من فئة الخمسة روبلات ، وهذا المبلغ لا يستطيع الانسان ان يشتري قرية ، او انه يستطيع شراء قرية ولكن اذا اضاف الى المبلغ حوالي اربعين الى روبل يقتونها من ملك فرنسا . وهكذا سكن كوبيكين في فندق قبله بروبيل واحد في كل يوم ، وكان يقتات بالحساء والملفوف ولحم البقر . وهناك في بطرسبرج ، سأل عن

يتوجه اليه فأجيب : « الى من تتوجه ؟ لا يوجد في العاصمة احد » .

وبطبيعة الحال كانت السلطات في باريس ، والجيش لم يعد بعد . ولكن كانت هناك لجنة ، وفترة فصيل له : « جرب ، فقد يعطونك شيئاً » فاجاب كوبيكين : « سأذهب الى هناك واقول لهم اني سفكت دمي وبذلت حياتي في الخدمة »

وهكذا يا سيدي العزيز ، استيقظ كوبيكين باكراً وحلق لحيته بقدر ما يستطيع باليد اليسري ، لانه لم يكن لديه تقود يدفع منها اجرة الحلاق ، وارتنى ملابسه العسكرية وذهب يجر رجله الحشبية لمقابلة رئيس اللجنة . سأل عن مسكن الرئيس فقبل له : « هناك تجده » ، في ذلك المنزل قرب الرصيف . وكان البيت يشرق بالرخام والزجاج الأخاذ ، وعلى الباب كانت توجد ازرار معدنية يجب أن تغسل اليد بالصابون مرتين قبل لمسها . وقد وقف على الباب حارس مهندم .

وبعد مضي اربع ساعات ، ظهر احد رجال الحرس ليقول : « هوذا الرئيس ! » وظهر في البهو عالم كامل من النجوم المتراصة كهجات الفاصولياء داخل الوعاء . واخيراً دخل الرئيس ، تصوروا الآن كيف كان هذا الرئيس : انه رجل يفرض الاحترام والطاعة على الجميع ، فكان يقترب من هذا أو ذاك ليقول : « ماذا تريد ! . ولم انت هنا ؟ » . واخيراً يا سيدي العزيز ، ها هوذا بالقرب من كوبيكين الذي روى له قصته وقال : « فأنت ترى كبت بذلت دمي وفقدت ساعدي وساق ، ولم يعد بإمكانني العمل ، ولذا فاني اتجاسر على طلب مساعدة ، أو إذا صح التعبير ، فاني اتجراً على طلب راتب لي » .

وشاهد الرئيس بأم عينه الساق الحشبية والكم الفارغ من الذراع فقال له : « حسناً .. لتعد الي بعد ايام ! » . وظن كوبيكين ان الامر قد انتهى . فذهب يقفز فرحاً ، ودخل مشرباً ليتناول كوباً من الفودكا ، ثم تناول العشاء في فندق انكلترا وشرب معه خمرأ ، ثم ذهب الى المسرح وعندما خرج منه شاهد

على الرصيف انكليزية حسناء ، فصعد الدم الى رأسه ، واراد ان يركض خلفها بساقه الخشبية ولكنه راجع نفسه وفكر : « هذا يكفي .. لقد انفقت كثيراً فلا تترك النساء الى حين اتسلم مرتبي » . وارجو هنا ان تلاحظوا انه انفق مامعه في خلال ثلاثة او اربعة ايام ، ثم ذهب الى اللجنة وقال انه يريد تعويضاً عن الدم الذي سفكه ، والحياة التي بذلها . فأجابه الرئيس : « حسن جداً ، ولكن يجب ان اقول لك انه لا يمكننا ان نفعل شيئاً لاجلك دون اذن السلطات العليا ، وانت ترى بنفسك هذه المرحلة التي نجتازها ، فالجرب لم تنتهي تماماً . انتظر اذن عودة الوزير وكن واثقاً اننا لن ننساك ابداً ، واذا لم يكن لديك ما تعيش منه ، فهذا كل ما نستطيع ان نعمله لك » . ولعلكم فهمتم جيداً انه لم يعطه الشيء الكثير ، ولكن هذا المبلغ الذي اخذه كوبيكين منه يسمح له بانتظار القرارات التالية . ولكن صاحبنا كان يريد شيئاً آخر ، فقد كان يعتقد انهم سيعطونه الوف الروبلات ويقولون له : « خذ ايها العزيز ، اشرب وامرح ! » وهو من جانبه لم يكن يحلم الا بالمرح والغر والانكليزية الحسنة . وهكذا خرج من القصر ككاتب طرده الطاهي وقد نكس ذنبه الى مابين قوائمه . ثم ان حياة بطرسبرج قد جذبتة وكان قد اعتاد عليها ، ولكن لا يمكن عمل اي شيء فيجب عليه اذن ان يحيا بطريقة لا يعرفها الا الشيطان . وهذا صعب على رجل قوي الجسم يتمتع بشبهة جيدة . ومرة مر امام مطعم فشاهد طاهياً اجنبياً يرتدي ثياباً بيضاء كالثلج ، وهو يهيئ الواناً من الاطعمة يستطيع كوبيكين ان يلتهمها كلها بشبهة . ثم مر بالقرب من محلات ميلويتن فرأى هناك على النوافذ سمكا وكرزاً وباقات من الفريز تنتظر احق يدفع مائة روبل ثمنها لها . والخلاصة انه كان يرى في كل خطوة يحطوها ما يجذبه ويغريه ويسيل له لعابه ، ومع ذلك كان عليه ان ينتظر . فمن جهة كان يقدم اليه السمك والكرز ، وباليد الثانية ، لون من الطعام يدعى « غدا » . فقال في نفسه : « حسناً .. كما يريدون ... سأقلب اللجنة رأساً على عقب وأصبح بالرؤساء : كما تريدون ! » وبالفعل عاد بطلنا الى اللجنة غاضباً وهو على استعداد لأن يحطم كل شيء .

وعندما وصل قيل له : « أهذا انت ، ولكن قيل لك ان . . » فأجاب كوبيكين : « عفواً ، ولكنني لا أستطيع الحياة هكذا . . اني في اشد الحاجة لأن آكل لحماً ، وأشرب خمرأً فرنسياً جيداً ، وأذهب الى المسرح . أفهمتم ؟ » فهنف الرئيس : لا انك تبالغ ، ثم ان للصبر حدوداً . انه لديك في الوقت الحاضر ما يساعدك على العيش حتى يتقرر مصيرك . وستكافأ كما يجب حتماً ، لانه لم يسبق لنا في روسيا ان اهلنا رجلاً خدع وطنه . اما اذا كنت تريد ان تسكر وتأكل اللحم وتذهب الى المسرح . . فان هذا لن يكون . وفي هذه الحالة عليك ان تدبر امورك بنفسك .

وبدا ان كوبيكين لم يسمع شيئاً حتى لكانهم يصيحون في واد . فأخذ يزجر ، وثار على الجميع دون ان يجتنب اي انسان : « انت لاتعمل شيئاً . . . ما انت الا احمق . . انك تحرق القوانين » . وفي هذه الاثناء ظهر جنرال ، فقبأوله كوبيكين نصيبه . عند ذلك وجد الرئيس انه من الضروري اللجوء الى القسوة والعنف . فقال :

— حسناً فليكن . . انت لاتريد الا كتفاء بما اعطيناك والانتظار بهدوء حتى يتقرر مصيرك . . اذن فسنصحبك الى مكان اقامتك الجديدة . احضروا عربة ! وظهر فلاح طويل القامة . . له ذراعان خلقا ليكونا ذراعي حوذي . . . او طبيب اسنان . فقاد كوبيكين الى العربة . فقال هذا في نفسه : « حسناً . . . هذه سفرة اجرها على الاقل » . وبينما كانت العربة تسير به كان يفكر : « لقد قلت لي انه يجب علي ان اساعد نفسي بنفسي . . حسناً فليكن . . . لسوف اجد عملاً . »

وما من انسان يعلم اين قادوه . ولم يعد احد يتكلم عن الكابتن كوبيكين . قد غرق هذا الرجل في بحر النسيان كما يقول الشعراء . ومن هنا ياسيدي العزيز تبدأ القصة الحقيقية للكابتن كوبيكين . لقد فقد كل اثر له ؛ إلا انه بعد شهرين ظهرت عصابة من قطاع الطرق اخذت تعيث في

غابات ، يازان فساداً ، ولم يكن رئيس العصاة ياسيدي العزيز الا ...
فهتف مدير البوليس فجأة مقاطعاً :

— اسمح لي يا ليفان اندريتش ، انك تقول ان الكابتن كوبيكين فقد ذراعاً
وساقاً ، اما تششيكوف ...

فصاح مدير البريد صيحة عظيمة وضرب بقبضة يده على جبينه . انه لم يستطع
ان يفهم كيف غاب عنه هذا الامر . واعترف بصحة المثل الروسي القديم القائل :
« ان فكر الرجل الروسي اشبه شيء بالدرج » . ومع ذلك فقد حاول حلاً
التخلص من هذه المشكلة ، فأكد انهم في انكلترا يصنعون سيقاناً من الخشب ،
يكفي ان يضغط فيها على زر خفي حتى تحمل الساق صاحبها الى مكان لا يعرفه
الا الله وحده .

ولم يشأ احد من الموظفين ان يصدق بان تششيكوف هو الكابتن كوبيكين
بالذات . ووجدوا ان مدير البريد قد ذهب بعيداً جداً . ولكنهم تأثروا على
اية حال بالقصة فبالغوا في فرضياتهم حول شخص تششيكوف . فقد يكون
تششيكوف نابوليون بنفسه ، ثم ان الانكليز يحسدون روسيا لعظمتها وقوتها .
كان هناك صور كاريكاتورية تمثل روسيا يتحدث مع انكليزي ، وكان هذا
الاخير يقود كلباً مفيداً يدعى نابوليون . قال الانكليزي : « احذر ، فاذا
قابعت فاني اتركه يهاجمك » . ومن يدري ؟ لربما تركت انكلترا نابوليون يخرج
من جزيرة القديسة هيلانة ليتجول في روسيا تحت اسم تششيكوف .

ولم يصدق الموظفون هذه القصة ايضاً ، ومع ذلك فقد لاحظونا وهم يفكرون
ان المنظر الجانبي لوجه تششيكوف يشبه صورة نابوليون ، وكان مدير البوليس
يقومون بخدمته العسكرية عام ١٨١٢ . وقد شاهد بنفسه نابوليون . واعترف
ان الامبراطور لم يكن اطول ولا اضعف ولا اخل من تششيكوف .

وقد يقول بعض القواء ان هذا الحديث لا يبدو واقعياً ، وكذلك المؤلف
فانه من نفس رأي القاري . ولكن لسوء الحظ كانت الامور تجري على هذه
الصورة بالرغم من ان مدينة (ن) تقع بين العاصمتين لا في صحراء نائية .

وليدكر القارىء الحوادث التي تلت طرد الجيش الفرنسي ، فان جميع الملاكين ورجال الاعمال والتجار والحقوقيين والمتعلمين اهتموا بالسياسة ثمان سنوات على اقل تقدير .

وكانت جريدة « اخبار موسكو » و « اين الوطن » موضع القراءة من اول حرف الى آخر حرف . وكان الناس عوضاً عن ان يسألوا عن سعر الشوفان يقولون :

« ماذا يقال في الصحف ؟ اهرب نابوليون مجدداً من جزيته ؟ » . اما التجار فكانوا كثيري الخوف لانهم يعتقدون بنبوة نبي كان مسجوناً منذ ثلاث سنين ، وكان هذا النبي قد جاء من مكانه لا يعرفه احد ، وهو يرتدي بزة قدرة تنشر منها روائح سمك متفسخ . واعلن ان نابوليون عدو لدود للمسيح ، وانه يعيش خلف ستة اسوار وستة بحار مكبل بالقيود . ولكنه سيحطم السلاسل يوماً وسيسيطر على العالم . وقد بقي القبض عليه بعد تلك النبوة التي روعت طبقة التجار الروس برمتها . ومر وقت طويل كان فيه هؤلاء التجار عندما يدخلون الفنادق ويتعارفون لقضاء اعمالهم ، يبدأون بالحديث عن عدو المسيح وهم يتناولون الشاي . وسرت عدوى الاساطير هذه الى الموظفين والنبلاء ، فكانوا يجدون معنى عميقاً لكل حرف من حروف اسم نابوليون . وقد وجد الكثيرون منهم فيها حروف رؤيا يوحنا اللاهوتي .

فمن الطبيعي اذن ان يفكر موظفو مدينة (ن) طويلا في هذا التشابه بين تششيكوف وامبراطور الفرنسيين ، وبعد ان تناقشوا فترة من الزمن قرروا التوجه مباشرة الى نوزدوف ، فهو اول من تكلم عن النفوس الميتة ، وله علاقات متينة مع بافل اي فانوفتش فهو حتماً يعرف بعض التفاصيل عن حياته الخاصة .

ان هؤلاء الموظفين غريبو الاطوار ، انهم يعرفون تماماً ان نوزدوف يكذب دائماً ، وانه لا يمكن الوثوق به وبأحاديثه ، ومع ذلك فقد هرعوا اليه . وهكذا الانسان ، انه لا يعتقد بوجود الله ، ولكن اذا وخرزه أنفه ظن ان يومه الاخير قد جاء ، فلا يقرأ ديوان شعر مليء بالامل والبساطة والانسجام ،

بل هو يسرع الى قراءة كتاب تبدوا الطبيعة فيه قبيحة ، فيمتف : « ما اعمق هذه المعرفة بخفايا قلب الانسان . » وآخر لايفتا يعلن اشتزازه من الاخبار فيذهب يومياً يستشير عجوزاً مشعوذة تعالجه بالدمدمة او باختراع دواء كريبه يتناوله وكأنه الدواء الناجح الوحيد .

وكان لموظفينا عذرهم في ما يحيط بهم من ظروف حرجة . فالغريق يتعلق بالقشة دون ان يفكر بجسمه الذي يزن مائة كيلو غرام ، وهكذا تعلق التعساء بنوزدويف .

ففي المساء دعا مدير البوليس نوزدويف الى منزله ، وقد حمل اليه الدعوة حارس متورد الحدين وكان نوزدويف مشغولاً جداً ، ذلك انه كان قابلاً في غرفته منذ اربعة ايام ، وقد شجب لونه ونخل جسده كثيراً ، وكان عمله يقتضيه انتباهاً عظيماً ، لان الامر يتعلق بالتفتيش بين عدة دسات من اوراق اللعب لاختفاء مجموعة لا تظهر عليها الاشارات واضحة لكل انسان فتسمع له بالربح .

وكان هذا العمل يقتضي منه اسبوعين على الاقل ، وفي هذه الفترة كان على الخادم بورفيري ان يعنى بالكاب الصغير ويغسله بالفرشاة الخاصة ثلاث مرات في اليوم .

وقد اغتاظ نوزدويف كثيراً لازعاجه اثناء عمله ، فبدأ بالشتائم ولكن ما ان قرأ ان بين الحضور غريباً يمكن ان يلعب معه حتى هدا واغلق الباب ، ثم ارتدى ملابسه بسرعة وذهب الى بيت مدير البوليس . وقد الهبت اقواله الموظفين ، ذلك ان الشك غير موجود بالنسبة لهذا الانسان ، ومقدر ما كان يمدى الموظفون شكهم فيما يقول كان هذا يزيد في تأكيداته ويحيب على كل شيء بدون أدنى تردد .

كان تشتشيكوف حسب اقواله قد اشترى نفوساً مئتين بعدة آلاف من الروبلات ، وهو نفسه قد باع منها اذ لم يجد مانعاً من ذلك . فسأل الموظفون : « اليس هو مجاموس انان ، ألم يأت ليقوم بتحقيق سري ؟ » فأجاب نوزدويف : « ان تشتشيكوف تاجر ، وعندما كنت معه في المدرسة عرف بهذه الصفة ،

وفي ذات يوم ضربه رفاقه لهذا السبب حتى ان اهله اثناء معالجته اضطروا الى وضع مائتين واربعين علة في جسده لامتناس الدم المفسود .
وكان نوزدويف يريد ان يقول «اربعين علة» ولكن عدده المائتين والاربعين قد اخلت منه بشكل طبيعي .

— الا يزور تشتشيكوف المستندات ؟

فاجاب نوزدويف بالاجاب ، وروى بالمناسبة قصة عن مهارة بافل ايفانوفتش لقد علم ان تشتشيكوف يملك مستندات مزورة بملبوني روبل . فختم البوليس منزله بالشمع الاحمر ، ووضع على بابه حارسين ، غير ان تشتشيكوف بدل جميع المستندات في ليلة واحدة ، وعندما جاء البوليس في الصباح لم يجد مستنداً واحداً مزوراً .

وسئل ايضاً : هل كان تشتشيكوف يريد خطف ابنة الحاكم ؟ وهل وعد نوزدويف بالمساعدة .

فاجاب نوزدويف : بكل تأكيد ، اذانه دون مساعدتي لن يتمكن من النجاح في مهمته ؟

ووقف عند هذا الحد لانه فطن الى ان كذبة من هذا النوع قد تكلفه غالباً ولكن كان يستحيل عليه ان يملك لسانه ، ويجب ان نعترف ان هذا الامر صعب جداً لان تفاصيل مشيرة كانت تجول في رأسه .

عين نوزدويف بعد ذلك القرية والكنيسة التي كان يجب ان يتم فيها الزواج . وكان اسم القرية « تروشماتشيفا » واسم الكاهن « سيدور » ، وقد طلب خمسة وسبعين روبلاً للقيام بعملية الزواج ، ولم يقبل بهذا المبلغ الا بفضل نوزدويف الذي هدده بكشف فضيحة الزواج غير الشرعي الذي باركه بين تاجر الدقيق ميخايلو وشريكته في الشهادة بمعمودية احد الاطفال (١) . وقد قدم هذا الكاهن عربته وجياده للسفر . وذهب نوزدويف في اكدوبته الى حد ذكر معه اسماء الحوذية الذين سيقودون العرب . فقاطعه الموظفون واثاروا انتباهه الى النشابة

(١) مثل هذا الزواج تجرمه الشرائع المسيحية .

فين نابوليون وتشتشيكوف ، واكتنهم سرعان مائدموا على ذلك لان صاحبنا اندفع في سيل من الحماقات والا كاذيب ، بما جعل الجميع يهجرونه عددا مدير البوليس الذي بقي يصغي اليه وحيداً عليه يسمع كلمة صحيحة . وعندما ينس منه هدف به : « ليذهب بك الشيطان » . واتفق جميع الموظفين على صحة المثل القائل : « مهما فعلت بالثور فانك لن تستطيع ان تستخرج منه قطرة حليب واحدة » . وهكذا وجدوا أنفسهم في حالة اسوأ من السابق ، واضحى من المستحيل عليهم ان يعرفوا من هو تشتشيكوف .

ولسبب لا يعرفه أحد ، احدثت جميع هذه الشائعات والابحاث والجهود اثرها في نفس المدعي العام ، ولما عاد الى منزله اخذ يفكر ويتأمل كثيراً حتى قضى نجه دون سبب او علة . كان موته بسكتة قلبية او بسبب شي آخر مفاجئ ، فسقط على الارض ولم يكن لدى ذويه الوقت الكافي لقول : « آه ، يا آلهي ! » فدعوا الطبيب ليأخذ شيئاً من دمه ولكن دون جدوى ؛ اذ ان المدعي العام لم يكن إلا جسداً بلا روح . عند ذلك تذكر الناس ان المدعي العام روحاً ولكنه ، لتواضعه الجهم ، لم يظهرها طيلة حياته . ان الموت لشيء رهيب ، يصيب الكبير ويصيب الصغير ، ففي الامس فقط كان المدعي العام يروح ويحيى ، يلعب الويست ويناقش ويوقع الاوراق ، متميزاً عن الجميع بكثافة حاجبيه وغمزات عينه . وها هو الآن ممدد بلا نامة ولا حياة ، وقد سكنت عينه اليسرى بينما تقطب حاجباه كأنما يتساءلان : وماذا ينبغي الموت ؟ ولم عاش ولم يموت ؟ ان الله وحده يعلم ذلك .

ولكن هذا غير منطقي ولا معقول ... انه لمن غير المنطقي ان يحزن الموظفون من الخوف وان ينحرفوا عن جادة الصواب عندما يعرف طفل ما الحقيقة . هكذا سيناقش القارئ الامور ويتهم المؤلف بانه يروي له اشياء غير معقولة ، وربما قال عن هؤلاء الموظفين انهم اغبياء ، ذلك ان المرء ليستعمل كلمة

(غبي) اكثر من عشرين مرة في اليوم . ليكن لك عيب واحد الى جانب عشر مزايا ، فان اشباهك من الناس سوف لن يروا فيك الا هذا العيب . ان القراء يستطيعون الحكم بسهولة اذا كانوا يرقبون الاشياء من عل ، حيث تقوتهم التفاصيل . وبهذه الصورة يمحون من تاريخ الانسانية قروناً عديدة تبدو لهم دون معنى . إن أخطاء كثيرة قد ارتكبت ، وهي اخطاء لا يقرؤها طفل في وقتنا الحاضر ، ثم ان الانسانية قد اختارت طرقاً ضيقة منعزلة وبطيئة تعبر بها الشعوب عن الهدف المطلوب والحقيقة المبتغاة . ورغم ذلك فان الطريق المستقيمة كانت تظهر بوضوح اندل المملوك على المجد .

ورغم ان هذه الطريق نيرة مشرقة ، فان الانسانية بدت باقرب منها سادرة في الظلمات . ومع ذلك فان الوحي لم ينفعها ، وقد كشفت السماء لها عن هذه الطريق ، ولكن الانسانية استمرت في ضلالها وسارت في وضع النهار داخل سمرات مظلمة تريد في كثافة الضباب الذي يحيط بها وهي تسير نحو الهوة لتتسأل بعد ذلك : « ولكن كيف الخلاص ؟ وأين الطريق ؟ » . ان الاجيال الحاضرة لتفهم اخطاء الماضي فتدهش لها وتسخر من خطيئات الاسلاف . كما انها لا ترى ان هذا التاريخ قد كتب بنار السماء ، وان كل حرف يطلب الانتقام وهو يشير الى الانسانية الحاضرة . وهذه بدورها تضحك وتسخر ثم تقترف اخطاء جديدة تسخر منها الاجيال القادمة .

كان تشييكوف يمل تماماً الشائعات التي تدور حوله . وكان قد اصيب بالتهاب في حنجرته وهذا شائع جداً في مدننا الريفية . فقرر ان يمكث في غرفته ثلاثة ايام ليحفظ حياته الثمينة التي لم تشبها شائبة . ولم ينقطع عن الفراغ بالخليل المغلي ، وكان يرتدي (طاقية) من القطن .

وقد وضع قائمة جديدة كاملة بالفلاحين الذين اشترام لبقضي وقته ، كما قرأ كتاباً باسم « دوقه فالير » وجده داخل حقيبته . وصنع تشييكوف اشياء كثيرة وقرأ بعض الملاحظات ولكن هذا العمل خلف التعب في جسده بسرعة ،

ولم يفهم لماذا لم يقبل احد من الموظفين للاستفسار عن صحته ، في الوقت الذي كانت عربات عديدة منذ ايام تقف عند باب فندقه ، ومن بينها عربية مدير البوليس والمدعي العام ورئيس المحكمة ، وغير ذلك من الاشخاص .

واخيراً شعر بتحسن فكان بذلك كثير السعادة لانه يستطيع ان يستنشق الهواء الطلق . فأسرع في ارتداء ملابسه وحلق ذقنه وتعطر (بالكولونيا) ولف عنقه بشال وخرج .

ان هذه النزهة بالنسبة اليه عيد حقيقي ، فكل شيء يتسم له : المنازل والفلاحون المارون به ، ولكن اساريهم مع ذلك كانت رصينة . وكانت اول زيارة قام بها تششيكوف من نصيب الحاكم ، ورغم الافكار التي كانت تتنابه فان صورة الشابة الشقراء لم تغادره مطلقا ، فسرره هذا باديء الامر ثم سحره ، وبهذه الصورة دخل بيت الحاكم ، وبدأ بخلع معطفه ، فأسرع الخادم اليه وقال له :

— لقد تلقيت امرأ بعدم استقبالك .

— كيف ... انك لم تعرفني حتما ... انظر الي ملياً .

— وماذا لا اعرفك ، انها ليست المرة الاولى التي اراك فيها ، ثم انك الوحيد

الذي يجب علي ألا اسمح له بالدخول .

— لماذا ؟ وكيف ؟

فاجاب الحارس السويسري :

— لقد تلقيت ، امرأ ويجب ان يكون هناك ما يبرزه .

ثم اضاف ، وقد ارتسمت على وجهه السخرية والتردد :

— فاذا طردك السيد والسيدة فهذا لانك لاتساوي شيئاً .

فكرر تششيكوف : « هذا غريب » . ثم ذهب حالا الى رئيس المحكمة ،

ولكن هذا ما ان رآه حتى اصيب بارتباك شديد لم يتمكن معه من التلطف
بكلمة ، فافتوق الاثنين حائرين . وذهب لزيارة مدير البوليس ونائب الحاكم
ومدير البريد ، فلم يستقبله البعض واما البعض الاخر فقد استقبلوه ولكن بصورة
غريبة ، اذ تبادلوا معه احاديث بلهاء جعلت تشتشيكوف يشك بعقولهم .
وحاول أن يرى اشخاصاً آخرين ولكن عبثاً ، فتاه في المدينة منهوك اقوى متسائلاً عما
اذا كان قد جن ام ان جميع الموظفين قد فقدوا عقولهم ، ام انه يحلم ، ام انه
بالحقيقة يعيش هذه المهزلة البلهاء .

وعاد الى المدينة في ساعة متأخرة من الليل ، فطلب شاياً وشربه ليتغلب
على قلقه ، وبينما كان يحلم بغرابة وضعه فتح باب غرفته فجأة ودخل نوزدوف
دون ان يستأذن . وهتف وهو يحك قبعته :

- ان قطع سبعة (فرستات) لرؤية صديق لاتعد شيئاً كما يقول المثل .
لقد رأيت النور مضاءً فقلت لأدخل ، انه ليس نائماً .. حسنا هذا ساي ، واني
لأشرب منه بكل سرور ، فقد ابتلعت كثيراً من الاقذار اثناء العشاء .. اني
اشعر بأن معدتي ليست على مايرام - املاً لي غليوناً - اقصد غليونك .
فأب تشتشيكوف يجنأ :

- اني لا ادخن الغليون

- حقاً .. لقد نسيت انك دجاجة قذرة .. ايه .. ما اسم خادمك ...

تعال يا « داكرامه » ...

- ان اسمه بتروشكا ، لا « داكرامه » .

- كيف ولقد كان عندك خادم يدعى « داكرامه » .

- لم يكن قط عندي خادم بهذا الاسم .

- هذا صحيح . . . ان داكرامه هو خادم . . . دريبين . . . ولقد

تخاصمت عمته مع ابنتها الذي تزوج خادمة فأوصت لابن اخيها بجميع
ممتلكاتها . . . كم اود لو يكون لي عمه مثلها . . . ولكن لماذا لم نعد
نراك ، يا اخي ؟ انك تهرب من الناس . . . اني اعلم متأكداً ان مسائلك العلمية

تشغلك وانك تحب القراءة . (ونحن نجعل وكذلك بافل ايفانوفتش ايضاً ، لماذا
يظن نوزدريف ان تششيكوف يقوم بدراسات علمية) . آه يا اخي تششيكوف ،
لو انك رأيت .. ان ذلك بإمكانه ان يكون غذاء لروحك الساخرة . (ولماذا
كان تششيكوف ساخراً ؟ هذا مانجهله ايضاً) . لقد لعبنا الفوركا عند التاجر
ليخاتشيف ، لكم سرورنا وتهكمنا هناك .. وقد حزن بريانديف كثيراً لغيابك .
(ولم يكن تششيكوف قد قابل في حياته رجلاً يدعى بريانديف) . اعترف
يا اخي بانك تصرفت معي بغلظة في المرة الماضية عندما لعبنا الضاما .. ولكني
لست حقوداً .. وهذه المناسبة اقول لك إنهم يحقدون عليك في المدينة
ويتهمونك بتزوير السندات .. ولقد سألوني فقلت اننا كنا في المدرسة معاً ،
واني اعرف اباك ، وقد اخرستهم .

فهتف تششيكوف ، وهو يقفز من مقعده :

انا ازور مستندات ؟

- ولكن لماذا انت تخيفهم الى هذا الحد ، بحق الشيطان ! انهم يرتجفون من
الخوف جميعاً . فهم يظنونك لصاً وجاسوساً ، وقد مات المدعي العام من الخلع
وسيدفن غداً .. هل تأتي ؟ وانهم خائفون جداً من المدعي العام الجديد .. وهم
يخافون بسببك ، ولكن هذا الحاكم لن يفعل حسناً اذا اساء معاملة النبلاء ، ومن
ثم ليس على هؤلاء النبلاء الا ان يمتنعوا عن اقامة الحفلات الراقصة .. ولكنك
يا تششيكوف ورطت نفسك في عمل قذر .
فسأل بافل ايفانوفتش قلقاً :

- ولكن اي عمل ؟

- خطف ابنة الحاكم .. لقد كنت مقتنعاً من ذلك منذ ان رأيتك في
الحفلة الراقصة ، وكنت على استعداد لمساعدتك ، ولكنك اسأت الاختيار ،
اذ ليس فيها شيء جميل . اني اعرف واحدة .. هي ابنة اختي ، وانها عظيمة
وتساوي عناء خطفها .

فهتف تششيكوف محققاً :

ماذا تقول ؟ انا اخطف ابنة الحاكم ؟ لقد فقدت عقلك !

هيا بنا ، يا اخي ... لماذا تتكتم ؟ لقد جئت لمساعدتك . اني أزورك وأضع الكليل الزواج فوق رأسك وأهتم بالعربة والجياد بشرط واحد ، هو ان تقرضني ثلاثة آلاف روبل احتاج اليها ، لأن القضية قضية موت او حياة .

وخلال هذا السيل الغزير من الاكاذيب ، كان تشتشيكوف يفرك عينيه ليتحقق من انه ليس في حلم : تزوير مستندات ، خطف ابنة الحاكم ، موت المدعي العام بسببه ، وصول الحاكم الجديد .

وفكر : « ان كان الامر كذلك فليس من مجال للتردد اذن ، يجب ان اسرع بالذهاب ! »

وتخلص من نوزدويف ، ودعا سليفان وامره بتنظيف العربة واعدادها للسفر في الساعة السادسة صباحاً . فاجابه هذا « تحت امرك ! » ثم طلب المعلم من بتروشكا ان يأتيه بالحقيبة ، واخذ يضع في داخلها جميع مايقع تحت يده من جوارب وقمصان واحذية . وكان يعمل مسرعاً لانه لا يريد ان يؤخر سفره عند الفجر . سليفان الذي كان واقفاً يرقب معلمه وبتروشكا ان يذهب . فهبط الدرج ببطء تاركاً عليه آثار حذائه المتسخ . ترى لماذا كان يحك رقبتة وماذا تعني هذه الحركة عادة ؟ أهو غاضب لأنه لم يعد باستطاعته السهر مع صديق ، ام لأنه يجب عليه انهاء مغامرة جميلة والانتقطاع عن الذهاب الى مواعيد بجانب بوابات المنازل حيث يضغط على يد بيضاء صغيرة ؟ ام ان السبب في ذلك كونه مرغماً على هجران زاويته الدافئة في المطبخ والسير تحت الامطار وبين الوحول ؟ ان الله وحده يعلم هذا ، فالفلاح الرومي الذي يملك رقبتة يخفي افكاراً عديدة عميقة .

الفصل الحادي عشر

لم تسر الامور حسب تقدير تشتشيكوف ، فقد استفاق قبل كل شيء متأخراً عن الساعة المحددة ، وعندما سأل عن العربة علم انها لما تعد بعد . فغضب كثيراً ودعا اليه سليفان ليناقله الحساب . وانتظر بفارغ الصبر سماع الاسباب التي اجبرته على التأخير ، وعندما جاء سليفان أخيراً سمع منه بافل ايفانوفتش المحاضرة التي يسميها عادة السادة من خدمهم عندما يكونون على عجلة من امرهم .

- يجب حدو الخيل ، يا بافل ايفانوفتش .

- ايها القدر ، ألم يكن باستطاعتك ان تقول هذا نهار البارحة ؟

- بلى كان ذلك باستطاعتي .. ثم يجب تصليح العجلة ، يا بافل ايفانوفتش ،

لان الطرق وعرة سيئة ، وكذلك يجب تصليح مقدمة العربة .

فهتف تشتشيكوف وهو يرفع يده مهدداً :

- ايها القدر ، انت تريد قتلي ... ايها الحيوان ، لماذا لم تقل ذلك أمس ؟

هذا وقد مر علينا ثلاثة اسابيع هنا وانت لم تقل شيئاً رغم انك تعرف جميع

ما يلزم . هل تعرف جميع ما يلزم للعربة قبل الآن أم لا ؟ أجب ايها الحيوان القدر !

فأجاب سليفان ، وهو خافض الرأس :

- بلى كنت اعرف .

فصاح تششيكوف :

- إذن لماذا لم تقل ذلك في حينه ؟

فلم يجب سليفان بشيء ولكنه اخذ يحدث نفسه : « ايكون غريباً ان اعرف الامر ولا اذكر شيئاً عنه ؟ »

- اذهب واحضر حداداً بسرعة ، يجب ان ينتهي كل شيء خلال ساعتين ! أفهمت ؟ واذا لم يعد كل شيء بعد ساعتين فساأشترك شطرين .

كان بطلنا مهتاجاً غاضباً ، فاتجه سليفان نحو الباب ولكنه توقف قليلاً وقال :

- هناك امر آخر ياسيدي ، يجب بيع الحصان واستبداله بآخر . . . انه نذل وسيخلق لنا متاعب طيلة الطريق .

- اتعتقد حقاً اني سأسرع ببيعه ؟

أفسم لك يا بافل ايفانوفتش انه حيوان محتال .

- ايها اللص المجنون ، اني أبيع حين اشاء ، انتظر قليلاً ، اذا لم تحضر الحداد وتنتهي كل شيء خلال ساعتين فساأقتلك ، ولن تستطيع ان تبين شكك بعد ذلك . اخرج من هنا !

فخرج سليفان .

خرج تششيكوف عن طوره ، فألقى بالسيف الى الارض ، وكان هذا السيف يحمله دوماً في اسفاره ليرهب به قطاع الطريق . واضاع بعد ذلك ربع ساعة في التفاهم مع الحدادين ذلك ان هؤلاء يطلبون دائماً ستة اضعاف اجرهم العادي عندما يرون زبونهم مستعجلاً . وعشأ دعاهم تششيكوف لوصاً ومحتالين

فانهم لم يدعنوا ، وهم لم يتمسكوا بالسعر الذي طلبوه بل قضوا في عملهم خمسة ساعات بدلاً من ساعتين .

وهكذا أتبع لبافل ايفانوفتش ان يحيا اللحظات العذبة التي يقضيها جميع المسافرين . كان كل شيء معداً على الاطلاق ، واما الغرفة فكانت لا تحوي إلا الحقايب الممزومة وبضعة اوراق ممزقة . الا ان جسم المسافر وإن كان موجوداً هنا فان أفسكاره قد سافرت ، ولذا أخذ يذرع ارض الغرفة وقد ازداد به الغضب .

إلا أنه لكل شيء نهاية ، وهكذا أخيراً دنت الساعة المنتظرة وتم تصليح العربة وانصرف الحدادون بعد ان عدوا نقودهم جيداً متمنين لتشتشيكوف سفراً سعيداً . ووضع تشتشيكوف داخل عربته قطعتين من الحلوى ساخنتين كما أخفى سليفان في جرابه بعض المؤونة . ثم صعد بافل ايفانوفتش الى العربة في حين اجتمع حشد من الخدم والحوزية لتحيته التحية الاخيرة .

وسارت العربة آخر الأمر فغادرت باحة الفندق ، فقال تشتشيكوف في نفسه بعد ان رسم إشارة الصليب : « شكراً لله ! »

وقرّع سليفان بسوطه ، وجلس بتروشكا بجانبه بينما انكأ بطلنا على وسادة من الجلد في حين اخذت العربة تتهادى على الطريق .

كان بطلنا يرقب بشعور مهم جميع ما تقع عليه انظاره ، من البيوت والحدران والطرق التي اخذت تتوارى ببطء خلفه . في احدى المنعطفات توقفت العربة عن السير امام موكب جنازي حاشد ، فأمر بطلنا بتروشكا ليسأل عن الميت فقيل له المدعي العام . فاختماً في زاوية العربة واسدل الستائر بينما خلع سليفان وبتروشكا قبعتيهما واخذا باحصاء عدد المشيعين الراجلين والذين داخل العربات ، وامرهما بافل ايفانوفتش بعدم التحدث مع انسان بينما اخذ هو في تأمل الموكب .

ان جميع الموظفين يسرون خلف النعش . فخاف بافل ايفانوفتش ان

يتعرفوا عليه ، ولكنهم كانوا مشغولين في واقع الحال . كان هؤلاء يسرون صامتين دون اي ثرثرة كما تجري العادة في مثل هذا الموقف ، ذلك ان افكارهم كانت مشغولة بمصيرهم ، بالتساؤل عن الحاكم العام الجديد ، وعن كيف سيكون تصرفه تجاههم وكيف سيستقبلهم . اما السيدات المتشحات بالسواد فقد كن داخل عرباتهن التي تسير خلف الموظفين . وكانت تدل حركات شفاههن على انهن يتحدثن بجرارة . ومن الظاهر انهن يتحدثن ايضاً عن الحاكم العام الجديد ومتنولات في اثناء ذلك جميع الفرضيات حول الحفلات الراقصة التي سيقمها وحول الاقمشة والازياء الحديثة . وخلف عرباتهن تلك كان ثمة خمس عربات تسير فارغة . واخيراً اصبح بمقدور عربة تشتشيكوف ان تسير ، فرفع بافل ايفانوفتش الستائر وتهد طويلاً ثم قال في نفسه :

« هوذا المدعي العام . . . لقد عاش . . . ثم مات » . ان الصحف بلا ريب سوف تعلن هذا النبأ الذي افجع أبناءه كما افجع الانسانية جمعاء . ان هذه الصحف ستقول بانه كان مواطناً محترماً وابطاً ممتازاً وزوجاً فاضلاً . وهي ستضيف فوق ذلك بان دموع البتامي والايامي قد تبعته حتى مثواه الاخير . ولكن . . . اذا شاء الناس الحقيقة الواقعة ، فان المدعي العام لم يتميز عن غيره الا بشيء واحد فقط ، وهذا الشيء الوحيد هو ان حاجبيه كانا كشيئين .

أمر تشتشيكوف حوزيه سليفان بالاسراع ثم فكر : « يجب ان اكون مسروراً لمصادفتي هذا الموكب ، اذ ان مصادفة المبت في السفر فالحسن ! » واجتازت العربة اخيراً عدة طرق مقفرة ، ثم تعدت حواجز خشبية طويلة كانت تشير الى نهاية المدينة .

وهكذا توارت المدينة في البعيد ولم يعد يشاهد غير الطريق اللامتناهي . وكان هناك ثمة اشارات تدل على المسافات والآبار والقرى ، القرى الرمادية حيث سماور الشاي والمشعوذات والفلاحون الذين يركضون حاملين حزم

الشوفان ... ثم المدن الصغيرة بحوانيتها الضيقة الخشبية الملأى ببراميل الدقيق والاحذية والجلود وشتى انواع البضائع . وبدت الجسور الطويلة والطرق الممتدة وبيوت الملاكين ، ثم ظهر جندي يمتطي جواداً ، بحرس صندوقاً اخضر كتب عليه : « بطارية المدفعية رقم كذا ... » ثم بدت الاراضي المحروثة حديثاً ، وسمع من بعيد صدى الاغاني والاجراس بينما رنقت في السماء اسراب من الغريان كالذباب .

ايه ... ايتها روسيا ! اني لأتحنيك الآن وأفكر فيك وانا في هذه البلاد الغربية (١) . ان مدلك لفقيرة شقية لا يتوفر فيها اي شيء من وسائل الراحة ، عارية من جمال الطبيعة ومبتدعات الفن ، فليس هناك قصور مشيدة فوق الصخور ، ولا اشجار ضخمة ، ولا لبلاب فوق البيوت . وان العيون لا ترتفع فيك لتشاهد صخوراً بديعة او قبة مزينة بالبلابل وآلاف الزهور البرية . وان قمم الجبال العالية الخالدة لا تندفع شاحخة في السماوات بين الاثير ، ذلك أن كل شيء مكشوف .

ايه ايتها روسيا ... ان مدلك لمنخفضة قيمة ، لا تظهر بين أثباج الصحارى الواسعة الا كنقاط دقيقة وبقع صغيرة ، ليس من شيء فيها يحمل على الاغراء او يفتن الابصار .

واذن ... ما هذه القوة المندفعة الخفية الطاغية التي تجذبني نحوك ، أيتها روسيا ؟ وكيف يمكنني ان اسمع اغنيانك الحزينة الجبارة يتردد صداها بين البحار داخل حدودك الممتدة الواسعة . وهذه الاغنية ، اي شيء تخفيه ، واية نداءات مبتهلة ودموع مشرقة تتوارى فيها ؟

ان هذه الاغنيات العميقة الجبارة لتصهر قلوبنا وتعتصرنا لتخلق القلق في

(١) لقد بدأ جوجول قصته النفوس الميتة في مدينة فيفاي في سويسرا وأنهى القسم

الاول منها في روما من عا ١٨٣٦ - ١٨٤١ .

أرواحنا والسحر في نفوسنا .

أيتها الروسية ، ماذا تريد مني ، وما الآصرة العميقة التي تربط بيننا ؟ لم تظنن هكذا إلى ولم يتجه نحو كل شيء بحيا ويحقق فيك منظر البعيدة الغور .

اني لأأمل فيك حائراً ما كنت .. فأرى الغمام الكثيف ، المتلبد ، ينحدر مشبعاً بالعواصف المهددة ، والزوابع المدمرة . وانت افكاري لتخرس أزاء مسافاتك البعيدة المترامية في المدى . ترى ... اي مستقبل يتوارى خلف هذا الاتساع البعيد .. البعيد .. اللامحدود ؟ ترى ... أيلدا عظم الإبطال طرأ في روسيا ، حيث تسمع لهم هذه الآفاق الواسعة بالحياة ؟ ان هذه القوة الصادرة الجبارة النابضة في هذا الاتساع والمسافات لتجذبني نحوها . وان عنفوانها الرهيب ليتغلغل في أعماقي فيشتعل في عيني لهب قوة خارقة . اين أيتها الروسية ... يا أرض الجمال والبدايع المجهولة ! ...
وصاح تشتشيكوف بسليفان :
- قف ؟

وزجر حوذي بشاربين عريضين كانت عربته تجري بسرعة كبيرة :
- سأقتلك بسيفي ... لتنتزع الذئاب روحك النجسة ، ألم تر ان هذه
العربة حكومية .

ثم توارت العربة وسط الضجة والغبار .
لكم من الأشياء الغريبة الجذابة الساحرة تشيورها هذه الكلمة الروسية « دوروغا » (١) . وانكم هي جميلة هذه الطريق . تغيم السماء وتغطي أوراق الحريف الأرض ويهب نسيم بارد يلفح الوجوه ، فيغطي المسافر أذنيه بقبعته ويلف بمعطف الفراء ويقبع في زاوية العربة ، فتستولي على الجسم حرارة عذبة ثم يهاجم النعاس عينيك فتغمضها ، وتسمع بغموض وقع حوافر الجياد تمتزج بصرير العجلات ، فتنام دافعاً ببارك إلى الزاوية الأخرى . وعندما تستيقظ

(١) الطريق .

تكون العربية اجتازت خمس محطات ، فتوى القمر ومدينة مجهولة وكنائس
بقباب خشبية واقواس سوداء . وترى بيوتاً بعضها قائم وبعضها الآخر قد بني
بالحجارة البيضاء . كل شيء ساكن ... راقد . ونرى هنالك وهنا نوراً باهتاً
منعزلاً لاسكافي يخيظ حذاء ، أو حجاز يهيب عجيته .

هنا ... الليل وعظمة السماء ... هنا الهواء شفاف والسموات العالية
بعيدة مع الآماد . هنا برد خفيف يداعب الوجوه فيستولي النعاس والذيان
على المسافرين من جديد ؛ فيدمدم الجار المتضيق لان صديقه يثقل عليه ، فيستفيق
الاخير فلا يرى شيئاً غير الحقول والصحارى والعزلة والآفاق الواسعة المكشوفة ،
وتتوارى الحجارة الدالة على المسافات ، وتشرق الشمس فيبياض الافق
البارد وتتكرر عليه خيوط من الذهب الخالص ، ويبرد الهواء ... وان مثل
هذا البرد ليحبه الانسان فينام ... ثم يستيقظ عندما تصل العربية الى قرية ما
تتصاعد منها اصوات الفلاحين فيشعر الانسان بالجوع .

لكن انت جميل ايها الطريق البعيد ! ولكم من المرات كنت فيها تأملاً عن
نفسى غارقاً في همومي فانقذتني مما انا فيه ! اجل ايها الطريق البعيد ... لقد
عشت معك عدة احلام شعرية ومشاعر إلهية !

وهكذا ايضاً استسلم بطلنا تشتشيكوف للاحلام .. ولكن ، ترى ، بماذا
كان يشعر ؟ انه لم يشعر بشيء بادية الامر فكان يتلفت بعض الاحيان للتأكد
من انه غادر بالفعل مدينة (..) كانت البيوت قد توارت ولم يعد يظهر الا
الطواحين ، كما توارت ايضاً ضواحي المدينة وكنائسها الحجرية باقواسها البيضاء .
وكان بافل ايفانوفتش ينظر يئساً ويسرة ، ثم اصبحت مدينة (..) بسرعة
بالنسبة اليه ذكرى غامضة مبهمه كما لو انه غادرها منذ سنوات ، فأغض عينيه
واسند رأسه الى الوسادة . لقد كانت الطريق غير هامة بالنسبة اليه . ويعترف
المؤلف بأنه سعيد لذلك ، لانه يجد هنا ساحة للكلام عن بطلنا قليلاً ، ذلك ان
نوزدويف والحفلات الراقصة والسيدات العجيبات ، كل ذلك قد منعه حتى الآن
من الكلام عنه . فلننس كل شيء اذن ولنهتم ببافل ايفانوفتش وحده . وانا

أشك في ان البطل الذي اخترته قد اعجب القراء . فالنساء لم يحببته ، وهذا أمر طبيعي لأنهن يردن دائماً ان يكون البطل نموذجاً للكمال ؛ والويل كل الويل له اذا بدا فيه نقص خلقي او خلقي ؛ فانه لن يرضيهن حتى ولو حلل المؤلف نفسيته بعمق ورسم صورته بصفاء كصفاء انعكاس النور على المرأة . ان سن تستشيكوف وسمنته قد اساءتا بلا ريب اليه ، وخاصة عندما اكتشفن نيته باختطاف بعض السيدات . ان المؤلف يعرف كل هذا ولكنه للأسف لا يستطيع ان يتخذ لقصته رجلاً فاضلاً . غير ان هناك اوتاراً اخرى مازالت تهتز الى الآن ، وهي عذراء مجهولة . انه لمن الممكن ان تصادف رجلاً يتحلى بمواهب إلهية ، او فتاة روسية جميلة لامثيل لها في العالم ، حائزة على جميع فضائل الروح الانثوية . انه لمن الممكن ان يبدو جميع فضلاء العالم ، بجانب هذين الشخصين ، ساحبين كثيراً كما يبدو الكتاب ميتاً اذا قورن بالكلمة .

ان روسيا ستستيقظ ولا ريب ، وسيفهم العالم كم من الاسرار المستعصية على روح الشعوب الاخرى قد تغلغلت بعمق في الطبيعة السلافية . ولكن لماذا الكلام عما سوف يحدث ؟ اذ لا يجب على مؤلف نضج بعامل السن والحياة الداخلية القاسية ، ان يتصرف بعدم اكتراث كفتى صغير ، ذلك انه لكل شيء زمان ومكان !

اني لم ارغب باتخاذ الانسان الفاضل بطلا لسبب وحيد : هو ان الحين قد حان للفضلاء كي يستريحوا . ولكن لماذا ؟ لأن كلمة « انسان فاضل » اخذت تفقد قيمتها لكثرة استعمالها في يومنا هذا . اذ لا يوجد كاتب واحد الا ويمتطي ظهر « الرجل الفاضل » ويهمزه بسوطه حتى قتلت الفضيلة وتقلص ظلها ، فلم يعد يبقى منها الا الجلد والعظام . ان الناس يتكلمون عن الرجل الفاضل بنفاق وصفاقة وهم لا يحترمون الفضيلة . ولذا فقد آن الوقت لأن يذكر الاوغاد . فلنستخدم اذن الرجال الاندال .

لقد كانت ولادة بطلنا غامضة ؛ ولا يعلم غير الله وحده عما اذا كان أهله من النبلاء ومن اي نوع منهم : القدماء ام المستجدون . ان لم يكن يشبه احداً

الاطلاق ، الا انه امتاز بنشاطه ونظاميته . وابدى بالمقابل روحاً واقعية مدهشة حقاً . فقد فهم بسرعة خارقة مصلحته ، وعمل على جعل رفاقه يدعونه بكثرة ويقدمون له الحلوى دون ان يرد لهم شيئاً مقابل ذلك . بل كان غالباً ما يجني ما يأخذه منهم ثم يبيعهم اياه بعد ذلك عند الحاجة ، وقد اعتاد وهو طفل على ان يحرم نفسه من كل شيء فلم ينفق كوبيكا واحداً من المبلغ الذي اعطاه والده اياه . وفي نهاية السنة كان المبلغ قد تضاعف بفضل موهبته العملية المدهشة بالنسبة لمن هم في مثل سنه . ذلك انه صنع طيراً من الشمع ثم باعه لرفاقه بعد ان طلاه كما وجد طريقة اخرى لزيادة وارداته ، وهذه الطريقة تلخص في انه كان يشتري طعاماً من السوق ويجلس في الفصل بالقرب من اغنى الطلاب ، وما ان يلاحظ على وجه رفيقه ما يدل على ان الجوع قد بدأ يداومه حتى يقدم له كعكة يطلب منها نقداً حسب شهية الطالب .

واهتم خلال شهرين بفارة وضعها داخل القفص صنعه من الحشب ونجح في تعليمها كيف تقف على قائمتيها ، وكيف ترقد وتقف وتطيع جميع اوامره ، ثم باعها بعد ذلك بسعر جيد .

وعندما تجمع لديه خمس روبلات وضعها في كيس خاطه جيداً ، ثم ما عثم ان ملأ كيساً آخر .

اما سلوكه مع اساتذته فقد كان اكثر ذكاء . اذ لم يكن هناك انسان يمكن ان يمكث هادئاً اكثر منه داخل الفصل ، وكان استاذة يحب الصمت والسلوك الجيد ويشمئز من الطلاب الاذكياء الصاخبين . وذلك لانه يتوهم انهم يسخرون منه ، والويل كل الويل لمن كان يمتاز منهم بخفة روحه . فقد كان يكفي ان يأتي بجرعة بسيطة حتى يعاقب بشدة ويطرده من الفصل مع زجاجة ترافقه من الاستاذ : «يا صغيري ، سأحطم غرورك وعصيانك ، اني اعرفك يا صغيري اكثر مما تعرف نفسك ، انتظر قليلا وسأريك ، اركع ، هكذا انت محروم من الغداء !» ويفرك الصغير المسكين ركبتيه من الالم ويموت من الجوع اويكاد ، خلال ايام ، دون ان يعرف له

الذنب الذي اقترفه . وكان المعلم يصيح : « ان المواهب والمقدرة لا تهني ابداً ،
ان السلوك وحده ما يهني ! وانا اعطي اعلى درجة في جميع الدروس لمن لا يعرف
كيف يكتب اسمه ، ولكنه يعرف كيف يتصرف جيداً . واني لأعطي الصفر
لمن تظهر عليه الخفة والطيش ، حتى ولو كان اذكى الجميع ! »

هكذا كان استاذنا يناقش الامور ، وكان الى جانب ذلك يكره كريلوف
لانه كتب : « اشرب اذا شئت ولكن لتتبه الى ما تفعل ! » وكان ايضاً
يجب ان يتحدث طويلاً عن الهدوء الذي كان نجماً على صف سابق علم فيه ، فقد
كان سماع طنين طيران الذبابة فيه امراً متوفراً ، ولم يكن يشعر بوجود التلاميذ
داخل الفصل حتى ساعة قرع الجرس .

وفهم تشتشيكوف استاذة بسرعة ، وهكذا غدا سلوكه نموذجياً . فهو
جامد لا يتحرك فيه شيء ، بل لا يرف له جفن ، ولولا وخزه رفاقه بالدبابيس
فانه ما كان ليتحرك قط . وعندما يقرع الجرس كان يسبق جميع رفاقه ليناول
الاستاذ قبعته . كما انه عندما يخرج من المدرسة ، كان يقف ثلاث مرات في
طريق استاذة ليقدم له النحبة . وقد افلحت هذه الحطة واعتبره جميع الاساتذة
خلال سني دراسته نموذجاً للتلميذ الممتاز . ثم غادر المدرسة بعد ان حصل على
أعلى الدرجات في جميع المواد ، كما حصل على شهادة وكتاب كتب عليه بـ «
الذهب العبارة التالية : « هدية لنشاط مثالي وسلوك عاقل » .

وكان تشتشيكوف في ذلك الحين قد اصبح شاباً محبوباً يحاق لحينه . وقد
مات والده حديثاً . فورث عنه اربعة معاطف مهترئة وسترتين قديمتين ومبلغاً
تافهاً من المال . ان هذا الوالد كان يحسن اعطاء النصائح الثمينة لجمع المال ولكنه
لم يجمع هو بنفسه شيئاً . وباع بافل ايفانوفش البيت الصغير وقطعة الارض بمبلغ
الف روبل وعاد الى السكنى في المدينة مع عائلة عبيده . وكان يريد من ذلك
ان يختار لنفسه مهنة فيها .

وفي هذه البرهة طرد استاذہ القديم من المدرسة ، إما بسبب غيابه أو بسبب خطيئة عابرة ارتكبها . فاستسلم الرجل الذي يعشق الهدوء والحكمة للخمرة ، ثم انقطع عنها بسبب ضيق يده . واهمله الجميع فعاش في غرفة صغيرة يعاني آلام الجوع والحرمان . وعرف تلاميذه القدماء ، الذين طالما أنبهم بحالته فجاءوا له مبلغاً كبيراً من المال ، وباع بعضهم اشياء ثمينة يحتاجها كي يحصلوا لاستاذهم على المال اللازم . اما بافل اي فانوفتش فاعتذر بأنه لا يملك ثروة ودفع خمسة كوبيكات فقط ، فرماها رفاقه في وجهه وهتفوا به : « ايها التمس البذيل ! » .

أخفى المعلم وجهه بين يديه وبكى عندما علم بهذا التصرف النبيل من تلاميذه القدماء ، وقال بصوت ضعيف : « لقد أراد الله ان اذرف الدموع في ساعة الموت » . وعندما قصوا عليه ما كان من تشتشيكوف تنهد بحزن وقال : « يا به يا بافلوشكا ! كم يتغير الانسان . . . لقد كان طبيباً لا يعرف الى الغضب سبيلاً . . . لقد خدعني كثيراً ! » .

ولا يمكنني التصريح بان بطلنا قاس الى هذا الحد ، لا يشعر بعاطفة ما . لقد كان يشعر بالاشياء ولا يطلب اكثر من ان يساعد قريبه ، ولكن شريطة الا يتجاوز العطاء حداً معيناً ، فالمال الموضوع جانباً لتكوين رأسمال محترم ، يجب ان يبقى غير ملموس . ولقد اعطت نصيحة والده أكلها : « حافظ على مالك واجمع الكوبيكات ! » . ولم يكن بافل اي فانوفتش يحب المال لاجل ذاته ، ولم يكن بخيلاً ، ولكنه كان يحلم بمستقبل سعيد لا يعوزه فيه شيء : العربات والاملاك المنظمة والمآدب الفاخرة . ولتحقيق احلامه تلك كان يجمع الكوبيكات ويحرم نفسه من اشياء كثيرة كما يحرم الآخرين منها ايضاً . وكان تشتشيكوف يقف مسمرآ في مكانه عندما يرى رجلاً ثرياً يتنزه في عربة فخمة فيأخذ يتسم كما لو كان في حلم : « لم يكن هذا الانسان الا موظفاً بسيطاً في السابق ، وكان يخلق شعره بطريقة تعطي رأسه شكلاً مستديراً » . وكان يحدث

في نفسه اعمق الآثار كل ما من شأنه ان يوحى بالثراء .

فتش تششيكوف عندما غادر المدرسة عن وظيفة ؛ ولكنه لم يحصل الا على وظيفة صغيرة في المحكمة رغم شهادته الممتازة التي يحملها . فالانسان بحاجة الى الوساطات في كل مكان ، حتى ولو كان في الريف . ان ثلاثين او اربعين روبلاً في العام لمبلغ زهيد صغير ، إلا انه قرر ان يبدي نشاطاً عظيماً ، وان يتغلب على الصعوبات المختلفة ، وقد عرف في الواقع كيف يظهر رباطة جأش وثباتاً عظيمين ، مع صبر غريب لا يقوى عليه غيره . فكان يكتب من الصباح الى المساء ، دون ان يخشى التعب الجسدي او العقلي ، غارقاً بين اكداس من اوراق المحكمة . وكان لا يعود الى منزله في الاعم الاغلب فينام على مناضد المكتب ويتناول طعامه مع الحراس . وكان فوق كل ذلك يعرف كيف يظل نظيفاً ... لبقاً ... وكيف يعطي لوجهه شكلاً محبباً ، ولتصرفاته مظهر النبيل . ولنصف الى ذلك بأن موظفي المحكمة كانوا يتميزون على العكس من بافل ايفانوفتش بالقبح والعادات السيئة . وكان لبعضهم وجوه تذكر بالخبر الذي لم يتم نضجه بعد : خد منتفخ كثيراً وذقن ذئبة وشفة مشقوقة متورمة . وكانوا يتكلمون بقسوة حتى لكانهم يتأهبون لضرب احد او يقدمون ضحية لباخوس ، مبهزين في ذلك على ان الطبع السلافي فيه بعض الاتجاهات الوثنية . وكانوا غالباً ما يأتون الى مكاتبتهم ثخينين ، فيصبح الهواء ثقيلًا خانقاً مسمماً ورائح الكحول . وبطبيعة الحال برز تششيكوف من بين مجموع زملائه هؤلاء ، وكان لا يشرب ابداً ، بينما كان وجهه سالماً وصوته عذباً ومع ذلك فحياته قاسية . وكان يعمل تحت إمرة كاتب مسن يمثل عدم الحساسية التامة واللامبالاة المطلقة . ولم يكن بالامكان التفاهم معه ، فهو لا يتسم ابداً ولا يسأل عن صحة مرؤوسيه مطلقاً . ولم يشاهده مخلوق ، سواء في البيت او في الطريق ، مختلفاً عما هو عليه . كما لم يشاهده احد يشرب حتى يصل الى حانة السكر التي تسمح له بالضحك ، انه لم يستسلم قط الى أحد هذه المباهج التي يستسلم لها القاتل نفسه حين يشمل . لم يكن

فيه شيء جيد او قبيح . وهذا التحرر من كل فكرة او شعور كان يبدو مخيفاً حقاً . وان له لوحاً رخامياً لا يلاحظ فيه شذوذ بارز ولا يشبه مخلوقاً . كان وجهه يمتاز بتناظر قاس ؛ وكان يمكن القول ، حسب التعبير الشعبي ، بأن الشيطان قد سحق عليه ، في الليل ، بضع حبات من الحمص . انه ليستحيل ان تحصل علاقات مع رجل كهذا او ان تحصل صداقة . ولكن تشتشيكوف بالرغم من كل هذا حاول صنع شيء فبدأ اول الامر بتفاصيل صغيرة لاتعني شيئاً . فبعد ان فحص الريشات التي يستعملها رئيسه للكتابة برى له منها عدة ريشات ووضعها بالقرب من محبته وكان فوق ذلك ينظف طاولة من التبع والرمل ويناوله قبعته (وهي قبعه فظيعة) عندما بهم بالانصراف . وكان تشتشيكوف ينظف ايضاً معطف رئيسه بالفرشاة اذا ما اتسخ بالحوار . ولكن جميع هذه الاشياء ظلت دون جدوى ولم يتنازل الرئيس لملاحظتها .

استعلم بعد ذلك تشتشيكوف عن حياة رئيسه العائلية فقبل له ان له ابنة في سن معينة وتشبه في وجهها الجامد اباه الى حد بعيد ، فقرر تشتشيكوف ان يوجه هجومه من هذه الناحية ، فاخذ يذهب في ايام الاحاد الى الكنيسة التي تصلي فيها هذه الفتاة ويقف تجاهها مؤدباً حسن الهندام . واخيراً انتهى هذا الجهد بنجاح عظيم ، فقد تأثر الكاتب الهرم الجاف ودعاش تششيكوف ليتناول معه الشاي . ولم يعرف احد من الموظفين بما يجري الا بعد ان انتقل بافل ايفانوفتش الى بيت رئيسه واصبح شيئاً ضرورياً فيه . فكان يقوم بشراء السكر والدقيق ويتصرف مع الفتاة كخطيب ويدعو رئيسه « بابا » ويقبل له يديه . واقسم الموظفون ان الزواج سيتم قبل بدء الصوم الكبير (١) . وتوسط الكاتب الخفيف لتشتشيكوف لدى المحكمة . فشغرت وظيفة سرعان ما عين فيها ايفانوفتش . وهكذا توصل بطلنا الى هدفه فغادر منزل رئيسه القديم واقام منذ اليوم الثاني في سكن جديد ولم يعد ينادي صديقه « بابا » كما لم يعد يقبل يديه . وانقطع الناس عن الحديث عن الزواج . ومع ذلك فقد كان بافل ايفانوفتش يضغط يد

(١) الصوم الكبير هي الايام الاربعون قبل عيد الفصح .

صديقه القديم بود كلما صادفه ويدعوه الى تناول الشاي عنده . وكان الشيخ الجامد
وغم جموده وبروده يحني رأسه ويتمتم : « لقد خدعتني ... لقد خدعتني
يا ابن الشيطان ! » .

وهكذا اجتاز تشتشيكوف الخطوة الاولى والصعبة ، فأصبحت حياته إذ
ذاك سهلة عذبة ، واصبح هو بسرعة رجلاً هاماً في القصر الحكومي . ولم لا ، فانه
يملك جميع الصفات اللازمة : يملك السلوك المحبب مع الجراة في الاعمال ، وقد
عرف بافل ايفانوفتش الى جانب ذلك كيف يستفيد من وظيفته ويجعلها مثمرة .
وفي ذلك الحين كانت الملاحقات الصارمة تجري بحق الموظفين المرتشين .
ولكن هذه الصرامة لم تخف تشتشيكوف فقد عرف كيف يحولها لمصلحته
مظهراً في ذلك روح ابتكار روسية تستيقظ دوماً في عصور الطغيان . كان
يتصرف على الشكل الآتي : منذ ان يتقدم اليه مراجع ما بكتاب توصية من
الأمير كرنفسكي (١) (كما كان يقال عندنا في روسيا) فانه يعتدل في مكانه
ويقول مبتسماً :

« لا ... لا ... لا تعتقد اني ... ان هذا من واجبنا ونحن لانسعى الى المكافأة .
تفضل باعطائي عنوانك ولن تحتاج بعد ذلك الى اي إزعاج ، ا اننا سنعلمك
بالنتيجة بأنفسنا » .

ويعود المراجع الى منزله مسروراً وهو يقول : « هوذا اخيراً رجل نحتاج
الى المزيد من امثاله .. انه لجوهر نادرة ... انه لكنز اي كنز ! » . وينتظر
يوماً او يومين فلا يأتيه انسان ، وكذلك في اليوم الثالث لا يحدث شيء .
فيعود الى المحكمة ليرى ان عمله لم يتحرك قيد أنملة ، فيسرع اذ ذاك الى
الجوهر النادرة . فيأخذ تشتشيكوف يده بلطف ويقول : « عذراً .. ارجو
المعذرة ، لقد كان عندي كثير من الاعمال ، ولكن كن على ثقة ان الامر
سينتهي غداً ، بلى ، غداً دون ريب .. اني محتجل منك حقاً .. » . ويصحب

(١) ورقة مالية

هذه الكلمات بحركات بهلوانية كأنه مشعوذ . وتمر الايام فلا يتم شي . ويستلم المراجع فيفهم ان عليه ان يدفع مبلغاً بسيطاً للموظفين :

- ولماذا لا ادفع روبلا او اثنين فقط ؟

- لا ... يجب عليك ان تدفع قطعة بيضاء .. يجب ان تدفع خمسة وعشرين روبلاً .

- كيف ... بطاقة بيضاء برمتها الى الموظفين ؟

- اوه ! لا تغضب فالموظفون لا يحصلون الا على روبل واحد ، واما الباقي فانه يأخذ طريقه الى الرئيس .

فيضرب المراجع على جبهته بقبضة يده ، ويلعن الحالة الجديدة والملاحقات عند المرتشين وعذوبة الموظفين ويقول :

- كنا نعرف في الماضي على الاقل كيف نعمل ... فقد كنا نعطي روبلاً واحداً للرئيس فيسير العمل ... اما الان فيجب دفع مبلغ خمسة وعشرين روبلاً واطافة اسبوع لمعرفة ما يجب عمله ... ألا فليذهب الشيطان بشرف الموظفين .

وهذا المراجع على حق بلا ريب فالرؤساء جميعهم شرفاء والموظفون وحدهم اللصوص .

وفتح امام تششيكوف مجال واسع للعمل ، فقد تألفت لجنة لاسادة بناء حكومي ، واصبح بافل ايفانوفتش من انشط اعضائها .

اخذ الجميع بالعمل ، ومرت ست سنوات دون ان يتقدم هذا البناء مرحلة الاساسات اما بسبب رداءة الجو او لنقص المواد ، واستطاع كل عضو في هذه الاثناء ان يبني في طرف المدينة بيتاً صغيراً جميل المظهر . ذلك ان الارض في تلك المنطقة يجب ان تكون احسن منها في وسط المدينة .

وفي ذلك الحين ترك تششيكوف شيئاً بعد شي . قواعد نكران الذات

القاسية التي جعلها دوماً رائده . وقرر ألا يحرم نفسه شيئاً وأظهر عند ذلك أنه يحب جميع هذه المباح التي حرم نفسه منها منذ شبابه . منذ ذلك العهد الذي لا يملك الإنسان فيه زمام أمره .

ومع تششيكوف لنفسه ببعض المبالغات فحصل على طاه ممتاز وارتدى القمصان الهولندية الجميلة واشترى أقمشة لا يرتدي منها أحد في الريف ، وأصبح لون ثيابه بعد ذلك كستنائياً وحصل على عربة وجوادين ، وكان يقود عربته بنفسه كما اعتاد على الاغتسال بصابون معطر وبناء الكولونيا الغالي الثمن .

وحدث أن عين رئيس للمحكمة جديد ، وكان رجلاً عسكرياً يكره الرشوة والميوعة . وقد أربح جميع الموظفين منذ وصوله ، وطلب دفاتر الحسابات وأخذ يفحصها بدقة . وكان المال ناقصاً في الصندوق ، ذلك أن الموظفين قد بنوا لأنفسهم بيوتاً في الأحياء البعيدة من المدينة . وهكذا بدأت عملية التطهير ، فسرّح بعض الموظفين وصودرت ممتلكاتهم ونحوّلت إلى التاج لاستخدامها كمدراس أو مبشرات . وعانى الجميع من قسوة الرئيس الجديد ، وعانى تششيكوف أكثر مما عاناه الجميع . ذلك أن تصرفاته اللبقة لم تعجب الرئيس لسبب لا يعلم به إلا الله فنقم عليه حتى الموت .

كان الجنرال اذن قاسياً صلباً . وبما أنه كان عسكرياً يجهل مداورات المدنيين ، فقد عرف الموظفون أخيراً كيف يكسبون ثقته بتذللهم وخضوعهم التام دون قيد أو شرط . وهكذا وجد الرئيس الجديد نفسه سريعاً بين أيدي ، عصابة من اللصوص أخطر من الذين سبقوهم . وكان هو سعيداً بامتلاكه ناصيتهم ويفخر بأن لديه رجالاً لهم هذه الصفات النادرة .

هكذا فهم هؤلاء الموظفون نفسية رئيسهم ومزاجه ، فتابعوا ظلمهم بحماس صيادي الفولغا ، فاجتمع لديهم من هذا الصيد الثمين رأسماله من ألوف الروبلات . عند ذلك عرف عدد من قدماء الموظفين هذه الحقيقة عن نفسية الرئيس فاستطاعوا العودة إلى وظائفهم .

الا ان تشتشيكوف لم ينجح رغم جميع ما بذل من الجهود ان يحصل على رضى الرئيس . ومع ذلك فقد حاول سكرتير الجنرال الخاص ان يحصل له على وظيفة بواسطة الامير كونفسكي ، ولكن ذلك كان مستحيلاً . إذ انه من السهل ان يقاد الجنرال من انفه ، ولكن ما إن تستقر في ذهنه فكرة ما حتى تلتصق فيه كأنها مسمرة ولا يستطيع احد مهما اوتي من حجاج ان يغير منها . وكل ما استطاع السكرتير عمله حذف الحواشي المحقرة التي كتبت في سجل خدمة بافل ايفانوفتش . ولم يتوصل الى هذا الا بعد ان اثار شفقة الرئيس على عائلة تشتشيكوف ، وهي عائلة لم يكن لها لحسن الحظ وجود .

حدث بافل ايفانوفتش نفسه قائلاً : « وماذا ؟! . لقد انقطع الشعر الذي القيته ، والدعوى لم تعد تجدي فتيلاً ، فيجب ان اعاود العمل ، فقرر ان يحترف مهنة جديدة ، وتسلمح من جديد بالصبر ، وعزم ايضاً على احتمال الفقر والحرمان كالسابق ، وكان عليه ان يقصد مدينة اخرى ويعرف اوساطها به . وعانى كثير من المشقة في بادىء الامر ، وتقلب في فترة قصيرة بين ثلاث وظائف ، لانها كانت كلها قدرة محقرة . ويجب ان نذكر هنا بان تشتشيكوف كان يتصرف دوماً كرجل اجتماعي لبق . ومع انه اجبر في السنوات الاولى على ارتياد وسط قدر يبعث على الاشمئزاز ؛ فقد عرف كيف يحتفظ بصفاء روحه ونقاها متطلعاً دوماً الى العمل في المكاتب ، حيث يوحى كل شيء هناك بالاستقرار الطيبة . ولم يكن يسمح لنفسه مطلقاً ان يتفوه بكلمة نابية ، وكان يشتم كثيراً اذا لاحظ من زملائه عدم احترامهم للالفاظ والطبقات .

ولا شك في ان القارىء سيرى اذا علم بانه كان يغير ملابسه كل يومين في فصل الشتاء ، وكل يوم في فصل الصيف . وكانت الروائح الحبيثة تجعله مريضاً لذلك كان يحشر في أنفه زهرة قرنفل عندما كان بتروشكا يساعده على خلع ملابسه . وكان بافل ايفانوفتش مرهف الحس كالفتاة ، ولذلك كان من الشاق

عليه ان يجد نفسه في وسط تسيطر فيه البذاءة والادمان على بنت الحان .
وحاول ان يضبط اعصابه ولكنه عانى الكثير من جراء ذلك ، وانتابه الهزال
بشكل مفرغ . وهتف ذات يوم وهو ينظر في المرأة : « لقد اصبحت قبيحاً »
وانقطع عقيب ذلك مدة طويلة عن الاعتناء بهندامه أمام المرأة .

احتمل بطلنا هذا البؤس بصبر واستسلام ونجح اخيراً في الحصول على وظيفة
في الجمارك . وكان قد رأى كيف يحصل على رجال الجمارك على الاشياء الثمينة
الآتية من الخارج ، كما شاهد الاقمشة الغالية والحزف الجميل الذي يرسلونه الى
صديقاتهم وخالاتهم وشقيقاتهم . فقال لنفسه اكثر من مرة متنهداً : « هوذا
العمل الذي يجب ان احصل عليه فأصبح قريباً من الحدود واصادف أناساً
اكثر مدنية ... واستطيع ان احصل بسهولة على قمصان هولندية فخمة ! » .
ويضاف الى ذلك ان نشتشيكوف كان يفكر في الصابون الفرنسي الجيد الذي
يجعل البشرة بيضاء ناصعة ، ويسبغ على العذارين نعومة لا توصف . ولم يكن
يعرف اسم هذا الصابون ، ولكنه كان واثقاً من إمكان وجوده على الحدود .
وكان بافل ايفانوفتش عضواً في لجنة الابنية عندما خطر له للمرة الاولى
ان يدخل في خدمة الجمارك . ولكن كان هذا الامر بدا له حلماً بعيداً ولم يكن
ليترك الفريسة من اجل ظل ، ولم يكن ليفلت من يده العصفور الصغير من
أجل « كركي » رآه وسط الغيوم . وهكذا ، ومنذ ذلك الحين قام بعدة مساع
لتيوظف في الجمارك ، وقد نجح في ذلك اخيراً .

اظهر نشتشيكوف مباشرة نشاطاً عظيماً فوق كل ثناء وكأنه ولد موظفاً
في الجمارك . ذلك انه ابان دقة وذكاء عظيمين . وفي غضون ثلاثة او اربع
اسبوع وجد بافل ايفانوفتش نفسه مطلعاً على جميع دقائق مهنته الجديدة .
ولم يعد بحاجة الى الوزن او القياس ، اذ انه كان يعرف من الفاتورة كم يحوي
هذا الصندوق من الاقمشة او من المواد الاخرى . وكان يكفي ان يلمس (بالة)

خبيثاً هدم البناء رأساً على عقب ، فقد تخاصم الشريكان ونشب بينهما عداوة حتى الموت . ذلك ان تششيكوف حدث ان دعا زميله مرة بعد مناقشة ربحاً شرب اثناءها « بابن الكاهن » ورغم ان هذا الاخير كان فعلاً ابناً لكاهن فقد شق عليه ان يذكره احد بأصله فأجاب بعنف : « انك تكذب ! ... أنت ابن الكاهن » وردد عدة مرات : « تماماً . . . انت ابن الكاهن ! » وكان بالامكان اعتبار الامر منتهياً بعد هذا الرد على تششيكوف . الا ان الموظف لم يكتف بذلك بل ارسل تقريراً سرياً كشف فيه النقاب عن نشاط تششيكوف . ومع ذلك فقد ساءت علاقاتها قبل ذلك بسبب امرأة جميلة يشبه لحنها المكتنز الطري اللفت على حد تعبير موظفي الجمارك .

واستؤجر بعض الرجال لقتل بطلنا ولكن الشريكين سرعان ما وجدا نفسيهما مخدوعين اذ ان هذه المرأة قد فضلت عليها الكابتن شامشاريف . وماذا يهم ذلك كله ، فان القاريء باستطاعته ان ينسج ما يشاء حول هذا الحادث ولكن الشيء الذي لا يمكن اصلاحه هو اطلاع الادارة على علاقات بافل ايفانوفتش السرية مع المهربين . وفقد الشريك وظيفته وجر معه تششيكوف . ووقف الموظفان وصودرت أموالهما . ومات بعد ذلك زميل بافل نوفتش في زاوية مجهولة من الريف ، اما تششيكوف فلم يدع العاصفة تجتاحه ، اذ انه نجح في اخفاء قسم من ثروته وخدع أبرع مفتشي البوليس الذين كلفوا بالتحقيق في الحادث .

وقد عرف ايضاً كيف يدافع عن نفسه مستخدماً في ذلك ذكاه ، وفتنه مظاهره ، وحرارة خطبه ، والتعلق الذي لا يسيء الى احد ، كما استخدم الى جانب كل ذلك المال . وهكذا افلت بافل ايفانوفتش من العدالة ، فكان اسعد من حظاً من زميله الواسي .

وقد خسر ، بالتأكيد ، رأسماله والهدايا التي كانت تأتيه من الخارج ولكنه

كان يملك عشرة آلاف روبل احتفظ بها للأيام السود ، وبعض القصص الهولندية وعربة من النوع الذي كان يستخدمه العازبون ، وعبدان هما سليفان الحوذي وبتروشكا ، وتأثر الموظفون من زملائه بالمصيبة التي نزلت بساحة رئيسهم السابق فأعطوه بعض الصابون الفرنسي الذي يحافظ على نعومة الحدود ، لذلك فانه عندما كان يقول : « وهكذا قاسيت كثيراً في خدمتي الحقيقة ... » كان يشير بذلك الى البلية التي انتقضت على رأسه

ان القارىء ليعتقد من دون ريب بأن تشتشيكوف بعد ما مرت به هذه المحن والأحزان ، وتلك الكارثة الاخيرة ، قد اعتكف في مدينة صغيرة لينعم بحياة هادئة . وهناك يرتدي دوماً ثوبه المنزلي ويقضي ايام الآحاد في فض منازعات الفلاحين . ثم يذهب بعد ذلك لينتقي بنفسه الدجاجة التي سيأكلها مساء . ويقضي حياته هكذا دون إحداث ضجة . ولكن القارىء . بلا شك واهم ، ونحن نعتقد لكل تأكيد ، بقوة تشتشيكوف المعنوية النادرة . ان هذه العواصف لم تهدىء او تخفف من حدة بطلنا ولم تطفىء جذوة الحماس التي كانت تتقد فيه مطلقاً . كان اذن يرزح تحت وطأة الآلام فثار على العالم أجمع ولعن الحظ وجور البشر . ثم قرر ان يجرب حظه من جديد في ميدان آخر . وأظهر ثباتاً وحرارة يبدو أمامها حب الالمان باهتاً ، وهم الشعب الذي يمتاز بدورة دموية بطيئة . لقد كان تشتشيكوف على العكس من هؤلاء الالمان تماماً ، اذ ان دمه كان يجول فيه بعنف وكان لا بد من عقل راجح وارادة قوية تكبح جماح هذا الغنوان الذي يطلب ان يشب ويعبر عن نفسه بحرية .

أجرى بطلنا المحاكمة الصائبة الآتية : كيف حصل ذلك ؟ ولماذا انصبت هذه المصائب فوق رأسي ؟ ومن لا يغتني من الوظيفة ؟ اني لم أشق انساناً قط . لم اسرق أموال أرملة ولم أسلب أحداً مزره . لقد استفدت من العمل الذي يقدم عليه اي انسان ، ولولم أقدم عليه لاستفاد منه انسان آخر . ثم لماذا نجح هؤلاء في حين أصابني الفشل ؟ كيف لا أشعر بتبكيت الضمير اذا ما أضعت وقتي

سدى ؟ وماذا سيقول اولادي فيما بعد ؟ انهم بلاريب سيقولون : لقد كان والدنا وغداً . . انه لم يترك لنا شيئاً .

ونحن نعلم ان بافل ايفانوفتش كان يفكر كثيراً في سلالته . وهي مشكلة مؤثرة ، اذ من الذي يثابر على نشاطه ويلاحق اعماله بنفسه لولا وجود مشكلة الاولاد ومستقبلهم ؟ وهكذا فان أب المستقبل يشبه الى حد كبير قطعاً حذراً ينظر بطرف عينه ما اذا كان صاحبه حاضراً ؛ وحين لا يرى انساناً يأخذ جميع ما يعثر عليه بالقرب منه ، سواء كان ذلك صابوناً او شمعاً او عصفوراً صغيراً ولا يدع شيئاً يفلت منه . كان بافل ايفانوفتش يئن ويشكو اذن ، ولكن الرغبة في العمل كانت تستيقظ في داخله ، وكانت الافكار ترددهم في ذهنه ، الا ان ما كان يعوزه فقط ، هو الحطة الدقيقة المحكمة .

ومن جديد عاد الى الحياة القاسية وحرم نفسه كل شيء كما تخلى عما اعتاد عليه من حياة رخيصة ناعمة . فقبل وظيفة وكيل اعمال بانتظار عمل أفضل . ولم تك هذه الوظيفة قد اخذت حقها بعد من الاحترام في روسيا . فالوكيل كان محتقراً من قبل أي موظف صغير ، ومن قبل الذين يستخدمونه ، وغالباً ما كان يجد نفسه هدفاً لقسوة الناس وبذاءاتهم .

وفي ذات يوم كلف برهن مائة عبد قن . وكان وضع صاحب الفلاحين سيئاً جداً ! فالموسم ردي . والمواشي أصيبت بالأوبئة وانتشرت امراض اودت بكثير من العمال ، والى جانب ذلك كله كان الملاك طائشاً . فقد بنى منزلاً فخماً في موسكو أنفق عليه آخر كوبيك يملكه . وكاد ان يموت من الجوع ، والافتراض من الدولة ، كان امراً جديداً لا يقدم عليه احد دون رهبة وخوف .

قام تششيكوف بصفته وكيل الملاك بالخطوات الاولى اللازمة . ولم يكن في الامكان تقديم اي طلب دون دفع ثمن زجاجة من المادير لكل موظف . وأوضح بافل ايفانوفتش بعد ذلك ان العبيد موتى وسأل ما اذا كانت هناك صعوبات ستنبجم عن ذلك في المستقبل . فأجاب السكرتير : « ان اسماء هؤلاء

الموتى مسجلة في لوائح الأحصاء ، أليس كذلك ؟ اذن لماذا تقلق نفسك بسبب ذلك ؟ ان الاولين يموتون ثم يولد آخرون مكانهم فيستقيم بذلك الحساب . وكانت هذه الكلمات بمثابة كشف جديد بالنسبة الى تششيكوف ففكر : « لكم انا ابله ... اني افتش عن الققاز بينا هو معلق في سطبي ... اني اشتري نفوساً مينة قبل الاحصاء الجديد ... وليكن عددهم ألفاً مثلاً . فمؤسسة القروض تقرضني مقابل رهن هؤلاء الفلاحين مائتي روبل عن كل عبد ، فيصبح في حوزتي رأسمال قدره مائتي ألف روبل . ان الظرف مناسب فالأوبئة منتشرة وقدمات عدد كبير من العبيد ، كما ان الملاكين قد خسروا في القمار ، أو بذروا أموالهم في اللهو ، أو أن الديون قد أرهقتهم فذهبوا الى بطرسبرج يفتشون عن الثروة . ان املاكهم مهمة ودفع الضرائب صعب عليهم ، لذلك فسيتدخلون لي بسرور عن أموالهم ولو كان ذلك في سبيل الخلاص من دفع الضرائب عنهم ... ان هذا للعب وجريء ، ولكن علي أن أخطر ! والا فلماذا وهب الانسان الذكاء ؟ ن ما تخلصني هو كون الامر غير معقول بمجد ذاته فلا يصدق به انسان ! ولا يمكن بالتأكد شراء عبيد او رهنهم دون ارض ، ولكني سأشتريهم وارسلهم الى مناطق جديدة أستغلها ، إذ أن الاراضي تمنح دون مقابل في حكومتي خرسوك وتوريد وما على الانسان الا سكناها ! وهكذا ارسل اليها نفوسي المينة . واذا واذا أراد أحد أن يتحقق من صحة وجود هؤلاء الفلاحين فاني ابرز له العقود الشرعية الموقعة من قبل الكابتن اسبرافنيك في المنطقة التي تم فيها الشراء . واما القرية فيمكن ان أسميها بقرية تششيكوف ، او أن أدعوها باسم المعمودية « قرية بافلوفسكي » . وهكذا وضع بافل ايفانوفتش هذه الخطة الغريبة . وسواء أأرضت القارئ أم لم ترضه فان المؤلف يمتن في قرارة نفسه من بطله هذا ، لانه لو لم يتبع هذه الخطة لما كتب لهذه القصة ان تأخذ طريقها الى عالم الوجود .

ورسم تششيكوف اشارة الصليب على الطريقة الروسية وباشر بتنفيذ خطته دون تهيّب . وقرر ان يدرس بنفسه مناطق بلادنا المختلفة متذرعاً بحجة تغيير

حل إقامته ، كما قرر ان يدرس بصورة خاصة المناطق التي قاست كثيراً من
المواسم السيئة وارتفاع نسبة الوفيات فيها اكثر من غيرها . فقد كان يستطيع
ان يشتري منها ، بسعر ارخص ، النفوس الميتة التي يحتاج اليها . ولم يتوجه
مطلقاً الى اي ملاك بل كان يختار الاشخاص الذين يتوسم فيهم الليونة في مثل
هذه العمليات . وكان بافل ايفانوفتش يعقد علاقات مع الشخص ويسعى لكسب
ثقته كي يحصل على ما يريد باسم الصداقة اكثر منه باسم عقد صفقة .

ولا يجب على القراء ان يعضبوا اذالم تعجبهم شخصيات هذه القصة فتشتشيكوف
وحده هو المسؤول عن ذلك ، وهو هو السيد وعلينا ان نتبعه حيث تقوده
رغبته . واذا اتهمنا بعضهم بعدم الانسجام في الابعاد وبضالة الاشخاص
واقلامهم ، فاننا سنجيب بكل بساطة بان الفكرة العميقة للمؤلف لا تنكشف
مطلقاً منذ البداية .

ان الوصول الى مدينة او الى عاصمة هو دائماً شيء باهت اللون . إذ ان كل
شيء قائم رتيب . وفي كل مكان مصانع ومعامل لا تكاد تنتهي قد اسودت
بالدخان . اما البيوت المؤلفة من ستة طوابق ، واما الشوارع العريضة وأجراس
الكنائس والاعمدة والآثار والابراج وكل الضخامة وعظمة منتجات الفكرة
الانسانية ... اما كل هذه الاشياء فانها لا تتكشف الا بعد ذلك .

ان القارئ يعرف الآن كيف تمت صفقات تشتشيكوف الاولى ، وسنرى
فيما يلي ما ينتظر بطلنا من نجاح وفشل ، وكيف سينتظر على أصعب العقبات .
ان الطريق طويلة أمامنا عبرتنا التي تقل تشتشيكوف وبتروشكا وسليفان وهناك
ما زالت (فرسات) طويلة .

اننا نعرف بطلنا كما هو ، وربما طلب البعض اعطاء صورة نهائية مرسومة
دفعه واحدة تبرز فيها طبيعته الاخلاقية . انه من الذين لا يملكون فضيلة ولا
كلاً ... وهذا أمر معروف عنه فمن يكون إذن ؟ أهو وغد ؟ ولماذا يكون
وغداً ؟ ثم لماذا هذه القسوة في نظرنا الى الآخرين ؟ انه لا يوجد في روسيا

أوغاد في عصرنا هذا ولا نعرف الا رجالاً دمثين طيبي النية . والذين اهينوا
بصفهم علناً نادرون نعرف منهم اثنين او ثلاثاً . ومن الافضل ان ندعو بأفل
ايفانوفتش « بالسيد الجامع » . إذ أن الجمع يظل دوماً علة كل شيء ، فهو أصل
جميع العمليات التي يصفها بأنها ليست نظيفة جداً . وانه بكل تأكيد يوجد في
هذا الخلق ما يدفع على الاستمزاز . ومع ان القارىء يصادف في كل يوم انساناً
من هذا الطراز ويقاسمه الحُبز والملح ، ويعيش معه ساعات لطيفة ، فانه يحتقره .
ويستبئز منه اذا صادفه بطلاً للمأسة او قصيدة . ان العاقل هو الذي يلقي دون
حقد نظرة فاحصة على الاشياء ويسبر غور جميع الطبائع ويدرس منها اكثر
المظاهر خفاء . ان كل شيء يتغير سريعاً في الانسان ، وتنمو في اعماقه بسرعة
فائقة دودة مخيفة لا تكتفي بأن تأخذ شكل عاطفة مخيفة فحسب بل تأخذ ايضاً
شكل هو بسيط لا معنى له . وهكذا فان هذا الرجل الذي خلق لحياة جميلة
وشريفة ، ينسى واجباته العميقة المقدسة معتقداً انه وجد العظمة والقداسة في
اعمال صغيرة لا معنى لها . ان العواطف الانسانية كثيرة في عدد حبات الرمل
على شاطئ البحر ، وكل منها لا تشبه الاخرى ، وهي بمجموعها ، سواء كانت
رفيعة أم منحطة ، تكون بادىء الامر عبدة للانسان ثم لا تلبث ان تصبح
بالنسبة اليه السيدة الطاغية .

سعيد هو الانسان الذي يستطيع ان ينمي في نفسه عاطفة ما ، فان سعادته
العظيمة اذ ذاك تنمو وتتسع من ساعة الى اخرى ومن دقيقة الى دقيقة ، وتتعمق
في اجواء روحه اللامتناهية . الا ان هناك عواطفاً ليس للانسان ان يختارها ،
فهي تولد معه وليس في مقدوره ان يرفضها ، فتكمن فيه حتى الموت . وكل هذه
العواطف تعمل على احداث سلسلة من الاشياء يجهلها الناس حالياً :

ربما كانت العاطفة التي تحفز تششيكوف غير صادرة عنه . وربما كانت حياته
المظلمة الباردة تحتوي على عنصر سيجعل الرجل في المستقبل يركع على ركبتيه
امام حكمة السماء . أليس ظهور مثل هذا الوجه في هذه القصة سراً ؟ لا يهمني

ن لا يرضى القارىء عن بطلاننا متناً كد من ان تشتشيكوف نفسه يمكن ان يرضى قرائي ، وهذه الثقة ثقيلة على نفسي . فلو لم اتعمق في اغوار نفسه واحرك فيه ما يخفى عادة ، ولو لم اكشف عن الافكار السرية التي لا يفصح عنها الانسان مطلقاً لاشباهه ولو صورته كما بدا لما نيلوف ولمدينة (ن ...) الصغيرة : لو فعلت كل ذلك .. اذن لهتف الجميع : كم هو مسل هذا الرجل بافل ايفانوفتش . ولو فعلت ذلك لما قلقلت نفوسهم ولتابعوا اللعب بالورق بعد قراءة هادئة ، هذه اللعبة الوطنية حقاً والتي تعزي روسيا بكاملها عن آلامها .

لم تكونوا لتودوا ، أيا قرائي الاعزاء ، ان تروا البؤس البشري عارياً على حقيقته ؛ انتم تقولون : « لماذا ؟ وما المقصود من ذلك ؟ أفلا نعرف بان الحقارة والحق موجودان ؟ ان الاشياء المعزية قليلة في حياتنا ولذلك نفضل ان نجد الجمال والبهاء في العمل الادبي فنحن نريد ان ننسى . »

وهكذا فان الملاك يقول لوكيله : « لماذا تروي لي يا أخي بان اعمالى تسير سيئاً سيئاً ؟ أليس لديك ما نقوله لي غير ذلك ؟ دعني أنس إحزاني واعمل على جعلى سعيداً ! » وبهذه الصورة يتبخر الماء الذي كان يمكن ان ينقذ البيت ، اجل يتبخر في سبيل تعزية السيد . وهكذا فان فكر الانسان ينام عوضاً عن ان يبحث عن سبل الاصلاح . ثم يأتي اليوم الذي تباع فيه الاملاك بالمزاد في حين يبحث السيد عن النسيان ويتدهور من سيء الى اسوأ .

لربما اكون قد أغضبت بعض من يدعون الوطنية الذين يقعون بهدوء قرب النار مهتمين بأعمالهم الصغيرة التافهة ويزيدون ثروتهم ، ويبنون سعادتهم على حساب الآخرين . ولكن ما إن يقع حادث يسيء في رأيهم الى الوطن ، وما إن يصدر كتاب يعرض لحقائق قاسية حتى يهتزون ويحين جنونهم كالعناكب حين ترى ذبابة عالقة بخيوطها وبصيحون : « ما الفائدة من كشف هذه الامور ؟ ان هذا كله يتعلق بنا فقط ... وماذا سيقول الأجانب ؟ انهم سيكونون رأياً سيئاً عنا .. بالهصيبة ! لقد انعدمت الوطنية . » واني لأعترف بعجزى عن الاجابة على هذه الملاحظات العاقلة خاصة فيما يتعلق بالأجانب ومع ذلك ...

كان رجلان يعيشان في زاوية مفقودة في روسيا ، وكان أحدهما ، وهو
كيفامو كيفتش ، رجلاً هادئاً يقضي حياته في ثيابه المنزلية . ولم يكن يلتفت
لأسرته ويكتفي بحياة نأملية ولاهتم الا بمحل المشاكل الفلسفية كالشبكة التاليتة
التي كان يحدث نفسه بها وهو يذرع ارض غرفته : « هوذا مثلاً حيوان اتى الى
هذا العالم عارياً ... فلماذا ولد عارياً ولماذا لم يولد كالطائر الذي يخرج من
البيضة ... حقاً انه كلما تعمقنا بالاشياء كلما قل فهمنا لها »
كان صاحبا كيفامو كيفتش يتفلسف .

واما ثاني فكان يدعى موكي كيفوفتش وهو ابن كيفامو كيفتش. وكان فارساً شجاعاً او « بوغاتير » كما يقال عندنا في روسيا . وفي حين يسعى ابو الى تعليل ولاة الحيوانات ، كان موكي يطلق العنان لطبيعة المنبسطة ولم يكن يلهس شيئاً ويتركه كما هو ، ولذلك كنت ترى على طريق ذراعاً مقطوعاً هنا وانفاً محدوداً هناك .

وما إن يظهر في البيت حتى يهرب الجميع ، من الخادمه الى السكاب ، بأنفاس مبهورة . وفي غرفة نومه حطم سريره وجعله قطعاً صغيرة ... هكذا كانت موكي كيفوفتش . ومع ذلك كان طيب القلب . وكان الاصدقاء والأغراب يقولون للوالد : « اسمع يا باتيوشكا كيفامو كيفتش ... ان ابنك موكي كيفوفتش شقي كبير فلا مجال للدعة معه » . فكان يجيب : « نعم انه صاحب قلباً ، ولكنني لا استطيع شيئاً فقد فات الأوان ولن أقاتل -عه الآن ليقل عني أب سيء انه يعتد بنفسه فاذا قومت سلوكه أمام الأغراب فانه سيستكن ولكن البلد ستحدث كلها عماسيجري بعد ذلك وسينعتونه بأنه كلب . لا تعتقدوا بأن سلوك ولدي لا يعينني ... ألسنت أباه ؟ اني أهتم بالفلسفة ، هذا صحيح ولكنني مع ذلك أبوه ... اني أبوه وليذهب بهم الشيطان جميعاً ... اني أحمله في قلبي » ويضرب كيفامو كيفتش على صدره ضربات قوية ويزجر : « اذا كان

كالباً فليبق كذلك فلست الذي يقول ذلك ... ولست الذي يخون ولده .
ويتصرف هكذا كأب طيب ويدع موكي كيفوفتش يتابع وتصرفاته ، يعود
هو الى مسائله افسلفية مهما فجأة بالمشكلة التالية : « لو ولد فيل من بيضة فان
قشرتها ستكون ضخمة جداً ولاستطيع قذيفة مدفع ان تحطمها ، واذن يجب
اختراع سلاح ناري جديد » .

هكذا كان يحيا رجلانا في بقعة مجهولة من روسيا الكبيرة . وقد ظهر
فجأة في نهاية قصتنا ليسمح لي بالاجابة على اتهامات الوطنيين المتحمسين . ففي
الواقع ان هؤلاء لا يفعلون شيئاً غير التفلسف ولا يعملون الا لزيادة ثرواتهم
على حساب ثروة وطنهم العزيز ولا يفكرون في منع الشر ، ولكن في منع
الكلام عن الشر الذي يقترفونه . كلا ! ان وطنيتهم ليست هي المصدر الاساسي
لاتهاماتهم ، فهذه الاتهامات تخفي شعوراً آخر .

ولماذا لانسمي هذا الشعور باسمه ؛ ان الكاتب مسؤول عن اعلان الحقيقة
المقدسة ، انهم يخافون من النظرة التي تتفحص بعين . انهم خائفون من ان
يلقوا بانفسهم نظرة متعمقة على الاشياء لانهم لا يحبون النظر الا بعين
تنزل على السطح .

لربما سخرتم جميعكم من تششيكوف ، ولربما قلتم وانتم تدحون المؤلف :
« ما اقوى ملاحظته . . أي مرح ينطوي عليه ؟ » ثم تضيفون وانتم راضون
عن انفسكم قريو العين على كبريائكم : « ومع ذلك فلنعترف باننا نصادف في
الريف امثال هؤلاء الناس السخفاء والادعياء » .

ولكن من منكم يجرأ وهو منطو على ذاته ان يتساءل بنخشوع المسيحي :
« أليس عندي شيء من تششيكوف ؟ » .

وير قرب قارئ احد اصدقائه المنتمين الى الطبقة المتوسطة ، فيلكر القارئ
جاره في الحال ويهتف وهو يكرم رغبته في الضحك :

« انظر . . . انظر هوذا تششيكوف مار » . ثم يندفع كطفل ناسياً وقار

السن والمركز الاجتماعي ويوكز وراء التعس بضحك منه ويسخر به :
« تششيكوف ، تششيكوف ، انظروا تششيكوف » .

ولكن آه .. ان صوتنا قد ارتفع كثيراً . وان بطلنا الذي كان نائماً داخل
عربته طيلة هذه المدة التي استغرقناها في الحديث عن قصة حياته ، قد استيقظ
من نومه الآن . ويمكن له ان يسمعنا نردد اسمه بكثرة . وهو كثير التشكك
وسريع الغضب اذا لم نتحدث عنه بالاحترام الواجب علينا تجاهه .

ولا يهم القارئ ان يغضب تششيكوف او يرضى ، أما أنا ، فليس عندي
اية رغبة في التخاصم مع بطلي . فالطريق التي علينا ان نجتازها طويلة ، إذ ان
امامنا جزئين آخرين ومهمتنا مازالت قاسية .

صاح تششيكوف بسليفان :

- . ايه ... ايه ماذا تفعل ؟ انت ..

فاجابه سليفان ببطء :

- . ماذا تريد ان تقول ؟

- . كيف ؟ ايها الابله ! انت لا تتقدم ! السرع

وكان سليفان نصف نائم منذ وقت طويل ، ويضرب بالعنان حيواناته
بصورة آلية وهو مغمض العينين تقريباً .

اما بتروشكا فبعد ان فقد قبعته مال على ركبتي معلمه ، وقد كاد بافل
ايضا نوفتش يتخلص منه اكثر من مرة بدفعه الى الارض .

واخيراً استيقظ سليفان وضرب الجواد المبرقش بالسوط على ظهره فجري
الاخير مسرعاً . ثم قال الحوذي مداعباً حيواناته : « لاتخشوا شيئاً يا
صغاري » . جرت الجياد واخذت العربية تطوي الارض بسرعة . وكان سليفان
يقفز فرحاً فوق معقده وهو يصيح :

« ايه ... ايه ... » وصعدت العربية . مرتفعاً ثم هبطت منجدرأ ، ثم

تلاه من جديد مرتفع خفيف متتابع ، وكان تششيكوف يتسم وهو يتروح بين وسائله اذ انه كان يحب السرعة العظيمة ، وابن هو الروسي الذي لا يحب السرعة ؟ ان روحه لتنتفتح عندما يجتاز المسافات بسرعة فيهتف اذ ذاك : « ايه ... ليذهب الشيطان بكل شيء ! » وكيف لا يحب السرعة التي تبدو كأنها تستر شيئاً سحرياً ، فيعتقد المسافر ان قوة سحرية تحمله على جانحها فيطير وتطير معه (الفرستات) ويختفي خيوط العربات اللامتناهية مع غابات الصنوبر حيث يتزج نعيم الغربان بوقع ضربات الفؤوس ...

كل شيء يختفي ، ويختفي الطريق نفسه في المجهول البعيد ، وتأخذ الاشياء معنى خيفاً ... والسما وحدها فحسب تتميز بغيومها الخفيفة ، وينزل القمر خلال هذه النجوم التي تبدو شابة .

آه .. ايتها العربية .. ايتها العربية الطائرة من اخترعك اذن ؟ انه لا يمكن لك ان توجدي الا عند شعب ذي اخلاق بطولية على ارض تعيش فيها الاشياء العميقة ، ارض تشغل نصف الكرة الارضية حيث لا يوجد من يضع وقته بتعداد (الفرستات) انك ايتها العربية لاثمليين شيئاً غريباً .. انت سريعة الصنع ، فضربة فأس ومقص فلاح ماهر من جاروسلاف يكفي لصنعك . وليس للحوذي الحذاء الالماني القوي .. لا .. ولكن له حبة وقفازان بلا اصابع يجلس على كرسي ويتحرك في مقعده قليلا ، ويفرقع في الهواء بسوطه ، ويدوي صوته بالاغنية ، فتطير الحيوانات وتندور العجلات وترتعش الطريق ويقف المشاة وهم يصرخون مذعورين ، وتمرق العربية مخفية طائرة .

وانت ايتها الروسية المقدسة ، اية زوبعة تحملك مثل هذه العربية التي لا يستطيع ان يلحق احد بها انك تثيرين عواصف الغبار فتقتصف الجسور ويتراجع كل شيء . وتجتازين كل شيء . ومن يركبك يقف وكأنه مذهول امام معجزة إلهية . الا يمكن ان تكوني صاعقة تقذف بها قوة من السماء مقدسة ؟ وماذا تعني هذه

الحركة الخفيفة ؟ ما هي هذه القوة الغامضة التي تسكن هذه الجياد الفريدة المجهولة ؟
 آه ! ايتها الجياد الروسية .. ايتها الجياد ! لكم من العواصف تختفي في
 اعرافك ! وعلى القمم تدوي الاغاني المعروفة ، فتتمدد رثات الجياد البرونزية
 ولا تكاد حوافرها تمس الارض . ثم تتطاول وتبدو كأنها خطوط مستقيمة غير
 متناهية تختفي وتطير في السماء . أيا روسيا المقدسة اجيبي !؟ ولكن روسيا
 لا تجيب ! وترن الاجراس ويعلو رنينها العذب ويدوي الهواء البارد بقصف
 الرعود .. ويهرب كل حي على وجه الارض ، وتختفي بقية الشعوب وتبتعد
 بقية الامبراطوريات ، لتفسح كلها لك الطريق ايتها روسيا المقدسة .

الفصل الأول

د

مر في هذا الجزء من القصة وحظ الجياد الفريدة المجهولة
 بالذبح المبرور من روسيا الروسية ؟ ولكن ما العمل إذا كانت الجماعات
 وإذا كنت تحزن من وجه الأشياء الأخرى غير مظاهر اليأس والعاطات البشرية
 وساعة تأتي القوي في دولتنا هذه ؟ وعلمنا أننا نجد أنفسنا مرة أخرى في الوحدة
 في القوي الضائعة

كانت سلسلة غير متناهية من الضباب كأنها قفلة ضخمة ذات أرواح تدب
 منكسر على طول أكثر من ألفا (فرست) . وكانت القمم تنصب مجلجلا على
 السهول الضيقة كأنها أسوار عالية تنطلقا المنحرف ، تتكرر بشكل نهر ،
 بخبرة مقلدة بلسان من الأعتاب حركته جذور الأشجار إلى تحت من الناس
 الجرم بالهجرة . وكانت رياح كالأصوات فوق السهول ، ولكنه كان يمر ليد
 في بعض الأماكن من مناطق ضيقة ، تدب نحو الأراضي

القسم الثاني

الفصل الأول

ترى لماذا أصف دوماً البؤس والفقر وجفاف الحياة ؟ ولماذا أزعج سكان البقاع المجهولة من ريفنا الروسي ؟ ولكن ما العمل اذا كان اتجاهي هكذا ، واذا كنت عاجزاً عن وصف اشياء اخرى غير مظاهر البؤس والعاهات البشرية وحياة أناس القرى في دولتنا هذه ؟ وهكذا فانتاجد انفسنا مرة اخرى في الوحدة في القرى الضائعة .

كانت سلسلة غير متناهية من الهضاب كأنها قلعة ضخمة ذات أبراج تمتد بخط متكسر على طول اكثر من ألفا (فرست) . وكانت القمم تنتصب بجبالها على السهول الفسيحة كأنها أسوار عالية تتخللها الشقوق ، تتكور بشكل نهود ، مخضرة مغطاة بنسج من الاعشاب حبكتها جذور الاشجار التي نجت من الفأس المجرم بأعجوبة . وكان نهري نساب كالافعوان وفيأ الشطآنه ، ولكنه كان يحفر لنفسه في بعض الاماكن منعطفات فجائية ، تهرب نحو المراعي وتنبسط فيها كمرآة

من نار تعكس اشعه الشمس ثم تضيع في الغابات ، وتمر أخيراً تحت الجسور والطواحين والجواز التي تبدو كأنها تهرب هي الاخرى كلما مرت بها المياه . ولكن هاهي ذي الجبال تتوارى تحت كتلة ضخمة من الاشجار الخضراء ، وكأنما التقت فيها شجيرات الشمال والجنوب . وهناك اشجار والصنوبر الصفاف والبلاب وحشيشة الدينار والزان والخور ، وقد كانت جميع هذه الاشجار تتساند وتتشابك او يخنق بعضها بعضاً وهي تنحدر أو تصعد في الجبل . وعلى قمة هذه الغابة الكبيرة يطفو سقف احمر لقصر سامق وسقوف عزب الفلاحين المجاورة ، وبيت السيد بشرفته العريضة ونافظته الكبيرة . وفوق هذا الحضم الطامي من الاشجار والسقوف ، ارتفعت كنيسة قديمة بأقواسها الذهبية التي تعكس شعاعات باهرة على القرية بكاملها . وكانت صلبان يونانية مثبتة عليها بسلاسل ثقيلة من المعدن نفسه . وهكذا يخيل للمرء عن بعد انه يرى قصرًا معلقًا في الهواء بأعجوبة إلهية يعكس لهبًا ذهبيًا . كانت جميع هذه السقوف والاقراس والصلبان تنعكس في سفح الهضبة على مياه النهر النقية ، وكانت الاقصاب وشجرات الصنوبر المغمورة بالمياه ، بأغصانها وأوراقها ، تتأمل هذه الصورة الساحرة . ومع ذلك لم يكن هذا المنظر ، الجميل غاية الجمال ، ليعادل ذلك المشهد الذي يمكن التمتع به من أعلى القصر . ولم يكن من صديق او ضيف يمر دون ان يلحظ هذا المنظر البديع فيهتف منتشياً : « ايها السيد ما هذه العظمة ؟ » ان المساحة لتبدو غير محدودة ، فكنت لا تشاهد خلف المروج الاضواحي من الماء والادغال . وكانت الغابات تمتد منقسمة الى مناطق عدة . وأبعد من ذلك ، هناك ، في الجو الغائم ، كان لون الرمال يضرب الى الصفرة ، ثم غابات زرقاوات اللون كالبحر ، وضباب ينتشر في البعيد ، ثم ، ومن جديد ، رمال اكثر شحوباً ما زالت محتفظة بلونها الاصفر .

واما في الافق فهناك جبال ممتدة بيضاء حتى في ايام العواصف والامطار

منورة بالشمس الخالدة . وبفضل هذا البياض الناصع كنت تلجظ في سفوح تلك الجبال غيوماً تتصاعد نحو العلو بخط لولبي . كل هذه المشاهد ما كانت عين الانسان لتستطيع رؤيتها عن بعد . اما شعاع صليب الكنيسة الذهبي فهو الاية الوحيدة على ان هذا المكان آهل بالسكان .

ان هدوءاً عميقاً يحيم على هذه الابعاد ، هدوءاً مطبق لا يعكر صفوه شيء حتى ولا تغاريد الطيور الخافتة . ولم يكن باستطاعة ضيف هذا السيد الذي يتأمل في المنظر ساعات متواصلة الا ان يتفوه بهذه الكلمات : « ايها السيد ! ما هذه اللانهاية ؟ ما هذا البهاء ؟ !

ولكن من يكون صاحب هذه القرية التي تشبه قلعة منيعة لا يمكن الدخول اليها الا من الجانب المقابل للنهر ؟ .

ان اشجار الصفصاف المنتشرة هناك تستقبل الزائر بلطف مادة اليه أغصانها القوية كأنما تريد ان تعانقه وتود أن ترافقه الى القصر الذي لم نرمه حتى الآن الا جدران الخفية . كانت واجهة هذا القصر تبدو تامة ، وقد صفت على احد جانبيها بيوت الفلاحين ، بينما قامت في الجانب الثاني كنيسة تشع بصلبانها الذهبية . ترى من هذا الرجل السعيد الذي يملك هذا الفردوس المنعزل ؟ ان المالك شاب اعزب في الثالثة والثلاثين من عمره ويدعى أندريه ايفانوفتش تشيتنيكوف . ولكن من هو ؟ وما عاداته وصفاته ؟ الاتوجهن أيتها القارئات بهذه الأسئلة الى الجيران !

ان أحد هؤلاء الجيران ، وهو من عائلة ضباط متقاعدين ، يقول : « انه وغد لئيم ! » وهناك جار آخر ، وهو جنرال يسكن على مبعدة عشر (فرستات) منه ، يقول : ان تشيتنيكوف ليس بالشخص الغني ، ولكن رأسه تسكنه حماقات كثيرة ... اني استطيع ان اكون له ذا نفع ، ذلك انه لي علاقات كثيرة في بطرسبرج ... ثم ... ولا يتابع الجنرال عباراته . ولكن هناك

جار ثالث له يدعي الكابتن اسبرافنيك يقول : « غداً سأذهب اليه من اجل بقايا ديوان ! » واما الفلاحون فكانوا لا يتكلمون ، وإذن فالجميع يروث في تنيتنيكوف رأياً سيئاً ، وما هو بالانسان السيء ولكنه رجل لا عمل له . وهناك كثيرون لا عمل لهم غير الثاؤب ، فلهذا لا يتشاب تنيتنيكوف ؟ ومع ذلك فسنذكر كيف كان يقضي أيامه ليكون القارئ فكرة عن طبع اندريه ايفانوفتش وكيف كان يتمتع بالجمال الذي يحيط به .

كان يستقيظ صباح كل يوم في ساعة متأخرة جداً ويبقى زمناً طويلاً جداً ايضاً جالساً على سريره يفرك عينيه . وبما ان هاتين العينين كانتا صغيرتين جداً ، لذلك ، فان استعمال الفك لا يقاظهما لا يعطي مفعوله الا بعد مضي ساعة او ساعتين . وكان الخادم ميكيلو يستطيع ان يحمل الى سيده (طشت) الماء والمنشفة ، وينتظر على الباب قليلاً ثم يعود الى المطبخ ويرجع اخيراً ليرى ان سيده قد استيقظ الآن فقط ، فاغتسل وارتدى ثوبه المنزلي . ثم يقوم ~~بشيء~~ ليذهب الى غرفة الطعام ويشرب الشاي والقهوة والحليب المستحلب حديثاً ، ويملاً الزاوية التي يجلس فيها بفئات الحُبز ورماد الغليون . وكان هذا الفطور يدوم مايقارب الساعتين عدداً . ولم يكن هذا كل شيء ، فقد كان يتناول ايضاً كوباً من الشاي البارد ويقرب ببطء من النافذة التي تطل على الباحة . واليك هذا المشهد التالي الذي يتم في كل يوم : انه قبل كل شيء يسمع صوت غريغوري الخادم يزجر في وجه بييرفيليفنا الخادمة ويقول :

— ايتها الحيوانة القذرة .. ايتها الدودة الممننة .. اخربي ايتها الساقطة .
كانت بيير فيلفنا امرأة حادة اللسان مرنة بالرغم من انها كانت تأكل بكثرة الكعك والزبيب وجميع انواع الحلوى التي يعهد بها اليها . كانت هذه المرأة اذن تصبح في وجهه وهي تشير الى قبضتها :

— ايه .. انت اذن تريد ان تذوق هذه .

— ايتها الوغدة ، لقد علقت بالوكيل وهو مثلك سارق لص يا كلبة الساحرة ..

ان السيد هنا وهو يسمع كل شي .

- السيد ؟ واين هو ؟

- في نافذته وهو يرانا .

وكان السيد في نافذته بالفعل يرى ويسمع مايقولانه .

ولكي تكمل اللوحة ، كان هناك طفل ضربته امه يصرخ كالشيطان ، وثمة كلب يعوي من الالم ، إذ احرقه الطاهي بالماء المغلي الذيلقى به من نافذة المطبخ . كان كل شيء في الباحة يزأر ويضج ، وكان السيد يسمع ويرى كل شيء . وعندما تكون الضجة لاتطاق فان تنبئينيكوف ينزعج اخيراً ويأمر بالهدوء . وكان قبل موعد الغداء بساعتين يعكف في غرفته ليؤلف ، يجد ونشاط ، كتاباً يدرس فيه روسيا من شتى نواحيها السياسية والتمدنية والدينية والفلسفية يريد به ان يحل جميع القضايا المعقدة التي تهتم الانسان الحديث . ويجب أن نقول إن هذا الكتاب مايزال « ابداء » في حيز التأملات . اذ أن الريشة كانت تصر قليلاً على الورقة المليئة بالرسوم والخطوط ثم لا يلبث المؤلف العبقرى ان يلقي بمخطوطته جانباً ويأخذ كتاباً يقرأ فيه . كان تشتشيكوف يقرأ وهو يتناول الحساء والحم والحلويات حتى ان بعض الصحاف تبرد وبعضها الآخر يحمله الخدم دون ان يمس . ويشرب السيد القهوة بعد ذلك ويدخن غليونه ويلعب بالشطرنج من نفسه . اما ماذا كان يفعل في الفترة الواقعة ما بين الغذاء والعشاء ، فهذا ما يصعب علي معرفته ؟ ولربما ، وهذا أغلب ظني ، كان لايفعل شيئاً .

هكذا كان يقضي اوقاته ، ذلك الاعزب البالغ الثالثة والثلاثين من عمره ، وسط تلك الوحدة الكبرى . فهو دائماً متراح يلبس ثيابه المنزلية بدون ربطة عنق . ولا يشعر بأية رغبة في النزهة او مشاهدة المدينة وركوب الخيل ، بل لا يرغب في فتح النافذة لاستنشاق الهواء النقي . واما ذلك المشهد الرائع الذي يسمر كل انسان ، فكأنه غير موجود بالنسبة اليه . فالقارئ من هذا إذن ،

يرى ان أندريه ايفانوفتش تنتيتنيكوف من الطبقة « التي تسمى » اوفالميس «
او « ليجبو كيس » او « بايبا كيس » (١) ؛ وهي كلمات لا معنى لها اليوم في
عصرنا هذا . ولكن من أين جاءت هذه النقاىص ؟ أهى وراثية بالولادة أم أنها
ظروف الحياة القاسية التي تسم الانسان بالقسوة ؟ لن أجيب على هذا السؤال .
ولكنى سأقصر شيئاً عن تربية تنتيتنيكوف .

كان كل شيء فيه يصلح لنمو أحسن الصفات . كان طفلاً لطيفاً حالمًا ذا
بنية مرضية . دخل في سن الثانية عشرة من عمره في مدرسة يديرها رجل ذكي
جداً ، يدعى هو الكسندر بتروفتش معبود الشباب . وكان هذا الأخير يفهم
النفس الروسية جيداً ويجب الاطفال كثيراً ويعرف كيف يحفز رغباتهم . فما
من تلميذ واحد هناك الا ويركض الى مديره بعد ان يقترب خطيئة ما ، يعترف
له بها . وكان المذنب يغادر الكسندر بتروفتش غير خافض الهام ، بل بعزم
على ان يحسن سلوكه في المستقبل . وكان هذا المدير ايضاً يعرف كيف يشجع
الاطفال فيقول لهم امثال هذه الكلمات البسيطة : « الى الامام .. اسرع
وانس انك سقطت ! » ولم يكن يذكر السلوك الحسن في احاديثه ؛ ولكنه
يقول : « اني اريد الذكاء ، والذي ليس لديه الوقت الكافي للمزاح ، وحماقات
الاطفال تزول من تلقاء نفسها » . وبالفعل فان هذه الحماقات سرعان ما كانت
تختفي . اما التلميذ الذي لا يسعى الى التفوق فانه سرعان ما يجد نفسه موضع
احتقار رفاقه . فـ ... « حمير » و « اغبياء » الصفوف العليا مرغمون على تقبل هذه
اللقاب من اصغر التلاميذ دون ان يجرؤوا على رفع يده عليهم . وكان يقال للمدير في
بعض الاحايين : « انك تبالغ ، فخفة تلاميذك قد تنقلب يوماً ما الى وقاحة » . ولكن
المدير يجيب بدوره : « ان هذا لن يحدث مطلقاً ، فانا لا احتفظ بالمقصرين اكثر من سنة ،
واما الباقيون فلهم صفهم الخاص » . ولا يجب ان يكبت الحقبة والحبث عند الاطفال ،
اذ انه يرى فيها دلائل الصفات الطيبة في المستقبل . ولذا فهو يقول : « انها لضرورية

(١) اشخاص كسولون متراخون .

ضرورة البشور التي يستطيع بها الطبيب ان يشخص المرض .

ان جميع تلامذة المدرسة يعبدون ألكسندر بتوقفتش . وكان بعضهم متعلقين به اكثر من تعلقهم بأهلهم . اما عواطفهم فهي دوماً متجهة نحو معلمهم وتفوق في حماها بقية العواطف الاخرى . وقد ظل التلاميذ بعد موته رداً طويلاً من الزمن يشربون الحرة في يوم ميلاده . ان أقل كلمات التشجيع اذا صدرت منه تكفي لجعل هؤلاء الاطفال يرتعون من الفرح . واما دروس الصف الاعلى التي لا يقبل فيها غير التلاميذ المتفوقين ، فلا تشبه في أي حال من الأحوال نظام الدروس المطبقة في المؤسسات الحكومية . انه يطلب من تلامذته هؤلاء ، الذكاء العظيم الذي يسمح للانسان ان يمزج دوماً وان يحتمل مزاج الآخرين وسخريتهم ، وان يتساهل مع الحق ، وألا يغضب او ينمي في قلبه اية رغبة في الانتقام ، كما يسمح له هذا الذكاء ان يحتفظ بنفسه صافية في شتى الظروف . ان ألكسندر بتوقفتش كان يسهر دوماً على ان ينمي فيهم جميعاً مواهب الانسان الواعي ، ولذلك فهو يخضعهم لعدة امتحانات ، وهو الى جانب ذلك يعرف علم الحياة . واما عدد المعلمين عنده فهو قليل جداً ، حتى انه كان يعلمهم بمفرده تقريباً ، متجنباً في تعليمه الغرور والمحاضرات البليغة والدروس النظرية . فهو اذن يحسن ترجمة روح العلم ليستطيع الطفل فهمها ، كما انه لا يعلم الا ما يمكن ان يخلق في الانسان صفة المواطن الصالح . وكان القسم الأكبر من الدروس مكرساً لشرح مجال العمل الذي ينتظر الطالب حين يخرج الى الحياة وألكسندر بتوقفتش الى جانب ذلك يحسن الكشف عن هذه الامكانيات بقوة عجيبة ، حتى ان الشاب يجد نفسه ، وهو فوق مقعد الدراسة ، قد اتجه بأفكاره نحو هذا المستقبل الذي يتفتح أمامه . ولم يخف المعلم الصعوبات والآلام والنضال ، بل كان يرفع انتقاب بتفصيل دقيق عن جميع المعربات والمحن التي يتعرض لها المرء في حياته . انه يكاد يعرف كل شيء ، كأنما عاش بنفسه جميع

ظروف الحياة التي يصفها بدقة متناهية . وسواء أكان الامر يعود الى الطموح الذي خلقه الكسندر بتروفتش ام الى لهيب نظراته التي تقرأ فيها عبارة « الى امام » تلك الصيحة التي يحبها الروسي كثيراً ، والتي تخلق المعجزات في نفسه الحساسة المرهقة ، اقول سواء أكان هذا أم ذاك ، فان المراهق يغادر المدرسة ساعياً الى العقبات والمصاعب من تلقاء نفسه لينتصر عليها بمضاء عزمته . كان عدد المقبولين في هذا الصف العالي قليلاً للغاية ، الا ان الذين تخرجوا منه أصبحوا يملكون قوة معنوية فريدة ، ويبدون كأنما تدرعوا بالبرونز ، وعلى استعداد تام ~~ل~~ لبذل جميع الجهود . يعرفون كيف يصمدون أمام اشق الاعمال ، في حين لا يستطيع غيرهم ، ولو كان أكثر ذكاء ، ان يتحمل أقل محنة فيسقط او يستسلم للأوغاد . وهم الى جانب ذلك يعرفون الحياة والناس ، فيفرضون أنفسهم على أشباههم ، ويؤثرون بقوة شخصيتهم تأثيراً بالغاً على الجميع ، وحتى على الفاسدين .

كان قلب تنيتينيكوف يخفق بشدة حين يفكر بأنه سيقبل يوماً ما في الصف العالي ، والواقع ان الكسندر بتروفتش احسن مرب يمكن ان يجده . الا انه في السنة التي وصل فيها اندريه ايفانوفتش الى هذا الصف ، توفي استاذة فجأة ، فكان ذلك له صدمة بالغة وخسارة فادحة مخيفة لاتعوض .

وهكذا تغير في المدرسة كل شيء ، وحل مكان الكسندر بتروفتش شخص آخر يدعى فيودور ايفانوفتش . ولم يهتم المعلم الجديد الا بالمظاهر الخارجية ، فأخذ يطالب الاطفال بسلوك البالغين ، ولا يرى في غوهم الطبيعي غير القوضى والتخث . وقد اعلن منذ اليوم الاول لاستلامه مهام التعليم انه لايحترم غير السلوك النقي . ولكنه لم يستطع ان يجعل من الاطفال اناساً عاقلين ، فبدأت الاخطاء ترتكب في السر ، فأما في النهار فكان كل شيء يسير حسناً ولكن اذا ما اتى الليل فان التلاميذ لايحرمون انفسهم من اي شيء .

وعين اساتذة جدد تختلف طرق تدريسهم تمام الاختلاف عن طريقة المدير في فهم العلوم . واخذوا يستعملون في تعابيرهم الكلمات الغامضة المجهولة ،

وتوسعوا كثيراً في منطقتهم الشخصي ، حتى قتلت روح العلم بهذه الصغائر التافهة .
وهكذا فقد التلاميذ كل احترام للسلطات المدرسية وسخروا من المعلمين
والمدرء ولقبوهم « بالحمقى » كما تحلل الفساد المؤسسة برمتها ، واختفت في أقل
من سنتين سماتها القديمة .

كان اندريه ايفانوفتش هادى ، الطباع ، فلم تغره مغامرات رفاقه الليلية
الذين يدعون اليهم النساء ويلتقون بين تحت نافذة المدير . كما انه لم يعر اهتماماً
لجميع المشاهد الدنسة ، فظلت روحه صافية نقية واحتفظ بعنصر الطيبة وقاوم
الفساد الا انه كان دوماً كالنائم ، وعندما استيقظ الطموح في نفسه ظل كسولاً
مهملاً . كان يصغي الى محاضرات اساتذته الملتبهة ويتذكر الكسندر بتروفتش
بهذوئه ووضوحه في شرح الاشياء وتبسيطها . اخذ تنيتنيكوف يتابع دروس
الطب والفلسفة وتاريخ الانسانية العام . وكان استاذ التاريخ ، بالمناسبة ، قد
بلغ من توسعه حداً ظل معه يحاضر ثلاث سنوات دون ان ينهي المقدمة ، حاصراً
دروسه جميعها في بعض المقاطعات الالمانية . ولكن ماهي الدروس التي لم
يحضرها تنيتنيكوف ؟ ان الله وحده يعلم بذلك ! والمهم ان ذاكرته كثيراً
ما كانت تخونه ، فيدرك بفضل ذكائه الطبيعى عيوب ونقائص هذا التعليم .
ولكنه لم يجد علاجاً لذلك . وكان عندما يتذكر استاذة القديم الكسندر
بتروفتش سرعان ماتعلو سمادير الكآبة وجهه ، وتغلف نفسه .

ان الشباب ليسعدون بالامل في المستقبل ، وعندما اقتربت السنة الاخيرة
من نهايتها قال تنيتنيكوف في نفسه :

« هذه ليست بالحياة .. بل هذا الذي مررت فيه انما هو اعداد لها ... ان
الحياة الفعلية تبدأ بالعمل حيث الجهد والنشاط » وهكذا سار دون ان ينطق
بكلمة وداع لقبور اجداده الى بطرسبرج ، مقتدياً بالطموحين من امثاله .
والمعروف ان خيرة الشباب الروسي يغادرون البقاع الروسية النائية ، ليأتوا
الى العمل في عاصمتنا فيبرزوت او يفرقون في حياة الصالونات ، تلك الحياة
السطحية الباردة المناقفة .

وقد ساعد تنيتنيكوف عمه اونوفري ايفانوفتش واقنعه بان الحظ الجميل يكفي وحده ليصبح صاحبه وزيراً او رجل دولة في روسيا. ثم ، وبعد جهود كثيرة استطاع ان يعينه في احدى الوزارات في وظيفة لا اعرفها . ودخل تنيتنيكوف للمرة الاولى في هو الوزارة الكبير ، فرأى عدداً كبيراً من الشباب يكتبون مذكرتين بريشتهم صريحاً ضاحكاً ، وحين طلب اليه نسخ ورقة رسمية استولى عليه شعور غامض لم يدرك له كنهها . وبداله زملاؤه وكأنهم أطفال او تلامذة ، وتأكدت لديه هذه الفكرة عنهم ، عندما شاهدتهم يهتمون بقراءة قصة تافهة يسارعون الى اخفائها مرتعدين ، عند ظهور احد الرؤساء . وتذكر الماضي فتأسف على الكسندر بتروفتش واغرورقت عيناه بالدموع لان صورة معلمه كانت تنتصب امامه حية : فاصيب بدوار اخذ يفت في ساقيه ولكنه تحامل على نفسه وفكر : « الى العمل ، مهما يكن شأنه حقيراً ! وهكذا انصرف الى العمل بحماس وحمية .

اين المكان الذي لا يجد الانسان فيه المسرات ؟

ان الحياة جميلة في بطرسبرج بالرغم من المناخ القاسي والجو المظلم في بعض الاحايين . فالهواء جليدي ، وميزان الحرارة يشير الى ما تحت الصفر بثلاثين درجة ، بينما تهب الرياح الشمالية الباردة فتكنس باعصافها الطرقات ، وتلسع المارة وتعميهم ، حاملة البياض الى شوارب الرجال ، وباقات معاطف الفرو ورؤوس الحيوانات . وفي حين تزجر عوامل الطبيعة وتثور ، كنت ترى نافذة مضيئة في الطابق الرابع ، حيث توجد غرفة صغيرة تحترق فيها بعض الشموع ويغلي السماور ويجلس بعض الرجال الروس يتعادثون بأحاديث تغذي القلب والروح ، او يقرأون صفحة مشرقة من شاعر روسي ملهم ، تحفها قلوب الشباب وتشتعل بالحماس القوي ، الذي لاتعرفه البلاد الاخرى .

اعتاد تنيتنيكوف بسرعة على عمله ، ولكن هذا العمل بداته لم يعد هدفاً

لوجوده كما ظن ، ثم ان ساعات العمل التي يقضيها في المكتب جعلته يدرك قيمة الوقت الحر وكان عمه في ذلك الحين قد بدأ يتوقع له مستقبلا عظيما ، ولكن سرعان ما ساءت الامور .

هناك من بين اصدقاء أندريه ايفانوفتش شابان من « الساخطين » ، وكانا غربي الاطوار دائمي القلق لا يستطيعون ان يتقبلوا الظلم بهدوء ، او ما يمت الى الظلم بسبب . ثم انهما كانا شريفيين نظريا ، ولكنها لم يطبقا مبادئها في الحياة العملية ! فهما متساحان بالنسبة لنفسيهما ، ومترزمان فيما يتعلق بالآخرين . وقد اثرا على تنيتنيكوف بخطاباتها الملتهبة المليئة بالسخط على المجتمع ، فأيقظا في نفسه الغضب وجذبا انتباهه الى وقائع لم يكن قد لحظها من تلقاء نفسه من قبل .

وهكذا لم يعد فيودور فيودوروفتش لينتسين ، وهو احد رؤساء شعب الوزارة ، ليعجب تنيتنيكوف ، اذ وجد به هذا الاخير كثيرا من العيوب التي لا حصر لها . وقد بدا له ان حديث لينتسين العذب مع الرئيس سرعان ما ينقلب الى حدة عندما يستقبل احد مرؤوسيه . يضاف الى ذلك ان لينتسين هذا كان كبقية الاشخاص الفارغين ، يسجل جميع اسماء الذين لا يهنئونه ايام الاعياد ، ويسبي معاملتهم . وقد كرهه تنيتنيكوف كثيرا ، واعلن له كرهه بصراحة . كما انه فتش عن مناسبة للتحرش به فوجدها . ففي ذات يوم يحدث الى فيودور فيودوروفتش بلهجة قاسية مهينة ، حتى ان فيودور طلب اليه الاعتذار او الاستقالة ، فاستقال صاحبنا ، فهرول عمه اليه مذعورا وقال له :

— يا الله ... ارجوك يا اندريه ايفانوفتش ! ماذا فعلت ؟ أتترك وظيفة بدأت فيها بداية حسنة لسبب سخيف بسيط هو أنك لم تعجب برئيسك ؟ لو ان جميع الناس يفعلون فعلك هذا لما ظل انسان في عمله قط ! هيا خفف من غلواتك وتعال واعتذر .

فاجاب تنيتنيكوف :

- ليس الامر بذلك يا عماه ! انه ليسهل علي ان أعتذر . فأنا مذنب في حقه
لانه رئيسي ، ومن اللائق بي ألا أناطبه بهذه اللمحة . ولكن الامر ليس بذلك ،
هناك اعمال كثيرة تشغلني ! فوكيلي رجل احق ، والدولة لا تخسر شيئاً اذا
استبدلني بأخر ينسخ لها أوراقها الرسمية . ولكننا ستخسر بلا ريب اذا لم
تقبض الضرائب عن ثلاثمائة عبد . أنا ملاك وعلي ان اسهر على ازدهار وتحسين
ظروف حياة هؤلاء العبيد الثلاثمائة ، وهم من رعايا الامبراطورية الروسية .
فاذا التفت اليهم يصبحون عمالاً نافعين ؛ وفي هذه الحال ما الذي يجعل رئيس
ديوان ما ، وليكن لينتسين مثلاً اكثر نفعاً مني ؟

وذهل عم تنيتنيكوف وفقر فمه دهشاً وهو يصغي الى هذه المحاضرة التي
لم يكن ينتظرها . وبعد ان فكر قليلاً اجاب :

- ولكن ... مع ذلك لن تدفن نفسك في الريف ... ان الفلاحين لا
يؤلفون مجتمعاً صالحاً بالنسبة لهذا المجتمع الذي تعيش فيه . انك هنا تصادف
أميراً أو جنراً أو تقابل هذا وذاك ، وتتعرف على تجار اوروبا .. أما هنا فلن
تساهد الا فلاحاً أو فلاحه . واذن لماذا تحكم على نفسك بالحياة في
الجهل والظلام .

لم تؤثر حجج العم على تنيتنيكوف ، فقد كان هذا يمثل قريته حينذاك
ملجأ مقدساً ، وحقل عمل نافع ، حيث يستطيع ان يتأمل بحرية ويحلم كما يريد .
ولقد بدأ منذ بضعة اسابيع بدراسة كتب في الاقتصاد الفردي . وهكذا ،
وبعد مضي اسبوعين من هذا الحديث وجد نفسه في طريقه الى القرية التي قضى
فيها طفولته ، بين الجنان التي وصفناها أول هذا الفصل . وعاشت في نفسه
أحاسيس قديمة ، فأخذ يتأمل ، بفضل المسافر ، المناظر الرائعة الممتدة في عالم
اللانهاية . ثم ضاق الطريق قليلاً ليمر في غابة كثيفة مليئة بأشجار السنديان
المرمة فسأل : « ولما هذه الغابة ؟ » فقبل له : « انها ملك تنيتنيكوف » ثم
سارت العربية بين المروج فسأل مرة اخرى عن ملاكها فقبل له : « انها ملك

تنتينيكوف . وبدأ الطريق بعد ذلك بالصعود ، وكانت تحيط به من جهة حقول الشعير ، ومن الجهة الثانية مناظر الحقول الجميلة التي استمتع بها ، ثم سارت العربية في ظل اشجار ضخمة متناثرة تمتد حتى القرية ، وظهرت له قبة الكنيسة واكوخ الفلاحين وسقوف القصر الحمراء ، فحقق قلب تنتينيكوف بشدة ... لقد وصل الشاب الى بيته وتجمعت كل احساسه في هذه الصيحة : « ألم أكن أحق ؟! لقد جعلني الحظ مالكا لهذه الفردوس بينما اردت ان أدفن نفسي وأنا اكتب على الاوراق الميتة . لقد تثقت وقرأت الكثير ، وتأملت ودرست وسائل بذر الخير في السكان وتحسين حالة قارة بأسرها . وتعلمت كيف أعرف واجبات الملاك الذي يجب ان يكون قاضياً ومنظماً ، فعهدت بهذه المسؤولية الى وكيل احق ... وفضلت على هذه المسؤوليات العميقة والادارة الفعلية هذا العمل المضحك ، هذا العمل الذي يجعلني ادير املاكا لا أعرفها ، متعرضاً لأكبر الحماقات والاضطراب .

كان موقف غير منتظر قد تهيأ عند وصوله . فقد علم الفلاحون بمجيء سيدهم . فاجتمعوا في باحة القصر الواسعة ، وقد ارتدت الفلاحات منهن قبعات مزخرفة على رؤوسهن ، بينما اطلق الفلاحون صراخاً ، وهتف الجميع : « ايها الاب المغذي .. انت لم تنسنا ! » ان الشيوخ والعجائز كانوا متأثرين جداً بذكرى الاب والجد وجد الاب .

وتأثر تنتينيكوف ولم يستطع ان يحبس دموعه فقال في نفسه : « ولم هذا الحب ؟ اني لم ارهم مطلقاً ولم اهتم بهم » واقسم بينه وبين نفسه على ان يشاركهم عملهم وقد استلم بالفعل مهمة عمله كملاك .

طرد تنتينيكوف وكيله وانقص ساعات العمل الاجباري واشرف على الاعمال بنفسه وظهر في كل مكان : في الحقول وفي الطواحين وحتى في المرفأ ليشراف على شحن المراكب وتفرغها بنفسه ، بينما اخذ الفلاحون الكسولون يحكون ذقونهم ويبدؤون العمل . الا ان هذا لم يدم طويلاً ، فالفلاح خبيث ،

وقد فهم بسرعة ان السيد يريد العمل ولكنه لا يعرف كيف يقود هذا العمل الى صالحه . فهو يتكلم ويشرح ولكن تعوزه الدقة والتعابير الواضحة النهائية . ونحن نبالغ اذا قلنا بأن العبيد لم يتفاهموا مع سيدهم ، ولكنهم لم ينسجموا معه فظلت وحدتهم ينقصها تناسب المطلوب .

لاحظ اندريه ايفانوفتش بسرعة ان اراضيه لا تنتج ما فيه الكفاية ، في حين ان اراضي الفلاحين بدأت تعطي محصولاً طيباً . لقد كانوا يبذرون اراضيه قبل اراضيههم ، ولكن القمح كان ينمو متأخراً ، ومع ذلك فقد بدا ان الفلاحين يشتغلون بحماس ، حتى انه يقدم الفود كالههم مكافأة على حماسهم هذا . اما الشعير والشرفان فقد كانا ينموان ايضاً في اراضي الفلاحين بينما لا يكاد القمح نفسه يظهر في اراضي السيد . ان الفلاحين يخدعون سيدهم بالرغم من جميع ممانعتهم من امتيازات . ولذا فقد جمعهم مرة وانهم على هذا المحصول فقالوا :
- ولكنك رأيت بنفسك عملنا ، وقدمت لنا الحزمة مكافأة لنا !

ولكن بماذا يستطيع تنيتنيكوف ان يجيب ؟

- واذاً ، فلماذا هذه المحاصيل الضعيفة ؟

- من يدري ؟ ربما كان الدود يخرب الجذور ! والصيف رديء للغاية ،

فقد هطل فيه المطر بكثرة .

ومع ذلك فان الديدان لم تضرب بالفلاحين وكذلك الامطار ، فهو قد حسنب المحاصيل عندهم بعكس ما جرى في اراضي السيد . وكذلك وجد تنيتنيكوف صعوبة بالغة في التفاهم مع الفلاحات ، فقد كن لائنين عن طلب الاعفاء من العمل الاجباري ... انه لأمر غريب ... ان اندريه ايفانوفتش قد ألقى الضرائب عن القماش والجوز وانقص نصف الأعمال الاخرى ، مؤملاً ان تفيد النساء من اوقات فراغهن ، للاهتمام بمنازلهن والسهر على غذاء وكساء أزواجهن وأولادهن ، اوليعتنن بحقولهن ، الا ان شيئاً من هذا لم يحدث إذ انهن ينصرفن في اوقات الفراغ الى السكر والعريضة والمخاصمات . واما الأزواج

فقد كانوا يشكون الى تنيتنيكوف : « لم تعد هناك وسيلة تمكنني من الحياة مع زوجتي الجهنمية ! »

عند ذلك اراد أن يقسو ... ولكن كيف ؟ كانت الفلاحات يصرخن آخذات بالانين ، فهن مريضات يعانين افطع الآلام ، فيهتف تنيتنيكوف المسكين : « إذهبي ... إذهبي سريعاً ... وليجرك الله » وتذهب المريضة لتخضم مع جارة لها ، وتكسر لها أضلاعها بقبضة يدها ، الامر الذي لا يقوى عليه الرجال .

برد حماس الملاك فأخذ يراقب الاعمال ولكن دون مبالاة . ولم يعد يعر اهتماماً لحركة المنجل الرتيبة وأكداش المحصول والطواحين الكبيرة . كان ينظر الى الاشياء البعيدة ثم الى القريبة . ويتأمل في منعطف للنهر ويتابع بأنظاره طيراً صياداً ، التقط سمكة وامسك بها في منقاره . ثم يرفع رأسه الى السماء ويدمدم لحنا موسيقياً ويتمتع بأغاريد الطيور التي كانت تمزج مع بعضها أحياناً في جوقة كبيرة .

وكان طائر حجل يلعب داخل الشجير ، وطيور اخرى تئن او تغني داخل الاعشاب وتخفي اصواتها في الاعالي « فيهتز في الفضاء المديح بألاف الضججات ... أيها الخالق المعبود ، ما اجمل عالمك في القرى بعيداً عن صفائر الطرق الكبرى والمدن

ولكن تنيتنيكوف مل سريعاً بهذا المشهد المتكرر الرتيب ، فانقطع عن الذهاب الى الحقول واعتكف في القصر افضاً مقابلة وكيه . وكان الجيران يأتون لزيارته ، ومن بينهم ملازم مشاة سابق يدخن باسراف ، حتى ان جسده يكاد ينفث التبغ والدخان . كما كان يزوره طالب يحمل افكارا ثورية منطرفة لم يستطع ان يتابع دراسته ، فعكف على إتمام ثقافته بمطالعة المقالات في النشرات والمجلات وقد مل اندريه ايفانوفتش منها سريعاً وبدت له احاديثها سطحية ، وانطلاقها ذا طابع اوروبي ، وكانت ضرباتها الودية على الركاب تبدو له منطلقة اكثر مما ينبغي . فقرر قطع علاقته بها ونفذ ذلك بجفاء وقسوة . ففي ذات يوم

جاءه الملازم الذي يمثل طبقة من العسكريين لم يعد لها وجود الآن ، مع فارفار نيكولا فتش فيشنبو كروموف صاحب الافكار الجديدة الذي اتى يتحدث عن الفلسفة والسياسة والادب والاخلاق والحالة المالية في انكارترا . فأرسل لها تنبئينيكوف من يخبرها انه غير موجود في المنزل ، ولكنه ظهر في نفس الوقت على النافذة ، والتقت نظراته بنظرات العسكري فتمم هذا : « ايها الحيوان القذر ! » بينما هتف الطالب مشمئزاً : « ايها الخنزير ! » وهكذا انتهت علاقة تنبئينيكوف مع صديقه عقيب هذا الحادث . ولم يعد يأتي احد ليزعج اندريه ايفانوفتش . فسر هذا وقرر ان يؤلف كتابا كبيرا يتحدث فيه عن روسيا . وقد عرف القارىء كيفية تنفيذ هذا القرار . كانت حياته تسير هادئة الا ماندر ، حيث يحدث ان ينزعج قليلا عندما تأتيه المجلات او الصحف ، فيقرأ فيها اسم صديق قديم حاز على رتبة كبيرة ، او قدم خدمة جليلة للابحاث العلمية في عصره . عند ذلك كانت كآبة عميقة تعصر قلبه ويستولي عليه خجل ابكم ، وهو يفكر في حياته الكسولة غير المجدية ، فيذكر الماضي ويتذكر الكسندر بتروفتش . . . وينشج باكياً .

ترى ماذا تعني تلك الدموع ؟ أكانت نفس تنبئينيكوف المريضة تكشف له سر مرضه وتقول له لماذا لم يستيقظ قلبه للحياة ؟ أم ان أندريه ايفانوفتش كان يعلم انه لم يتعلم منذ طفولته كيف يعارك الحياة وينتصر ؟ فلم يستطع لذلك ان يتوصل الى المستوى الذي يسمح له بالاستمرار في متابعة الجهد ؟ ثم هل هو يعلم ان معدن احساسه الثمين لم يسق كما يجب ؟ أم انه يفهم ان معلمه توفي مبكرا ولم يعد هناك ثمة انسان يستطيع ان يحفز قواه التي اضعفها التردد الدائم وأن يمنح ارادته الضعيفة شيئاً من القوة بهذه الكلمة الساحرة : « الى الامام » تلك الكلمة التي يحترقها الروسيون مهما اختلفت طبقاتهم ومهنهم ؟

اين هو الانسان الذي يعرف كيف يقول لروحيتنا الروسية الكبيرة تلك الكلمة القوية الحاسمة : « الى الامام ! » واين هو الانسان الذي يعرف الامكانيات

العبيقة في الطبيعة الروسية فيقودها بهذه الصيحة نحو حياة امثل ؟ واية دموع
بل اي حب يغني به الروسي لمكافأته ؟ ولكن ها هي ذي القرون تلي القرون
والكسل الخجل مستمر والشعب الروسي ما يزال طفلا في حين ان الله لا يرسل
الانسان الذي يستطيع ان يتفوه بهذه الكلمة القوية .

وظهرت مناسبة كادت ان توظف تنيتنيكوف وتقلب مزاجه . . . كان هذا
الظرف شبه حب . . . دون نتيجة :

هناك على بعد عشرة « فرسات » من القصر ، كان يعيش جنرال ينتقد دوماً
تنيتنيكوف عندما يتكلم عنه . وهذا الجنرال كسائر القواد المتقاعدين يحب
ان يشاطر الناس الحبز والملح ، ولذا فهو يتلقى الكثير من الزيارات دون ان
يزور احداً ، وكانت له ابنة حية كالحياة نفسها ، قل ان تجد من يماثلها .

وهذه الابنة كانت تدعى « اولينكا » ، وقد تلقت تربية غريبة من قبل
مربية انكليزية لاتعرف كلمة روسية واحدة . وعندما ماتت أم اولينكا
كانت هذه لما تزال طفلة ، ولم يكن لدى الجنرال ثمة وقت للاعتناء بها ، ولكنه
مع ذلك يحبها كثيراً ولا يني عن تدليلها . وكانت هذه الفتاة كبقية الاطفال
الذين تلقوا تربية حرة ، كثيرة الاعتداد برأيها وشخصيتها . واذا ما شاهد المرء
وجهها الجميل وقد عرته الكآبة فجأة ، او رآها تتفجر غضباً وتناقش أباهـا
دون أن تضعف ، اذا شاهدها الانسان على هذه الحال ، سيقول بلاريب ، بأنها
فتاة غريبة ولكنهم لم تكن لتغضب إلا إزاء عمل ظالم . إلا ان اولينكا
لاتناقش عندما يتعلق الامر بها ، كما انها لا تسعى لتبرير أعمالها ، ولاتريد البتة
ان تشقي الانسان المسكين الذي يقوده نكد الطالع لأن يتعرض لغضبها . فاذا
ما طلب اليها احد ان تسن اليه فانها تعطيه جميع ما تحمل من النقود ، وكانت
الى جانب ذلك تظهر في كل شيء حماساً وحمية . وهي عندما تتكلم ، كانت
نفسها تتابع سير افكارها وتبدو واضحة فيها . اما تعبير وجهها ، ونبرة صوتها ،
بل حتى طيات ثوبها ، كانت ترتفع مع صوتها ، فهي لا تعرف المواربة ولا

تخشى إنسانا عندما تعرض أفكارها . ولم يكن في مقدور انسان ان يوقفها عن الحديث عندما تريد ان تتكلم . وكانت مشيتها الغريبة الفاتنة فريدة من نوعها ، إذ أنه فيها شيء من الانطلاق والحرارة حتى ان الانسان ليجد نفسه مرغماً على افساح الطريق لها . وكان الرجل اشيرير يوتبك ويصمت امام أولينيك . اما الرجل الذرب الثورثار الجريء ، فإنه يفتش عن كلمات للحديث ويظل صامتاً مرتبكا في حين ان الحُجُول يجد نفسه يتكلم براحة وانطلاق معها . ذلك ان أولينيك لا تبدو أمامه غريبة ويحيل اليه أنه يعرف قسماتها وأنه رآها قبل ذلك ، واءجب بها منذ وقت لا يذكره في طفولته . وهكذا فهو يقضي وقتاً طويلاً بعد مقابله لأولينيك يبدو له فيه الحديث مع الرجال الناضجين والشيوخ امراً مملاً محزناً . وهذا ما حدث لتنتيتيكوف ، فقد اكتسحه شعور لم يعرف له كنهها ملك عليه جميع مشاعره وطمعى على شخصيته بحملتها ، فبدت له حياته الشاحبة المتقلبة تضيء فجأة . وقد تلقى الجنرال باديء الامر أندريه ايفانوفتش بود صريح ، ولكن الرجلين لم يستطيعا التفهم إذ كانت أحاديثها تنتهي دوماً بالخصام . ولم يكن الجنرال يطبق المعارضة بينما كان صاحبنا كثير الظنون . وبالطبع فقد غفر أندريه ايفانوفتش الكثير للجنرال من اجل أولينيك ، واستمرت علاقتهما حتى مجيء قريبتي للجنرال هما : الكونتس بورديرفا والاميرة بوزالين ، وكانتا وصيفتين في البلاط السابق ولهما علاقات كثيرة في بطرسبرج ، فاستقبلهما الجنرال بحرارة .

ومنذ وصول هاتين السيدتين شعر تنتيتيكوف ببرود في موقف الجنرال تجاهه . فقد كان يتجاهله ويناديه بأسلوب مشبع بالازدراء : « ايها العزيز جداً » او « اسمع » او « يا أخي الصغير » ، وبدأ آخر الامر يخاطبه بالضمير المفرد . فانفجر اندريه ايفانوفتش اخيراً وصر باسنانه وهو لا يكاد يتمالك نفسه ، واستطاع ان يقول بصوت ماديء مهذب رغم ان وجهه قد اصطبغ بحمره الغضب . « اني لأشكرك ايها الجنرال على طبيعتك . ان مخاطبتك لي بالضمير المفرد ، إنما هو بلا

رب دعوة الى صداقة امتن ، ولكن الفرق في السن يمنع رفع الكلفة هكذا !
فارتبك الجنرال وحاول ان يجمع شتات افكاره وليعبر عنها باحسن ما يستطيع ،
وصرح انه لم يستعمل هذا الضمير المفرد لقصد سيء ، ثم اضاف بان الشيخ
يستطيع ان يخاطب شاباً على هذه الصورة ، وقد حرص الجنرال كثيراً على
عدم ذكر قضية الطبقة .

وهكذا انقطعت زيارة الجارين وتلاشى حب تنيتنيكوف لاولينكا منذ
بدايته وانطفأ النور الذي بدأ يضيء حياة اندريه ايفانوفتش ، فعاد الى الظلمات
التي اخذت تشتد حلكتها عليه . كما عاد الى الكسل والنوم ، وقد عمت القذارة
قصره من جميع الانحاء . فظلت المسكنس اياماً كاملة داخل الغرف مع
القاذورات ، واهملت السراويل فوق مقاعد ردهات الاستقبال ، واما القمصان
الملبسة بالغبار فقد كانت تظل اسابيع طويلة فوق المناضد الفخمة . وهكذا
مضت حياة تنيتنيكوف فارغة دون معنى ، ولم يعد يحترمه الخدم ، وحتى في
قن الدجاج نفسه فقد اخذت الدجاجات تفرح حذاءه بمنافيرها . واصبح اندريه
ايفانوفتش يقضي كثيراً من الوقت في رسم منازل صغيرة واسواراً واكواخاً
وعربات . وكان عندما ينسى نفسه في بعض الاحيان ، تمضي يده بشكل
لا شعوري في رسم رأس ذي تقاطيع دقيقة رقيقة ، ونظرة نافذة عميقة ، وشعر
جميل مرفوع فوق العنق . وبهذا يرى اندريه ايفانوفتش مذهولاً صورة تلك
التي لا يستطيع امهر الرسامين ان يجيد رسمها اكثر منه . عند ذلك تعتور
الاحزان السيخ من كل جانب ويأخذ بالاعتناع بان السعادة على الارض
ليست إلا وهماً .

هكذا كان يعيش اندريه ايفانوفتش تنيتنيكوف .

وفي ذات يوم وقف امام النافذة كمادته وفي نفس الساعة المعهودة ، فدهش
اذ لم يسمع صوت غريغوري او برفيلينا . كانت ثمة حركة تخيم على الباحة .
بينما كانت الغسالة والطباخ الصغير يركضان لفتح الباب الكبير . وظهرت خلف

الباب جياذ كالتي ترسم فوق اقواس النصر . وعلى كرسي هذه العربية يجلس حوذي وخادم يرتدي معطفاً عربياً ، وقد ربط وسطه بمنديل كبير . وهناك أخيراً المسافر وكان يرتدي عمرة ومعطفاً من الفرو ، بينما غطى عنقه بشال من الصوف . وعندما وقفت العربية لاحظتنتيتنيكوف انها عادية بسيطة . وقفز منها المسافر برشاقة رجل عسكري ، وكان ذا مظهر قوي انيق .

ودب الخوف في شرايين أندريه ايفانوفتش ، ذلك انه حسب أن القادم موظف حكومي . ويجب ان نقول هنا إنه استترك اثناء مراهقته في عمل غير شرعي . فقد فكر اثنان من الضباط المشاة والفلاسفة الذين قرأوا بعض النشرات مع فنان مقامر ظهروه الافلاس دوماً ، بتأسيس جمعية خيرية برئاسة مقامر آخر ماسوني وغد . وكان هدف هذه الجمعية عظيماً ، وهو إسعاد الانسانية من ضفاف التاميز حتى اقصى « الكامشتكا » . والمبلغ اللازم لهذا الامر كبير جداً ، لذلك ساهم الاعضاء وبعض الكرماء باشتراكات كبيرة . اما كيف انفقت هذه الآلاف من الروبلات ، فأمر لا يعرفه غير الرئيس الماسوني وحده . وانضم تنتيتنيكوف لهذه الجمعية بواسطة صديقيه الطبيين الذين اصبحا ، بعد ان اعتادا على الشرب في صحة العلم ، من السكيورين المدمنين .

وسرعان ما انسحب أندريه ايفانوفتش من هذه الجمعية ، بينما انغمست تلك بعد ذلك في الاعمال المشبوهة ، التي جعلت البوليس يلاحقها . ولم يغفر تنتيتنيكوف لنفسه هذا الخطأ وخاف كثيراً من عقابيله ، حتى في المستقبل البعيد ، ولهذا السبب شعر بالخوف الذي وصفناه عندما فتح الباب في قصره . ولكن خوفه تلاشى عندما حياه الزائر بأدب جم وانحنى له قليلاً الى جهة اليسار . ثم اوضح الغريب بتعابير مقتضبة دقيقة انه مضى عليه زمن طويل وهو مسافر في انحاء روسيا لقضاء حاجات شخصية ولتشقيف نفسه . وقد قال ان الامبراطورية الروسية تملك كنوزاً لا تحصى وخاصة في مناطقها الزراعية والصناعية ، وانه حين اقترب من القصر اعجب بجلال مظهره وجمال منطقته ، ولم يكن ليريد ان

يزعج المالك السعيد لولا سوء الطالع الذي شاء ان تصاب عربته بعطل طارىء ، جعل من الواجب اصلاحها . ولذلك لم يشأ ان يحرم نفسه شرف تقديم احترامه لسيد القصر .

وبعد ان انهى الزائر عبارته الطويلة تلك ، ضم قدميه الى بعضها محدثاً صوتاً عالياً بجذائه . ورغم بدانته الظاعرة ، فقد تراجع الى الخلف قافزاً بخفة كخفة كرة المطاط الصغيرة .

اطمئن تنيتنيكوف قليلاً ، وظن ان ضيفه عالم يسافر في انحاء الروميسيا لجمع النباتات او المعادن النادرة . فرد عليه بانه يضع نفسه تحت تصرف زائره ، كما وعد باستقدام عمال وحدادين لاصلاح العربة ، وطلب منه ان يعتبر نفسه في داره ، ورجاه ان يجلس على احد المقاعد الكبيرة من طراز فولتير .

وأعد أندريه ايفانوفتش نفسه لسماع زائره يتحدث عن العلوم الطبيعية . الا ان هذا لم يطوق الا المواضيع الفلسفية . فشبّه حياته بمركب تتقاذفه الامواج وتدفعه الرياح الطائشة ، كما اوضح انه كان يشغل سابقاً وظيفة عالية ، وانه عانى في سبيل الحقيقة كثيراً ، وعرض حياته للاخطار . وكان هذا الغريب يبدو في جميع احاديثه رجلاً عملياً ، وبعد ما انتهى من الكلام ، تمخط في منديله محدثاً صوتاً لم يسمع بمثله تنيتنيكوف ابداً . كان يخيل للانسان انه يسمع صوت بوق يدوي في ارجاء القصر النائم . ثم انتشرت رائحة الكولونيا اللطيفة ، واعيد المندبل المسكين بعد ذلك الى مكانه .

لاريب في ان الفاريء قد عرف في هذا الشخص صديقنا بافل ايفانوفتش تشتشيكوف الذي تركناه منذ أمد طويل . وكان قد هرم قليلاً من أثر الحياة المضطربة التي عاناها منذ تركناه ، فقد بدا أن معطفه وعربته والحوذي والخادم والحيل ، لقد بدا جميع هؤلاء أنهم عانوا ايضاً وتعبو كثيراً ، وهكذا الامر بالنسبة لحالة سيدهم المالية ، الا ان تعبير وجهه وأدبه واسلوبه في الحديث لم يتغير منها شيء .

ظهر تششيكوف اكثر لطفا ومهارة في تحريك قدميه عند الجلوس ، وكذلك بدا اكثر تماكلا لزام نفسه . وكانت ياقته وأكمامه في مثل بياض الثلج ، ولا تحمل ملابسه أي أثر من آثار من الغبار . وكان خداه نظيفين وذقنه حديثة عهد بالخلافة ، حتى ان الاعمى وحده فقط بمقدوره أن يتجنب فتنها .

وتغير في الحال كل ما في القصر . ففتحت ابواب نصف الشقق المغلقة للنور والحياة ، وأثنت الغرف ونظفت وانتظمت فيها الاشياء ، فغرفة النوم تحوي على كل ما يلزمها وكذلك غرفة العمل ففيها ثلاث مناضد الاولى في جانب المقعد الطويل وهي بمثابة مكتب للعمل والثانية للعب وقد وضعت بين نافذتين تحت مرآة كبيرة اما الثالثة فقد وضعت بين بابين يؤدي أولهما الى غرفة للنوم بينما يؤدي الثاني الى غرفة تصلح كسهو لم تطأ أرضها قدما انسان منذ اكثر من سنة . وقد وضع على الطاولة الاخيرة سروال يتناسب مع معطف الفرو وسروال جديد وثالث رمادي وصدرتان من المخمل وأخريتان من الحرير يتوج كل ذلك معطف فضفاض . كانت هذه الملابس تؤلف هرماً صغيراً مغطى بمنديل حريري كبير . اما الاحذية الجديدة والمهترئة فقد وضعت في زاوية بين الباب والنافذة وكانت مغطاة بحرص بمنديل حريري كبير يخفيها عن الانظار وأما الاشياء التالية فقد رصفت بترتيب على طاولة المكتب : لوازم سفر ، زجاجة من الكولونيا ، مفكرة ، كتابات كل منها هو الجزء الثاني من قصة . وملئت الحزانة بالملابس الداخلية النظيفة وأما الملابس القذرة فقد كانت ملفوفة في رزمة وضعت تحت السرير بجانب الحقيبة الفارغة . وكان السيف الذي لا يفارق تششيكوف والذي يخيف به قطاع الطريق معلقاً بواسطة مسبار فوق السرير . ان النظام والنظافة يسيطران على الغرفة بشكل غير عادي ، فلم يكن هناك ذرة غبار او نقطة ورق أو أثر للافذار . وبدا كأن جو الغرفة نفسه قد نقي وانتشرت

فيه رائحة طيبة تصدر عن رجل سليم يغير ملابسه على الاغلب ويفتسل ويصب فوق جسده الكولونيا ايام الاحاد . وكاذ بتروشكا ان يحمل الى الغرفة رائحته الكريمة ولكنه وضع في المطبخ كما ينبغي له . وقد خاف اندريه ايفانوفتش في الايام الاولى من ان يزعجه ضيفه ، اذ خشي ان يضطره الغريب على تغيير سير حياته الهادئة .

ولكن خوفه كان في غير محله فقد أظهر صاحبنا بافل ايفانوفتش مرونة مذهشة واستعداداً للتكيف لا مثيل له ، فأتى على تثبتنيكوف لبطنه الذي سيسمح له بالعيش مائة عام ، كما امتدح عزلة السيد التي تسمح له بتوسيع افكاره العظيمة . وعندما شاهد بافل ايفانوفتش الكتب في خزائنها ، صرح بانها تقي الانسان من أخطار البطالة ، وكان تشتشيكوف في كل ذلك قليل الكلام الا أن كلماته لا تخطيء الهدف وكان يصل في الموعد الصحيح ويذهب بشكل لا يعكر فيه تأملات تثبتنيكوف ، ويلعب معه الشطرنج عن طيبة خاطر ويعرف كيف يصمت اثناء اللعب وبينما كان احد الصديقين ينفث الدخان في حلقات حازونية كان الصديق الآخر الذي لا يدخن يمسك بعلبة سعوطه الفضية ويجر كها بسرعة بشكل يشبه دوران الارض حول محورها ، او انه ينقر عليها بأصابعه ويصفر .

قال تثبتنيكوف في نفسه : « تلك هي المرة الاولى التي اصادف فيها رجلاً تمكن الحياة معه ... وهذا فن لا يتقنه الروس . ان في الروسيا رجالاً اذكياء مثقفين وطيبين ، الا ان الرجال ذوي المزاج الهادئ الذي تمكن الحياة معهم طيلة قرن كامل دون صخب او ضجيج ؛ فاني لا اعرف منهم واحداً في بلادي . ان ضيفي هذا هو اول شخص اصادفه من هذا النوع ! » .

وكان تشتشيكوف من جهته ايضاً مسروراً من العيش مع رجل هادئ بسيط . إذ ان الحياة العجورية قد انتهكته ، ولذلك كان مسروراً براحة في هذه القرية الجميلة وسط تلك الحقول في هذه الاسبوع الاولى من الربيع . وكانت

هذه الراحة ضرورية له بسبب الآلام التي كان يعانها .

وفي الواقع كان يصعب إيجاد مكان أحسن من هذا للاستراحة . فالربيع الذي اعاقه البؤس يعود الى النشاط فتنمو الحياة في جميع الانحاء . وكانت تششيكوف يتأمل في الغابات المائلة الى الزرقة والازهار الصفراء قرب الاعشاب الخضرة ، والورود الحمراء المطرقة برأسها اللطيف ، وظهرت جميع انواع الحشرات في المستنقعات وخرجت العناكب تطلب لها صيداً . بينما هزعت الطيور في كتائب منتظمة واستيقظت الارض باجمعها ، فقطع الغابات حبل صمت الشتاء .

اما في القرى فقد كان الناس يرقصون وينظمون الرحلات . وكانت انواع الحشرة ورطوبة الهواء تدعو الرجال الى رحلات طويلة . فالطبيعة كلها تغني وكأنها في عرس إلهي .

مضى تششيكوف في كل مكان ، صعد المرتفعات ، ونزله في القمم طويلاً وتأمل في السهول التي كانت تمتد في البعيد حيث كونت الامطار والفيضانات بحيرات صغيرة عديدة ، وحيث تكون الغابات جزراً صغيرة . دخل بافل ايفانوفتش في هذه الغابات فشاهد الاشجار مائتة باعشاش العصافير والغربان تطير في جماعات كبيرة فتحيل لون السماء اسود كالحلأ . ومضى تششيكوف نحو المرفأ حيث تذهب المراكب مليئة بالشعير ، وسمع في طريقه هدير المياه وهي تدير الطواحين . وشاهد اعمال الفلاحين الاولى في الربيع ، ولاحظ المناطق السوداء التي ترسم وسط الاراضي الخضراء ، وامعن النظر في الزارع يرمي الحب من قبعته بحرص لا يسمح لحبة واحدة بالضاياع .

وتعرف تششيكوف على كل شيء ، فقد رأى الوكيل وتحدث مع الفلاح وزار الطحان واستعلم عن جميع تفاصيل اعمال التبنينيكوف . كما عرف ثمن القمح الذي يبيعه وكذلك عرف اسعار الدقيق في الخريف وفي الربيع . واستفهم عن جميع اسماء الفلاحين واسماء اقاربهم وسأل من اين يشتري كل منهم

بقوته وكيف يغذي خنازيه كما أعلموه بنسبة الوفيات بينهم وهي نسبة ضعيفة لسوء الحظ .

وقد فهم تششيكوف أيضاً بسرعة ان هذه الملكية الغنية مهمة تماماً ، اذ ان الفلاح يسرق ويسكر وقليل ما يشتغل .

فكر بافل ايغازوفتش : « يا لتنتينيكوف من أبله غني ، ان له أملاكاً تمثل هذا الغني ويهملها . . انه يستطيع ان يحصل على مورد سنوي يجاوز الخمسين الف روبل . . . وكانت تساوره رغبة ملحة اثناء تجواله في ان يصبح ملاكاً بعدما ينهي اعماله بنجاح . وبطبيعة الحال فانه يفكر اذ ذاك بزوجة جميلة حسنة التربية تعرف الموسيقى وبأولاد يخلدون اسمه : غلام نشيط صغير وابنة جميلة ، او غلامان وثلاث بنات !

وهكذا يكون تششيكوف قد عاش واصبح مستشار دولة او ارتفع الى طبقة اعلى من هذه الطبقة . ولكن اي رجل لا يحلم بمثل هذا عندما يمشي طويلاً ؟ ان احزان الحاضر لتتلاشى اذ ذاك ويحمله الخيال بعيداً فيشير بهززه وهو سعيد ، حتى ولو شعر بان هذه الاحلام المجنونة لن تتحقق ابداً .

هذا وقد اعجب الريف بطبيعته البسيطة ، حوذي تششيكوف وخادمه ، وسرعان ما اعتادا عليها . وحالاً اتفق بتروشكا مع غريغوري رغم انها كادا يتقاتلان في بادىء الامر .

انها بتروشكا على اذن غريغوري باسماء جميع المدن الروسية التي مر بها وشاعدها . ولكن غريغوري اخرسه حين حدثه عن بطرسبرج ، فلم يكن بتروشكا يعرف العاصمة . واراد ان يتحدث عن المناطق البعيدة التي لا يصل اليها الانسان الا نادراً ، ولكن غريغوري اسكته من جديد بذكر اسم كان من المستحيل ايجاده على اية خريطة ، وقد حدد للمدينة التي تحمل هذا الاسم موقعاً على مبعده ثلاثين الف (فرست) من القرية . فخفض خادم تششيكوف رأسه بذل وظل فاغر الفم بما اضحك جميع خدم تنتينيكوف . ورغم ذلك

فقد أصبح غريغوري وبتروشكا من اعز الاصدقاء ، ولا يكادان يفترقان تقريباً في حانة العم بيمين ، وهو رجل اصلع يسميه جميع الفلاحين أ كوكا .
اما سليفان فقد كان مأخوذاً بتسلّيات اخرى ، اذ ان الفلاحين كانوا يغنون عند الغسق في القرية وتتألف منهم حلقات . فكان يراقب طويلاً رقص الفتيات الجميلات ذوات الاجسام المرنة القوية . وقد عسر عليه كثيراً تحديد اجمالهن فقد كن جميعاً بيضاوات الاعناق زرق العيون لهن مشية رشيقة وشعور متدلّية حتى اواسطهن . وكان سليفان يدخل في الحلقات ويمسك بايدي جاراته البيضاوات ، ويتقدم بينهن ببطء او يتركهن برهة قصيرة ليدخل في حلقة الشباب . وعند ذلك تنبه العذارى الجميلات نحو الشباب وهن يغنين ضاحكات : « هيا ايها الشبان .. دلونا على الحبيب المنشود » وتغيب الشمس وراء الافق البعيد ، وتتردد اصدااء الغناء في كل مكان ، وسليفان مأخوذ لا يدري ماذا يدور في نفسه ، فيخيل اليه في الصباح وفي المساء ، انه يمسك الايدي البيض ويرقص داخل الحلقات .

وكذلك الامر بالنسبة لجياد تششيكوف ، فقد كانت مسرورة في اقامتها عندها كل ما تشتهي : شوفان ممتاز واصطبلات مريحة تفصل بينها حواجز متشابكة يستطيع بها الجواد ان يرى ما اذا كان جيرانه يصلون ليروا معهم معزوفة الصهيل .

اما بالنسبة للنفوس الميتة التي كانت هدفاً لبافل ايفانوفتش ، فقد أصبح حذراً جداً فيها حتى مع اغبي انسان . كان تنبئنيكوف يهمل املاكه بالاربع ولكنه مغرم بالقراءة الفلسفية ويسعى لاكتشاف علل الاشياء . ولذا فقد قرر تششيكوف ان يطرق الموضوع بشكل غير مباشر .

علم بافل ايفانوفتش من الخدم ان السيد كان يذهب غالباً لزيارة جار له برتبة جنرال ، وان لهذا الجنرال ابنة بينها وبين السيد ... والخلاصة ان الوالد تخاصم مع السيد ولم يعودا يتقابلان .

وفي واقع الامر ان تششيكوف لاحظ اندرية ايفانوفتش يرسم دائماً رؤوساً نسائية جميلة .

وذات مساء ، وبينما كان تششيكوف يدير علبة سعوطه بين يديه ، قال لتنتينيكوف على حين غرة :

— اندريه ايفانوفتش .. انك تملك كل شيء عدا ... شيء واحد !

فسأله تنتينيكوف وهو يتابع الدخان المتصاعد من غليونيه بانظاره :
— وهذا الشيء ؟ ...

— رفيقة للحياة !

فلم يجب بشيء وانتهى الحديث عند هذا الحد .

ولكن تششيكوف ما كان ليأس . ففي يوم آخر وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث قبل العشاء قال له فجأة :

— يجب ان تتزوج يا اندريه ايفانوفتش .

ولكن الصمت كان تاماً حتى انه لم يكن القول بان هذا الموضوع يحزن تنتينيكوف . ولم يرتبك بافل ايفانوفتش فعادة الكرة للمرة الثالثة بعد العشاء :

— عندما أفكر في حياتك تزداد ثقتي في ان الزواج أمر ضروري لك ، والافحذار من السوداوية .

كانت لهجة تششيكوف هنا اكثر اقناعاً على ما يظهر ، او ان تنتينيكوف قد سمح له بالتدخل في هذا الموضوع . ذلك انه تنهد وقال بعد ان ارسل سحابة دخان من غليونيه :

— بلى يا بافل ايفانوفتش ! يجب ان يكون الانسان سعيداً من اجل هذه الاشياء .

ثم قص عليه قصة علاقته بالجنرال ، وقد اندهل تششيكوف عندما علم ان المخاطبة بالضمير المفرد كانت السبب الوحيد في القطيعة . فأخذ ينظر الى

تنتيتنيكوف متسائلاً عما اذا كان مجنوناً او حيواناً . وهتف آخر الأمر وهو
يمسك بيدي صديقه :

— . قل لي يا اندريه ايفانوفتش ، ارجوك ، ماذا في الضمير المفرد
من مهانة ؟

— . ليس فيه شيء من المهانة بحد ذاته . ولكن الاهانة ان كانت في اللهجة
المستعملة فكلمة « انت » بالمفرد تعني بل تذكر بانك لست شيئاً وانا استقبلك
فقط لاني لا أعرف آخر غيرك ، وهذه الاميرة يوزالين قد وصلت فاعرف
كيف تلزم حدك .

ان اندريه ايفانوفتش الهاديء درماً قد عبس بحاجبيه الآن ؛ وومضت عيناه
وارتعش صوته أثناء الحديث .

— . وحتى لو كنت مصيباً في زعمك ، فما يضيرك هذا ؟

— . كيف ؟

— . أأذهب اليه بعد اهانة كهذه ؟

— . اهانة ؟ ولكنها ليست بذلك

فهتف تنتيتنيكوف :

— كيف .. أوليست إهانة ؟

— انها عادة الجنرالات فهم يخاطبون الجميع بالضمير المفرد ، ثم لماذا لا

نسمح بذلك لرجل يحترم خدم وطنه ؟

— ان هذا امر يختلف عما نحن فيه . انه لو كان شيخاً فقيراً بسيطاً متواضعاً

متواضعاً ، أي لو لم يكن جنرالاً لسمحت له بذلك ولظلت علاقاتنا كما كانت .

وقال تشتشيكوف في نفسه : « يا له من غبي ، انه يسمح لشحاذ ان يخاطبه

دون كلفة ويمنع جنرالاً عن ذلك » . ثم قال بصوت مرتفع .

— حسناً ، لنفترض انه اهانك ولكنك رددت له الاهانة وانتهى الامر .

ما ان تنخاضا ... وان تنقطعا عن الزيارة ... فهذا لا ! واذا كان للانسان

هدف فيجب ان يتابعه مهما كلفه الامر . أتترك كل شيء وتتخلى عن هدفك لان رجلاً قد بصق . ان انسانيتنا تبصق دائماً ، ولعلها خلقت لاجل هذا العمل فحسب . ثم انك لن تجد انساناً واحداً في عصرنا هذا لا يبصق . وفكر تنيتنيكوف وقد اخافته هذه المحاكمة : « أي رجل غريب هذا الرجل ؟ » اما بافل ايفانوفتش فقد قال من جهته : « كم هو ساذ هذا المخلوق ! » ، ثم قال :

— اني اخاطبك كإنخ لك يا أندريه ايفانوفتش وانت غير مجرب . افتريد ان احل لك هذه القضية ؟ سأذهب الى الجنرال ووضح له سوء التفاهم الناتج عن شبابك وجهلك بالناس .

فهمت تنيتنيكوف :

— لا أريد ان اظهر ذليلاً امامه .. ولا اريد ان .. فقاطعه تشتشيكوف :
— اني لا أذل نفسي لانسان . اني قد ارتكب بعض الاخطاء ، ولكن ان اكون جباناً .. اغفر لي اني حاولت مساعدتك . فانا لم اكن اعتقد انك ستفسر كلماتي على هذا النحو . وكان تشتشيكوف يتحدث بكثير من الوقار . فقال أندريه ايفانوفتش وهو يمسك بيدي صديقه :

— انا الذي اخطأت .. اعذرني فانا لم أرد ان اجرحك . واقسم على ان اهتمك بي قد اثر في كثيرآ .. ولكن لنعد هذا الموضوع ولنقطع حديثنا عنه .
— حسنا ولكني سأزور الجنرال زيارة عادية .

فسأله تنيتنيكوف مدهوشاً :

— ولكن لم ؟

— لأقدم له احترامي .

وفكر أندريه ايفانوفتش : « ياله من رجل غريب »

وقال تشتشيكوف :

— سأذهب غدا اليه في العاشرة صباحاً . يجب ألا اناخر عن تقديم احترامي لرجل مثله . ان عربتي لم تصلح بعد ، أفستطيع ان استغل ضيافتك فأستعير عربتك ؟

— يا لله ! أهذا سؤال ؟ ان كل شيء هنا تحت تصرفك !

وعلى هذا افترق الصديقان ، وراح كل منهما يتأمل في غرابة صاحبه .
ولكن الشيء الغريب حقاً ان تنيتنيكوف عرته انفعالات غريبة لم يشعر
بها من قبل . وذلك عندما صعد تشتشيكوف الى عربته مرتدياً معطفاً من
البرو الابيض وربطة عنق زرقاء . وبمضي العربة نحو بيت الجنرال استولت على
افكاره الهادئة عصبية غير عادية لم يعهدها من قبل .

كان يجلس على الارصفة او يقترب من النافذة او يأخذ كتاباً او
يحاول التأمل .

ولكن عبثاً كان يفعل إذ أن الهواجس اخذت تتعب دماغه . فقال وهو
يقترب من النافذة ويرقب الطريق الذي مضت فيه عربة تشتشيكوف :
« انها لغريبة هذه الحالة » ولكن لنعد تنيتنيكوف يتابع
بافل ايضاً نوفتش .

الفصل الثاني

في برهة نصف ساعه ، اجتازت الحيوانات القوية « الفرسات » العشرة التي تفصل قصر تيتيتنيكوف عن مسكن الجنرال . واجتازت العربية مرةً محاطاً بأشجار السنديان ، ثم حقول قمح بدأت تختار في الارض التي لم يمس كبر وقت على حرائها . واجتازت بعد ذلك منحدرات حيث تبدو بعض المناظر من الافق البعيد . ومر من ثم بأشجار صفاف حتى وصل آخر الامر الى باب حديدي تبدو من خلال قضبانها واجهة قصر الجنرال الفخمة بأعمدتها الكورنتية . كانت جميع الالوان زاهية إذ ان الجنرال لم يسمح لحجر واحد او لمعدن واحد ان يدل على الهرم . واما الباحة فكانت تشبه بنظافتها ارضاً خشبية ملعقة بالشمع .

اجتاز تشتشكوف الدرج قفزاً واعلن عن نفسه ، فادخل على الفور الى غرفة عمل رب المنزل . كان الجنرال يهر الانظار بمظهره الرزين وهو يرتدي ثوباً من الحرير الاحمر . وله نظرة صريحة ، وتقاطيع تنم عن رجولة ، وشاربان طويلان ، وسالفان اشتعلا شيباً ، وشعر قصير ، وعنق قوي . والخلاصة انه

كان جنرالاً من طراز قواد عام ١٨١٢ .

والجنرال بتريشتشف كسائر الناس ، وله نقائصه وفضائله . ومتزوج كل من هذه الفضائل والنقائص بالآخرى كما هو الشأن عند جميع الروسيين ، في فوضى غريبة وكان في الساعات الحاسمة يظهر نفساً قوية شجاعة ، وكرماً وذكاء نادراً ، مع اعتداد صبياني بالنفس وغرور و . . . وما تبقى من نقائص الروس الكسولين . وكان الى جانب ذلك يحمل على الذين سبقوه في الخدمة ويسخر منهم بشكل جارح ، ويقسوا خاصة على رفيق قديم يعتبره دونه ذكائه ، ولكنه سماه عليه في المنزلة ، إذ اصبح حاكماً عاماً لمقاطعتين ، تقع املك الجنرال في احدهما . وهكذا اصبح تابعاً لرفيقه في السلك . ولم ين الجنرال عن استغلال جميع المناسبات لينتقد قرارات الحاكم وينعت جميع تصرفاته بالجنون .

وكن الجنرال الى جانب ذلك متحمساً لفكرة تجديد المدينة وهو يحب ان يعرف ما يجمله الناس في حين انه يكره من يعرف ما يجمله هو . والخلاصة انه يصصر على ان يشرف بذكائه على كل شيء ، ويريد ان يلعب دور النبيل الروسي مع انه ربي تربية نصف اجنبية . وانت تدرك من هنا ان الجنرال بحدة مزاجه هذا قد خاق لنفسه عدة خصوم وأرغم على الاستقالة . وبطبيعة الحال لم ينس ان يتهم أشخاصاً بتدبير مؤامرة ضده ، دون ان يجروء على الاعتراف بأخطائه الخاصة . وبعد ذلك ، في تقاعده ، لم يتخل عن سلوكه المتعجرف وسواء أكان مرتدياً ملابسه كاملة أم أنه بشباب المنزل فقد كان دائماً هو نفسه . في حركاته وصوته شيء من السطوة والسيطرة مما يخلق عند الاشخاص الذين ينتمون الى طبقة دون طبقته ، شيئاً من الاحترام او الارتباك .

وقد أحس تشتشيكوف بهذين الشعورين معاً ، فأحنى رأسه الى اليسار قليلاً ، ثم رفع يديه كما لو أنه يحمل طبقاً مليئاً بصحاف للغسيل ، ثم انحنى كثيراً وقال :

— لقد وجدت انه من واجبي تقديم نفسي اسعادتك ، اذ اني ، احتراماً

للإبطال الذين دافعوا عن الوطن في ميدان القتال ، قررت ان آتي بنفسى
لاقدم لك فروض احترامى .

وبدا أن الجنرال قد رضى لهذا الكلام فهز رأسه مرحباً وقال :

— انى سعيد بمعرفتك ... تفضل بالجلوس ... اين خدمت .

فاجاب تشتشيكوف وهو يجلس على حافة المقعد :

— انى بدأت العمل فى احد المكاتب المالية يا صاحب السعادة ، ثم تنقلت

فعملت فى المحاكم ولجان أبنية للنتاج والتجارة .. ان حياتى لتشبه مركباً

تتناقذه الأمواج يا صاحب السعادة . وكنت أصبر دائماً بل يمكن القول بانى

أجسم الاستمرار ... لقد تأمر أعدائى على حياتى ... وان الكلمات والالوان

والانغام لأعجز من ان تروى قصة حياتى . وانا لا أطلب شيئاً أكثر من أن

أقضى اخريات ايامى فى بقعة هادئة ... واما الآن فأنا أقيم عند احد جيوان

سعادتك .

— عند من ؟

— عند تشتينيكوف يا صاحب السعادة .

فقطب الجنرال حاجبيه وزواهما

— انه ليأسف يا صاحب السعادة لما بدر منه من قلة احترام نحو ...

— نحو من ؟

— انه لم يقدر الخدمات التى أدتتموها سعادتك له . وهو لا يجد الكلمات

التى ... لقد قال :

« لو استطعت فقط ، بابه طريقة ، أن أبين بانى أعرف قدر الإبطال الذين

أنقذوا هذا الوطن » فهتف الجنرال وهو يعود الى هدوئه :

— ولكن ارجوك ... ماذا عنده ضدى ؟ انى لا أشعر بنفور منه ، بل

انى أحبه كثيراً ، وانا على ثقة بانه سيصبح ، مع الزمن رجلاً

نافعاً جداً .

- ان قولك صحيح يا صاحب السعادة ... ان عند تنقيتنيكوف
موهبة كلامية فذة ... وهو يكتب بشكل مدهش ... انه عبقرى بكل
معنى الكلمة .

- ولكنه يكتب سخافات ... اشعاراً سخيفة .
- لا يا صاحب السعادة ليس الامر كذلك . انه يكتب تاريخاً
يا صاحب السعادة .

- يكتب تاريخاً ... عن اي شيء .
- تاريخ ...

وفكر تششيكوف ثم اضاف ، اما لأنه كان امام جبهة ال او لانه أراد
أن يؤكد أهمية الموضوع :

- تاريخ القواد يا صاحب السعادة !
- ماذا ؟ واي قواد ؟

- القواد عامة يا صاحب السعادة ... انه يكتب عن طبقة القواد وخاصة
قواد الوطن .

وارتبك تششيكوف قليلاً وهو يتساءل بينه وبين نفسه : أناحيوان ؟
وقال بتريشتشيف :

- اعذرني ، اني لم افهم شيئاً ... هل يكتب عن فترة معينة ام انه يكتب
تراجم جميع القواد ، ام انه يختص قواد عام ١٨١٢ بالكتابة فقط ؟
فاجاب تششيكوف :

- تماماً يا صاحب السعادة . انه يتكلم عن قواد عام ١٨١٢ . ثم قال في
نفسه : « ان الشيطان وحده يعلم اذا كنت افهم شيئاً عن هذا الموضوع ! »
وسأله الجنرال :

- واذن لماذا لا يأتي لزيارتي .. اني استطيع ان اقدم له وثائق هامة ..
- هو خجول يا صاحب السعادة .

- هذا امر تافه .. أمن أجل كلمة لا معنى لها ! ما أنا بالرجل الذي يظنه ،
سأذهب اليه بنفسى .

فهتف تششيكوف :

- لا لا ! انه لا يقبل بذلك .. سيأتى الى هنا بنفسه ! ثم قال فى داخله :
« يالله .. كيف تتدبر الامور .. ان تاريخ القواد هذا قد نجح »

وفى هذه البرهة حدثت ضجة خفيفة ثم فتح الباب وظهر خلفه وجه امرأة .
ولو ان نوراً فجائياً هبط على الغرفة الفتاة لما أدعش تششيكوف واذله كما
اذهلته هذه المفاجأة . كانت الفتاة قد جاءت لتحدث الجنرال ولكنها اذ رأت
تششيكوف ترددت قليلاً . وكان وجودها بمثابة شعاعة شمس اضاءت حجرة
عمل الجنرال . واخذ بافل ايفانوفتش يلتهم الفتاة بانظاره وقد بهره جمالها . وكان
من الصعب عليه ان يحدد نموذجاً لها . اذ ان تعبير وجهها ينم عن نبـل ونقاء
لامثيل لها . وكانت مستقيمة وخفيفة كالسهم وتبدو كأنها اطول الناس قامه ،
ولكن هذا ليس غير وهم ، اذ ان قامتها معتدلة وان كانت تظهر طويـلتها بسبب
تناسب تقاطيع جسدها وانسجامها . اما ثوبها فكان ملائماً لها بشكل ساحر
وكان الجنيات الحياطات قد سهرن على اعداده . ومع ذلك فان الفتاة هي
التي تخطط ثيابها بنفسها ، فتفصله بيدها وتضع له النقاط هنا وهناك حتى يأتى
الثوب ملائماً لها بطياته الرشيقه ، فتبدو بقية النساء امام هذه الالهة مخلوقات تافهة
لاقيمة لها . ولو ان نحائلاً صنع نموذجاً لها من المرمر لهُتف الجميع : ياله من عمل
عبقري رائع .

قال الجنرال :

- أقدم لك ابنتى المدللة .. ولكنى لأعرف اسمك . فأجاب تششيكوف
بتواضع وهو يحنى رأسه قليلاً :

- وماذا يهمك من اسم رجل بسيط .

- ومع ذلك فانا ارغب بالتعرف عليه .

فاجاب تششيكوف وهو يقوم بتحية رشيقة شبه عسكرية ، متراجعا الى الوراء بخفة كخفة كرة المطاط :

— بافل ايفانوفتش ، يا صاحب السعادة .

فقال الجنرال متوجها بالحديث الى ابنته :

— ان بافل ايفانوفتش يا عزيزتي اولينيكاف قد نقل الى خبراً هاماً .. ان جارنا تنيتنيكوف ليس بالرجل الابله كما اعتقدنا ، فهو يعمل على تأليف كتاب مهم عن تاريخ قواد ١٨١٢ .

فأجاب الفتاة بجرارة :

— ولكن من الذي يقول بان تنيتنيكوف احمق ؟ لربما يكون

فيشنبوكوونوف الذي تثق به اكثر مما يجب ، وهو رجل منحط تافه .

— انه ليس بمنحط ولكنه تافه

فألحت اولينيكاف :

— انه جبان وعديم الاخلاق ، بل هو فوق ذلك تافه . ان رجلاً يهين إخوته

كما فعل ، او يطرد اخته من بيت ابيه ، انما هو انسان منحط لارادع له .

— ولكن ذلك اشاعة لا اكثر !

— ان قصصاً مثل هذه القصص لا تخترع اختراعاً . واني لا استطيع ان افهم ،

يا والدي ، انك باستقامتك وقلبك الذهبي ، تستطيع ان تستقبل مخلوقاً يبعد عن

طينتك بعد السماء من الارض ، وتعرف مع ذلك انه مخلوق رديء .

فهتف الجنرال وهو يلتفت نحو تششيكوف :

.. أرايت ؟ اننا هكذا دوماً نختم .

وتوجه بالحديث الى ابنته قائلاً :

— ولكن ، يا روجي الصغيرة ، لا يمكنني ان اطرده .

وخيل الى تششيكوف ان من واجبه قول شيء :

— جميع الرجال يريدون ان يكونوا محبوبين يا آنستي ؛ فما العمل ؟ بل ان

الوحوش نفسها تنتظر من يداعبها امام قضبان اقفاصها .
فقال الجنرال ضاحكاً :

- هذا صحيح .. اذهب وداعبها .. أه ... أه ... أه ... ان لها لفها مليء
أنياباً ينتظر ان يداعب .

كان الجنرال يضحك بقوة بينما يهتز جسده كله وخاجة كنفاه اللذان حملا قديماً
الشارات . واقتمدى بافل ايفانوفتش بالجنرال ولكنه عوضاً عن ان يضحك
كالجنرال على هذه الطريقة : أه أه أه ... اختار لنفسه طريقة أخرى هي :
إيه إيه ... إيه ... وذلك احتراماً لمضيفه . واهتز جسده هو الآخر ولكن
كثفيه بقيا ساكنين ، ولربما كان السبب في ذلك انه لم يسبق له ان حمل عليهما
شارات عسكرية .

وقال الجنرال :

- حتى الذي يسرق الخزينة ويخدع الناس يطالب الملاطفة ايضاً . ان العمل
ليستحيل دون تشجيع . أه . أه . آه ..

وقالت الفتاة وقد ارتسم على وجهها الصبوح تعبير كئيب :

- اني لا استطيع ان افهم كيف تضحك ، وهذه الصغائر شد ما تحزنني .
واني عند ما أرى هذه الاشياء تتم في العلانية دون ان يعاقب مرتكبوها
بالازدراء العام ، عندما ارى ذلك لا استطيع أن أدرك ما يجول في داخلي ..
فأصبح ميئة شريرة أفكر .. أفكر ..
فهتف الجنرال مقاطعاً :

- ارجوك لا تغضي منا ... ذلك انه لا ذنب لنا .

ثم اضاف متوجهاً الى تشتشيكوف :

- أليس كذلك ؟

والتفت بعد ذلك الى ابنته وقال :

- قبليني واذهي ... سأرتدي ملابسني لاجل الغداء ، ثم سأل بافل
ايقانونتش :

- وأنت ، أنتناول معنا الطعام ؟ آمل ان تقبل دعوتي .

- اذا كنت تشرفني بـ ...

- دون كلفه ... اني استطيع ايضاً دعوة اصدقائي للغداء ، فحساء الملفوف
عندنا جيد الطبخ .

رفع تشتشيكوف يديه قليلاً ، ثم انحنى كثيراً ، كثيراً جداً حتى لم ير
من الغرفة غير قدميه ، وبقي لحظات على هذا الوضع ثم انتصب في الوقت
الذي توارت فيه اولينكا ، ودخل بعد ذلك خادم في طول المارد بشاربين
طويلين وسالفين كثيفين ، يحمل اناء من الفضة ومنشفة .

- اتسمح لي بارتداء ملابسني امامك ؟

- انك تستطيع ، يا صاحب السعادة ، لا أن ترتدي ثيابك فحسب ، بل
ان تفعل ايضاً كل ما يحلو لك .

خلع الجنرال ثوبه المنزلي وحسركمي قميصه عن ساعدين قويين ، ثم اخذ
يغتسل نائراً الماء حوله كبطّة تضطرب في الماء ، وكذلك فقاعات الصوبون فقد
اخذت ايضاً طريقةها الى كل مكان من الغرفة .

هتف وهو يمسح عنقه :

- أه ... أه ... آه . انهم يحبون التشجيع ... أه آه داعبه ، داعبه اذن ،
ما من انسان يسرق او يخدع دون تشجيع .

شعر تشتشيكوف انه مرتاح تمام الارتياح ، وعند ذلك هبط عليه الوحي
فجأة فقال في نفسه : « ان الجنرال انسان طيب مرح فلماذا لا اجرب معه ؟ » .

وما ان انصرف الخادم حتى التفت الى بتريشتشف قائلاً :

- يا صاحب السعادة ، انك لتظهر الطيبة والكرم لجميع الناس ، ولذا فانه لي
عندك رجاء .

ونظر تششيكوف حوله .

111/ - ان لي عمّاً عجوزاً يملك ثلاثاًثة عبد ، واني وريثه الوحيد .
وهذا العم قد بلغ من العمر عتياً فلم يعد بمقدوره ان يدير املاكه منفرداً
ولكنه في نفس الوقت لا يريد ان يعهد الي بهذه المهمة ، وحجته في ذلك غريبة
قال لي ذات يوم : « انا لا أعرف ابن اخي جيداً ، اذ ربما يكون متلافاً مبذراً
فاذا أراد ان يثبت أهليته للثقة فيجب عليه ان يصبح مالكا لثلاثاًثة عبد . وعند
ذلك أستطيع ان أعهد اليه بعبيدي ! »
فهتف الجبزال :

- ولكن عمك هذا رجل احمق .

- ربما كان ذلك ، وعلى اية حال فهذا أمر يتعلق به وحده ، والمهم ان
لديه الآن مدبرة - منزل ولها اولاد ، وقد يؤول كل شيء اليهم .

فقال الجبزال وقد ازداد تعجباً :

- ان العجوز قد فقد عقله بلا ريب . ولكن كيف أستطيع مساعدتك ؟
فاجاب باقل ايفانوفتش :

- كنت افكر يا صاحب السعادة انك لو بعثني ما عندك من النفوس
الميتة في هذه القرية ، على اعتبار أن أصحابها احياء ، مع تنظيم عقد شرعي بالمبيع
اذن ، فاني ابرز هذا العقد لعمي فتنتقل الي ثروته !
وضج الجبزال بالضحك واستلقى على معقده ملقياً برأسه الى الخلف . ومن
المؤكد انه ما من انسان في العالم اجمع يضحك مثل ضحكة الجبزال هذه فقد
هز المنزل بأركانها ، فركض الخدم وهرعت اولينكا مذعورة تصيح :
- ماذا اصابك يا أبتي

بقي الجبزال مستغرقاً في ضحكه وقتاً طويلاً ، وعندما رجع الى
صوابه قال :

- لا شيء ... لا شيء يا صديقتي ... عودي الى غرفتك وسنتناول الطعام
بعد قليل . لا تقلقي . أه أه آه

وعاد الجنرال من جديد الى الضحك ، واخذ الصدى يتردد في ارجاء المنزل
من اول الممشى الى اقصى الغرف . وكان تشتشيكوف يرقب كل ذلك
بشيء من القلق .

- آه ... هذا العم البائس ... سيرى اسماء الموتى ... وسيخضع ...
أه أه آه ... !

وقال تشتشيكوف في نفسه : « ان الجنرال كثير الحساسية ، فأمل
ألا تسوء الأمور ! »

وتابع بتريشتشف :

- ياله من حمار . أه أه . هو يطلب ان تصبح مالكا لثلاثائة نفس كي
يعطيك فلاحيه .. ولكنه حمار

- اجل ! حمار يا صاحب السعادة .

- ولكن اية فكاكة هذه ، أن تقدم له امواتاً ... اني ادفع ما يعلمه الله
كي اكون حاضراً عندما تقدم له عقد المبيع ... كيف هو ، كم
يبلغ من العمر .

- انه في الثمانين فقط من عمره

- وما يزال يتحرك ... انه انسان صلب ... وبمقدوره ان يقوى على الحب
طالما ان له مدبرة بيت .

- هو عاجز يا صاحب السعادة ... انه كيس دقيق بدأ يفرغ .

- انه غبي تماماً ... اليس كذلك ؟ انه غبي !

- غبي يا صاحب السعادة !

- أخرج من البيت ويتحرك ؟

— انه يمشي ولكن بصعوبة .

— ياله من أحق ! ... هل له اسنان ؟

— اثنان فقط يا صاحب السعادة !

— يا له من حمار ... لا تغضب انه حمار بالرغم من كونه عمك .

كان تشتشيكوف يكذب بلا شك ، ولكنه لم يكن يشعر بالحجل لان العم الذي تحدث عنه لاجود له .

— اذن ، هل اتفقنا يا صاحب السعادة ... وهل ستبيعني امواتك ؟

— اعطيك نفوسي المينة ... لا ، بل سأعطيك من اجل هذه النكتة جميع

الاموات مع الارض والاكواخ ، بل خذ ايضاً المدفن ... أه أه أه ...

يا للعجوز المحبول ... أه أه ، كم يضحك ... أه أه أه ...

ومن جديد دوت ضحكة الجنرال في انحاء القصر .

ص

(١)

الفصل الثالث

نعم تششيكوف : « لئن كان الكولونيل كوشكاريف مجنوناً حقاً ، إذن ياله من موقف مضحك » . وكان في تلك الآونة قد تغلغل في الحقول ذات الآفاق الواسعة اللامحدودة ، فلم ير غير السماء وبعض سحابات بعيدة . وقال لحذيه : — هل استفهمت عن الطريق يا سليفان . . أننا ذاهبون الى الكولونيل كوشكاريف .

— لم يسمح لي الوقت بالسؤال يا بافل ايافتش ، ذلك اني استغرقت في تنظيف العربة وقتاً طويلاً ، الا ان بتروشكا قد استفهم عن ذلك . — لقد قلت لك اكثر من مرة ألا تثق ببتروشكا فهو كالحطبة ، بل هو أحمق ، وأنا على ثقة بانه ثمل تماماً الآن .

فهتف ببتروشكا وهو يلتفت :

— ليس الامر صعباً ، علينا ان نقطع منحدرًا ونجتاز حقلاً فينتهي الامر . — انت انسان جيد ، وخاصة عندما تشرب الخمر . وعلى أية حال لن يقول

(١) هناك عدة صفحات ناقصة في مسودة الكتاب .

عنك احد : إنه أذهل اوروبا بجماله .

تلفظ تشتشيكوف بهذه الكلمات ثم داعب ذقنه وفكر : « انه لفرق أي فرق ، بين مواطن مثقف وخادم حيوان ! » وكانت العربية في ذلك الحين تقطع منحدراً لهضبة فانكشفت أمامهم مراعي جديدة وآفاق جميلة ، بينما احيط الطريق بالاشجار .

وصلت العربية السفح قاطعة المراعي ومرت قرب الطواحين مجتازة بصخب كثيراً من الجسور ، ثم سلكت آخر الامر طريقاً مليئاً بالاشجار ، فلم يحصل عقيب ذلك أي اهتزاز او رجرجة ، إذ أن العربية كانت تهدد تشتشيكوف كما لم تفعل ذلك من قبل . اخذت الكروم واشجار الصفصاف بورقها الفضي تلسع بأغصانها وجهي سليفان وبتروشكا اثناء السير . وقد فقد بتروشكا عدة مرات عمرته فكان يقفز على الارض ليلتقطها لاعناً الشجرة وسيده الذي امره بالجلوس الى جانب سليفان . ولكنه بالرغم من ذلك فقد صمم على ألا يحمل العمرة بيده أو يثبتها بقوة على رأسه لأنه في كل مرة تسقط عمرته على الارض ، كان يقنع نفسه بأنها المرة الاخيرة . وصلوا بعد ذلك الى طريق محدود بأشجار الصنوبر والبلوط ، فدخلت العربية غاباً صغيراً ، وبدأت بعد قليل شعاعات الشمس تمر بين الاغصان فاستضاءت بها الاشجار . وشاهد تشتشيكوف بحيرة طولها اربعة (فرسات) تقريباً ، وساهد على الضفة المقابلة ايضاً كواخ القرية الرمادية . كانت الصيحات تنعالي من كل مكان . فهناك حوالي عشرون رجلاً تغمرهم المياه حتى الاعناق يسكون بشبكة كبيرة .. وهذا ما حصل :

أوسكت الشبكة بسمكة كبيرة والنقطت في نفس الوقت رجل عظيم الجرم ضخماً كأنه البرميل ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : « دنيس اعط كوزما ... كوزما خذ طرف الشبكة من دنيس ... لا تشد هكذا بقوة ... توماس الكبير ، ساعد توماس الصغير .. أيها التعساء ستمزقون الشبكة ! » . ولم يكن التعس ليخشى على نفسه اذ يستحيل عليه ان يفرق في الماء لبدانته

ثم ان المياه تعيده دوماً الى سطحها . بل لا يمكن ان يغرق حتى ولو حمل على كاهليه رجلين ، لان المياه سترده ايضاً الى السطح . الا انه هنا كان خائفاً على السمكة ، ولذلك أخذوا يشدونهُ هو الآخر بحبال رماها اليهم رجال وقفوا على الضفة . قال سليفان :

— انه سيدهم بلا ريب ، انه الكولونيل كوشكاريف

— ولماذا تعتقد ذلك ؟

— لأنه ... انظر اليه . ان جلده اكثر بياضاً من الآخرين وثباته ثبات سيد .

وفي هذه الاثناء كان السيد قد وصل مع الشباك الى الضفة . فوضع قدمه على الارض وشاهد في نفس اللحظة عربة تشتشيكوف . فاقترب من بافل ايفانوفتش حاملاً الشبكة على كتفيه فارشاً يده فوق عينيه ليحميها من حدة الشمس بينما ترك يده الاخرى مسبلة كصورة فينوس مدسّيس وهي تخرج من الحمام . ثم صاح به :

— هل تناولت طعام الغداء .

فرد تشتشيكوف وهو يحيه بعمرته :

— لا

— شكرًا لله اذن

فسأله بافل ايفانوفتش وهو ما يزال ممسكاً بعمرته :

— ولماذا

انظر الى ذلك بنفسك . . . ياتوماس الصغير ، اره السمكة ، وانت

يا كوزما ساعده .

ورفع الصيادان السمكة فهتف السيد :

— هية ... يالها من سمكة ملكية . تعالوا الى المنزل .

وانت يا حوذي اسلك طريق الحقول ، واما انت يا توماس الكبير فلتسرع
لنفتح السياج ، انه سيصحبكم بنفسه اما انا فساأحق بكم .

اجتاز توماس الكبير القرية وهو حافي القدمين راكضاً امام العربية . كانت
اشتات مختلفة من أنواع الامم اك تشاهد معلقة على الأكواخ ذلك ان جميع
الفلاحين يصيدون . وصل توماس الى الحاجز فرفع ألواح الحشبية فمرت العربية
بين حقول جميلة ثم وصلت الى ساحة قرب كنيسة خشبية وبدأت من بعيد
اسطحة بيت السيد فكر تششيكوف : «أي شخص غريب هذا الكوشكاريف»
وهتف صرت من الخلف :

— ها أنذا .

وعندما النفث تششيكوف شاهد السيد راكباً على عربية بالقرب منهم
يرتدي معطفاً من قماش نانكين وسروالاً اصفر اللون ؛ ولكنه لا يلبس ياقة او
ربطة عنق . وكان يملأ العربية وحده .

وعندما اراد بافل ايفانوفتش ان يرد عليه كلمته اختفى داخل العربية التي
اصبحت بعيدة عنه هناك حيث كان الصيادون يستخرجون الاسماك . ومن
جديد تعالت الاصوات وسمع منها توماس الكبير والصغير
وكوزماودنيس .

وكم كانت دهشة تششيكوف عظيمة عندما وصل الى القصر وشاهد السيد
هناك . وقد استقبله هذا بقبلات متلاحقة وهو ما يزال على الدرج . ترى كيف
استطاع ان يقطع كل هذه المسافة بتلك السرعة ؟ ان هذا لسر غامض ، تبادل
رب البيت مع تششيكوف ، بعد ذلك ، قبلة ثلاثية على الطريقة الروسية
القديمة رسماً بها شارة الصليب . ذلك ان السيد كان من نبلاء الجبل القديم .

قال بافل ايفانوفتش :

— اني أنقل اليك نحيات سعادته

- سعادة من ؟

سعادة قريبك الجنرال الكسندر ديمتريفتش

- الكسندر ديمتريفتش .. ومن يكون ؟

فاجاب تشتشيكوف وقد أدهشه هذا السؤال :

- هو الجنرال بتريشتشف

- لا أعرف هذا المخلوق .

فذهل بافل ايفانوفتش

- وكيف هذا ؟ اني لآمل ان اكون قد حصلت على شرف التحدث مع

الكولونيل كوشكاريف

- لنفقد هذا الامل اذن . انك لست في بيته بل في بيتي انا !... اني

بيوتر بتروفتش بيتوخ .. بيتوخ ، بيوتر بتروفتش .

وظل تشتشيكوف مذهولاً ثم هتف بجوذه وخادمه ، مليفان وبتروشكا .

- ماذا فعلتما .

ولكنهما كانا ايضاً فاغري الفم ، وقد جلس احدهما على المقعد بينما وقف

الآخر قريباً من الباب . وتابع تشتشيكوف :

- ايها الغبيان ، لقد قلت لهما ان تذهبا الى منزل الكولونيل كوشكاريف

فجئتما بي الى منزل بيوتر بتروفتش بيتوخ .

فقال بيتوخ :

- لقد فعل الصغيران جيداً .. اذهبا الى المطبخ كي تقدم لهما الفودكا ثم

حلا الجياد واذهبا للتعرف على رجالي .

فقال تشتشيكوف :

- انك ترى بلا ريب خجلي منك .. انه خطأ فظيع .

- لا ، ليس من خطأ هناك .. يجب ان تذوق طعامي قبل كل شيء ثم

تقول لي بعد ذلك اذا كان هناك من خطأ ام لا .. ارجوك تعال معي .
و خذ بيتوخ ذراع تشتشيكوف وقاده الى المنزل . وخرج طفلان بلا بسهما
من احدى الغرف هناك ، وكانا نحيلين طويلين ، يفوقان والدهما طولاً .
وقال بيتوخ :

- هذان ولداي الطالبان في الصفوف الثانوية وقد جاءا هنا لقضاء العطلة ..
ابق يا نيقولاشا مع صديقنا وأما انت يا ألكياشا فاتبعني .
ظل تشتشيكوف مع نيقولاشا الذي سرعان ما بدا له عديم القيمة لانه
صرح ان مدرسة المقاطعة لاتساوي شيئاً ، مما جعله يقرر مع اخيه ان يذهب
الى بطرسبرج ، لانها لا يريدان ان يعيشا في بقعة نائية منعزلة . فقال تشتشيكوف
في نفسه : « وسينتهيان بلاريب في الحانات . » ثم سأله :
- كيف هي حالة املاك ابيك ؟

فرد بيتوخ الذي دخل الغرفة في تلك الآونة :
- مرهونة .. انها مرهونة !
ففكر بافل ايفانوفتش : « يا لها من صفقة خاسرة . اني اضيع وقتي سدى ! »
ثم قال بصوت مرتفع :

= هذا أمر مؤسف ... لعلك تسرعت برهنها .
= ابدأ ... وأما قبل لي ان ذلك يشكل صفقة رابحة ، لان كل الناس
يرهنون املاكهم فلماذا لا اجاريهم في ذلك ؟ لقد عشت حياتي ههنا واريد
الذهاب الآن الى موسكو ، وكذلك ولداي فانها يرغبان ايضاً في ذلك
ولا يلحمان الا بمتابعة دراستهما في العاصمة :

وفكر بافل ايفانوفتش : « ياله من حيوان غبي ... انه سيضيع ثروته وحياته
ولديه ... وعنده هنا الاملاك الضخمة والعبيد ويعيش حياة الاسياد كما انه على
وفاق مع عبيده ككل ملاكي المقاطعات في الريف ... وأما هناك ... فانهم
سيحدثون في المطاعم والمسارح ويذهب كل شيء الى الشيطان ... بينا يستطيع
النفوس الميتة - م ٢٠ - ٣٠٥ -

هنا ان يعيش هادئاً مطمئناً ... وقال بيتوخ :

— اني اعرف بماذا تفكر !

فارتبك تشتشيكوف وقال :

— وبماذا أفكر ؟

— انت تقول إن بيتوخ هذا رجل احمق ... دعاني الى الغذاء ولم يعط

الطعام بعد . ولكن لا سيقدم الطعام بعد دقائق معدودات يا عزيزي . سوف يقدم كل شيء قبل ان تنتهي الفتاة التي رأيتها من جدل خفائرها .

وقال أليكسا الذي كان ينظر من النافذة :

— ماذا بلاتون ميخائيلوفتش قادماً إلينا يا ابي ! وأضاف نيكولاشا :

— وعو على جواد رمادي اللون .

فسأل بيتوخ وهو يقترب من النافذة :

— اين هو ... اين هو !

فسأله تشتشيكوف :

— ومن يكون بلاتون ميخائيلوفتش ؟

— انه جار لنا يدعى بلاتون ميخائيلوفتش بلاتونوف ، وهو رجل شجاع ممتاز .

ودخل بلاتونوف بعد قليل الغرفة . كان رجلاً بهي الطلعة طويل القامة أشقر

الشعر جعده . وقد امسك بسلسلة جميلة من النحاس مربوطة بكاب يدعوه سيده

« يارب » . وهو حيوان قوي ذوفك مخيف . وسأله بيتوخ :

— أتناولت طعام الغذاء ؟

— اجل !

— أتهزأ مني ؟ وكيف تأتي الي بعد الغذاء ؟

فابتسم الصديق وقال :

— سأعزبك قليلاً ، اني لم آكل شيئاً ولكنني فاقد الشهية .

- ما اعظم صيدنا اليوم . . آه لو شاهدت ماذا اصطدنا من الاسماك !
- اني اكتفي بسماكك تتحدث عن الاسماك ؛ ان مثل هذا الحديث فيه
الكثير من الالقاء ، اجبني بحق الشيطان ماذا تفعل حتى تكون دوماً
هكذا مرحاً ؟

- ولم الحزن ؟ ولماذا احزن ؟

- لماذا ؟ . . . لان الحياة حزينة !

- انك لا تأكل كفايتك ! . . . وهذا كل شيء ! كل جيداً وسترى عما اذا
كانت هذه الكتابة التي اخترعناها نحن الروسيين لا تتبدد .

- أوه لا تتظاهر هكذا بالشجاعة ! انت تعرف الملل كما اعرفه انا .

- لا تعتقد ذلك ، لانه ليس لدي وقت للملل . ذلك اني أستيقظ صباحاً
فأقابل الطاهي واحدد له اصناف الغذاء ثم يقدم لي الشاي ، ويأتي بعد ذلك
الوكيل . . . ثم هناك الصيد ويأتي بعده وقت الغذاء . وما إن انام قليلاً عقيب
الغذاء حتى تكون علي مهمة الحديث عن طعام العشاء . وهكذا غير النهار كيف
تريدني أن أمل .

وفما كان الصديقان يتجاذبان اطراف الاحاديث اخذ تششيكوف ينظر
الى الضيف الذي سحره بجماله وقامته المقتولة وشبابه المتدفق ونقاء تقاطيعه . لم
يكن يبدو على هذا الرجل أي ألم أو انفعال او عاطفة ، بل ظلت تقاطيع وجهه
جامدة بالرغم من الابتسامة الساخرة التي اعطته برهة شيئاً من الحياة .

وقال تششيكوف لبلاتونوف :

- لا أستطيع ان اتصور انسان له مثل وجهك يشعر بالملل . . . اسمح لي
ان اقول انه لربما كان الامر عائداً الى نقص في مواردك او الى وجود اعداء
يتآمرون على سلامتك . . .

فقاطعه بلاتونوف :

. صدقتي اني كثيراً ما ارغب بالشعور بالقلق يتأكلني ، بل ارغب اكثر

من ذلك برؤية احد يثير غضبي ، ولكن للاسف الشديد لا يحصل شيء من ذلك لي ، ولذلك تراني اشعر بالملل والضيق وهذا كل شيء .

- أما لديك قدر كاف من الاراضي ؟ ثم ألا تملك عدداً وافياً من الفلاحين ؟

- اني املك مع اخي كثيراً من الاراضي الواسعة واكثر من ألف فلاح .

- هذا امر غريب ... اذن ألا يمكن ان يعود سبب ضجرك الى وسم ردي ؟

أو وباء رفع بين فلاحيك نسبة الوفيات ؟

- على العكس تماماً ... ان كل شيء يسير عندي على مايرام . ذلك ان

اخي اداري بارع .

- أراني لا أقدر على فهمك ... أئبل الانسان عندما يملك جميع ما يلزمه ؟

ورفع تشتشيكوف كتفيه عجباً فقال رب البيت :

- انتظر قليلاً ... ستطرد هذا الملل حالاً اليكاشا اركض الى المطبخ

وقل للطاهي ان يقدم لنا طوماً مبردة على الفور . ثم ابن امليان الغبي وانطوشكا

اللص ... لماذا لم يقدم لنا ما يثير الشهية من المقبلات ؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل امليان الغبي وانطوشكو اللص ووضعوا

فوق الطاولة ست زجاجات من المشروبات المختلفة . ثم أتيا بصحاف فيها مختلف

أنواع المقبلات . وكان ثمة خدم آخرون يروحون ويغدون بينما كان امليان

الغبي وانطوشكا اللص يديران كل شيء بهارة وذكاء . ان هذين النعتين اطلقهما

بيتوخ عليهما كي يحثهما على العمل . ذلك ان السيد لا يجب ان يتعب رجاله فهو

طيب نحوهم ، الا ان الروس يحتاجون دوماً الى استعمال نعت يحفز عقولهم كما

تحفز الفودكا أمعدهم .

ولا يمكن صنع شيء معهم فهم معتادون على ذلك ولا يستطيعون الحياة

دون دافع يشيرهم .

وتتالت الاطباق من شتى الالوان واتهم رب البيت ضيفيه بكمية الطعام

إذ ما يسكدا احدهما يصب لنفسه شيئاً حتى يضيف بيتوخ الى الصحن قطعة كبيرة

من اللحم وهو يهتف : « لا الانسان ولا الطير يستطيعان العيش ان لم يكونا زوجين ! » .

اما اذا اخذ احدهما قطعتين معاً فان بيتوخ يسرع الى وضع قطعة ثالثة ويوضح عمله بقوله :

« ان الله يحب التثليث فالاثنتان لا يؤلفان العدالة » وما ان ينهي صديقه اكل القطعة الثالثة حتى يقول : « لا توجد عربة بثلاث عجلات كما لا يرتفع كوخ بثلاث زوايا ! » كان لكل عدد عنده مثل ومنطق : وهكذا اكل تششيكوف اثني عشر صحناً من الوان مختلفة واخذ يفكر : « انه الآن سيدعني بسلام ! » ولكن بيتوخ عاجله بصحن آخر دون ان يتفوه بحرف واحد ، ووضع في هذا الصحن قطعة كبيرة من لحم العجل وقال :

- اني غذيت هذا العجل بالحليب مدة سنتين فقط واعتنيت به اعتنائى بأولادي .

فاجاب تششيكوف :

- لا أقوى على المزيد من الطعام .

- ولكن جرب وستقول لي بعد ذلك : لا استطيع .

- ليس في بطني متسع لاي لقمة .

- وفي الكنيسة ايضاً لا توجد اماكن شاغرة ، ولكن مختار المدينة عندما يدخلها يستطيع ان يجد لنفسه مكاناً ، في حين ان الناس يزحم بعضهم البعض الآخر بشكل اذا سقطت معه تفاحة عليهم لا تقع على الارض . جرب اذن فهذه قطعة المختار .

وجرب تششيكوف ، والنهم القطعة وهو يفكر : « كيف سيذهب هذا الرجل الى بطرسبرج او الى موسكو . انه سيتلف كل شيء خلال ثلاث سنوات ! » ولكنه نسي في الواقع ان الروسي مع « الحُبز والملح » او دونه يستطيع ان

يتلف كل شيء لا في ثلاث سنوات فحسب بل في ثلاثة أشهر فقط .
كانوا يشربون ويشربون .. الزجاجة تلو الثانية والكأس في اعقاب الآخرة
وكل شيء يفرغ . وقد عمل اليكاشا ونيكولاشا كالكبار ولم يكن من الصعب
ان يعرف الانسان الى اي فرع من المعارف الانسانية سيتجهان عند وصولهما
الى العاصمة .

نهض الضيفان من على المائدة بصعوبة ظاهرة واتجها ببطء الى الشرفة حيث
اخذا مكانهما يجهد فوق المقاعد . وما ان جلس رب البيت على اريكة تسع
اربعة اشخاص حتى داعبه النعاس فنام . وكانت تخرج من فمه المفتوح موسيقى
يعجز عن الاتيان بمثلها اعظم المؤلفين الموسيقيين ، ذلك انه يمكن ان تسمع من
العجيب صوت الطبل والبوق كما يمكنك التمييز بينهما بسهولة ، إن فمه هذا يخرج
سمفونية كاملة تشبه نباح الكلاب .

وهتف بلاتونوف :

— ماهذه الموسيقى

فانفجر تشتشيكوف ضاحكا وتابع بلاتونوف :

— وكيف يتسرب الملل الى الانسان بعد مثل هذه الوقعة ... ذلك انه
لا يستطيع بعدها الا النوم .

— اجل ولكن لتسمح لي ... اني لا استطيع ان افهم مللك . فالانسان
يلك عدة وسائل لمحاربة الملل .

— وما هي ؟

— يستطيع المرء اذا كان شابا ان يرقص .. وان يعزف .. وان يتزوج اخيرا !

— ويتزوج من ؟

— هناك كثير من الفتيات الغنيات البليات في هذه البلاد

— انت واهم !

— اذن يمكن التفتيش عنهن في مكان آخر ... بمقدور الانسان ان يسافر

وهذه فكرة حسنة اسمعني !

- قل !

- ولكن ... السفر

- والى اين ؟

- اذا كنت حراً فاتبعني !

وفكر تششيكوف « سأحصل منه على فائدة ، اذ سيدفع نصف النفقات

مع تكاليف اصلاح عربتي »

وسأله بلاتوغوف .

- الى اين سنذهب ؟

- اني الآن مسافر في مهمة . ذلك أن الجنرال بتريشتشف ، وهو من اصدق

اصدقائي ، قد رجاني أن أزور اقرباءه (١) وأناجد مسرور لاني سأتعرف

على اقارب بتريشتشف ، ولكني أسافر لاني احب السفر ، احب ان ارى العالم

فالناس كتاب مفتوح ... علم كامل الاطار .

وقال في نفسه : « انها فكرة جيدة ، سأحمله جميع النفقات كما سأخذ منه

جياده وعربته بينما تظل جيادي مرتاحة »

وكان بلاتونوف في نفس الوقت يفكر : « ليس لدي ما يستبقيني في منزلي

فلماذا لا اقوم بهذه الجولة ؟ ... »

ان اخي يدبر كل شيء فلن يزعبه سفري ، واذن لماذا لا أتجول متنزها ؟ »

ثم سأل بافل ايفانوفتش :

- أتعلم أن تقضي يومين عند اخي ، فانه لن يسمح لي بالذهاب ان

لم تفعل ذلك !

(١) - ان تششيكوف قد نجح دون شك بمعالجة تنبنيكوف مع بتريشتشف وتم الاتفاق

على زواج الاول من اولينيك ، وقد كاف تششيكوف بأذاعة النبأ على اصدقاء الجنرال

= بكل سرور . سأقضي يومين بل ثلاثة اذا شئت . فتهتف بلاتونوف :
= اذن اتفقنا .

وتصافح الصديقان بينما استيقظ بيتوخ وفتح عينيه ثم قال :

= والى اين تذهبان ؟ الى اين ؟ لا ياسيدي الصغيرين . ان العربتين ستكونان
بلاعجلات . واما حصانك يابلاتونوف ميخايلوفتش فهو على مبعدة خمسة عشر
(فرستا) من هنا ! ستقضيان اذن ليلتكما هنا وتذهبان غداً بعد الغداء
حسبما يحولكما !

ولم يكن بالامكان مجادلة بيتوخ فالبقاء واجب لا محيد عنه . وهكذا كوفي
الصديقان بسهرة ربيعية جميلة ونزهة على البحيرة قام بتنظيمها مضيفها . كانت
المراكب تنزلق على صفحة المياه يقودها اثنا عشر مجذفا يغنون . ووصل الجمع
الى نهر ينتهي عند كل ضفة من ضفتيه بمنحدر هادئ . كان المجذفون يصطدمون
فيه بشباك الصيد . وكان الماء يتحرك ببطء بينما تنكشف الغابات بصمت مهيب .
وفي لحظة مارفع المجذفون مجاذيفهم بحركة واحدة فانساب المركب الكبير
وحيداً كطائر خفيف . عند ذلك بدأ شاب بالغناء وكان ذا كتفين عريضين
وصوت رنان ، واخذت المقاطع الاولى من أغنيته تنساب فيه بينما أخذ خمسة من
الصيادين يرددون لازمتها ، ثم اعاد ستة آخرون بترداد المقطع الاول . وهكذا
ارتفعت الاغنية عالية ، عظيمة لامتناهية كالروسيا نفسها . واهتز بيتوخ فوق
مقعده واخذ يغني بدوره بينما ظل تششيكوف صامتاً ولكنه شعر بكل ما في
اعماقه من روسي يلهل ويهتز . اما بلاتونوف فانه الوحيد الذي كان يقول في
نفسه : « وأين الجمال في هذه الأغنية الشاكية الباكية ؟ ان القلق يداخل النفس
حين سماعها ! »

وكان الليل قد ضرب بقرنيه عرض الوجود عندما عاد الاصدقاء . واما
المياه فلم تعد تعكس لون السماء ، فصعد الاصدقاء وسط الظلمة الى الضفة حيث
اوقدت النار ، ذلك ان الصيادين كانوا يحضرون مساء لهم من القصر . واما

الحيوانات والطيور فقد اعيدت الى أقفاصها بينما وقف الرعاة قرب الباب الكبير ينتظرون حصتهم . بن الحليب آملين ان يدعوهم الصيادون لمشاركتهم في تناول الحساء . وكنت تسمع في الليل احاديث الفلاحين الهادئة التي تخمنق احيانا بعواء الكلاب الآتي من البعيد . وارتفع القمر في كبد السماء فأضاء بنوره الفضي البراري الكابية . فكان المنظر ساحراً أخذاً وإن لم ياتفت اليه أحد . اما اليكاشا ونيكولاشا فقد أخذا يتحدثان عن الحلويات والمسارح عوضاً عن ان يتزها فوق ظهور الجياد ، بينما كان والدهما لا يفكر الا في طعام الغد ، واما بلاتونوف فانه كان يتشأب ؛ ولعل تشتشيكوف هو الوحيد الذي كان مليئاً بالحياة والنشاط فهتف : « لاشك في انه سيكون لي ذات يوم قرية » وهكذا قفز تفكيره حالاً نحو الزوجة والاطفال .

كان العشاء فخماً بالاجمال ، وعندما وجد بافل ايفانوفتش نفسه وحيداً في غرفة نوم ربت على بطنه وقال في نفسه : « انه طبل حقيقي ... وليس من مكان شاغر حتى لختار المدينة أيها العزيز » . كانت غرفته تقع قريبة من غرفة بيتوخ ، والحاجز بينهما رقيقاً ، فكل ما يقوله السيد يمكن سماعه . وقد أمر هذا السيد طاهيه بتهيئة أصناف الطعام لاجل الفطور وهي أصناف تصلح للغداء ، وكانت لهجته وهويوصي بانواع الأطعمة تبعث الشهية حتى في الاموات .

- يجب ان تقدم اللحوم المبردة على اربع زوايا الاولى للسبك والثانية للحم والثالثة للبصل والرابعة للخنخاع ... ثم ... أنت تعرف جيداً اني أريد كل شيء كما يرام ... فاعتن اذن بكل شيء ... خمر اللحم قليلاً واجعله طرياً ولكن لا تجعله يذوب داخل الفم كما تذوب الثلوج ! وكان بيتوخ يتمطى بشفتيه وهو يقول هذا القول فيسمع تشتشيكوف الصوت في حجرة واضحاً . فقال في نفسه وهو يدخل رأسه في الغطاء .

- لينذهب به الشيطان .. ليس من وسيلة للنوم هنا بالقرب منه . وتابع بيتوخ .

- و اريد حول السمك شيئاً من الشوندر مقطّعاً على اشكال نجوم صغيرة ،
وبعض الجزر والحمص ... و ... انت تعرف جيداً . ضع ماتستطيع من
السمك . وأوصي بيتوخ على اصناف اخرى :

- هنا يجب ان تكون النار خفيفة ... لاحتراق شيئاً ونام تشتشيكوف
خيراً على ديك رومي محشو بالم يسمع .

اكل ضيفا بيتوخ كثيراً بشكل عجز . معه بلاتونوف عن اعتلاء ظهر فرسه
في اليوم الثاني . فأرسل الجواد مع حوذي بيتوخ وصعد بلاتونوف مع
تشتشيكوف الى العربية . وكان الكلب يارب يتبع القافلة متثاقلاً لأنه لم يأكل
طيلة حياته بثمل هذه الكترة .

وعندما غادرت العربية ساحة القصر قال تشتشيكوف :

- انه في الحقيقة يبالغ كثيراً .

فأجاب صديقه :

- ان بيتوخ لا يمل ... وهذا هو الشيء الذي يقتلني .

وفكر تشتشيكوف : « لو كان لي مثلك سبعون الف روبل سنوياً لما

وجدت وقتاً للملل .

وقال بلاتونوف :

- أسمح بالذهاب معي الى اختي وصهري ، سأخبرهما بسفري

- بكل سرور .

- ان صهري اذكى ملاك في المنطقة ، ولديه الآن مورد سنوي قدره مائتا

الف روبل ومنذ ثمانية اعوام فقط لم تكن ارضه تغل له العشرين ألفاً .

- أحقاً . اني لأرغب في التعرف به .. يجب ان يكون انسانا يستوعي

الاهتمام .. ما اسمه ؟

- كونستا نجو غلو

- وما اسمه الصغير ؟

- قسطنطين فيودوروفتش -

- قسطنطين فيودوروفتش كونسفانجوغلو .. من المهم التعرف على رجل مثله .
ودل بلاتونوف سليفان على الطريق . وكان هذا امر ضروري اذ ان
الحوذي يكاد في كل لحظة يفقد توازنه اما بتروشكا فقد سقط عدة مرات على
المقعد مما استلزم ربطه بالحبال . وردد بافل ايفانوفتش : « بالبخزير ! » بينما
هتف بلاتونوف :

- انظر .. هنا تبدأ اراضي صهري .. ان لها مظهرآ خاصا بين الاراضي المجاورة .
وبالفعل فان الناظر كان يشاهد اشجار غابة صغيرة مستقيمة كالهام .. ثم
غابة اخرى اعلى منها فتألف اكثر ارتفاعاً ، ثم حقول تأتي بعد الغابات كرة ثانية ..
- لقد نبت كل هذا خلال ثمانية اعوام . وغيره لا يحصل على ذلك في ظرف
عشرين عاما .

- ولكن كيف استطاع هو ذلك ؟

- اسأله .. انه يعرف الارض كما لم يعرفها انسان . ثم انه يستفيد من كل
شيء . فهو يعرف الشجرة ونوع الفمخ الذي يوجد محصوله في كل ارض ويستخدم
كل شيء لغايتين او ثلاث غايات . فالغاية الاولى مثلا ان تعطي الارض الرطوبة
فتكس على الارض كمية كبيرة من الاوراق الميتة حيث تدعو الحاجة . ان
جيران صهري يشكون من الجفاف اما فهو فلا يعاني منه . وان البلاد كلها
تشكو سوء الموسم بينما هو ينعم بمحصول وفير .. وأنا لكم يؤسفني جهلي فيما
يتعلق بالارض . اما هو فانه يعرف كل شيء عنها بشكل مدهش .. ان جميع
الناس ينعتونه بالسحر والشعوذة .. ومع ذلك فان كل هذا لا يستطيع ان
يمنع السامة عني .

وقال تشتشيكوف في نفسه : « في الواقع ان صهره رجل ممتاز . ومؤسف
حقاً ألا يعرف هذا الشاب السطحي شيئاً يقصه علي ! »
واخيراً ظهرت القرية ، وكانت تشبه مدينة صغيرة ، فأكواخ كلها تنقسم

من حيث الارتفاع الى ثلاثة اقسام تتوج كل قسم منها كنيسة . وفي كل مكان كانت تنتشر اكداس الحبوب وكميات وفيرة من العلف . وفكر تششيكوف : « ان الانسان يستطيع ان يرى بان هذه القرية رئيساً حقيقياً » .

وكانت الاكواخ متينة والطرق نظيفة والعربات جديدة . وكانت ملامح الفلاحين تدل على الذكاء بينما كانت الحيوانات جميعها قوية جميلة ، حتى الخنازير نفسها كانت تبدو وكأنها من عرق نبيل . ومن الممكن القول هنا مع الاغنية الشائعة ان الفلاحين يجمعون المال برفوشهم وليس هناك اية حديقة على الطراز الانكليزي ، ذلك ان جميع هذه الحقائق منسقة على الطراز الروسي القديم . وهناك الى جانب ذلك بيوت العمال تأخذ بالعلو والامتداد شيئاً فشيئاً حتى تصل الى قصر السيد . وكان الاخير يستطيع ان يشاهد من منزله كل ما يجري في القرية . وكان على سطح القصر برج يستخدم لا لتأمل المناظر الجميلة بل لمراقبة الفلاحين الذين يعملون في أنأى الحقول .

واستقبل الصديقين على الباب خدم نشيطون ماهرون لا يشبهون بتروشكا السكير في شيء بالرغم من انهم لا يرتدون الفرو ، بل يلبسون الثياب الزرقاء البسيطة .

وظهرت ربة المنزل وكانت غضة زاهية كالزهرة ، وجميلة كالجل ايام الربيع وهي تشبه بلاتونوف كما تشابه قطرتا الماء ، الا انها كانت متطلقة فرحة بعكس اخيها .

- يومك سعيد يا اخي ، اني جد مسرورة برويتك . . ليس قسطنطين هنا ، ولكنه سيأتي بعد حين .

- وابن هو ؟

- في القرية مع التجار .
وتبع الصديقان الشابة الى البيت . وكان تششيكوف يلقي نظرات متفحصة على منزل الرجل الغريب الذي يملك مورداً سنوياً قدره مائتا الف روبل .

وكان يأمل ان يحكم على اخلاقه من خلال نظام العقود . ولكن عبثاً حاول
تششيكوف : لم يصل الى نتيجة . كانت الغرف نظيفة بسيطة ليس فيها رسوم
او ازهار او غاثيل من البرونز او مكتبة او حتى كتاب . كان يظهر كل شيء
يظهر وكأن رب المنزل لا يعيش محبوساً بين جدران الاربعة ، بل يقضي جميع
ايامه في الحقول . ولم تكن افكاره تلد في ظل الموقد على مقعد وثير ، بل
بعيداً ... في الحقول ، في غمرة العمل . فما ان أتى الى فكرة نظرية حتى يباشر
الى تطبيقها فوراً . وشهد الى جانب ذلك مناضد نظيفة عليها آنية فيها
زهور ذابلة . فسأل بلاتونوف :

- ما هذه الاقدار يا اختاه ؟

فنهقت ربة المنزل :

- اقدار ؟ ولكن هذه انجم دواء للحمى . لقد شفينا العام الفائت هنا
جميع فلاحينا المرضى . واما هذه الزهور فمما تصنع الحلوى . انك تضحك الان
ولكنك ستسر عندها تتذوق طعمها .

واقترب بلاتونوف من البيانو واخذ يتأمل في قطعة موسيقية :

- هذا قديم جداً يا اختاه ! الانحجلين ؟

- ليس لدي الوقت الكافي ايا العزيز للاهتمام بالموسيقى . فعندي ابنة في
الثامنة من عمرها ويجب ان اعنى بتدريسها ، ولا اريد ابدأ تسليمها الى مربية ؛
ان هذا لن افعله قط .

فقال بلاتونوف :

- انك - تصبحين مملة يا اختاه ، هوذا قسطنطين قد جاء .

واقترب تششيكوف من النافذة التي شاهد بلاتونوف منها قسطنطين .
كان رجل في حوالي الاربعين من عمره يتقدم بنشاط وقوة ، يرتدي معطفاً من
الجلد ، وقد بدا انه لا يتم بهندامه ابدأ . وكان عبدان يتبعانه ويحدثانه ومن
الظاهر انها يلحان على شيء . وتوقف الثلاثة قرب الدرج فسمع حديثهم الجميع .
كان قسطنطين يقول :

— ان احسن ما نستطيع فعله هو ان تشتري حريتك من سيدك ، وان اعوزك المال فاني اقرضك مبلغاً ترده لي بالعمل .

— لا يا قسطنطين فيودوروفتش ، لماذا اشترى حريتي ؟ خذني انا والآخرون ، اننا سنتعلم كيف نحيا معك براحة ، اننا لا نعرف رجلاً له قيمته في أي مكان آخر . والمؤسف كثيراً انه من الصعب اجتناب الاشياء السيئة اليوم . فأصحاب الحانات اخترعوا الكحول ، حتى ان برميلاً واحداً من الماء لا يستطيع اطفاء الحريق الذي يحدته كأس واحد في جوفك ! ولا يكاد الانسان يلتفت حتى تنزلق من بين اصابعه الكوييكات ! ان المغريات كثيرة والشيطان يسود على الارض وهو يريد إفناء الفلاحين . ثم هناك التبغ واشياء اخرى فما العمل يا قسطنطين فيودوروفتش ؟ نحن بشر ومن الصعب ان يقي الانسان نفسه من الخطأ .

اسمع يا صديقي لن تكونوا هنا احراراً ... انه بكل تأكيد سيكون في حوزة كل منكم بقرة وجواد . واني هنا اطلب من فلاحى عملاً مخالفاً لما يقومون به في الاماكن الاخرى . فالكل هنا ، وحتى انا ، يشتغل في الأرض ، وانا شخصياً أشغل وكأنه قد حكم علي بالأشغال الشاقة . . ان الذي لا يعمل يحشو رأسه بالافكار الفارغة . . ففكروا في هذا اذن واتخذوا قراركم دون تسرع .

— اننا فكرنا في الامر ملياً يا قسطنطين فيودوروفتش . وقد قال لنا كبارنا ان فلاحيك جميعهم أغنياء بجهدهم وعملهم ، وان كهنتك رجال طيبون بالفعل . اما عندنا فقد ساءت الامور الى حد لم يعد هنالك من يصلي على الاموات .

— ايكن ... ومع ذلك اذهبوا وتشاوروا !

— حسناً انفقنا .

— وعند ذلك قال الآخر :

- وأخيراً ألا تريد ان قسطنطين فيودوروفتش ان تنقص
السعر قليلاً ؟

- لقد سبق ان قلت اني أشتمز من المساومة . اني لا أشبه ذلك الملاك الذي
تذهب لمساومته عشية استحقاق الدفع . انا أعرفكم كلكم وأعرف أن لديكم
قوائم فيها اسماء جميع النبلاء المديونين ، فعندما تأتون لمساومتهم يكونون مغتبطين
جداً بالبيع حتى بنصف الثمن الحقيقي ، وأما أنا فلا حاجة لي بنقودك وكل ما
عندي أستطيع أن أدعه مكانه ثلاث سنوات على أقل تقدير .

- أنا لا أخافك يا قسطنطين فيودوروفتش واني لا أعاملك لأجل
فائدة مؤقتة بل لأتعامل معك في المستقبل . خذ هذه الثلاثة
آلاف روبل .

وتناول كونستانجوغلو النقود ببرود ووضعها دون أن يعدها في جيب معطفه .
وفكر تششيكوف : « انه يظن النقود منديلاً للجيب ! »

ودخل كونستانجوغلو ردهة الاستقبال فاعجب تششيكوف بكثافة شعره
الاسود وشعلة النشاط المتقدمة في عينيه وانطلاقه الذي يعود الى أصله الجنوبي .
ذلك ان كونستانجوغلو ليس من أصل روسي صاف . وهو نفسه يجهل ماذا كان
عليه أجداده ، ولم تكن الانساب تهمة في قليل أو كثير ، فهو يتكلم الروسية
ولا يحسن غيرها ولذلك فهو روسي .

وعرف بلاتونوف تششيكوف عليه فتعانق الرجلان :

- يا عزيزي قسطنطين سأسافر بعض الوقت لأشفي نفسي من السآمة
والملل . ولقد عرض علي بأقل ايفانوفتش ان أسافر معه من
مقاطعة الى أخرى .

فالتفت قسطنطين نحو تششيكوف وسأله بأدب :

- حسنا والى أين أنتما ذاهبان ؟

فأجاب بأقول اي فانوفتش وهو يحني رأسه الى اليسار قليلاً ويداعب ذراع المقعد بيده :

- أعترف ذلك باني لا أسافر من اجل أعمالى الخاصة بل من اجل الجنرال بتريستشف ، فقد رجاني ان أزور أصدقائه فاستفدت من الفرصة للسفر لان هذا يسرنى . ذلك ان الانسان يرى العالم ويدرس البشر والحياة ككتاب مفتوح او علم آخر .

- اجل أنه لمن الجيد ان نتعرف على بلاد جديدة .

- هذا صحيح جداً ان الانسان يرى في البلاد الاخرى أشياء جديدة لم يرها من قبل ، ويصادف أنا لم يحدث له ان صادفهم قبل ذلك والحديث مع مثل هؤلاء الناس يساوي ذهباً ؛ انت محترم جداً يا قسطنطين فيودوروفتش واني أتوجه اليك . . . علمني علمني . . . إرو ظمئى الى معرفة الحقيقة النقية الصافية .

فسأل كونستانجوغلو :

- كيف ؟ ولماذا ؟ وأعلمك ماذا ؟ لقد تلقيت تربية سيئة للغاية .

فهمت تشنشيكوف :

- حدثني عن الحكمة . . . الحكمة في حسن ادارة الاملاك الزراعية . حدثني عن كيفية الحصول على موارد ثابتة جيدة دون حلم او نوم متمها بذلك واجبك كمواطن صالح ومستحقاً احترام الجميع !

فاجاب كونستانجوغلو :

- اسمع اذن . . . ابقى هنا يوماً فأريك اراضي ووضح لك كل شيء وعند ذلك ترى انه ليس هناك من حكمة .

وقالت ربة المنزل :

- ابقينا هنا إذن !

ثم توجهت الى اخيها قائلة :

- ابق هنا يا اخي ، لم العجلة ؟

- ليس من مانع لدي شريطة ان يوافق بافل ايفانوفتش .
فقال تشتشيكوف :

- كنت ابقى لولا اني اريد ان ارى اقارب الجنرال بتريشتشف كالكولونيل
كوشكاريف مثلاً .

- كوشكاريف ؟ ولكنه مجنون !

- اعرف ذلك وما كنت اذهب اليه لو لم يكن الجنرال صديقاً عزيزاً علي .
فقال كونستانجوغلو :

- إذن اذهب اليه دون ان تضيع الوقت ، فبيته يقع على مبعدة عشرة
(فرسات) من هنا ؛ ولدي عربية مجهزة تستطيع ان تذهب فيها الآن وتعود
قبل وقت الشاي .

فنهف تشتشيكوف وهو يتناول عمرته : « انها لفكرة حسنة ! »

ومضت العربية . وبعد نصف ساعة وصل بافل ايفانوفتش الى قرية كوشكاريف
وكانت الفوضى تخيم على هذه القرية . ففي كل مكان تقوم اعمال البناء بين
القاذورات والآجر ، بينما الاعمدة تملأ الطرقات . وكان للبيوت مظهر المؤسسات
الحكومية وقد كتب هنا وهناك بأحرف مذهبة : « مستودع أدوات الري »
و « الادارة المركزية للمحاسبة » و « لجان الشؤون القروية » و « مدرسة تعليم
الفلاحين » وأشياء اخرى يعلم بها الشيطان .

وجد تشتشيكوف الكولونيل في مكتبه وقد وضع في فمه ريشة . واستقبله
الاخير بجملة وكان يبدو عليه انه رجل طيب عذب . وسرعان ما قص على
تشتشيكوف كم لاقى من العناء ليسبغ على القرية الازدهار الذي تتمتع به
حالياً . وكان يشكو من صعوبة إفهام الفلاح مقاصد العلم والفن والخير الذي
يجلبه . كما انه لم يستطع إقناع الفلاحات بلبس المشدات في الوقت الذي رأى فيه

في المانيا مع فرقته عام ١٨١٤ ابنة طحان بسيط تجيد العزف على البيانو. والخلاصة انه استطاع رغم عمق الجهل البشري ان يقنع فلاحيه بتعلم القراءة. من نصوص فرجيل وكتب الكيمياء .

وفكر تشتشيكوف : « هذا حسن وأنا لم أجد دقيقة واحدة لأنهي فيها دوقة دولافالير »

وتسكلم كوشكاريف بعد ذلك طويلاً عن السعادة البشرية ووسائل تنظيمها وكان يلح كثيراً على أهمية اللباس واقسم انه لو لبس الفلاحون الروس الزي الألماني لازدهرت العلوم والفنون والتجارة في أنحاء روسيا ولعاشت البلاد في عصر ذهبي عظيم . واصغى اليه تشتشيكوف طويلاً وقال في نفسه : « لاداعي للشروح الطويلة والمقدمات مع مثل هذا الانسان ! ، وهكذا حدثه مباشرة عن حاجته الى النفوس الميتة والى عقد بيع شرعي فأجاب الكولونيل .

— حسبما فهمت من كلامك ، انك ستطلب مني شيئاً .

— تماماً !

— اذن قدم طلباً مكتوباً بما تريد وضعه في مكتب التقارير والعرائض فيعلق على طلبك ويأتي الى ، وانا أحوله الى لجنة الشؤون القروية ، ومن هناك يحول الى الوكيل وهو بالاتفاق مع سكرتير ... فهتف تشتشيكوف :

— بالله هذا يدوم قروناً طويلة . ثم كيف يمكن الحديث عن اشياء كهذه كتابة .. فالتفوس الى حذما ... ميتة .

— حسنا اذن انها الى حذما ميتة ؟

— انها ميتة .. ولكن لا يمكن كتابة ذلك لأنها في نظر القانون حية .

— هذا عظيم .. فلتكتب اذن انه يجب ان تعتبر هذه النفوس ميتة .. ان

لاشياء المكتوبة وحدها ذات قيمة عظيمة . مثال ذلك : انك اترا بله نابوليون !
نتظر قليلا سادعو الساعي لمرافقتك .

وقرع الكولونيل جرساً دخل لدى سماعه رجل فقال له :

— ادع الساعي ايها السكرتير !

وجاء الساعي ولم يكن يشبه الموظفين او الفلاحين .

— اذهب معه فسيرافقك .

ورأى تشتشيكوف الأفادة من الاعتراض ، فقرر ان يرافق الساعي ويستفيد من الفرصة لارضاء اخوله بروية المسكاتب . ولم يكن لمكتب التقارير وجود إلا على الالفة . وكان رئيسه كروليف يدير لجنة الابنية القروية الجديدة فحل محل الخادم بيروزفسكي ، ولكنه كان هو الآخر في لجنة الابنية . وذهب تشتشيكوف الى مكتب اللجنة ولكن كانت التوصيلجات قائمة فيه على ساق وقدم ، فأرغم على ايقاظ سكير لم يستطع ان يقدم له أية معلومات . وقال الخادم مخاطباً تشتشيكوف :

— أرايت ، ان الفوضى مخيفة هنا . . واكل يعمل بالسيد كما يريد . والذي يحكم هنا هو لجنة تصليح الابنية ، فهي تأخذ الموظفين من المسكاتب الاخرى وترسلهم الى اي مكان .

كان واضحاً ان الرجل يحقد على لجنة تصليح الابنية . ورفض تشتشيكوف ان يقوم بخطوة اخرى ، وعندما رأى الكولونيل قال له ان لم يستطع ان يفعل شيئاً بسبب الفوضى المنتشرة . فاستشاط الكولونيل غضباً وشد على يد تشتشيكوف علامة الامتنان ، ثم امسك بريشته واخذ ورقة وكتب عليها ثمانية امثلة : بأي حق يتصرف مكتب تصليح الابنية بالموظفين الذين لا يتبعونه ! كيف سمح المدير للرئيس بالتغيب دون التأكد من وجود من يقوم مقامه ؟ كيف تسمح لجنة الشؤون القروية بعدم وجود مكتب التقارير ؟

وفكر تشتشيكوف : « ان العاصفة ستثور » وهتف الكولونيل :

— لن ادعك تنصرف . ان كرامتي قد مست . وسأثبت قوة الادارة المنظمة ، كما سأعهد بطلبك الى رجل يساوي وحده الاخرين مجتمعين ، أنهى

دراسته الجامعية ... هؤلاء هم العبيد الذين املكهم ... ولن اضيع وقتك الثمين . ارجوك اتبعني الى مكتبتني فستجد فيها كتباً واوراقاً وريشاً واقلاماً ، وكل شيء فيها تمت تصرفك ذلك ان الثقافة ملك للجميع .

وكان كوشكاريف وهو يتحدث هكذا يدخل تششيكوف الى المكتبة . كانت غرفة كبيرة مملوءة بالكتب والحيوانات المحنطة . وكان هناك كتب للتاريخ والزراعة والكيمياء كما توجد مجلات من مختلف انواع المعرفة الانسانية ارسلت كلها بناء على طلب رسمي بالاشتراك . ومع ذلك فانه لم يقرأها احد . وكل هذه الكتب لم تكن بقادرة على ان تجعل الانسان يقضي ساعة انتظار مسروراً . ونظر تششيكوف الى رف آخر فشاهد عليه كتباً فلسفية . وكان هناك ست كتب تحمل العنوان التالي : « المدخل الى علم التفكير الانساني . نظرية الجوهر » وفتح تششيكوف الكتب مقلباً فلم يشاهد فيها الا كلمات من امثال : تجريد ، جيل ، تطور ، تركيز . فقال في نفسه : « هذا كثير علي » وانتقل الى رف ثالث فوجد كتباً فنية فأخذ واحداً حشي بصور الاساطير . وكانت هذه الصور ترضي العازبين والكهول الذين يحبون مشاهدة صور البالية والمشاهد المثيرة الداعرة . وكان بافل ايفانوفتش قد قلب كتاباً آخر فيه كثير من الصور عندما دخل كوشكاريف وهتف :

— لقد انتهى كل شيء بشكل مدهش . ان الرجل الذي حدثك عنه عبقرى بالفعل ... سأعينه رئيساً على جميع مكاتبي . وهو فريد في ذكائه فقد حل لي جميع مشاكلي بدقة واحدة .

وفكر تششيكوف : « لحسن الحظ » ثم استمع الى ما قرأه عليه كوشكاريف :
بناء على امر سعادتك لي الشرف ان اعرض ما يلي :

١ - ان في الطلب الذي قدمه الفارس بافل ايفانوفتش مستشار الدائرة الانتخابية ما يدعو الى سوء التفهم . فالفوس المطلوبة سماها ميتة ولا شك انه اراد ان يقول « المعرصة للموت » . وفي هذه الحالة يكون قد دل على معرفة

عميقة بالعلوم التي تدرس في المدارس الابتدائية القائلة بأن النفس خالدة .
وهتف كوشكاريف :

- ياله من خبيث ، لقد سخر منك عندما ذكر كلمة المدارس الابتدائية .
ولكنني اعترف بأن أسلوبه فخيم . ثم تابع القراءة :

٢- اننا لانملك في الوقت الحاضر نفساً واحدة معرضة للموت فضلاً عن ان
جميع النفوس التي لدينا مرهونة عدا نفوس قرية غور ميلوفا الصغيرة التي تتنازع
ملكيتها مع جارك بريد يتشف . ولذا فلابجال للتصرف فيها كما جاء في العدد
٤٢ من جريدة « اخبار موسكو » .

وهتف تشتشيكوف دون ان يخفي غضبه :

- ولماذا لم تقل هذا من قبل ؟ ولماذا تركتني انتظر كل هذا الوقت لأسمع
هذه السخافات .

- كنت اريد ان أعلمك بهذا بالطريقة القانونية التي هي الكتابة . ان اي غبي
يمكنه ان يصرف الامور هكذا ولكن يجب ان يعلم ...

الا ان تشتشيكوف قام فجأة واخذ عمرته وفر راحضاً ناسياً جميع قواعد
الادب ، اذ انه كاد يحتقق من الغضب وكان الحوذي هو الآخر ينتظر . وقد
علم انه لافائدة من حل الحبل لعلفها ، إذ عليه ان يقدم طلباً خطياً وينتظر
الجواب الى اليوم الثاني تترك الجياد في هذه الاثناء دون إطعامها . ورخص
الكولونيل خلف بافل افانوفتش وامسك بيده وضغطها على قلبه وشكره
لأنه سمح لنفسه بمشاهدة كيفية تنظيم اعماله .

وقد خطرت فكرة جديدة على باله وهي إنشاء لجنة جديدة لمراقبة لجنة
تصليح الابنية . وعند ذلك لن يجرؤ احد على السرقة والاسراف .

وعاد تشتشيكوف الى قرية كوستانجوغلو ينتفض من الغضب ، وكان
الوقت متأخراً فسأله كوستانجوغلو

- ولماذا تأخرت ؟

وقال بلاتونوف :

— اذن فقد تناقشت معه ؟

فصاح بافل ايفانوفتش :

— لم أر في حياتي مثل هذا المجنون !

وقال كونستانجو غلو :

— ليس هذا بشيء . ان كوشكاريف انسان ضروري كصورة صحيحة صادقة عن جميع مثقفينا الذين لم يتعلموا شيئاً ، ولكنهم قلدوا اسخافات الآخرين . ان الجميع ملاكينا مكاتب ومصانع ومدارس ولجاناً .

آه من هؤلاء الناس ! لقد املنا منهم ان يعقلوا بعد حرب ١٨١٢ . ولكن تبين انهم غير قابلين للشفاء ، فقد فعلوا أسوأ مما فعله الفرنسيون كيبوتري ايفانوفتش بيتوخ مثلاً ، ذلك الانسان الذي تعرفه .

— انه لمسكين ... لقد رهن جميع عبيده !

فقال كونستانجو غلو متمها :

— بل سيرهن جميع ما يملك . ذلك انه استقدم عمالاً من لندن ليقوموا له مصنعاً للقناديل ... تصور أن ملاكا يصنع القناديل . وهناك ايضاً شيء آخر . لقد استقدم آلات للنسيج ليصنع ثياباً لعذارى المدن الجميلات . فقال بلاتونوف :

— وانت ايضاً ، يوجد عندك مصانع .

— اجل ، ولكن من الذي انشاها ؟ لقد وجد عندي صوف اكثر مما يجب فبدأت بصنع الجوخ بسعر بخس للفلاحين المحتاجين اليه . وتجمعت لدي كذلك اصداف اسماك على الشاطئ ، فصنعت منها عقوداً وربحت اربعين الف روبل ، هذه هي اعمالى .

ففكر تشتشيكوف : « هذا الحيوان المحتال ، انه ماهر جداً ! » وتابع

كونستانجو غلو :

- اذا كنت قد انشأت هذه الصناعات فذلك لان عدداً كبيراً من العمال كان من الممكن ان يموتوا جوعاً في سنة حدثت فيها المجاعة بسبب السادة الملاكين الذين نسوا موسم البذار . اني استطيع ان ابني كل سنة معسلاً من المواد التي تبقى عندي ، بل اني استطيع ان اكون ثروة من الاشياء التي ترمى في القاذورات . فانا لا أبني القصور من الاعمدة بل اشتغل واكد .
- هذا عظيم وخاصة الاغناء من الاقدار .

- اجل شريطة ان تنجز اعمالك بسرعة وبساطة ، ان كل انسان يمكنه ان يصل الى غايته بالجهد المستمر . ولكن بيتوخ يذهب من اجل ذلك الى انكاثرا وسيعود منها بلاريب أشد غباء مما كان .

وبصق كونستانجوغلو على الارض احتقاراً وتابع :

- وكيف لا اغضب ؟ لو كان الامر متعلقاً بغير لهان كل شيء . ولكن الامر يهمني إذ أنه من المؤلم ان يفكر الانسان في ان الطبيعة الروسية تسيرونحو الفساد . ان شيئاً من الاخلاق الدونكيشوتية يداخل اخلاقنا وهذا شيء مستجد فما إن يتعلم الروسي قليلاً حتى يلد فيه دون كيشوت جديد فيبني مدارس لا يبنينا أي غبي . واما الذين يتخرجون من هذه المدارس فلا يصلحون لشيء ابدأ ، لا للمدينة ولا للقرية . بل يصبحون سكيين ممتني الكرامة . ان بلادنا لتشفغ بالفلسفة وقد بدأت تصبح دون كيشوت في حبها للانسانية ، وتنفق الملايين على مستشفيات للحمقى ، وتشيد القصور الفخمة وفي اقل من اسبوع تلقي بموظفيها قارة الطريق دون ان يكون في جيهم كوبيك واحد .

لم يكن تششيكوف يتم بهذا المظهر من الثقافة الروسية ، فقد كان يريد ان يسأل كونستانجوغلو عن الوسيلة التي يكون بها ثروة من القاذورات . ولكن الاخير لم يدع له فرصة للحديث لانه تابع دون ان يتوقف :

- وهم يعتقدون انهم يعلمون الفلاح ... ليجعلوا منه غنياً ومزارعاً ممتازاً والباقي يتم من تلقاء نفسه . أحقاً انك لا تعرف شيئاً عن هذا ؟ ان الانسان

ليعتقد ان جميع الناس قد اصابوا بمس جنون ... وهؤلاء الكتاب ، انهم يكتبون في كل موضوع ، وما إن يصدر كتاب حتى يتهافت الجميع عليه ، وماذا يقولون ؟ انهم يقولون : « ان الفلاح يعيش حياة بسيطة جداً ، فيجب ان نعرفه على الحياة الرخية لنوحي اليه بالمطالبة بحياة أفضل ، وماذا أصبح هؤلاء السادة الذين يبشرون بالرضا ... لقد أصبحوا أرقاماً جامدة لارجالاً ! فهم يعانون جميع الامراض ، وهم مصابون بالصلع ويريدون إفساد الفلاحين وتأليبهم علينا . ولنحمد الله على ان هذه الطبقة غير قابلة للفساد . فالفلاح مازال يستحق التقدير ... فلا تبدلوه بل يجب أن تصبحوا كلكم مثله .

فسأل تشتشيكوف :

— واذن فانت تعتقد ان الزراعة هي الوسيلة الوحيدة للثراء .

فأجاب نونستانجوغلو :

— ليست تقدم اعظم الموارد فحسب ، بل أنظفها ايضاً وأعد لها وقديلاً : « أزرع الارض بعرق جبينك » ومن أجل هذا لاجابة بنا للحكمة . وقد أثبت القرون ان المزارع أشد الناس تمسكاً بالاخلاق وأشرفهم وأجملهم . وانا لا أقول انه يجب الا نهتم بغير الزراعة وإنما اريد ان تكون الزراعة أساس كل شيء . فعند ذلك تقوم المصانع من تلقاء ذاتها . وانا هنا اتكلم عن المصانع الطبيعية التي تلد من حاجيات الشعب وليست تلك التي تنشأ عن مطالب الترف الذي يشوه الانسانية . فهذه المصانع تزدهر بوسائل مفسدة للشعب وانا لن أسمح مطلقاً بأن تقام هنا معامل للتبغ والكحول والسكر ، حتى ولو كنت أربح منها الملايين . فاني لا اريد ان أساهم في إضعاف الشعب وإفساده لاني أرغب بالعودة الى الله نقياً . وانا احيا منذ عشرين عاماً مع الفلاحين واعرف جميع ما يحتاجون اليه . فقاطعه تشتشيكوف مرة أخرى قائلاً :

— ان الذي يدهشني هو أن أراك تكون ثروة كبيرة من الفضلات

والقاذورات المختلفة .

ولكن كونستانجوغلو تابع دون ان يصغي الى تشتشيكوف .
- آه من الاقتصاديين ... انهم أشبه شيء بجمار يجلس على كرسي ويضع
على عينيه نظارتين ... آه من الحماقة الانسانية .

ومن جديد بصق كونستانجوغلو على الارض غاضباً فقالت زوجته :
- كل هذا صحيح ولكن ارجو ان تتعلم عند الحديث عن مثل هذه
الاشياء ألا تغضب .
وقال تشتشيكوف :

- عندما يسمعك المرء وانت تتكلم باقسطنطين فيودوروفتش يفهم معنى
الحياة الحققة ويدخل في صميم المشكلة . ولكن دعنا من المسائل العامة ولندخل
في بحث المسائل الشخصية الخاصة ... سأفترض بأنني أصبحت ملاكاً ، فكيف
أصنع لأقوم بواجباتي كمواطن وأعتني ؟
فهتف كونستانجوغلو :

- كيف تعمل لتغتني ؟ اسمع سأقول لك كيف يكون ذلك !
فقاطعت زوجته :
- لننتعش الآن !

وقامت من مكانها وتدفرت بشالها كما لو أنها تشعر ببرد شديد .
فقفز تشتشيكوف من مقعده برشاقة عسكرية وقدم لها ذراعه وقادها
باجترام جم الى غرفة الطعام . كان الحساء قد وضع على المائدة وكانت روائح
الخضار الذكية منتشرة في جو الغرفة . جلس الجميع على مقاعدهم وقدم الخدم
جميع الاصناف ثم اختفوا . وكان كونستانجوغلو يردد دوماً بان الخدم يجب
ألا يسمعوا ما يقوله المائدة ، ثم انه لا يجب بالاضافة الى ذلك ان يشعر بأنظارهم
تلتهمه وهو يأكل .

وبعد ان انتهوا من الحساء شربوا كأساً من الخمر قال تشتشيكوف :
- اسمح لي يا قسطنطين فيودوروفتش ان اعود الى حديثنا . لقد كنت

اسألك كيف يمكن ان اغتني بسهولة (١) ؟

وقال كونستانجو غلو :

- وقد كنت اشترى تلك الاراضي التي طلب ثمنها اربعين الف روبل .

فقال تششيكوف :

- واذن لماذا لم تشتريها ؟

- يجب على الانسان ان يعرف كيف يقف عند حده . ان عندي

مايكفيني من الاراضي وعلاوة على ذلك فان نبلاءنا ناقمون علي وهم يتممونني

باستغلال فقرهم فاشترى الاراضي المجيدة بالاثمان البخسة . وهذا مايتعبني .

فهتف تششيكوف :

- اني اود لو استطيع ان اكون خنزيراً مثلك .

- انها حماقات ... وماهي مجبوحة العيش التي ينعمون بها ! ان عندهم كتباً

لا يقرأونها وينهون كل شيء بلعب الورق . انهم ينقمون علي لأني لادعوهم

للغداء ولا أقرضهم المال . اني لادعوهم الى الغداء لان المآذب تتعني ولا في لست

معتاداً عليها . وهم اذا كانوا يحبون مشاركتنا طعامنا فما عليهم إلا أن يأثوا .

واما اذا احتاج احدهم للمال وجاء إلي وبين لي كيف سيتصرف به ، فاني بلا

ريب سأقرضه الكثير ، ودون فائدة ، اذا رأيت انه سيستفيد من اموالي

ويزيد من موارده .

وقال تششيكوف في نفسه : « اني ارى هذا » . وتابع كونستانجو غلو :

- أنا لا ارفض طلباً كهذا ، واما ان القي بالمال من النافذة فلا ...

ليذهب بهم الشيطان ، فاذا كان المال سيذهب الى العشيقات والاثاث والترف

والحفلات ... فلن اعطيهم شيئاً ، مطلقاً !

وبصق كونستانجو غلو وكاد ان يفلت بحضور زوجته بعض النعوت القبيحة .

وخيمت سحابة من الكآبة على وجهه ، وتغضنت جبهته علامة الانفعال الشديد

(١) وهنا ايضاً عدة صفحات مفقودة من المسودة الاصلية .

الذي يعاينه . وقال تششيكوف وهو يجرع كأساً من الخمر اللذيذ :

— اسمح لي ان اعود بك الى حديثنا . كم من الزمن يعوزني كي اثرى اذا استريت الاملاك التي تكلمت عنها ؟

فاجاب نونستانجو غلو باهجة جافة قاسية :

— اذا اردت ان تفتني بسرعة فلن تفتني مطلقاً . ولكن اذا شئت الاثراء دون ان تعين زمناً بالذات فانك ستفتني بسرعة .

فقال تششيكوف :

— ماذا ؟ ماذا ؟

فهتف كونستانجو غلو بشيق وكأنه يحمل على بافل ايفانوفتش :

— بالطبع يجب ان يحب الانسان الارض التي يملكها . واؤكذلك ان الامل غير مل ، وما الذين يقولون انهم يسأمون في الريف الا بلهاء . وانا أموت مللاً لو قضيت اربعاً وعشرين ساعة في المدينة مع هؤلاء السادة في نواديهم وساحاتهم ومسارحهم . ان الجبل الحاضر انما هو عبارة عن مجموعة من المير والاعبياء . وأن الملاك لا وقت عنده للمل إذ ليس في حياته مجال فارغ . فلهذه أنواع من المشاغل مختلفة تسمو بالنفس فعلاً . يعمل الانسان في الطبيعة مع الفصول وهو يشرك في جميع اعمال الخليقة . انظر الى عملنا السنوي : فقبل الربيع يعد كلا شيء بانتظار الفصل الجديد ، كالبذار وتنظيم الجبوب وتقسيم الاراضي على العبيد لبذرهما ، كل ذلك يعد ويحسب له حساب مسبق . وعندما تذوب الثلجات وتجف الاراضي ، تعود الحياة الى الحقول فتبذر وتررع . . . أنك تفهمني أليس كذلك ؟ اننا نزرع إذ ذاك مسرات الحياة وغذاء الملايين من بني الانسان . وما ان يأتي الصيف حتى نبدأ بحصاد الشعير والشوفان ويسود جو من النشاط والعمل ولا يكون لدى الانسان دقيقة يضيعها ، ولو كان له عشرون عيناً لما كفاه ذلك . ويأتي من ثم وضع الجبوب داخل المخازن . وتأتي بعد ذلك حرارة الحريف ويقبل فصل البرد فتصلح المخازن والاسطبلات وغير ذلك ؛

ويبدأ عمل النساء ، وكل هذا انما هو كمية هائلة من الطاقة الانسانية . اما في الشتاء فاننا نذهب الى المطاحن والمصانع واقوم أنا بزيارة الفلاحين ، فاذا رأيت فلاحاً يحرك فأسه بهارة فاني اقف لاشاهده مدة ساعتين دون ان امل لان ذلك يدخل السرور الى قلبي ! وعندما افكر في الغاية من هذه الجهود وكيف ان الاشياء تتضاعف ثم تتضاعف اتكون مواد مختلفة واموالاً ، فانك لا تستطيع تصور الفرح الذي يغمرني . وليس هذا الشعور ناشئاً من اجل المال فحسب بل هو شعور خاص ينشأ بي فأحس بأنني انا الذي عملت هذه الاشياء كأنني ملاك يخلق السعادة والازدهار .

وتابع كونستانجوغلو وقد زالت الغضون من جبهته :
- اني لا اعرف فرحاً مضاهياً لهذا الفرح .. ان الانسان هنا يقوم بعمل الخالق ، انه يقلد الله . وقد اعتبر الله العمل الخلاق بمثابة السعادة المطلقة . ولذا فهو يطلب من الانسان ان يعمل هو الآخر لسعادة محيطه .. ومع ذلك فانت واحد من يتجرأ فيقول انه يسأم هذا العمل .
وبدا تشتشيكوف وكأنه يصغي الى اغاريد طائر سماوي ، فقد كانت عيناه وشتناه وكل ما فيه يعبر عن النشوة العميقة والراحة والاطمئنان .

وقالت زوجة كونستانجوغلو وهي تقف :
- قسطنطين ! لقد حان الوقت .
فوقف الجميع اقتداء بها ، ومن جديد قدم تشتشيكوف لها ذراعه ، ولكنه كان اقل خفة ورشاقة من السابق إذ اخذت افكاره اتجاهاً واقعياً مادياً .
وقم بلانوف :

- انت تستطيع ان تقول ما تشاء . ولكن الحياة نفسها تحمل في ذاتها الملاله .

وفكر قسطنطين : « ان ضيقنا لا يبدو عليه الحق ، فهو يصغي كثيراً ويتكلم قليلاً » . وكان كونستانجوغلو سعيداً إذ وجد في النهاية رجلاً يعرف كيف يستمع الى نصائحه .

أخذ الجميع أمكنتهم في ردهة الاستقبال الصغيرة قرب الشرفة وأخذوا يتأملون النجوم المشعة في السماء . وكان تشتشيكوف فرحاً جداً إذ خيل إليه أنه بدأ يستريح أخيراً في بيته بعد تشرده الطويل ، فأماله قد بدأت تتحقق بعد حديث كونساتجنو غلو الذي خلق في نفسه هذا الشعور .

إن من الاحاديث ما يثير النفس ويخلق فيها الحماسة أكثر من أي حديث آخر . ولو أن المسافر الضائع في الصحراء صادف انساناً ما فإن الكلمات الدافئة تنسيه الطرقات السيئة وفقدان الملبأ . ذلك ان الامسية التي يقضيها معه تنقش في ذاكرته فلا ينسى شيئاً من حركات الرجل ، بل هو يذكر اصغر الدقائق وأبسط التفاصيل .

في تلك الليلة لم يفت تشتشيكوف ان يلاحظ كل شيء في الغرفة ذات الالاث البسيط الانيق ، كما لم ينس الادوات التي زينت بها الجدران او الغليون الذي دخن فيه بلانونوف ، ولا ابتسامه ربة البيت المحببة وهي تقول لأخيها عند ما ينفت الدخان في خياشيم الكلب يارب : « كفى لاعتذب هذا الحيوان المسكين ! » وكذلك لم ينس الشموع اللاهبة ولا النوافذ الجميلة ولا الليلة الربيعية المنورة بالنجوم والحافلة بغناء العصفير .

وقال تشتشيكوف :

— ايها المحترم جداً ! يا قسطنطين فيودوروفتش ، ان لكلماتك وقعاً عذباً عندي . وأستطيع القول بأنني لم أصادف في روسيا رجلاً له مثل ذكائك ! . وابتسم كونساتجنو غلو ، لقد كان يشعر ان هناك بعض الحقيقة في هذه الكلمات :

— لا ... اذا أردت ان ترى رجلاً ذكياً فعلاً ، فاني اعرف شخصاً هو بكل تأكيد أحد مني ذكاً .
فسأله تشتشيكوف مندهشاً :

— ومن هو ؟

— المزارع موزارف —

فهمت بافل أيفاً نوفتش :

— تلك هي المرة الثالثة التي اسمع فيها بذكركه —

— انه رجل قادر ليس على ادارة أملاكه فحسب ، بل على إدارة مقاطعة او

دولة . ولو كنت ملكاً إذن لعينته فوراً وزيراً للمال .

فقال تشتشيكوف :

— انه انسان مشهور بالفعل ، ويقال إنه جمع ثروة تقدر بعشرة ملايين .

— عشرة ملايين ... ! ان ثروته تقدر بأكثر من اربعين مليوناً . ولن

يمضي وقت طويل قبل ان يصبح مالكا لنصف روسيا .

فهمت تشتشيكوف وكان يصغي اليه فاغر الفم مشدوهاً :

— ماذا تقول ؟

— اني مقتنع بما أقول ، وهذا أمر واضح . فمن يملك مئات الألوف يغتني

ببطء ، أما من يملك الملايين فان مجال العمل والنشاط فسيح أمامه . وكل ما

يصنعه يتضاعف او يعطي ثلاثة أمثاله ؛ ولن يكون له منافس لان مناضلته

مستحيلة ، وهو يشتري بالسعر الذي يريده .

وكاد تشتشيكوف ان يختنق بسعاله حين تتم :

— يا لله ! ولكن هذا غير معقول ... لقد أذهلتني ... يستطيع الانسان ان

يتأمل عظمة الخالق ، ولكن الاعجب والاعظم من هذا ان يشاهد انساناً

يملك هذه الثروة الهائلة . اسمح لي ان أسألك ... ان مثل هذا المال لا يمكن

ان يتجمع دون خطيئة .

= على العكس ، كانت وسائله شريفة ، لقد جمع ثروته بطريق مشروع .

= لا أستطيع تصديق ذلك ... ان الألوف معقولة نوعاً ما ، ولكن ...

ولكن الملايين ! ...

= بالعكس ، ان الألوف تأتي بالسرقة اما الملايين فتتجمع بسهولة . ان

المليونير لا يحتاج الى اللجوء الى طرق غير مشروعة . . . انه يمشي مستقيماً الى الامام ، ويأخذ كل ما يراه ، ولا يكون لدى غيره القوة والمقدرة على منافسته .
أما اصحاب الألوف فعدد المتنافسين بينهم يرتفع الى عشرة او عشرين بل الى مائة .

— انه لمن المستغرب أن تبدأ هذه الثروة ببضعة كوبيكات فاجاب كونيستانجو غلو :

— ولكن الامر لا يمكن ان يكون غير ذلك حسب منطق الاشياء .
فمن بلد ومعه آلاف الروبلات ، فإنه يتلقى علومها ولا يحصل على شيء اطلاقاً . وعلى الرجل ان يبدأ من بدء الاشياء لا من أواسطها . يجب ان يبدأ بالكوبيك لا بالروبل ، عند ذلك يمكن ان يعرف الناس والحياة معرفة جيدة ، فيصبح رجلاً قوياً بمقدوره ان يذلل العقبات . واذا لاحظ الانسان أن كل كوبيك لا يأتيه الا بمشقة فاني اقسم لك انه يرتكب خطيئات اقل . —
صدقني ان الانسان يجب عليه ان يبدأ من البداية لا من الوسط . وانا لا اتق مطلقاً ان يقول لي :

« اعطني مائة الف روبل لاصبح ثرياً على الفور » ان مثل هذا الرجل لن يمشي مشية الواثق المدرك ، بل هو سيتصرف بهطيش . . . يجب على الانسان ان يبدأ بالكوبيك .

فهدف تششيكوف وهو يفكر رغماً عنه بالنفوس الميتة :
— اذن سأصبح غنياً لاني ابدأ الصفر فعلاً ؟

وقالت زوجة كونيستانجو غلو :

— قسطنطين ، لقد حل وعد النوم . . . انك تثرثر كثيراً . وقال كونيستانجو غلو دون ان يرد على زوجته :

— بالنأ كيد ستصبح غنياً . . . ستسيل انهار الذهب بقربك ولن

تعرف ماتصنع بها .

وكان بافل ايفانوفتش مغموراً بالنشوة مأخوذاً بهذه الاحلام الذهبية ،
فطارت افكاره الى انهار الذهب وترددت اصدااء عبارة كونستانجوغلو في
أذنيه عذبة طرية : « ان انهار .. الذهب .. ستسيل ... »

— أوكد لك يا قسطنطين انه آن لبافل ايفانوفتش ان ينام !

— وماذا مايمك ... اذهبي انت للنوم اذا كنت ... وسكت ... لقد

رأى بلاتونوف يغط في نومه فوق مقعده ، وكان شخير الكلب يارب أقوى من
شخيره ... عند ذلك تحقق كونستانجوغلو ان الوقت متأخر بالفعل ، فنهز
بلاتونوف وقال له :

— هيه ! كفأك شخيراً !

ثم التفت الى تششيكوف وثنى له ليلة سعيدة وانصرف .

انقضى وقت طويل على تششيكوف وهو لا يستطيع النوم . ذلك ان
احلامه أرقته كثيراً ، كان يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها ان يحصل على
املاك حقيقية لاجيالية . لقد اتضح كل شيء بعد حديثه مع كونستانجوغلو
فطرق الاعتناء واضحة الآن ، وادارة الاملاك مهما بدت صعبة يمكن تسهيلها
... انه سيحصل على المال اللازم مقابل نفوسه الميتة . وخيل اليه انه يرى نفسه
على رأس ملكية يديرها حسب نصائح كونستانجوغلو بذكاء وحرص مكثف
بتجارب الماضي متفحصاً كل شيء بنفسه ومتعرفاً على جميع فلاحيه ، تاركاً الترف
والبدخ ومنصرفاً الى الجد والعمل . وبدأ تششيكوف يتمتع بالسرور الذي
سيشعر به عندما يسود النظام وتدور جميع الآلات ، وتمثلت أمام ناظره صورة
الملك الكامل . كان كونستانجوغلو أول رجل في روسيا شعر نجاحه بالاحترام
العميق . فهو حتى الآن لم يحترم احداً ، لا من أجل طبقته وثروته ، ولا من
اجل ذكائه قبل كونستانجوغلو ، واخذ مشروع آخر يداعب خيال
تششيكوف . انه يريد شراء اراضي خلوبونيف فليدبه عشرة آلاف روبل

وسيستدين من كون ستانجو غلو خمسة عشر ألفاً . أولم يقل قسطنطين فيودوروفتش
انه يساعد كل انسان يريد لنفسه الثراء ؟ اما ما يحتاجه بعد ذلك فانه سيعمل على
تسديده بعقد قروض اخرى ، ويستطيع الدائنون بعد ذلك ان يلاحقوه
وباستطاعة المحاكم كذلك ان تلاحقه اذا كان لديها وقت تضييعه .

وامتد التفكير بتشتيكوف طويلاً ، ولكن النوم ضم أهل البيت جميعاً
بين ذراعيه كما يقول التعبير الروسي ، ف جذب اليه تشتيكوف الذي راح في
نوم عميق .

في المال الخفا

و

الفصل الرابع

ومارت الامور في اليوم التالي سيراً حسناً ، فقد اعطى كونستانجو غلو عن طيب خاطر عشرة آلاف روبل لتشتشيكوف دون فائدة ودون تعهد ، بل اكتفى بايصال بسيط . وزيادة على ذلك فقد تطوع هو نفسه بمرافقة بافل ايفانوفتش الى خلوبونيف في سبيل زيارة منطقة هذا الملاك . وكان تشتشيكوف بذلك سعيداً . وبعد فطور الذي استقل كونستانجو غلو وبلاتونوف عربية تشتشيكوف الفخمة وذهبوا ، وكان الكلب يارب يركض امام العربية ويطارد طيور الطريق . وكان كونستانجو غلو قد امر بان تلحق به عربته الحليفة .

سار الجميع هكذا خمسة عشر فرساً دون ان يخرجوا عن غابات وحقول كونستانجو غلو . وما ان تركوا املاكه حتى تغيرت المشاهد : حنطة نادرة ، وجذوع اشجار شقية . وكانت القرية التي يلاحظونها عن بعد واقعة بمنطقة جميلة ولكن يظهر انها مهجورة ويرى فيها بناية من الحجارة لم تتم بقيت خالية من السكان ، وخلفها دار اخرى من الحجارة ايضاً الا انها اصغر منها وآهلة بالسكان ، وكان صاحبها الذي يظهر انه من ابناء الاربعين نائماً قماماً الى ان

استقبل الاصدقاء الثلاثة وربطة عنقه ليست في موضعها على ما يرام ومعطفه مزقوع وحذاءه مهترى ، وقد فرح لقدم هؤلاء الضيوف . وكان كمن يستقبل إخوة له بعد غياب سنوات طويلة .

— قسطنطين فيودوروفتش ! بلاتون ميخائيلوفتش أي فكرة حسنة ان يصل الانسان هكذا ! دعوني استيقظ تماماً ! لم يأت احد قط لزيارتي ! انهم يفرون مني كما يفرون من الطاعون ... ! انهم يخافون بدون شك ان اطلب الدراهم ! آه ان الحياة لقاسية يا قسطنطين فيودوروفتش ... ! اني ... اني المذنب الوحيد ... ما العمل ؟ لقد عشت عيشة خنزير ... ! ارجو المائدة ايها السادة ! انني استقبلكم بهيئة زرية ، ان حذائي مثقوب ! ماذا ساقدم لكم ؟ فقال كونستانجوغلو :

— لا تتعب نفسك فنحن قادمون لبعض الأعمال . هذا مشتر ، إنه بافل ايفانوفتش تشيتشيكوف .

— إنني سعيد جداً لمعرفتك . اسبح لي بمصافحتك .
وهنا مد تشيتشيكوف ذراعيه :

— انني اريد أن اطلعك على أملاكي يا بافل ايفانوفتش إنها تستحق اهتمامك ... ولكن هل تعشيت ايها السادة ؟ فأجاب كونستانجوغلو وهو يستحبه رغبة في إنهاء الصفقة :

— نعم نعم علينا الان نضيع الوقت سدى ولنبدأ الزيارة . فقال خلوبونيف :
— فليكن ... هيا بنا ... هل سنهتم بثمار سلوكي المتناقض المضطرب ؟ ووضع الجميع قبعاتهم على رؤوسهم واجتازوا القرية التي كانت تتألف من بيوت خشبية صغيرة ثبتت فيها نوافذ خيقة واطئة تغطي بخرق من القماش . تابع خلوبونيف كلامه قائلاً :

— إن نتيجة اضطرابي وتناقضي ... لقد صنعتم حسناً لأنكم قبل الجي ، هل تصدق يا قسطنطين فيودوروفتش أنه ليس لدي دجاجة ... هذه هي حالي .

ثم فرز فرقة طويلة ولما عرف انه لن يستطيع أن يجعل قلب كوندستاجو غلو يرقله أمسك ببلاتونوف من ذراعه ومشيا أمام الجميع ، وتبعهما كوندستاجو غلو وتشتيشيكوف . يضع كل منهما ذراعه في ذراع الآخر .

قال خلوبونيف موجهاً كلامه الى بلاتونوف :

- إن الحياة لقاسية بل جد قاسية ببلاتون ميخايلوفيتش إنك لا تستطيع ان تصور كيف أن كل شيء صعب . لا مال ولا قمح ولا حذاء...! إنني أتكلم معك بلغة غير مفهومة دون شك... سخافات حين كنت لا أزال شاباً ووحيداً... أما حين تنزل جميع هذه المصائب بك مع الشيخوخة... حين يكون عند الانسان امرأة وخمسة أولاد... حينئذ يخاف نعم إنه يخاف على الرغم منه...

فقال بلاتونوف :

- حين تبيع ضيعتك فان مركزك سيتحسن .

- فصرخ خلوبونيف رافعاً ذراعه :

- يتحسن ؟ يجب دفع الديون... لن يبقى عندي ألف روبل .

- ماذا ستفعل ؟

لست أدري !

- وأنت لا تتاجر أبداً لكي تنقلب على هذا الملل .

- ومع مركزي كسكرتير المقاطعة... ان الوظيفة المناسبة لهذا المركز

لا قيمة لها... خمسمائة روبل كمعاش شهري عندما يكون للانسان امرأة وخمسة أولاد .

- هل تعمل كوكيل

- من يقدم لي ملكاً وأنا لا أعرف التصرف بملكه .

- واذا تبعك الجوع والموت... يجب تعلم الدفاع عن النفس سأطلب إلى

صهري فيما إذا كان يستطيع أن يجد لك عملاً في المدينة. فقال بلاتون ميخائيلوفتش زافراً وضاعطاً على يد بلاتونوف :

- لا يا بلاتون ميخائيلوفتش ... إنني لأصلح لأي شيء ... لقد مت قبل أجلي .. إن كليتي مريضتان نتيجة لافراطني في شبابي ولرؤما تزم في الكتفين ... أين تريد مني أن أذهب ؟ أتريد أن أسرق خزانة الدولة ؟ يوجد عدد كبير من الموظفين الذين يعيشون على حساب كل الناس ... فليحفظني الآله من زيادة الضرائب على الفقراء في سبيل مركز يقدم الي .

وفكر بلاتونوف : « هذه هي نتائج حياة الجنون التي غرقت بها . وذلك أسوأ من الملل ومن النعاس ! »

بينما كان خلوبونيف وبلاتونوف يتحدثان على هذه الصورة كان كونستانجوغلو يفرق شيئاً فشيئاً في الحديث مع تشيتشيكوف وصاح قائلاً فجأة :

- انظر إذن كيف ألقى بالفلاحين في هذه الحالة الغريبة من الشقاء ... لا توجد عربة ولا يوجد حصان ... يجب أن نعرف حين يجب كيف نبيع كل الاشياء شريطة ... الا يفقد الفلاح دوابه ويشغل ... ويلزمنا عدة سنوات الآن لكي نرفع كل هذا ... ! ان فلاح هذه المناطق أصبح كسولاً وسكيراً ! اتركه سنة بدون عمل فهو لا يساوي شيئاً مدة عصور طويلة ... ! الاعتياد على القذارة والحاجة ... ! انظر ... انظر هذه الارض - وكان كونستانجوغلو يتكلم وهو يشير الى الحقول التي تمتد خلف البيوت الخشبية - انها ليست الا مستنقعات ... هناك سأحصل على المكتات ... الذي يقدر ثمنه بخمسة آلاف روبل على اقل تقدير ... وهنا اللفت ... اللفت بأربعة آلاف روبل ايضاً ... ! وكان يوجد فيما مضى القنب على الشاطئ ، اما اليوم فلا يوجد منه شيء قط .. انه لا يزرع .. وهناك ، على بعد ، هذه الشعاب لا شيء .. . إنني سأستطيع الحصول على غابات .. على اشجار باسقة لا تتمكن الفربان من الوصول الى اعاليها ... ولقد تجرؤوا على اهمال ارض خصبة كهذه .. . وعندما

يوجد ما تزرع .. فاننا نقلب الارض بالمر .. إن عندنا مزرعة .. اقلب ارضها بالمر انت واطلب الى زوجك واطفالك ان يقلبوها كذلك بالمر .. مت. وانت تعمل .. فانك ستموت على الاقل بعد ان تكون قد قمت بواجبك .. لا تكن يموت على طاولته بعد وقعة شبيهة ..!

صعد الصحاب هضبة .. وكان نهر يتلوى عن بعد .. وكان يشاهد وراءه بيت الجنرال بترتشتشيف .. ثم في الافق كانت سلسلة من الهضاب المشجرة تحفي ، كما كان يفكر تشتشيكوف ، اراضي تنيتنيكوف .

صاح تشتشيكوف :

- ولكن يمكن تغطية هذه الاراضي بالغابات .. أي مشهد عجيب سيكون

حينئذ هذا المشهد ..!

فقال كونستانجوغلو :

- انك تحب اذن المناظر الطبيعية ! احترس فيما اذا كنت لا تفكر الا بالمنظر .. فانك ستصبح سريعاً دون خبز وبدون .. منظر طبيعي ! انظر الى الفائدة لا الى الجمال فان الجمال يأتي من نفسه . خذ مثلاً على ذلك المدن ما هي اجمل المدن ؟ انها تلك المدن التي بنيت من قبل سكان حريصين ، قبل كل شيء ، على حاجاتهم .. ثم .. على اذواقهم .. وليذهب الجمال الى الشيطان ولتجيا الفائدة ! - انني آسف للاضطرار على الانتظار مدة طويلة .. فأنا اود ان يسود هنا النظام والراحة .

- هل انت اذن شاب من ابناء الخامسة والعشرين ، او موظف في بترسبرج وماذا تصنع اذن بالعبيد؟ تعلم قبل كل شيء ان تعمل خلال ست سنوات ... ازرع واطلب الارض .. لا تسترح دقيقة واحدة .. فان ذلك قاس .. قاس . ولكن بعد ذلك ، حين تصبح الارض مزروعة جيداً ومحفورة فانها ستكون اول من سيساعدك . ولن يكون عندك فقط سبعون ذراعاً ، بل سيكون

عندك سبعمائة ذراع غير مرئية ، وكل شيء سيضرب بعشرة ! خذ عندي مثلاً فاني لا أكاد احرك اصبعاً حتى ترى كل شيء يصنع من تلقاء نفسه . ان الطبيعة تحب الصبر ؛ ذلك هو القانون الذي قدمه الله مكافئاً دوماً أولئك الذين يعرفون كيف يكونون صابرين !

— انك تعرف جيداً كيف تبعث القوة في نفوس من ينصتون اليك !
وهنا صاح كونستانجوغلو بألم وهو يشير الى منحدر هضبة .
— هذا ما يسمى حراثة ! انني لا استطيع البقاء هنا .! ان رؤية هذا الالهام وهذه الفوضى ما هي الا موت بالنسبة الي .. تستطيع ان تعقد الصفقة معه دون ان اكون موجوداً .. خذ منه بسرعة كل هذه الكنوز .. انه يشوه صنع الله !

واسودت الدنيا في عيني كونستانجوغلو واضطرب وضغط على يد تشتشيكوف ثم لحق بخلوبونيف وتبعته ذلك فترة صمت .
ثم قال :

— يا قسطنطين فيودوروفتش ! كيف يكون ذلك .. انك لم تقم بشيء سوى المجيء والعودة بهذه السرعة ؟
فاجاب كونستانجوغلو :

— انني لا استطيع البقاء ، فعلي ان اعود ، ان لدي بعض الاعمال الضرورية في البيت ..
ثم قفز الى عربته وذهب .

وفهم خلوبونيف سبب هذه العودة السريعة فقال :
— ان قسطنطين فيودوروفتش لم يستطع تحمل رؤية هذا الشقاء .. صدقني يا بافل ايفانوفتش انني لم ازرع شيئاً هذا العام .. وانني اقسم لك انه لم يكن لدي البذار .. وليست لدي آلات للحراثة .. !

وتابع حديثه متوجهاً الى بلاتونوف :

— ان صهرك على ما يقال ملاك ممتاز . ماذا تقول عن قسطنطين فيودوروفتش
اذن ان لم يكن نابليون قومه ؟ وقد تساءلت كثيراً : لماذا وجد كل هذا
الذكاء في رأس واحد كهذا الرأس ؟ لو انه يستطيع ان يهرق منه نقطة في
وأمي .. ! انتبهوا ايها الاصدقاء ! اننا نغامر على هذا الجسر الصغير فاحذروا
السقوط في الغدير ! لقد اعطيت عدة مرات اوامري بترتيب هذه الالواح الخشبية
انني لأشكو من هؤلاء الفلاحين الفقراء .. يجب ان يرهم الانسان عمل كل شيء .
ولكن اي مثل يمكن ان ارهم ؟ ماذا يستطيع ان افعل ؟ خذهم يا بافل
ايفانوفتش .. كان بودي ان احررهم منذ وقت طويل إلا ان ذلك لا يعمل
على تقديمهم .. يجب قبل كل شيء ان يتعلموا كيف يعيشون .. انهم محتاجون
الى رئيس قاس وعادل يكون لهم قدوة في النشاط والثبات .. ان الرجل
الروسي ، كما اراه في نفسي ، بحاجة الى مؤثر دائم ، والا فانه ينام ويحلم .
فتساءل بلاتونوف قائلاً :

— كيف يكون ذلك ؟ كيف يستطيع الروسي النوم والحلم بينما رجل
الشعب يصبح سكيراً ومجرماً إذا لم يراقب ؟
— ان الله وحده يعلم السبب ! نحن رجال مشفقون ... ولقد أنهينا دراستنا
الجامعية ... فلأي شيء نصلح ؟ ماذا تعلمت ؟ انني أجهل علم الحياة ... انني لا اعرف
فن اتفاق المال لكي أعيش في الأناقة والوجاهة ولكي لا أستخدم إلا الأشياء
الثمينة ... ولم أعمل أقل من بقية الطلاب ... إننا نرى أننا ذوو قيمة كبيرة
... ! وان اثنين أو ثلاثة من رفاقي كانوا يستفيدون حقاً من الدروس في
الجامعة ... ربما لأنهم كانوا موهوبين ... أما الآخرون فانهم تعلموا ما يضر
الصحة فقط وما يسمح لهم ببيع الكثير من المال ! وانه لي لوح لي حقاً في هذه
اللحظة أن الروسي رجل ضائع ... فهو يريد كثيراً ولكنه لا يستطيع شيئاً
... وهو يفكر دوماً بأنه سيبدأ حياته غداً ... وأنه سيتغير غداً ... وأنه

سيطبق نظام الحمية ... ولكنه لا يعمل شيئاً ... ففي مساء اليوم التالي يأكل كثير آ بصورة يلقي فيها بنفسه على مقعده دون أن يقوى على القيام عنه ... وكل شيء عنده يسير على هذا المنوال .

فقال تشيتشيكوف مبتسماً :

= نعم ... يحدث هذا غالباً !

فتابع بلاتونوف :

- نحن لم نولد كما يتطلب العقل ... انني لا أصدق أن الروسي عاقل ... وإذا مارأيت روسيا يحاكم بصورة عقلية ويعمل ويجمع المال ... فاني لن أثق به ... اذ أنه سيخسر كل شيء في يوم ما بومضة من ومضات جنونه ... وكل الروس على هذا الطراز ... مثقفون أو غير مثقفين .. ان شيئاً ينقص الروسي ... ! ماهو ..؟ لا أدري .

وحين عاد الجماعة الى القرية كانت تلك الانطباعات الداعية للاشمئزاز لا تزال مرسومة على وجوههم . وكانت المستنقعات الموحلة تملأ الأزقة .. وكانت فلاحه ترتدي خرقاً بالية ممسكة قد قتلت منذ وقت قصير طفلة صغيرة وهي تشتم مستعينة بجميع الشياطين وشاهدان ضجران يتأملان هذا المشهد : كان أولهما يحفر في عمود بالقرب منه بينما يتشاءب الثاني كما كانت جميع بيوت القرية الخشبية تتشاءب كذلك .. فالسطوح الصغيرة تتشاءب ، وحتى بلاتونوف أخذ يتشاءب حين نظر اليها . ولا يرى في كل جانب وعلى كل شيء سوى قطع وأجزاء مراكبة او مبدلة بغيرها . فقد وضعت ابواب كبيرة فوق البيوت الخشبية لتسد مسد السطوح ونوافذ محطمة كانت مستندة بجارف مسروقة من مخازن السيد وكان الفلاحون يطبقون منظومة تريشكا : وذلك بأن يقصوا أطراف الثياب وأجزاءها ليرفعوا أكمائها .

قال تشيتشيكوف حين وصلوا الى القرية :

— ان أراضيك في حال يرثى لها .

وقد جوبه هو وبلاتونوف في بيت السيد مزيج من البؤس والأناقة التي كانت تخيم عليه . كانت زوجة خلو بونيف ترتدي ثيابها بذوق عصري وقد حدثهم عن المدينة والمسرح . وكان يظهر على الأولاد الفرح اذ أنهم ، ذكوراً وإناثاً ، كانوا يلبسون ألبسة عصرية . وكان يفضل أن يروا بملابس أبسط من تلك . . هل كانوا يشبهون في شيء أبناء الفلاحين ؟ ووصلت في تلك الأثناء سيدة ثرثرة وحمقاء فانسحب النسوة والأولاد . . . وبقي الرجال وحدهم .

قال تشيتشيكوف :

— نعم . . . ما هو الثمن الذي تريد ؟ انني أطلب اليك . . . متوسلاً أن تحدد لي السعر النهائي . . . وأنا لم اكن أتوقع أن أجد هذه المنطقة في مثل هذه الحال السيئة . . !

فأجاب خلو بونيف :

— نعم هذا حق . . فهي في أسوأ حال بمكنة . . . وليس هذا كل شيء . . فأننا لن أخفي عليك شيئاً . . فمن مئة نفس سجلت في الاحصاء الاخير لم يبق لي سوى خمسين . . اذ أن البقية ماتوا بالهيفة لقد فروا دون جواز . . وحتى هؤلاء الآخرون يمكن اعتبارهم كالموتى . . واذا كانت العدالة تطلب مني الاهتمام . . فكل ما بقي لدي . . سيذهب الى ذلك الطريق . . وعلى هذا فاني أطلب خمسة وثلاثين ألف روبل . .

وساوم تشيتشيكوف بطبيعة الحال فقال :

— ماذا ؟ خمسة وثلاثون ألفاً ؟ ! انني أدفع خمسة وعشرين ألفاً . .

لكن بلاتونوف خجل من تلك المساومة فقال : اشتر يا بافل ايفانوفش فان لم تدفع الخمسة والثلاثين ألفاً المطلوبة فاني سأشارك مع أخي بشرائها ، فخاف تشيتشيكوف وصاح قائلاً :

— فليكن . . انني أقبل . . الا انني أدفع المبلغ على قسطين . . وسأعطي

القسط الثاني بعد عام .

= ان هذا المستحيل يا بافل ايفانوفتش .. اعطني النصف في هذا اليوم ..
وادفع الباقي في مجرى هذا الشهر .. انك تعرف اني استطيع ان استدين هذا
المبلغ .. لو كان عندي أي شيء اكي اعطي الموظفين .
فقال تشيتشيكوف :

= حقا .. لم أكن أعلم .. ليس لدي سوى عشرة آلاف روبل ، لقد
كان يكذب في ذلك اذ أنت عنده عشرين ألفا مع المبلغ الذي استدانته من
كونستانجوغلو الا أنه كان يستصعب دفع مبلغ كبير كهذا المبلغ مرة واحدة .
= انني أكرر يا بافل ايفانوفتش انني بحاجة ماسة الآن الى مبلغ خمسة
عشر ألف روبل

فأسرع بلانوف متوجهاً بكرة الى تشيتشيكوف :
= انني أقرضك خمسة آلاف روبل .

فقال بافل ايفانوفتش :

— اذن فلا تكن .. أي حظ هذا في أن يقرضني بلاتون ميخائيلوفيتش هذه

الخمسة آلاف روبل

وذهب ليأتي بصره الدراهم من العربية ، وأعطى فوراً خلوبونيف عشرة
آلاف روبل ووعد أن يأتي بالخمسة آلاف الأخرى في اليوم التالي . الا أنه
في الحقيقة لم يكن يفكر الا بدفع ثلاثة آلاف فقط .. ثم يعطيه بعد ذلك
ألفين بعد يومين أو ثلاثة أيام .. وبالاختصار فهو ليس على عجلة من أمره .

وكان بافل ايفانوفتش لا يجب أن يدع الأموال التي في حوزته تفوته .. وفي
حال الضرورة القصوى كان يعد بدفع ديونه في اليوم التالي .. وليس في اليوم
الذي هو فيه أبداً .. كان اذن يتصرف كما تتصرف نحن جميعاً .. اذ أننا نحب
كلنا أن نجعل الدائن ينتظر في غرفة داخلية ... ويتسلى بفرك مسند الكرسي
فماذا همنا مادام لا يستطيع الانتظار ؟

— عد غداً أيها الصديق فليس لدي فراغ في هذا اليوم وسأل بلاتونوف
خلوبونيف قائلاً :

— أين ستذهب الآن لتعيش ؟ أليس لديك قرية أخرى ؟
فاجابه :

لا ... سأرحل الى المدينة اذ أنني أملك فيها داراً صغيرة ... كانت
يجب علي أن أرحل منذ زمن طويل على كل حال :.. ان لم يكن من أجلي .
فمن أجل الاولاد على الاقل ... فهم سيكونون بحاجة الى أساتذة دين وموسيقى
ورقص ... ومن المستحيل وجود هذه الاشياء في القرية .
فقال تشيتشيكوف في نفسه :

— « ليس لديه كسرة خبز ويريد أن يعلم اولاده الرقص »
وفكر بلاتونوف قائلاً : « غريب »
قال خلوبونيف :

— والآن لنشرب نخب هذه الصققة المنتهية ... ايه ... اجلب لنا يا كبير يوشكا
... ايها الاخ قنينة من الشامبانيا !
فقال تشيتشيكوف مرة ثانية في نفسه :

— ليس لديه كسرة خبز ويشرب الشامبانيا .

اما بلاتونوف فلم يعرف بماذا يفكر . وكان خلوبونيف قد أمر بجلب
الشامبانيا من المدينة سابقاً لضرورتها ، ذلك أنه في القرية لا يحب الناس
صنع مشروب (الكفاس) بالتقسيط . ومع ذلك فيجب الشرب . ولحسن
الحظ فان فرنسياً قادمًا حديثاً من بطرسبرج قد قبل على العكس ان يبيع الشامبانيا
بالدين اتى اذن بقنينة الشامبانيا وشرب كل واحد ثلاثة اقداح منها . وعم
السرور . واصبح خلوبونيف محبباً ، لطيفاً واخذ يقص بعض الطرف المسلية .
وكانت كلماته تنبىء انه يعرف الرجال والحياة معرفة تامة . وكانت آرائه سليمة
وكان يتقن تصوير صفات الملاكين الاقطاعيين جيرانه بقليل من الكلمات ،

ويظهر عيوبهم واخطاءهم كما كان يعرف سير جميع اعمالهم وخرابهم يصف
تمام الوصف بذلكاء خارق وذهن حاد عاداتهم مما جعل تشتشيكوف وبلاتونوف
المعجبين به يعدانه اذكى الناس .

وقد اعترف بافل ايفانوفيتش قائلاً :

- يدهشي ان لا يستطيع رجلاً له مثل ذكائك الخروج من المأزق الحرج

الذي توجد فيه .

فأجاب خلوبونيف :

- نعم . . ان عندي موارد كثيرة .

ثم أخذ يسرد على مسامعهم مشاريعه . وقد كانت جميعها اكثر
حماسة وغرابة من بعضها . ولم يكن أحد يستطيع إلا ان يمز
كتفيه ويقول :

- « يا آلمي ... أي هوة سيقة بين معرفته للعالم والوسيلة العملية لاستخدام

هذه المعرفة ! »

كان كل مشروع من مشاريعه يستند على تملك لمائة ألف أو لمائتي ألف

روبل ... ثم ينتظم كل شيء ... فتدار شؤون المنطقة بصورة عجيبة ...

وتسد جميع الثغرات ... ويضاعف المحصول الى اربعة امثاله ... وتدفع

حينئذ جميع الديون ...

وأنتهى خلوبونيف كلامه قائلاً :

- ما العمل ؟ فأنا لا أعرف فاعل خير يقبل أن يعطيني مائتي ألف أو حتى

مائة ألف روبل فقط .

فقال تشتشيكوف لنفسه : « ان ينقصه سوى هذا ! مائة ألف روبل ...

لهذا الأحق ! »

قال خلوبونيف أيضاً :

- « لي عمّة تملك ثلاثة ملايين . لكنها تقيّة جداً فهي تعطي كثيراً للكنيسة والأديرة ... ولا تحب أن تساعد واحداً من أقاربها أبداً ... إنها من طبقة النبلاء القدماء ... بالغرابة هذه المرأة ... فهي تملك أربعمائة كنار ... وكلابا ... ووصيفات وخداماً ... بصورة لا يمكن تصديقها ... وإن أصغر خدمها يبلغ من العمر ستين عاماً وهي تناديه بقولها :

« يا صغيري » . وعندما تعد حفلة عشاء مثلاً ، وحين يرتكب مضيفها بعض المفورات فإنها تأمر الخادم بجرمانه من نوع من أنواع الأكل ... وهكذا ! ..

وابتسم بلاتونوف ، وقال تشتشيكوف :

- ما اسم عمّتك هذه ؟ وابن تسكن ؟

فأجاب خلوبونيف :

- إنها تسكن في عاصمة الدولة وتسمى الكسندرا إيفانوفنا -
خونا ساروفا .

فقال بلاتونوف بجرارة :

- ولكن اذهب إليها وقابلها ... عسى أن تفهم ما زق عائلتك
الحرج فتساعدك .

- لفائدة من ذلك ... فإن لها طبعاً قاسياً كالخديد ... وإن كثيرين
غيرنا يعملون الآن على الكسب منها ... وإني أعرف شخصاً يطمح بوظيفة
الحاكم وقد نجح في أن يدخل في العائلة ويكون واحداً منها ...
ثم توجه بالكلام نحو بلاتونوف :

- على فكرة ... اني ادعوك الى حفلة العشاء العظيمة التي سأقيمها في الاسبوع
القادم في المدينة ...

ففتح بلاتونوف عينيه دهشة ... كان يجهل انه في عاصمة بلادنا روسيا المقدسة

ومدنها يعيش اناس عيشة هي عبارة عن احجية غير مفهومة . . . فهم مفلسون
ومكبلون بالديون ولا يملكون كوبيكا واحداً .

ومع ذلك فهم يقيمون حفلات عشاء ! ويزعم المدعوون كل مرة ان هذه
هي الأخيرة . . . وسيكون مضيفهم في اليوم التالي في السجن . . . ولكن تضي
عشر سنوات ويبقى الرجل في اعياد دوماً . . . تتضاعف الديون . . . وتتضاعف
دعواته ، ويكرر المدعوون دون انقطاع أن هذا آخر عشاء ، وان رب البيت
سيكون في اليوم التالي في الزنازة !

كان بيت خلوبونيف لا يشبه في شيء غيره من البيوت وقد قام في احد
الايام راهب بلباسه الديني بحفلة تعميم فيه . وفي اليوم التالي مثلت فيه فرقة
فرنسية قطعة تمثيلية . . وفي اليوم الثالث لم تكن توجد في البيت كسرة خبز .
وبعد اربع وعشرين ساعة اقيم حفل كبير حضره كثير من الممثلين والفنانين .
ومرت اسابيع بعد ذلك مؤلة لو مرت على غير خلوبونيف لشققت نفسه او احرق
دماغه . . ولكن شيئاً من التدين انقذه ورده الى نفسه والى مسـلوكه الذي
كان منجلاً . . فكان يقرأ في الساعات الفلقة من حياته ، تاريخ العباقره وشهداء
الانسانية الافاذ الذين تعلموا ان يسموا بانفسهم عن الارض وشقاها . . وكان
قلب خلوبونيف يرق وفي الوقت نفسه ينتقل فكره الى الاجواء العليا وتفيض
الدموع في عينيه . وكان يصلي وتأنيه . وذلك امر غريب - نجدة لم يكن
يتوقعها . . فيتذكره صديق قديم ويرسل له الدراهم ، او ان مجهولة تمر في المدينة
وتسمع بحاله التعسة وتناثر في صميم قلبها كامرأة كريمة ، وتقدم اليه هدية ثمينة . .
واخيراً كان يربح من اعمال غريبة لم يكن يتكلم عنها قطعاً . . وكان خلوبونيف
يعترف بتدخل العناية الالهية وقيم حفلة دينية في بيته ويعود بعدها الى سابق
عهده بالتبذير الجنوني .

ولما ذهب بلاتونوف وتشتشيكوف قال الاول للثاني :

- لقد أثر في نفسي . . نعم لقد أثر في نفسي حقاً .

فاجاب بافل ايغانوفتش ؟

- إنه طفل مبذر . ليس لديه ما يحسد عليه .

وانقطعا بعد قليل عن التفكير بخلوبونيف . كان بلاتونوف لا يهتم بالناس او الاشياء الا بتكاسل وفي نصف يقظة ، نعم ان قلبه ليعتصروا انه ليتألم امام بؤس الآخرين الا ان انطباعاته لا تدخل الى اعماق نفسه . انقطع عن التفكير بخلوبونيف لانه لا يتقن التفكير بنفسه .

اما تشتشيكوف فقد نسي خلوبونيف لسبب آخر وهو ~~هو~~ ان الصفقة التي قام بها منذ فترة اخذت تشغله بصورة جدية . لم يكن الملاك الخيالي لارض خيالية بل انه اصبح ملاكاً حقيقياً لمنطقة حقيقية . وقد اتضحت افكاره ومشاريعه . وكان يقول لنفسه : « صبراً ، والى العمل ، وليس ذلك بعسير » لقد اعتدت ذلك . كان عندي تلك الميزات منذ ان كنت صغيراً في المهسد . ولكن هل سيكون لدي الصبر الكافي الآن ، وفي هذه السن ؟

وكما زاد تفكيره في الصفقة كلما زاد سروره . كان بإمكانه ان يرهن هذه المنطقة بعد ان باع احسن الاراضي . كان يستطيع ان يدير شؤون املاكه بنفسه على مثال ما صنع كونستانجوغلو مستفيداً من نصائحه كجار وكفاعل خير واخيراً انه يستطيع ان يبيع كل المنطقة لشخص معتبر ، محتفظاً تماماً بالنفوس الميته والنفوس الهاربة .. وكان الغلبة لهذا المشروع الاخير .. انه يستطيع اذن ان يترك هذه الاراضي بسرعة دون ان يعيد الى كونستانجوغلو ما له عليه . فكرة غريبة ..! لا يمكن ان يقال ان تشتشيكوف هو الذي اوحى اليه بها ، لأنها جاءت اليه عفواً خاطراً ، وداعبته ، واستهزأت به . انها سيئة ، وكريهة .. ومن هو خالق هذا الافكار الفجائية والطارئة ؟ ان ؟

كان تشتشيكوف يسبح في أجواء من الفرح ! إذ أنه أصبح ملاكاً ، ملاكاً حقيقياً ، واقعياً ؛ ملاكاً يملك اراضي واقناناً .. اقناناً احياء وجعل يقفز على مقعده الحشبي ، ويفرك كفيه ، ويغمز بعينه .. ثم وضع كفه امام

فمه واخذ يصفر نشيداً عسكرياً ، ويتلفظ بصوت منخفض بكلمات عذبة وخفيفة
يخاطب بها نفسه : « يا صاحب الوجه الصبوح ، يا أيها الديك الضخم الصغير ،
تابع سيرك » ولكنه تذكر فجأة انه لم يكن وحيداً فسكت وحاول ان يكظم
السعادة التي كانت تستولي عليه . إلا ان بلاتونوف ظن ان تلك الهمهمات كانت
موجهة اليه فقال :

— ماذا تقول ؟

فأجاب تشتشيكوف :

— لا شيء .

نظر بافل ايفانوفتش حوله ولاحظ انه كان يجتاز منذ مدة طويلة حرجاً
صغيراً جميلاً واشجار (السنديان) الكبيرة على جانبي الطريق . ويلمح عن
بعد بين اشجار (الصفصاف والسنديان) كنيسة برزرجل في الطريق واتجه نحوهما .
كان يضع على رأسه قبعة صغيرة ويمسك بيديه عصا معقدة ، وكاب انكليزي ذو
قوائم دقيقة يركض امامه .. انه آزور .

فصاح بلاتونوف :

— قف ايها الحوذي : هذا هو اخي .

ثم نزل من العربية ، وتبعه تشتشيكوف . اخذ الكلبان يارب وآزور يلحس
كل منها (بوز) الآخر ثم انقضا على تشتشيكوف وبلاتونوف ، حتى ان آزور
اتجه رأساً الى اذن بافل ايفانوفتش واخذ يلحس طرفها . وتعانق الاخوات .
وقال فاسيلي اخو بلاتونوف :

— إذن .. فأنت تتركني هكذا يا بلاتونوف ؟

فأجاب بلاتونوف بلهجة رخوة :

— ماذا جرى ؟

— كيف ماذا جرى ، ومنذ ثلاثة ايام لا نعرف شيئاً عنك ؟ وان حوذي
بيتوخ أتى الينا بمصانك وانبأنا أنك ذهبت مع سيد . . كان يجب ان

تخبوننا عن مدة غيابك ، وعن وجهتك ، لا يتصرف العقلاء هذا التصرف يا أخي .
لقد قلقت عليك جداً في هذه الأيام الثلاثة !
فقال بلاتونوف :

— ما العمل ؟ لقد نسيت ! لقد ذهبنا الى قسطنطين فيودوروفتش وهو
يهديك تحياته ، كما يهدي تحياته الى اختنا .. بافل ايفانوفتش انني اقدم اليك
أخي فاسيلي .. هذا هو بافل ايفانوفتش تشيتشيكوف .
تصافح الرجلان وتزعا قبعتهما ثم قبلتا بعضهما .
تساءل فاسيلي « من تشيتشيكوف هذا ... » إن أخي لا يستطيع كسب
أصدقاء جدد بسهولة .

ثم صوب نظرة فاحصة الى تشيتشيكوف في حدود الأدب فظهر له
الرجل مقبولاً . كما ان تشيتشيكوف صوب ايضاً نظرة فاحصة الى فاسيلي
كانت في حدود الادب . كان اصغر من بلاتونوف ، واكثر سمره منه ، واقل
جمالاً ولكنه تقاطيع وجهه تنبئ عن حيوية وقوة وطيب . ويظهر انه كان
ينام اقل من أخيه .

— فاسيا ... لقد قررت ان اقوم بنزهة بسيطة في روسيا المقدسة مع بافل
ايفانوفتش ... عسي ان ينقشع مللي ... !
فأجاب فاسيلي مندهشاً لهذا النبأ غير المتوقع :
— اني اراك قد قررت بسرعة ..
وكان كأنه يريد ان يضيف :

— وتريد ان تذهب برفقة رجل لم تره الا مرة واحدة .. وقد يكون سيء
الاخلاق ... ولا يعرف ذلك إلا الشيطان نفسه .

وأعاد النظر الى تشيتشيكوف زيادة في الحيلة .. فصدم بهيئة محتومة جداً .
ذهب الاصدقاء الثلاثة نحو اليمين واجتازوا بوابة شبكية . ووجدوا أنفسهم
في حديقة قديمة أمام قصر عتيق لنوافذه وابوابه مايقبها المطر والشمس . وكانت

شجرتا ورد قد نبتتا في وسط الحديقة وسترت بظلها نصفها تقريباً . وكانت تحيط بهما مقاعد خشبية عديدة . وأشجار أخرى من كرز ولبك كانت تغطي كل القصر تقريباً . وبين اوراق الاشجار لم يكن بالامكان - رؤية شيء منه ماعدا الابواب والنوافذ . وخلف سوق الاشجار المستقيمة كالسهام ترى جدران المطبخ البيضاء ، والجائل ، والاقبية . وكانت العنادل تغني . حتى ان عاطفة الخشوع والفرح كانت تستحوذ على نفس الانسان ... فيستعيد على الرغم منه ذكرى الايام السعيدة حيث كان جميع الناس يرتعون بالسعادة ، وكل شيء كان سهلاً طبيعياً . دعا فاسيلي تشيتشيكوف الى ان يأخذ مكانه . ثم جلس الثلاثة تحت شجرة الورد .

وأنى فنى في السابعة عشرة من عمره تقريباً يلبس سترة وردية اللون بأوان مليئة بشروب (الكفاس) مع النار المختلفة وكان بعضها كثيفاً غليظاً كالزيت وبعضها يشبه عصير الليمون الفوار . وبعد ان قدم الخادم الشراب أخذ بحرفة وعاء من حيث اتى . وكان آل بلاتونوف ، كصهرهم كونستانجوغلو ، ليس لديهم خدم بل كان البستانيون يتطوعون لخدمتهم بالتناوب . وكان فاسيلي يزعم ان الخدم لا يشكلون طبقة في المجتمع ، وأي شخص كان يمكن ان يقوم بالخدمة وليس من الضروري اتخاذ أشخاص خصوصيين لهذه المهمة ، والروسي عامل صالح ماهر عندما يرتدي بزة العمل ، ولكن عندما نلبسه ثياب خادم الماني فانه يصبح ثقيلاً كسولاً ، ولن يقوم بتغيير ثيابه او يذهب الى الحمام وينام بالبيسة ... اجعل من الروسي المانياً .. حينئذ ترى القمل قد انتشر في جسمه جميعاً . وكان الفلاحون عند آل بلاتونوف لا يلبسون كما يلبس الروس . وكانت كل زخاوف ثياب الفلاحين من الذهب وأكمام قمصانهم الواسعة كانت تشبه الشال التركي .

قال فاسيلي :

- هذا الخمر من انداجنا .. وله صيت ذائع في المنطقة جميعها .. ملائيشيتشيكوف

منها قدحاً وذاقها.. ذكره هذا الشراب بشراب آخر كان قد ذاقه في بولونيا.
وكان يفور كالشامانيا ويجز برائحته الانف وجزاً لذيدة .
- انه شراب لانظير له .

ثم أخذ كأساً آخر كاتب ألد من الاولى..

- ملك جميع المشروبات .. وانني استطيع ان اقول انني شربت عند
صهر ك قسطنطين فيودوروفتش احسن (راتافيا) وهأنذا أشرب الآن عندك
حسن (كفاس)

فقال فاسيلي :

- الراتافيا لا تتغير لان اختي هي التي تصنعها لكن قل لي الى اي منطقة ستذهب؟

فأجاب تشتشكيوف وهو يتأرجح على مقعده ويداعب ركبتيه .

- انني لا أذهب من أجل عملي بقدر ما أذهب من أجل حاجات الجنرال
بيتر يتشف فقد توسل الي أن أزور أصدقاءه ... وان أصدقاءه هم اصدقائي ...
وانني أسافر أيضاً بدافع لذتي والسفر حسن من وجهة النظر الصحية عندما
يكون الانسان مصاباً (بتصلب الشرايين) ومن ناحية المعرفة ... معرفة الرجال
والعالم ... فان السفر كتاب حي او علم ثان .

أصبح فاسيلي حالماً : « عندما يتكلم ... فانه ينصت الى كلماته ... ولكن
في كلماته شيئاً من الحقيقة » وظل مدة قصيرة ساكناً ثم توجه بالكلام الى
بلاتون وقال :

- « انني أظن أن هذه الرحلة يمكن ان تفيدك ... فان ضجرك له اصل
اخلاقي ... فأنت تنام لا لأنك تعب أو منهك ولكن لأنه تنقصك ...
الاحساسات ... الانطباعات . اما انا فعلى العكس ، اريد ان اكون غير مبالي
بالاشياء ، ولا أريد ان اهتم بكل ما يجري .

فأجاب بلاتونوف :

— ان الانسان حر في ان يتم بالاشياء او ان لا يتم بها . (١)
انك تفقش عن المواضيع المزعجة وتحلق لنفسك المتاعب .
فصاح فاسيلي :

— انني لست بحاجة لان اخلقها ... فهي تأتي من نفسها ... هل سمعت عن
الدور القذر الذي لعبه معنا لينتقم ؟ لقد استولى على قطعة الارض التي اعتاد
ان يلعب بها فلاحونا ... صحيح ان الارض لا قيمة لها ... ولكن لن اتحلى
عنها باي ثمن ففي كل فصول الربيع يقيم بها الفلاحون اعيادهم ، وان الذكريات
القديمة جداً للقرية مرتبطة بهذه الحقول ولي انا ... وان العادات اشياء مقدسة
وانا على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيلها .

— انه يجمل هذه الاعياد ... لذا استولى على الارض ... فقد قدم حديثاً
من بطرسبرج ... لذا يجب توضيح القضية له .

— انه يعرف ... وهو على اطلاع ... ولقد ارسلت اليه رجالي
فرد عليهم بخشونة ..

— كان يجب ان تذهب اليه بنفسك .

— لا ... فهو يمثل دور سيد كبير لن اذهب اليه قط ... اذهب اليه انت
اذا اردت .

— نعم سأذهب ... ولكن ... انا لا افهم في الاعمال ، وقد اخذ ع
و اغش .

فقال تشتشيكوف :

— هل تريد ان اذهب اليه انا ؟ اطلعني على القضية . نظر اليه فاسيلي وقال
لنفسه : « انه يريد ازعاج نفسه ! » وتابع بطلنا تشتشيكوف :

— اشرح لي نفسية الرجل فقط وما هي القضية ؟

— انني لأخجل ان اكلفك بمثل هذه المهمة ... فهو رجل حقير ... نبيل
صغير من منطقتنا ... خدم في بطرسبرج ... وتزوج فيها فتاة غنية وجعل

(١) وجدت قبل هذه العبارة صفحات مفقودة من المssودة .

من نفسه سيداً كبيراً ... وجاء هنا ليكون حارساً على القانون ...
ولكننا لسنا بالحقى ... فالزي ليس مرسوماً قيصرياً وبطرسبرج
ليست كنيسة لنا .

فقال تشتشيكوف :

- انت محق ولكن على اي شيء اننا مختلفان ؟

- انه بحاجة الى الارض ... ولو انه تصرف على غير الطريقة التي تصرف بها
لاتفقت معه ... اما الآن

- اني ارى انه يجب الاتفاق ... ولقد كلفت مرة مهمة من هذا النوع ...

ولم يأسف احد على ذلك حتى الجنرال بيتريتشيف .

- ولكنني خجل من ان اطلب اليك ذلك فعلاً .

٤

الفصل؟؟؟^(١)

لكل شيء على ظهر البسيطة قانونه الخاص . والاصل في كل شيء كما يقول المثل ، الاتجاه والانسجام !
ومن حقيبة الى اخرى ، ومن صندوق الى صندوق ، وبأعجوبة خارقة ، لم جدت اشياء كثيرة في محفظة تشيشيكوف ، ولكنها لا تخصه . ان تشيشيكوف ويسرق شيئاً قط . . ولكنه عرف كيف يستفيد من الظروف . ومن منا لا يأخذ من غابات التاج ، ومن اقتصاديات البلاد ، ومن ثروة ابنائها ، ما ينفعه على بمثلة ؟ ومن منا لا يأخذ اموال الفلاحين ليشتري بها عربة فاخرة ورياشاً فخماً ؟ ان الحياة مليئة بالمغريات المتنوعة ، من مطاعم غالية الى حفلات راقصة ، الى نزعات ورقصات غجرية . وكل مقاومة تكاد تكون مستحيلة عندما يقوم الجميع بنفس العمل او عندما يتطلب لون العصر ذلك !

كان على تشيشيكوف ان يذهب منذ زمن طويل ، ولكن الطرقات كانت سيئة فلم تسعفه . وقام ، في تلك الاثناء ، معرض جديد في المدينة ، وكان هذه المرة سوقاً شريفة . ولقعد كان المعرض في السابق يقوم على الحيوانات والمواد

(١) وهنا ايضاً فقد قسم كبير من المسودة الاصلية ، ولذلك اصبح رقم الفصل

غير معروف.

الحام وجميع الحاجيات التي يشتريها الفلاحون والمحترفون . اما الآن فان الباعة المتجولين والتجار سيبيعون منتجات مستوردة من معرض نيجني نوفغورود الكبير . وقد جاء بهذه المناسبة ، الى المدينة ، فرنسيون متوردو الحدود وفرنسيات يلبسن قبعات على أحدث طراز من نوع الجراة المصرية كما كان كونستانجوغلو يدعوها . وبقي الملاكون في ريفهم بسبب رداءة المواسم فامتلاء المعرض بالموظفين وزوجاتهم وكانوا كلهم متلفهين لاستشعار أحاسيس جديدة مبهولة . وافتتح فرنسي مطعماً في المحطة يمكن تناول الطعام فيه بأسعار رخيصة وكان أكثر زبائنه يتناولون وجباتهم بالدين ، أصبح هذا المطعم تسليية جديد للناس ، فالجميع يريدون التنافس بخيولهم الاصلية المطهمة وعرباتهم الفاخرة وسائقيها .
{ غم من رداءة الجو وكثرة الوحول ، فقد اخذت العربات الجميلة تقطع شوارع المدينة ذهاباً واياباً . ولم يكن بمقدور أحد ان يعرف من اين جاءت كل هذه العربات التي تنافس في فخامتها عربات بطرسبرج . وكان التجار يحبون المسافرين ويستوفقونهم . ولم يظهر احد من الروسيين اصحاب اللحي الطويلة وقبعات الفرو الا النذر اليسير . لقد اتبع الجميع الازياء الاوروبية ، فانت لا ترى الا الذقون الحليقة والاسنان الملمعة . واما الغلمان فقد كانوا يضحكون :
- هيا ايها السادة ، تفضلوا بالدخول !

وسأل تششيكوف :

- ماذا عندكم من الاقمشة ؟ اريد قماشاً احمر اللون .

- اني اؤكد لك بان الاقمشة التي عندنا لا يوجد مثيل لها الا في

ارقي العواصم .

- اريد .. اريد قماشاً زيتياً او اخضر صافياً .

- هيه .. ايها الصغير .. اعطه رقم ٣٤ .. هيا ناوانيه .. انظر ياسيدي الى

هذا القماش العظيم .

ووضع التاجر قطعة القماش تحت انف تششيكوف . فقال هذا الاخير :

- حسناً .. ولكنني لا ارجب بهذا النوع . لقد كنت سابقاً موظفاً في الجمارك .. اريد احسن ما عندك من الاصناف ، لا اريد اخضر بل خمرى !
- فهمت ، انت تريد لوناً حديثاً .. عندي قطعة لانلام غيرك اطلاقاً ! وانا انذكرك منذ الآن بأنها مرتفعة الثمن ولكن صنفها من اجود الاصناف الممتازة ! وفردت القطعة ، ثم عرضت على الضوء ، وخرج التاجر من خلف طاولته ، واخذ يحس القطعة وهو يغمض عيناً ويفتح اخرى ، ثم هتف : « ان لونها فريد في بابه حقاً ! »

وأعجب تشتشيكوف بالقماش وبلونه ، فأخذ يساوم البائع بالرغم من ان أسعار السلع ثابتة محدودة ، ثم ، وبسرعة ، وضعت رزمة داخل العربة .
- اريد جوخاً اسود اللون غامقاً !

وسمع تشتشيكوف صوتاً فقال في نفسه : « ليذهب به الشيطان ! لقد عرف في هذا الصوت صوت خلوبونيف ، فأدار وجهه لانه لا يرغب ان يتعرف عليه صاحب الصوت ، والا لا خطر على ان يقدم له ايضاحات عن ارث عمته المليونية . (١)
ولكن خاب أمله ، ذلك ان خلوبونيف رآه فهتف به :

- اوه أهذا انت يا بافل ايغانوفتش .. لماذا تدبر ظهرك هكذا كأنك تتحاشاني عمداً ؟ لقد فتشت عنك في كل مكان فلم استطع الى ايجادك سبيلا ، وانت تعرف شدة احتياجي الى مقابلتك لان اعمالنا خطيرة تقتضي ان نتحدث عنها !

فأجاب تشتشيكوف وهو يضغط على يدي خلوبونيف :
- يا صديقي العزيز .. يا صديقي العزيز .. لقد كنت أود ان أراك منذ زمن بعيد !

ثم فكر : « لنذهب به الابالسة ! » وفي نفس اللحظة شاهد موزاروف فصاح به :
- آه ! بالله ! أهذا أنت يا أفناسي فاسيليقتش .. كيف انت ؟

(١) يظهر ان الامر يتعلق بعمالة مشبوهة قام بها تشتشيكوف .

فأجاب موزاروف :

- بخير .. وانت ؟

ثم رفع قبعته بالتحية فرد عليها التاجر وخلوبونيف .

- اني أعاني ألماً فظيماً في كليتي وقد فقدت النوم ! ويظهر ان آلام بافل

ايفانوفتش لاتهم موزاروف الذي التفت الى خلوبونيف قائلاً :

- سيمون سيمونوفتش .. لقد شاهدتك تدخل المتجر فتبعتك .. عندي

أشياء أريد ان أحدثك عنها .. أتستطيع الاتيان معي ؟

- بكل تأكيد .. بكل تأكيد !

وخرج خلوبونيف برفقة موزاروف .. وتساءل بافل ايفانوفتش في نفسه :

- ترى ، عن أي شيء سيتكلمان ؟

أدخل موزاروف صديقه خلوبونيف الى غرفته الخاصة وسأله :

- قل لي كيف أعمالك .. وهل تحسنت ؟ .. لقد ورثت شيئاً عن عمك !

- كيف أحدثك يا عزيزي أفناسي فاسيليفتش .. لست ادري عما اذا كانت

احوالي المالية قد تحسنت بالفعل ، فاني لم ارث اكثر من خمسين عبداً وثلاثين

الف روبل . وكان علي ان أسدد ديوني ، فلم يبق لي شيء ، ومن جهة أخرى

يجب ان اعترف لك بأني واثق .. او بالأحرى ، بأني اشتبه بقصة الوصية كثيراً

لقد حدث تلاعب .. سأحدثك وستدهش .. ان تستشيكوف هذا ..

- دعنا من تستشيكوف ياسيمون سيمونوفتش ، ولنتحدث عنك .. قل

لي ما هو المبلغ الذي تحتاج اليه لتتبرأ من المال نهائياً ؟

فأجاب خلوبونيف :

- لقد أصبحت حياتي قاسية جداً وكي اتخلص من ديوني كلها وأعيش حياة

متواضعة ، احتاج الى مائة الف روبل . او اكثر .. وهذا مستحيل !

- افرض انك حصلت على المبلغ فماذا تفعل به ؟

- سأستأجر شقة صغيرة واهتم بتربية ابنائي .. ولا فائدة من التفكير بأمر

لقد انتهت حياتي ، إني انسان ضائع !

- سنبقى حياتك مليئة بالكسل .. والكسل اصل جميع المعربات التي لا يعرفها الرجل العامل .

- مستحيل .. لم اعد اساوي شيئاً .. وحياتي كلها ألم .

- ولكن كيف يمكن ألا تشتغل ؟ .. كيف تطيق ان تحيا بلا مهنة ولا عمل ؛ دونك مخلوقات الله .. انظر اليها ! انه لكل شيء عمله وفائدته ، والحجارة نفسها ذات فائدة فكيف يمكن للانسان ان يعيش دون هدف او غاية وهو اذكى المخلوقات ؟

- واكفي لن اكون عاطلاً عن العمل تماماً فتربية ابنائي ..

- كلا ياسيمون سيمونوفتش ، ان هذه المهمة اشق مهمة في العالم ! وليستطيع الرجل تربية أطفاله يجب عليه ان يكون قد تربى هو نفسه ، ان التربية مستحيلة الا بالمثل الصالح ، وحياتك ليست مثلاً للصالح ! اجل ! ستعلم ابنائك اللعب بالورق في اوقات فراغهم . ياسيمون سيمونوفتش لتعهد الي بأبنائك ، فأنت بلا ريب مفسدهم اذا تكفلت بتربيتهم ! فكر في امرك جيداً ، لقد هدم الكسل حياتك كلها وعليك ان تتخلص منه . على الرجل الذي يحيا على الارض ان تكون له مهمة معينة وواجب واضح يقوم بتأديته ! .. ان العامل البسيط الذي يشتغل بالمياومة ذو فائدة عظيمة رغم خآلته ، انه يأكل بكوبيك واحد ، ولكن هذا الكوبيك يرجه من عمله وجهده فيشعر بأهمية العمل والمثابرة .

- اقسم لك يا افناسي فاسيليفتش اني حاولت السيطرة على هذا الكسل ، ولكن ما العمل ؟ لقد اصبحت عجوزاً مقعداً .. فكيف احصل ، مثلاً ، على وظيفة ؟ اني في الخامسة والاربعين من عمري ، افتريد ان يكون زملائي من الشبان الصغار ؟ وعدا ذلك فانا لا استطيع ان اقبل من احد رشوة او (اكرامية) ، وهكذا أؤدي نفسي واثقل على زملائي .. لا يا افناسي فاسيليفتش لقد فكرت وحاولت ولن استطيع البقاء في اي المكان الا في المستشفى .

— وفي المستشفى لا يقبلون غير المال ، واما غيرهم فيقولون لهم كما قالت الزميلة للصرار : « اذهب وغن الآن ! » ان العمل صعب في المشافي ، فهناك لا يلعبون اللويست وانت انما تخدع نفسك وتخدعني .

وحقق موزاروف في خلوبونيف طويلاً ، ولكن هذا لم يجبهه ، فاشفق موزاروف عليه من جديد وقال له :

— اصغ الي يا سيمون سيمونوفتش .. انك تصلي وتذهب الى الكنيسة دون انقطاع ، بالرغم من ان الاستيقاظ باكراً يزعجك . اني أعلم هذا ، ولكنك مع ذلك تذهب الى الكنيسة ولو لم تجد فيها احداً من الناس .

— هذا امر آخر يا افناسي فاسيليقتش .. وانا افعل ذلك ليس من اجل الانسان ، بل من اجل خالقنا . وانا على اعتقاد بانه رؤوف بي مهما كنت منحطاً ومضيقاً ، ويستطيع العفو عني واستقبالي بتوحياب في حين يطأني جميع الناس بنعالهم .. وفي حين يخدعني اخلص الاصدقاء ويخونونني ويبيعونني بالجنس الاثمان ملتسمين أشرف الاعذار !

وارتسم في وجه خلوبونيف ظل المرارة ، فقال موزاروف :

— إذن فاعمل لأرحم الراحين ، ان العمل من اجله لا يقل عن الصلاة قيمة . اجث عن اي عمل وقم به في سبيله لا في سبيل الناس .. ضع قليلاً من الاسمنت فوق حجر واصنع به ما تشاء ، فان عملك إذ ذاك يكون مفيداً لانه يدع لك الوقت الكافي لتلعب بالورق وتقيم المآدب والحفلات .. اتعرف ايفان بوتابتش ؟ — اني اعرفه جيداً وأقدره وأجله .

— هو تاجر ممتاز ، وقد جمع ثروة قدرها ربع مليون روبل . ولكنه ما إن رأى هذه الثروة بين يديه حتى بدأ يمل كل شيء ، فعهدها بانه الى مرب فرنسي وزوج ابنته من جنرال ، ولم يعد يفكر إلا في قضاء وقته داخل الحانات مع الاصدقاء . وماذا كانت النتيجة ؟ الحراب بالطبع ! وها هو اليوم موظف عندي ، لقد بدأ حياته من جديد ، وها ذي اعماله تسير سيراً حسناً . وهو —

بإستطاعته ان يربح نصف مليون روبل مرة اخرى ولكنه يقول : « لا .. لا
انا موظف وسأبقى كذلك الى أن اموت . ان صحتي جيدة الآن بينما كنت
اعاني سابقاً الكثير من الآلام والامراض ! » وهو ايضاً يصلي كأصدق المصلين
ويحسن الى جميع الفقراء .

ظهرت على خلويونيف امارات التفكير العميق ، فأخذ موزاروف
يديه وقال :

— لو تعلم ياسيمون سيمونوفتش كم أرثي لك ! استمع الي .. انا أعرف
راهباً في الدير يستطيع ان يدي اليك بنصائح ثينة .. لقد حدثه عن صديق لي
يعاني الكثير من المتاعب ، فأصغى الي طويلاً ثم قال : « الله أولاً ثم الانسان ..
نريد بناء كنيسة ولكن المال ينقصنا ، وإذن علينا ان نجتمع المال للكنيسة ! »
ثم اغلق في وجهي الباب وتركني اتساءل عن معنى ما قال .. ومن الواضح ان
الراهب لا يريد ان يحضني النصح بشأنك فذهبت الى الارشندريت وما إلت
بدأت الحديث معه حتى سألتني عن شخص يجمع التبرعات للكنيسة سواء كان
ببلاً ام تاجراً ، فان هذا العمل يكن ان يعتبر سبيلاً لخلاص النفس . فقلت في
فني : « يا إلهي هذا شي مدهش لسيمون سيمونوفتش ، فسيذهب الى الملاكين
ومعه دفتر التبرعات ويطوف بالفلاحين واهل المدن ، فيعرف حياة الناس
وحاجاتهم ، كما انه يحول في بعض المقاطعات ويتعرف جيداً على البلاد .. نحن
بحاجة الى اشخاص يعرفون حياة الناس الداخلية الصميمية . وقد قال لي نائب
الحاكم بانه في أمس الحاجة الى موظف تعلم مهنته من الحياة نفسها لا من خلال
الاوراق .. ان الاوراق تهدم الانسان !

فنهتف خلويونيف مذهولاً :

— انت واهم يا افناسي فاسيليفتش .. لا يستطيع ان أصدق انك تقول مثل
هذا الكلام .. ان هذه المهمة تقتضي رجلاً نشيطاً يستطيع ان يقوم بها .. ثم
كيف أترك زوجتي واولادي وليس لديهم ما يتبلغون به ؟

- لا تهتم بهذا الامر .. إني أتعهدهم بنفسي وسيكون للأولاد اساتذة يعلمونهم .. وعوضاً عن ان تستجدي خبزك .. ثم بالاستجداء من اجل الكنيسة! سأعطيك عربة بسيطة ، ولا تخش الا كواخ فهي صحية للغاية ، كما سأعطيك مالا لتساعد من هم في حاجة الى المساعدة ، فتقوم بذلك بعمل الحسنى .. تعلم على ألا تخطئ ، وان تعطى من يستاهل المساعدة فعلاً .. وهكذا ستعرف الناس جيداً وسيحدثونك بحرية وصراحة اذا علموا انك تقوم بجمع التبرعات لأجل بناء الكنيسة .

- أخشى أن تكون هذه المهمة فوق ما تستطيع !

- فهاتف موزاروف :

- وما العمل الذي يناسب القوى البشرية ... ان كل شيء فوق الطاقة الانسانية ، ولا يستطيع المرء شيئاً دون مساعـدة السماء الا ان الصلاة تمنح القوة اللازمة . ان البحار الذي هتف : « يا آلهي كن معي ! » فانه يصل شاطيء الامن حتماً ... ليس عليك ان تفكر طويلاً في هذا الموضوع فهو امر قدره الله سبحانه ، وهذا كل شيء ! .

- ان العربة معدة ، ويجب ان تمر في طريقك على الارشندريت ليعطيك دفتر التبرعات ويباركك قبل السفر .

فقال خلوبونيف :

- اني اطيعك واقبل ما تأمر به كما لو كان ارادة آلهية !

ثم اضاف :

- « رب ... باركني ... » وتسربت الشجاعة والقوة الى قلبه ، وشعت نفسه بأمل الخلاص من الحالة المؤسبة التي يعانها .

ولكن لنترك الآن خلوبونيف ولنعد الى تشتشيكوف !

في هذه الاثناء كانت محاكم المقاطعة تتلقى الاحتجاج تلو الاحتجاج على

على وصية عمه خلويونيف . لقد تركت هذه العمه اقارب لم يعرفهم احد ،
وكانقضاى الطيور المفتوسة على الفريسة البائسة ، انقض عدد كبير جداً على
ذلك الارث وادعى كل الحق بنصيب من تركة العجوز المليونيرة . وكان
الجميع يتهمون تشتشيكوف بتزوير الوصية وسرقة كثير من الحوائج وتهريب
مبالغ كبيرة من ثروة المتوفاة . وظهرت من جديد قصة النفوس الميتة كما برز
ماضيه ، عند ما كان في خدمة الجمارك ، حياً ، ولكن كيف يمكن اكتشاف
وقائع نسبها الجميع منذ زمن ليس بالتصير ، ثم كيف تعرف وقائع جرت
ولكن لا يعلم بها احد ؟ .

لذلك كان بافل ايفانوفتش مقتنعاً بعدم معرفة احد لأعماله . ولم يكن يدري
شيئاً عن الاتهامات التي أحاطها القضاء بستار من الكتمان . ولكن جاءته كلمة
صغيرة من أحد المحامين نهته الى ان الانفجار يوشك ان يقع قريباً . لقد كتب
اليه ذلك المحامي يقول :

« اني أسرع باعلامك انه ستحصل فضيحة . . . وأطلب اليك ألا تقلق ،
فالهم هو ان تحافظ على رباطة جأشك ونحن ندبر لك كل شيء ! » وأفرخ روع
تشتشيكوف بعد هذه الرسالة وقال :

« ان هذا الانسان ملاكي الحارس ! » ووصل في تلك اللحظة بالذات
الحياط . وكان بافل ايفانوفتش يريد ان يقيس بزته الجديدة . لبس اول شيء
السروال وقد ناسبه كثيراً فما ان شدت العقدة الخلفية وبرز بطن تشتشيكوف
كالطبل حتى هتف : « انك لجميل ! » وكان المعطف أحسن حالاً من السروال
الا ان بافل ايفانوفتش لاحظ انه ضيق قليلاً تحت الابطال الأيمن ، ولكن
الحياط ابتسم وقال :

« لقد قدرت لكل شيء بحسابه الدقيق ، اطمئن ! فالعمل ممتاز وأستطيع
التأكيد لك بأن خياطي بطرسبرج وحدهم فقط يستطيعون ان يصنعوا
مثل هذا ! » وكان هذا الحياط نفسه قد جاء من العاصمة وافتتح دكاناً كتب

على بابها : « خياط من لندن وباريس » .

ودفع تششيكوف حسابه كله ، وما ان بقي وحده حتى وقف امام المرأة فبداه خداه اللذان كثيراً ماقتناه اشد جمالاً من ذي قبل ، وكذلك بدت له ذقنه اكثر اغراء ، وكانت ياقة قميصه الابيض وربطة العنق الزرقاء وطيات قميصه تشكل مجموعة منسجمة يتوجها المعطف ، واستدار تششيكوف نحو اليمين .. جميل .. ثم استدار نحو اليسار .. عظيم .. ان له لقامة رجل بلاط يتصرف في كل شيء على الطريقة الفرنسية وحتى حين يحك جلده ؛ بل هو حين يغضب لا يستعمل الالفاظ الروسية الغليظة بل يغضب باللغة الفرنسية ! واهنى تششيكوف رأسه الى اليسار قليلاً متخذاً وضع رجل يتوجه الى سيدة من الطبقة الممتازة ، فرأى نفسه جميلاً يستحق التصوير .. وكان مهوراً من نفسه الى حد جعله يصطدم بالمنضدة التي اهتزت بعنف فسقطت زجاجة من الكولونيا على الارض . ولكن بافل ايذاً نوفتش لم يرتبك بل اكتفى بأن نعت الزجاجة بالحق ثم تساءل : « ترى اين اذهب » وفجأة فتح الباب ..

— عليك ان تتوجه الى الحاكم العام على الفور

ولبت تششيكوف مذهولاً مصعوقاً ؛ كان ينتصب أمامه مارد بشارين طويلين يلبس عمرة ويتدلى من جنبه سيف طويل . وخيل الى تششيكوف انه يرى بندقية واسياء اخرى لا يعرفها غير الشيطان وحده .. واخذ الدركي الذي امامه بتعدد ويتضاعف في نظره حتى اصبح فرقة كاملة .. حاول الاحتجاج والتمنع ولكن الرجل هتف به .

— ان الامر يقضي ان تذهب معنا على الفور !

وشاهد بافل ايذاً نوفتش دركياً آخر في الممشى ونظر من النافذة فرأى عربة .. لافائدة له من المقاومة ، فمشى كما هو بيزته الحديثة يتبعه الدركي ... وما ان وصل الى القصر حتى قال له الموظف المناوب دون ان يدع له فرصة للراحة :
— اذهب الى الامير انه ينتظرك !

ولاحظ صديقنا رواقاً مليئاً بالسعاة ثم قاعة واسعة اجتازها وهو يقول في نفسه : « الآن سيلقى بي في السجن .. ثم انفى الى سيبريا دون محاكمة ! » واخذ قلبه يدق بشدة دقائق اعنف من دقائق العاشق الغيور . واخيراً فتح الباب . وشاهد بافل ايفانوفتش حقائب وخزائن وكتباً كما شاهد الامير وراء كل ذلك وكان يبدو تجسداً للغضب والحق . وفكر في نفسه : « سيقتلني الذئب ويأكلني وكأني حمل ! »

صاح الامير :

— لقد اشقت عليك وسمحت لك بالبقاء هنا في حين يجب ان تكون في السجن منذ زمن طويل . ولكنك تجردت من الشرف مجدداً بعملية احتيال دنيئة لم يقيم بها انسان قط . كانت شفتا الحاكم العام ترتعشان . فقال تشتشيكوف وركبته لا تكادان تقويان على حمله :

— ولكن اي احتيال يا صاحب السعادة ؟

فهنف الامير وهو يقترب من تشتشيكوف ويحدق فيه :

— المرأة .. المرأة التي كتبت وصيتها ووقعتها تحت سمعك وبصرك .. لقد اوقفت واعترفت بكل شيء وسنواجهك بها . واختلط كل شيء في عيني تشتشيكوف فقال :

— يا صاحب السعادة .. سأقول لك كل شيء .. اني مجرم .. مجرم جداً .. ولكنني لست على القدر من الاجرام الذي يتهمني به اعدائي .

— كذب ونفاق ... لا يستطيع احد ان يلفق حولك شيئاً لان في نفسك من الخفارة والدناءة ما لا يوجد الا عند أخطا المجرمين ... ان كل كوبيك تملكه مسروق ... هناك سرقات وجرائم يعاقب القانون عليها بالسجن والنفي الى سيبريا ... كفى ... ستلقى الآن في السجن ، وهناك تنتظر مصيرك

مع اللصوص والمجرمين ، وهذا اقل بما تستحق لانك أحط منهم جميعاً انهم يرتدون ملابس الشعب ... اما انت ...

فصاح تششيكوف :

— الرحمة يا صاحب السعادة ... انك رب عائلة • اسفق على

أمي العجوز •

فصاح الامير :

— انك كاذب • لقد حدثني طويلاً عن زوجتك وأولادك الذين لا وجود لهم

الا في رأسك ، وها انت الآن تحدثني عن امك •

— بلى يا صاحب السعادة ... اني وغد مجرم ... لقد كذبت فلا اولاد لي

ولا امرة • ولكن يشهد الله اني طالما كنت اريد ان اتزوج ، واقوم بواجبي

كرجل وكمواطن لا كسب احترام الناس واحترام السلطات ، ولكن الظروف

عاكستني يا صاحب السعادة وكان علي ان اربح خبزي بدمي ، وكانت تحيط بي

المغريات في كل خطوة ، وكذلك الاعداء في كل سبيل • • ان حياتي اشبه

بزوبعة او زورق تتقاذفه الامواج وتبعث به الرياح ... اني رجل

يا صاحب السعادة ! •

وانفجر تششيكوف باكياً ، وجثا على قدميه أمام الحاكم العام ناسياً بزيه

الجديدة الفاخرة وصدارته الخملية وربطة عنقه الزرقاء وشعره المعطر بالكلونيا

ولامس الارض بحبيبه ، فصاح الحاكم :

— الى الخلف ... نادوا الجنود وقودوه الى السجن •

— يا صاحب السعادة •

وأمسك تششيكوف بمجذاه الحاكم العام فارتعش هذا غضبا وصاح :

— قلت لك الى الخلف ! • •

وحاول ان يخلص رجله من يدي بافل ايفانوفتش •

وصاح تشتشيكوف وهم يجرونه على الارض ، وقد تعفرت
بزته بالاقدار :

- لن اذهب يا صاحب السعادة قبل حصولي على العفو !
- قلت لك اخرج !

كان الامير يشعر بالاشمئزاز الذي يشعر به الانسان أمام حشرة يأنف
من سحقها . فسحب ساقه من يدي تشتشيكوف بعنف ، فاصيب وجهه الاخير
بركاه محتدمة ، ولكن بافل ايفانوفتش لم يرد الاستسلام ، فجاء دركيان قويان
وجراه بالقوة خلال غرف القصر . وكان تشتشيكوف صاحب اللون لا يشعر
بشيء فبدأ كأنه رجل يرى الموت الاسود الذي يهز فينا اعماقنا ..

وعند الباب المؤدي الى الدرج شاهد تشتشيكوف موزاروف فشح في عينه
بارق أمل .. عند ذلك افلت من بين يدي الدركيين وارتقى على اقدام
العجوز المذهول :

- ماذا اصابك يا بتيوشكا بافل ايفانوفتش ؟

- انقذني .. انهم يقودونني الى السجن .. الى الموت .

ولكن الدركيين جراه بقسوة دون ان يسمحا له بمتابعة الحديث ووضع
بطلنا في زنزانة قدرة رطبة ملئت باحذية الفلاحين البالية ، وكان فيها اطلال
طاولة مخلعة وخيال كرسيين ونافذة صغيرة ومدخة تملأ الزنزانة بالدخان . ولم
يستطع تشتشيكوف في عجلته ان يجلب معه الاشياء الضرورية التي تلزمه ولا
الصندوق الذي يحتوي على نقوده . وليس من ريب في ان اوراقه وعقود بيع
النفوس الميتة قد وقعت في ايدي الحكومة . وارتقى بافل ايفانوفتش على الارض
وقد اعتراه قنوط هائل ، وكان واضحاً ان الموت سيدهم اذا استمر على هذا
الوضع يومين متواليين . ولكن هناك روحاً حارسه تسهر عليه ، فلم تنقض
ساعة حتى فتح باب الزنزانة ودخل موزاروف .

ولو ان حاجاً احرقه الظمأ وفقد القوى ، ثم شعر بالماء البارد العذب يسيل في

فه ، لما شعر بالفرح أو الغبطة التي شعر بها تستشيكوف المسكين .
فصاح وهو يقفز :

— يا مخلصي ليباركك الله على زيارتك لشقي بائس .

ثم أمسك بيد العجوز وقبلها وضغط بها على صدره .. وانفجر باكياً . انظر
اليه موزاروف متألماً وقال :

— آه يا بافل اي فانوفتش .. يا بافل اي فانوفتش ... ماذا فعلت ؟

— لم استطع المقاومة ، ولم أعرف كيف اقف عند حد .. لقد اغرائني
الشیطان الملعون وافقدني عقلي .. لقد اخطأت ولكن كيف يستطيعون ان
يتصرفوا هكذا ؟ كيف يوقفون نبیلاً دون تحقيق أو محاكمة ويلقون به في
السجن ؟ بلى نبیل يا افناسي سيليفتش .. كيف لا يعطونني المجال للعودة الى منزلي
وجاب لوازمي .. لقد تركت كل شيء مفتوحاً بما فيه صندوقي الذي يحوي جميع
ثروتي التي جمعتها خلال سنوات قاسية حرمت نفسي فيها من كل شيء . صندوقي
يا افناسي فاسيليفتش ، انهم سيسرقونني .. آه يا رب .

ولم يعد ان يسيطر على اعصابه ، فانفجر باكياً من جديد .. ولكن بصوت
عال جداً ، وانتزع ربطة عنقه وأمسك بطرف معطفه الفخم ومزق قطعة من
القماش الأبيض .

— كيف اعمتك الثروة يا بافل اي فانوفتش ومنعتك من فهم الحالة الرهيبة

التي انت فيها ؟

فصاح بافل اي فانوفتش في يأس :

— انقذني يا مخلصي .. ان الامير يحبك ولا يرفض لك طلباً !

— لا يا بافل اي فانوفتش .. لا استطيع انقاذك ، حتى ولو اردت ذلك !

فأنت لست في قبضة رجل فرد بل تحت قبضة القانون !

— ان الشيطان اللعين قد افقدني عقلي !

و ضرب تستشيكوف رأسه بالجدار ثم ضرب الطاولة بقبضة يده فأدماها ،

ولكن يبدو انه لم يشعر باي ألم .

- هدى . روعك يا بافل ايقانوفتش ، وفكر ان تتصالح مع ربك لا مع الناس .. فكر في روحك التعمية !

- ما هذا الحظ يا افناسي فاسيليفتش .. لم يصادف انسان قط حظاً سيئاً كالخط الذي لازمني .. تصور الصبر والجهد الذي ابديته حتى جمعت الكوبيك فوق الكوبيك بعوق الجبين ، فاني لم اسرق خزينة الدولة كما فعل الآخرون ولماذا كنت ارغب بالمال ؟ لأحيا بطمأنينة بقية ايام الحياة ! لأتركه لزوجتي واولادي .. ولهذا السبب وحده ضللت سواء السبيل . بلى اني اعترف بذلك ولكنني ما فعلت ذلك الا عندما ايقنت ان الطريق السواء لا يوصلني الى هدي ، فانحرفت ، ولكنني لم آخذ إلا من الاغنياء .. وماذا نقول عن هؤلاء الاشقياء الذين يسرقون في المحاكم ألوف الروبلات من الخزينة ويأخذون آخر كوبيك من الذين لا يملكون شيئاً ؟ .. ما هذا الحظ السيء ؟ في كل مرة أكاد احصد فيها ثمرة جهودي تهب في وجهي العاصفة فأفقد كل شيء . لقد كنت أملك ثلاثمائة ألف روبل وبيتاً بثلاثة طوابق وقرية اشتريتها مرتين .. آه يا افناسي فاسيليفتش لماذا كل هذا الحظ السيء ؟ اني اجسد نفسي دوماً في مهب العواصف .. فأين ، أين العدالة الالهية ؟ أليس ثمة مكافأة للصبر والعمل المستمر . لقد كتب علي أن أعاود البناء ثلاث مرات بعد كل مرة أخسر فيها كل شيء ! لقد بدأت بالكوبيك وفي الوقت الذي يصبح فيه غيري سكيراً خاملاً كنت أناضل وأنالم وأربح كل كوبيك بالجهد والعمل .. لقد جمع الآخرون ثرواتهم بسهولة .. اني وجدت ، كما يقول المثل ، كل كوبيك مسمراً على الارض بمسار ثمة ثلاثة كوبيكات وكان علي أن أظهر إرادة حديدية كي أنتزع المسار وأحصل على ذلك الكوبيك ! ومن جديد أخذ تشتشيكوف يجيش بالبكاء ، ثم تهالك على كرسي ومزق في حالة يأسه وألمه معطفه الفخم وقذفه على الارض ثم أخذ ينتزع شعره ناسياً الجهود التي كان يبذلها لتسميته وتصفيته متمعاً بألمه مؤملاً ان يدفن بذلك آلامه

النفسية . أخذ موزاروف يتأمل فيه طويلاً ! لقد كانت المرة الاولى التي يرى فيها رجلاً سحقته مثل هذه الظروف المؤسسية ، وفقد سيطرته على نفسه ... ولقد كان تشتشيكوف . ذلك الرجل الاجتماعي البشوش ، يزحف أمامه على الارض بمزق الثياب قدراً دامي القبضة لاعناً القوى المعادية للانسان !

— آه يابافل ايڤانوفتش .. يابافل ايڤانوفتش اي رجل كان بمقدورك ان تصبحه لوسخرت كل هذا الصبر والقوة والدأب من اجل الخير .. ومن اجل الهدف الشريف ! يا آلهي كم كنت تستطيع ان تفعل من المبررات .. لو كانت للذين يقومون بالاعمال الخيرة نفس الارادة التي تسخرها لكسب الكوبيكات ، ولو كان هؤلاء يعرفون كيف يضحون بكرامتهم وكبريائهم ، ويقسبون على أنفسهم كما قسوت على نفسك لكسب الكوبيكات .. لو حصل ذلك بالفعل ، اذن لتغيرت الارض بمن عليها .. آه يابافل ايڤانوفتش ، لست متألماً لانك مجرم بحق الناس بقدر ما انا متألماً لاجرامك في حق نفسك .. وفي حق المواهب التي تملكها .. ان لديك من هذه المواهب ما هو كفيلاً يجعلك رجلاً عظيماً ... ولكنك خسرت نفسك وان للنفس أسرارها الغامضة . قابل رجلاً انحرف عن جادة الطريق واقترب اقصى الجرام وفقد وجدانه الاخلاقي ، قابل مثل هذا الرجل المنحط وجرب ان تلومه على ذنوبه ، واتهمه بأنه قضى على مواهبه وصفاته الطيبة .. افعل هذا » اذن لوجدت شيئاً ما في اعماق نفس هذا المسكين الشقي قد تحرك واختلج :

وقال تشتشيكوف المسكين وهو يمسك بيدي موزاروف :

— آه يا أفناسي فاسيليفتش ، لو استطعت ان اعود حراً ، ولو ترد ثروتي الى .. واذن فأنا اقسم لك بأني سأعيش على صورة اخرى .. انقذني ايها المحسن .. رحماك انقذني !

— وماذا بمقدوري ان افعل ؟ هل أناضل ضد القانون . وحتى ، لو أخذت ذلك على عاتقي ، فان القضية بيد رجل عادل لن يتراجع عن حكمه مطلقاً !

— ايها المحسن ! انك تستطيع ان تفعل كل شيء .. ان القانون لا يخيفني فأني
أجد وسائل أدافع بها عن نفسي أمام القانون ، ولكنني ألقيت في السجن ظلماً
وسأ موت كالكلب الحقيير ... وثروتي .. واوراقي ... وصندوقتي ... انقذني
ايها المخلص !

وخم تششيكوف ركبتني العجوز وبللهما بالدموع .
فقال موزاروف وهو يمز رأسه أسفاً :

— آه يا بافل اي فانوفتش .. يا بافل اي فانوفتش .. لقد أعماك المال وخنق
صوت ضميرك ..

— سأفكر في ضميري فيما بعد .. ولكن انقذني الآن !

— ليس في مقدوري يا بافل اي فانوفتش ان أنقذك وسأعمل كل ما أستطيع
ليخففوا من عقابك وليطلقوا سراحك ، ولكن هل أنجح ؟ في الحق لا أدري ،
الا اني سأسعى واذا نجحت فاني أطلب اليك ان تكافئني بالتخلي عن هذه
المناورات من أجل المال .. واني اقول لك اني لو فقدت ثروتي ، وهي اضعاف
ثروتك ، فلن ابكي عليها .. وما اهمية الثروة التي يمكن ان تفقد في كل لحظة
وتبذر ؟ .. هناك ثروة لا يستطيع احد حرمانك منها ! لقد رأيت مايكفيك لتفهم
الحياة ، وقد شئت نفسك ، من تلقاء نفسك ، بمركب تتقاذفه الامواج وتتعتهه
اللاجع ، ولديك من المال مايكفيك لقضاء بقية أيام حياتك . فاذهب الى بقعة
هادئة نائية قرب كنيسة وعش مع أناس بسطاء أنقياء القلوب ، واذا أردت ان
يكون لك اولاد فتزوج من فتاة طيبة ليس لديها ثروة ، ومعتادة على الحياة
البسيطة المتواضعة . انس العالم ومغرباته فانه بدوره ينساك ، والعالم لا يقدر على
منحك السلام إذ ان كل شيء فيه فاسد وقبيح و ...

— أجل .. اني أقسم لك ، .. لقد كنت أريد .. كنت ارجو ان
ابدل حياتي وأن أصبح ملاكاً صغيراً .. بسيطاً متواضعاً ، ولكن الشيطان
اضلني ، لقد اغراني اللعين !

كانت مشاعر غامضة مجهولة تستيقظ في اعماق تششيكوف .. عميقة بعيدة الغور ، خنقتها منذ طفولتها التريبة القاسية الفاسدة والافتقار الى الحب والعطف للذين يحتاج اليها الاطفال ، وحجبها الفقر المدقع والانطباعات الشقية الناعسة الاولى ، والقدر القاسي الذي نفذ اليها وغشاها بظلمه .

وتنهذ تششيكوف ، وتمتم وهو يغطي وجهه بيديه : « انها الحقيقة ، انها الحقيقة » ...

وتابع موزاروف :

— هكذا فان معرفتك بالناس وتجاربك العديدة لم تساعدك على الخروج عن الطريق السيء .. آه يا بافل ايفانوفتش .. لماذا أضعت حياتك ؟ استيقظ .. لم يفت الأوان بعد ، امامك الزمن ..

فتمتم بطلنا بلهجة مزقت قلب موزاروف :

— لا .. لقد فات الأوان .. فات الأوان .. لقد بدأت أفهم ! أشعر الان

~~الآن~~ بأنني لست على الطريق المستقيم .. لقد ضلته وأصبحت بعيداً جداً ، ولن استطيع النكول .. لقد ربيت تربية فاسدة جداً ، كان أبي يلقني دروساً في الاخلاق ويضربني ويرغمني على نسخ الامثال والحكم وفي نفس الوقت كان يسرق أخشاب جيرانه ويجعلني شريكاً له في سرقة .. لقد فسق بيتيما كان هو نفسه وصياً عليها .. ان المثل السيء او الصالح أقوى من الكلام المنمق .. أجل يا افناسي فاسيليفتش ، ارى الآن وأحس بأنني لا أحيا حياة مستقيمة ، ولكني لا أتميز من الخاطئة ، فطبيعتي فاسدة ، وانا لا اعرف حب الخير ولا اشعر برغبة في الحياة الصالحة ، بل اركض وراء الثروة لا وراء الخير .. اني أقول الحق .. فما العمل ؟

فتنهذ العجوز بعمق وقال :

— لديك يا بافل ايفانوفتش قدرة كبيرة على المثابرة .. ولديك إرادة من فولاذ .. ان الادوية مرة المذاق ولكن المريض يتناولها لان الشفاء يستحيل

بدونها .. انت لا تشعر بحب الخير .. أعماله دون حب ، وارغم نفسك على عمله
إرغاماً ، واذا فعلت تكون اكثر فضلاً ، وستكون لديك الشجاعة التي تفوق
شجاعة الرجل الفاضل بالطبع اضعافاً مضاعفة ! افعل ذلك مرات عديدة يدخل
الحب قلبك .. صدقني انه لا شيء يدرك دون جهد . ويقول المثل : « يجب
غزو الناج ولكن الجهد ضروري للوصول اليه .. » يجب إذن ان تناضل
وتهاجم وتنافح .. ولديك قوتك الصميمة يا بافل ايفانوفتش ، تلك القوة التي
لا يملكها الآخرون .. لديك الارادة والعزم ، فلماذا لا تربح هذه الجولة في
صراعك مع نفسك ؟ ان لديك نفسية البطل ، ورجال اليوم ضعاف فاترو العزم .
اثرت هذه الكلمات في نفس تشتشيكوف تأثيراً عميقاً ، وكانت نظراته تعكس
تصميماً او شيئاً يشبه التصميم . وقال بصوت ثابت :

— إذا استطعت ان تنقذني يا افناسي فاسيليفتش ، واذا استطعت ان اغادر
هذا البلد بثروة صغيرة فانا اعاهدك على اني سأبدأ حياة جديدة .. فأشتري قرية
صغيرة واصبح ملاكاً متواضعاً ، واقتصد في مصروفي لا لأثري ولكن لأساعد
أشباهي ، وسأعمل الخير بكل ما أملك من قوى ناسياً انانيتي ، هاجراً مباهج
المدينة وحفلاتها ، واعيش بكل بساطة وتقى !
فهتف العجوز وقد تهلل وجهه بالسعادة :

— فليمدك الله بالقوة لتنفيذ ما صممت عليه .. سأسعى لدى الاميركي يطلق
سراحك ، والله وحده يعلم عما اذا كنت سأنجح في مساعي ام لا ، وعلى اي
حال سيحسنون في معاملتك .. عانقني إذن ودعني اقبلك فكلما نك سرتني ..
وليكن الله معنا ، سأذهب الى الامير لتوي .

وظل تشتشيكوف وحده مع نفسه .

ان البلاطين ، وهو اصلب المعادن ، يابن آخر امره تحت تأثير النار القوية
فيبياض ثم يصبح سائلاً . وهكذا فان اكثر الناس تصلباً يلين ويميع امام لهب
الحزن القوية التي تحرق طبيعته المتعجزة .

وقال تششيكوف في نفسه : « اني انسان عاجز . . . عديم الحس . . .
ولكني سأستعمل كامل قواي كسي أدل الآخرين على الخير . . . اني سيء وشقي
ولكني سأستخدم كل جهودي لأجنب امثالي الشر . . . ما أنا بالمسيحي الصالح
ولكني سأساعد قريبي كسي لا يسقط في التجربة . . . سأشتغل بعرق جبيني في
قريتي وسأكون شريفاً في معاملاتي ، لاجدث التأثير الحسن على من حولي . . .
ولماذا لا أكون عضواً نافعاً ؟ لدي كثير من المعلومات في أمور الزراعة ،
وانا نشيط وحريص ، عاقل ومثابر ولكن يجب أن أتسلح
بالادارة والحزم ! »

هكذا كان يفكر تششيكوف . . . وأضاء وجهه نور عذب ، وبدأ أن
روحه قد بدأت تدرك ان هناك واجباً على الانسان أن يقوم به . . . وانه
بالامكان تأديته في جميع وحتى في العزلة . . . ومهما كانت الشروط والعقبات
والقوضى والاختلال في مجتمعه الذي يعيش فيه . . .

وحلم بافل ايفانوفتش بحياة العمل بعيداً عن ضجيج المدن الكبرى وعن
مغرياتنا الحفقاء التي خلقها الانسان بابتعاده عن قانون الواجب . . . وارتسمت
هذه الحياة في مخيلته بقوة حتى لقد نسي تششيكوف هول الحالة التي يعانيها
وكان مستعداً لأن يشكر العناية الالهية على هذه المحنة القاسية شرط ان يستعيد
حريته ويحصل على قسم من ثروته .

وفتح باب الزنانة ودخل موظف يدعى ساموسفستوف وهو رجل ابيقوري
عريض الكتفين قوي طيب المعشر و « حيدوان لطيف مأكراً » كما يسميه
أصدقائه .

ورجل من نوعه يمكن أن يقوم ايام الحروب بالمعجزات فهو يستطيع ان
يدخل اي مكان مهما كان خطراً او منيعاً ، بل ان يسرق مدفعاً تحت سمع
العدو وبصره .

ولكن عدم وجود ساحة قتال يمكنه العيش كجندي شريف جعل منه

وغداً في الحياة المدنية . والغريب انه ذو مبادي ، اذ هو طيب مع اصدقائه ...
لا يخون احداً منهم ويفي بجميع وعوده ولكنه كان يعتبر رؤساءه كمسكر معاد
تجب مهاجمته وتشويه سمعته والاستفادة من أبسط أخطائه . وما إن أغلق الباب حتى
قال لتشتشيكوف :

— نحن نعلم الحال الذي انت عليه ... وهذا لا يعد شيئاً ... لا تفقد
شجاعتك فسندير كل شيء ، سنعمل من اجلك ومن أجل خدمك ولن نطلب
منك أكثر من ثلاثين ألف روبل فقط دون زيادة كروبيك واحد .
فهتف تشتشيكوف :

— أحقاً ... وهل أخرج بريئاً ؟

— تماماً وستدفع لك تعويضات !

— والثمن ؟

— ثلاثون ألف روبل عن كل شيء ... ويدخل فيهم مساعدو
الحاكم والسكرتير .

— ولكن اسمح لي ... كيف أستطيع ؟ ان حوائجي ... وصندوقي كلها
مصادرة ومختومة ...

— ستحصل عليها كلها بعد ساعة واحدة ... هل اتفقنا ؟

وصافح تشتشيكوف ساموسفيستوف وكان قلبه يخفق بشدة إذ لم يستطع أن
يصدق أن كل هذا ممكن .

— الى اللقاء اذن ... ان صديقنا الذي يشترك معنا في هذا العمل يوصي بالصمت
التام وحضور البديهة .

فقال تشتشيكوف :

— نا ... لقد فهمت ... انه المحامي

واختفى ساموسفيستوف وعندما أصبح تشتشيكوف وحيداً خيل اليه انه
يحلم ، ولكن لم تمر ساعة حتى حملت اليه حوائجه بما فيها الصندوق والاوراق ولم

ينقص منها اي شيء

لقد حرص ساموسفستوف على الذهاب بنفسه الى منزل تشيتشيكوف وأخذ الصندوق واستولى على الاوراق التي يمكن ان يدان بها بافل ايڤا نوفيتش ، ولقها في حزمة ثم طلب من جندي ان يحملها اليه قائلاً له :
« انها حاجات ضرورية للسجين في الليل » .

وهكذا حصل تشيتشيكوف على حوائجه كلها وأصبح لديه لباس دافئ ، يقيه برد السجن ... وشعر بالفرح يغمره ، وعادت تهاجمه الاحلام من جديد ، وبهتت في مخيلته صورة القرى والهدوء والانغزال لتحل محلها صورة المسارح والاعياد والحفلات وضجيج المدن . .

وفي تلك الاثناء كانت قضية تشيتشيكوف تأخذ دوراً كبيراً في المحاكم وجميع المكاتب الادارية . اذ اخذت الاقلام تحدث صريراً عن احتكاكها بالورق في حين ينفق التبغ بكميات وافرة بينارؤوس الموظفين المساكين تتعب وتشتغل . وكانت الفصول الطويلة تنضم الى بعضها في مسودة الورق وتنفصل . . . وكان المحامي كسحابة غير منظورة يهيم على جميع هذه التداير ويخلط بين جميع الحيوط فيزيد بذلك الارتباك والغموض .

واما سامو سيفيستوف فقد كان جريئاً وقحاً . لقد علم ابن وضعت المرأة شريكة تشيتشيكوف فذهب بجرأة اليها وعرف كيف يتحدث الى الحارس كسيد آمر مما جعل يبدي له جميع ضروب الاحترام .

— هل انت هنا منذ زمن طويل ؟

— منذ هذا الصباح يا صاحب السعادة

— انا في حاجة اليك وسأطلب الى الضابط ان يستبدل بك آخر سواك .

— كما تشاء يا صاحب السعادة

وعاد سامو سيفيستوف الى بيته وبما انه لم يكن يريد ان يشرك احداً في

هذه العملية فقد تنكر بشكل دوكي ووضع شاربين طويلين وسالفين مسترسلين .. فلم يعد الشيطان نفسه بقادر على تمييزه .. وعاد بعد ذلك الى السجن وحل مكان حارس شريكة تششيكوف مدعيًا انه بديله . ثم اعتقل اول امرأة شاهدها في الطريق . وبعد لحظات معدودة هربت الشريكة ولم يعلم انسان قط اين اختفت ، بينما كانت الفلاحة المسكينة تأخذ مكانها في الزنازة دون ان تفهم شيئاً من القصة .

وفي الوقت الذي كان سامو سفستوف يمثل فيه دور الدركي ، كان المحامي يحقق بمعجزات اخرى ، فقد ذهب الى الحاكم العام وقال له ان المدعي العام قد ارسل تقريراً ضده الى بطرسبورج ، ثم سارع الى قائد الدرك وقال له ان موطظاً مجهولاً يتهمة في كتاب سري بأخطاء جسيمة . وقد قام المحامي بمهارة حتى جن الجميع خوفاً وأخذوا يطلبون معاونته ونصحه . عند ذلك بلغت الفوضى ذروتها وانهات الوشايات واكتشفت فضائح لا يستطيع عقل بشري ان يتصورها كما اخترعت الى جانبها فضائح أخرى .. ففلان ولدغير شرعي والآخر له عشيقة .. وهذه المرأة تخدع زوجها ، وامتزجت الفضائح والقبائح مع قضية تششيكوف والنفوس الميتة الى حد انه لم يعد في مقدور انسان ان يعرف او يحكم على أهمية كل من هذه القصص .. واخيراً وعندما وصلت جميع الوثائق الى الحاكم العام ، اصبح الامير المسكين غير قادر على فهم شيء واحد . وكاد أذكي موظف عنده ، كاف بتلخيص الوثائق ، ان يفقد عقله ، اذ كانت من المستحيل اكتشاف خيط واحد من النور .

وكان الحاكم العام علاوة على ذلك يزرع تحت ثقل هموم اخرى فقد كانت المجاعة منتشرة في قسم من حكومته ، وكان الموظفون الذين ارسلهم لتوزيع القمح قد ارتكبوا اخطاء جسيمة .. وفي بعض المقاطعات كان بعض الانفصاليين ثائرين اذ انتشرت بينهم شائعة مفادها ان عدو المسيح قد ولد على الارض وانه يزرع الموتى بشرائه النفوس الميتة ويبيعها . واخيراً فقد قام قسم آخر من

الفلاحين في مقاطعة اخرى بشـورة وعلى أسيادهم وعلى البوليس ، اذ ان بعض المنشردين استطاعوا اقناعهم بأن لهم الحق في ان يصبحوا ملاكين يلبسون القرو ويجمعون السادة يزرعون الارض بدورهم . وكذلك رفضت منطقة اخرى ان تدفع الضرائب وهددت باستعمال السلاح فكان يجب اللجوء الى الجيش . . . وهكذا كان الامير بائساً .

وفي ذلك الصباح أعلن له عن مجيء موزاروف فأمر بادخاله . وما إن دخل العجوز حتى هتف الحاكم :

— انه جميل . . صاحبك تثتشيكوف . . وتجرو أيضاً على الدفاع عنه . . هو لص لا مثيل له .

— اسمح يا صاحب السعادة ، اني لا أفهم القضية جيداً .

✓ — هو متهم بتزوير وصية .

— لست أدافع عن بافل ايفانوفتش يا صاحب السعادة ، ولكن التحقيق لم يستكمل شروطه بعد .

— عندنا الادلة اللازمة . . انتظر قليلاً سادعو المرأة التي شاركت في جريمته وأساستجوبها امامك !

وقرع الاخير الجرس وامر باستدعاء المرأة فصمت موزاروف . وهتف الامير :

— هذا فظيع . . وأشد من ذلك فظاءة أن جميع الموظفين الكبار بما فيهم الحاكم المدني نفسه ، لهم علاقة بالقضية . . هل لاحظت . . ان الحاكم المدني نفسه شريك اللصوص والمزيفين ؟

— ان للحاكم حقاً في الارث . . أما بالنسبة للآخرين فهذا طبيعي . هناك امرأة غنية ماتت دون ان تترك وصية معقولة . . لقد طالب الكثيرون بحقوق في الارث ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للنفس الانسانية . فصاح الامير مغتاظاً :

— ولكن لماذا يرتكبون هذه الدناءات؟ .. ان جميع موظفي لصوص .
— أتعرف يا صاحب السعادة رجلاً واحداً خالياً من الخطيئة؟ ان لموظفي
مدينتنا مزاياهم ، فهم يقومون بواجبهم ، ولكننا جميعاً غير معصومين عن الخطأ !
— اممع لي يا افنامي فاسيليفتش .. انك الشريف الوحيد هنا ، ولكن قل
لي لماذا تصر دوماً على الدفاع عن المجرمين ؟
فأجاب موزاروف :

— مهما يكن الانسان الذي تدعوه مجرماً ، يا صاحب السعادة ، فانه مع
ذلك انسان . وكيف لا ندافع عن الانسان عندما نعلم ان نصف الذنوب
والاخطاء التي يرتكبها تعود الى جهله .. نحن نرتكب اخطاء في كل خطوة من
خطواتنا ، ونكون في كل لحظة سبباً في شقاء احد اشباهنا ، وحتى عندما
تكون نيتنا سليمة .. وانب نفسك يا صاحب السعادة لقد كنت ظالماً في
يوم من الايام :

فهتف الامير مذهولاً :

— وكيف ذلك ؟

وقال موزاروف بعد لحظة تفكير :

— تذكر قضية در بنيكوف ..

— ان الخروج عن القوانين الاساسية للامبراطورية معناه الخيانة .

— أنا لا ألتمس له الاعذار ، ولكن أمن العدل ان نحكم على شاب جر الى
الجريمة جرأاً ، بنفس القسوة التي نحكم فيها على المجرم نفسه ؟ .. ان الحكم على
دربنيكوف كان يجب ان يكون غير الحكم على فورون ، إذ ان الذنب
ليس واحداً .

فهتف الامير وقد ظهر عليه التأثر :

— يا لله ! ولكن أتعرف شيئاً عن هذه القضية ؟ .. لقد كتبت الى بطرسبرج

طالباً تخفيف العقوبة :

— لا يا صاحب السعادة ، فانا لا أعلم شيئاً نجعله ، ولكن هناك ظرفاً كان
يمكن ان يكون من صالح دربنيكوف لم تفتني ملاحظته .. ولكن هذا
الأخير كان سبب استئصال هذا الظرف خوفاً من ان يسبب الحكم على شخص
آخر .. واني أسمح لنفسني بان اقول لك انك تسرعت اكثر مما ينبغي ..
اعذرنى يا صاحب السعادة ، فانا احكم على الامور ببساطة من خلال ذكائى ..
وانت نفسك كثيراً ما رجوتني ان اتحدث اليك بصراحة .. اني رئيس ، ولدي
كثير من العمال وفيهم الطيب والشرير ، فعلينا دوماً ان نتفحص ماضي الانسان
... لأنه اذا أهمل بحث الامور يهدوء أو إذا غضب فانه يخيف المتهم فلا يحصل
منه على اعتراف صحيح . ولكن اذا توجهنا اليه بلطف وأخوة فانه سيسارع الى
الوثوق بنا ولن يطلب منا اذ ذاك اي تخفيف لعقوبته ، لانه يعلم ان القانون
هو الذي يعاقبه لا قريبه .

وفكر الامير قليلاً ثم قال :

— قل لي بنفسك يا افناسي فاسيليفتش . ايجب ان أطمس القضية ، وهل من
العدل العفو عن هؤلاء المجرمين جميعاً .

— العفو ... ولكن هناك بين الموظفين ، يا صاحب السعادة ، من هم أهل
للاحترام والتقدير ... ان ظروف الحياة كثيراً ما تقسو على الانسان يا صاحب
السعادة ، .. وهناك حالات يبدو فيها الانسان مجرماً ولكن اذا درسنا
القضية بعمق نرى انه لاجرمية هناك .

— ولكن ماذا يصنعون اذا تركتهم وشأنهم ؟ سيصبح بعضهم اكثر
غوراً ، وسيقولون بأنني خفت منهم ولن يحترموا بعد ذلك شيئاً !

— اسمح لي يا صاحب السعادة ان أدلي اليك برأى : اجمعهم كلهم هنا وافهمهم
بأنك تعرف جميع اخطائهم وجرائمهم ، وصف لهم الحالة التي تجر نفسك فيها ،
واطلب منهم ان يقولوا لك ماذا سيفعلون لو كانوا في مثل موقفك !

— ولكن أعتقد أنهم قادرون على فهم مثل هذا الشعور ، وهم الذين اعتادوا

على الكذب والتآمر ... انهم سيسخرون مني .

- لاعتقد ذلك يا صاحب السعادة ، ان الانسان مهما كان منحطاً ، فانه يحتفظ بشيء من العدالة ... وربما شذ عن ذلك اليهودي المتصلب ، ولكن الروسي لا يفعل ذلك ... لا يا صاحب السعادة ، لافائدة من اخفاء شيء عنهم ... بل هم يعتبرونك اذ ذاك كرجل متكبر طموح واثق من نفسه يحتقر من هم دونه .
فأجاب الامير حالماً :

- سأفكر يا افناسي فاسيليفتش واني سأكر لك نصحك !

- وتشتشيكوف يا صاحب السعادة ... أنطلق سراحه ؟

- قل لتشتشيكوف هذا أن يغادر المدينة دون تأخر الى ابعد مكان ممكن . وغادر موزاروف الامير وذهب توجاً الى تشتشيكوف فوجد بافل ايفانوفتش في حالة جيدة وقد انتهى من تناول وقعة طعام فاخرة أرسل من يشتريها له من المطعم المجاور . ومنذ الكلمات الاولى فهم موزاروف ان بافل ايفانوفتش استقبل موظفاً صديقاً وان المحامي الذي تعرفه المدينة بأسرها هم بأمره فقال له :

- اصغ الي يا بافل ايفانوفتش ... لقد جئت لأعلمك بأنه قد أطلق سراحك شريطة ان تغادر المدينة فوراً ، فاحزم حقائبك بأسرع مايمكن ولا تضع دقيقة واحدة لتلايفسد الامر ... لقد استقبلت رجلاً أحدث في نفسك تأثيراً . انا عالم بذلك ولكنني أنذرك بأن قضية رهينة ستهبأ ولن يستطيع شيء ان ينقذ هذا الرجل ... انه شقي يسر بتضليل أشباهه وهو يلهو ، ولكنه سيدفع بلا ريب ثمن خطيئاته ... لقد تركتك منذ ساعات في حالة نفسية غير تلك التي أجذك الآن عليها ... اني اسر لك نصيحتي الاخيرة فاستمع لها ، لست مازحاً ، يجب ان تنسى الثروات العديمة الجدوى التي يختصم عليها الناس ويقتتلون معتقدين انهم يستطيعون تكوين سعادتهم في هذه الدنيا دون الاستعداد للحياة الابدية ... ومهما كنت تعتقد فان الجسد متعلق بالروح دوماً ... انس يا بافل

ايفانوفتش نفوسك الميتة ولو مرة واحدة ، ولكن اعمل . من اجل نفسك الحية
وليساعدك الله على اتباع النهج القويم ، وانا اذكرك الآن بأني ذاهب وانت
هنا بدوني ستهلك لاحالة .

وخرج العجوز بعد هذه الكلمات وبقي تشتشيكوف يفكر ... وأخذ من
جديد يتأمل في المعنى العميق للحياة وقال : « ان موزاروف على حق ، وقد
آن لي ان اغير مجرى حياتي ! »

وبعد لحظات غادر بافل ايفانوفتش السجن يتبعه جندي يحمل له صندوقه
وحاجاته ، وكما كان فرح سليفان وبتروشكا عظيماً باطلاق سراح سيدهم الذي
قال لهما :

- هيا يا صديقي الصغيرين ... أعدا كل شيء وبسرعة كي نرحل من هنا .
فهتف سليفان :

- ستكون رحلتنا جيدة ، فالطريق جميل ولا سيما بعد ان غطته الثلوج ...
لقد آن لنا ان نهرب من هذه المدينة اللعينة ، وانا شخصياً لم أعد استطيع حتى
بجرد النظر اليها ، أجل لقد سئمتها كثيراً .

وقرر تشتشيكوف ان يرحل دون ان يودع احداً ، ذلك انه لم يعد يستطيع
ان يشاهد أياً كان بعد الشائعات التي دارت حوله . فاجتنب كل لقاء ممكن ،
وذهب بسرعة الى التاجر الذي اشترى قماش بزته الفاخرة التي مزقها في السجن .
واشترى منه قماساً مماثلاً ثم هرع الى الحياط وناوله الاجر مضاعفاً كي يسرع له
في العمل . فاشتغل عماله طيلة الليل على ضوء الشموع وانتهوا من عملهم في الصباح
الباكر ، وكانت العربدة معدة وكل شيء ينتظر .

واراد تشتشيكوف مع ذلك أن يجرب البزة ؛ كان المعطف جيداً كالمطف
السابق ، ولكن لسوء الحظ لاحظ تشتشيكوف وهو يتأمل نفسه في المرآة
ان رأسه قد صلع قليلاً . . . ففكر : « لماذا يئست البارحة ... ولماذا
اقتلعت شعري ؟ »

واخيراً رحل !

ولكن تششيكوف الذي كنا نعرفه قد زال من الوجود ، وبأول ايفانوفتش الذي نعرفه الآن ليس الا خرائب واطلالاً كالمنزل المتداعي ، ولكن المواد الاولى ما زالت موجودة لاعادة بنائه ، الا أن المهندس غير موجود ولذلك فإن العمال ينتظرون قبل مباشرة العمل .

وكان موزاروف قد غادر المدينة قبل تششيكوف بساعة واحدة ، وبعد أن رحل بأول ايفانوفتش بساعة واحدة ايضاً استدعى الامير جميع موظفي المدينة الى اجتماع فوق العادة لانه يريد أن يراهم قبل ان يذهب الى بطرسبرج .

* * *

اجتمع الموظفون في قاعة قصر الامير الكبرى من الحاكم العام الى الحاكم المدني الى اصغر موظف في السلك . وكان الى جانب هؤلاء رؤساء المصالح والدوائر والمستشارون وكسبلو اودوف وساموسفيستون وكراستونوف . . . وكان ايضاً جميع الذين يقبلون الرشاوي ويرفضونها وبطلونها والذين يعملون دوماً ضد ضميرهم دون اي تردد . .

وكان الجميع قلقين ينتظرون الحاكم العام . . . ووصل أخيراً الامير وكان يبدو عليه البؤس ، وكانت نظراته ثابتة كمشيته ، فحياه جميع الموظفين وانحنى بعضهم كثيراً جداً ، فأجاب عليهم بحركة خفيفة من رأسه ثم بدأ كلامه فقال :

— اني ذاهب الى بطرسبرج . . . وقد رأيت من واجبي أن ادعوكم جميعاً قبل ارتحالي . . . وسبب هذا الاجتماع لا يخفى عليكم دون ريب . . . لقد حصلت قضية شائنة وأدى التحقيق فيها الى اكتشاف فضائح أخرى لاتقل عنها نذالة ، يدان فيها اشخاص كنت اعتقد انهم شرفاء . وقد علمت بالاهداف السرية التي يعمل لها بعضكم ، اذ يخلطون الامور ويتآمرون كي يجعلوا حكم السلطة في

هذه القضايا مستحيلاً ... وأنا أعرف المسؤول الرئيسي عن هذه الاعمال بالرغم من أنه بذل أقصى الجهود لاختفاء تصرفاته ... وأخيراً وكسي لا أضيع الوقت سدى ، سأوقف التحقيق وسأحيل هذه القضايا الى المجالس العرفية لحلها بعد أن اعلن حالة الحصار التي أرجو ان يوافقني القيصر عليها . فعندما تعجز العدالة المدنية وعندما تتراكم الأكاذيب وتحترق الملفات العامة بالوثائق ... وعندما يحاول الجميع ان يوقعوا الارتباك في قضايا غامضة بحذ ذاتها ... عند ذلك كله لا اجد طريقة للسلام الا المحكمة العسكرية . وقد جئت لأخذ رأيكم .

وسكت الامير كما لو كان ينتظر جواباً بينما احتفظ الموظفون بالصمت خاشعي
لابصار شاحبي الوجوه ... وتابع الامير :

— ومع ذلك فقد نجحت في اكتشاف مؤامرة من نوع خاص بالرغم من أن مرتكبها لا يزالون يعتقدون حتى اليوم بأن أحداً لا يعرفها . ولن يتم التحقيق في المكاتب بعد الآن لاني سأقوم بهذا التحقيق بنفسى وسأقدم الادلة بنفسى ايضاً لادانة الاشخاص .

ارتعش . وظف اثناء الاجتماع واضطرب عدة موظفين .

فتابع الامير :

— من الطبيعي ان يفقد المجرمون مكانتهم الاجتماعية واملاكهم ووظائفهم وسيضرب لسوء الحظ بعض الابرياء ولكن ما العمل ؟ .

لقد استشرى الشر ويجب أن تأخذ العدالة مجراها ... انا اعلم ان سقوطكم ن يفيد كأمثلة لمن سيأتون بعدكم ... فأشرف الموظفين يصبحون أدنياء ، وسيخدعني الذي أثق بهم ومع ذلك يجب ان أتصرف بقسوة لان العدالة يجب أن تسير في مجراها ، ولذا سأجعل من نفسى آلة صماء تطيح بالرؤوس تحت راية العدالة .

وارتجف جميع الموظفين .

اما الامير فقد كان هادئاً ولم يعبر وجهه لا عن الغضب ولا عن الحنق ، ثم تابع :

— والآن لتعلموا هذا ... ان الذي في يده جميع مصائركم في هذه المقاطعة،
وان الذي لا يدين أمام توسلاتكم ... انه بنفسه يتوسل اليكم ان تحدثوا اليه ...
ان كل شيء سينسى وسادافع عنكم اذا وافقتم على اجابتي الى ما أريد ... اما
هذا الرجاء فهو :

اني اعلم انه لا يوجد قصاص او تهديد قادر على محو الظلم في الارض . ان
جذوره عميقة جداً وجميع الموظفين يقبلون الرشوة .. لقد اصبحت الرشوة عادة
حتى بالنسبة للذين ولدوا شرفاء .. ومن المحال ان يقاوم الانسان تيارها ..
ولكن بما ان المواطن مطالب في الساعات الحرجة الفاصلة ان ينقذ وطنه ولو
رأى نفسه مرغماً على التضحية بكل شيء . بما ان الامر كذلك فأنا أتوجه الى
الذين في صدورهم قلب روسي صحيح ، والى الذين يفهمون معنى الشرف . ماذا
يفيدنا ان نتساءل من الاكثر جرماً بيننا ؟ وانا ربما ارتكبت من الاخطاء اكثر
بما ارتكبتموه ، وربما استقبلتكم بالرهبة والبرود في اول عهدكم بالعمل ،
وربما جعل موقفى هذا ، بعض الذين يريدون خدمتي ان يتراجعوا .. ومع
ذلك فلو انهم ارادوا بالفعل ان يخدموا العدالة ويعملوا لسعادة وطنهم ... لو
انهم ارادوا ذلك لحنقوا كرامتهم الفردية . وعند ذلك لا بد ان يؤثر في عنادهم
فاستمع في يوم ما الى ناصحتهم المحلصة العاقلة . اني اعتقد بان المرؤوس هو الذي
يجب ان يكبح جماح شعوره . وليس الرئيس مرغماً على الخضوع لحالات
مرؤوسيه النفسية ، وهذا شيء مشروع لان الرئيس واحد فرد بينما مرؤوسيه
عديدون .

ولكن لندع التساؤل عن اكثرنا ذنباً ، فان الامر يتعلق بانقاذ وطننا ...
ان هذا الوطن لا يتلقى الضربات من عشرين شعب عدو ولكنه يموت تحت وطأة
ضربات ابنائه ... ان رجل الدولة مهما كان عاقلاً ماهراً فانه لا يستطيع ان
يستأصل الشر حتي ولو راقب أبسط الموظفين . لقد اصبحت هؤلاء قوة يؤبه لها

سلسلة عيون التاريخ العالمي

- ١ - مفكرو الثورة الألمانية ، لادمون فرمي
- ٢ - القادة السوفييت يتحدثون ، ميريل كالينوف
- ٣ - أثر التسليح في التاريخ ، الجنرال فولر
- ٤ - أعمدة الحكمة السبعة ١-٢ ، للكولونيل لورنس
- ٥ - حرب صليبية في أوروبا ، للجنرال أيزنهاور
- ٦ - تاريخ الثورة الروسية
- ٧ - عالم الأمس ، لستيفان زفايج
- ٨ - مذكراتي في الجزيرة العربية ، لعبدالله فيليبي
- ٩ - خطب هتار ١٩٢٢-١٩٣٩ ، لباينز
- ١٠ - رومل في الصحراء الغربية ، للجنرال مونتغمري
- ١١ - مأتم في الشرق الأدنى ، لألفريد فايرلوس
- ١٢ - صنم القرن العشرين ، لألفريد روزنبورغ .

